

جامعة الجزائر 2
كلية العلوم الاجتماعية
قسم علم الاجتماع

الموضوع

علم اجتماع المعرفة عند "بييار بورديو"

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في علم الاجتماع التربوي

إشراف الأستاذ

جمال معتوق

إعداد الطالب

فرحات لعودي

السنة الجامعية: 2014 - 2015

جامعة الجزائر 2
كلية العلوم الاجتماعية
قسم علم الاجتماع

الموضوع

علم اجتماع المعرفة عند "بييار بورديو"

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في علم الاجتماع التربوي

إشراف الأستاذ

جمال معتوق

إعداد الطالب

فرحات لعودي

السنة الجامعية: 2014 - 2015

كلمة شكر

نتوجه بالشكر الجزيل والامتنان الخالص إلى كل من ساعدنا
على إنجاز هذا العمل ونخص بالذكر فضيلة الأستاذ
الدكتور جمال معتوق الذي تفضل مشكوراً
بالإشراف على هذه الرسالة، فلم يذخر
بهدا في التوجيه والإرشاد.
فراحات

إهداء

إلى الوالدين الكريمين

إلى زوجتي الغالية

إلى إخوتي وأخواتي

إلى أساتذتي وطلبتي وأصدقائي

أهدي ثمرة جهدي

فرحات

الفهرس

أ مقممة

الباب الأول: المعرفة والمجتمع

الفصل الأول: ماهية علم اجتماع المعرفة

3 تمهيد.

4..... المبحث الأول: أسس علم اجتماع المعرفة.

13 المبحث الثاني: موضوع علم اجتماع المعرفة.

20 المبحث الثالث: علم اجتماع المعرفة من منظور نقدي.

26..... المبحث الرابع: علم اجتماع المعرفة بين البنيوية والظاهرية.

33..... المبحث الخامس: آفاق علم اجتماع المعرفة.

الفصل الثاني: رواد علم اجتماع المعرفة

39..... تمهيد.

40..... المبحث الأول: أوغست كونت وتطور الفكر البشري.

49..... المبحث الثاني: كارل ماركس والوعي الاجتماعي.

61..... المبحث الثالث : إميل دوركايم والضمير الجمعي.

71..... المبحث الرابع: ماكس فيبر والعقلانية.

الفصل الثالث: الإبستمولوجيا والعلم

- تمهيد. 82
- المبحث الأول: غاستون باشلار والقطيعة الإبستمولوجية..... 83
- المبحث الثاني: توماس كون وبنية الثورات العلمية... .. 90
- المبحث الثالث: جان بياجى والإبستمولوجية التكوينية.. .. 103
- المبحث الرابع: كارل بوبر والمنهج العلمي..... 114

الفصل الرابع: سوسيولوجيا العلم

- تمهيد. 124
- المبحث الأول: مفهوم العلم. 125
- المبحث الثاني: نسبية العلم. 129
- المبحث الثالث: العلم كمؤسسة اجتماعية. 133
- المبحث الرابع: اجتماعيات العلم. 139

الفصل الخامس: المعرفة والأنساق الاجتماعية

- تمهيد. 152
- المبحث الأول: المعرفة والإعلام.. .. 153
- المبحث الثاني: المعرفة والاقتصاد. 164
- المبحث الثالث: المعرفة والتربية. 177

المبحث الرابع: المعرفة والثقافة. 187.....

المبحث الخامس: المعرفة والإيديولوجيا. 196.....

الباب الثاني: تجليات علم اجتماع المعرفة في فكر بيار بورديو

الفصل الأول: سوسيولوجيا بيار بورديو

تمهيد. 205.....

المبحث الأول: علم الاجتماع عند بيار بورديو. 207.....

المبحث الثاني: بنية الاستعدادات المكتسبة (التطبع). 224.....

المبحث الثالث: الحقل الاجتماعي. 231.....

المبحث الرابع: الرأسمال الثقافي. 242.....

الفصل الثاني: علم اجتماع المدرسة

تمهيد. 248.....

المبحث الأول: دور المدرسة في إعادة إنتاج التفاوت الاجتماعي. 249.....

المبحث الثاني: نقد إيديولوجية الموهبة. 256.....

المبحث الثالث: الفعل البيداغوجي والرأسمال الثقافي. 260.....

المبحث الرابع: إيديولوجية الاستحقاق والعنف الرمزي. 265.....

الفصل الثالث: علم اجتماع المعرفة والحقول الاجتماعية

- تمهيد. 275
- المبحث الأول: الحقل الإعلامي. 276
- المبحث الثاني: الحقل الثقافي. 287
- المبحث الثالث: الحقل السياسي. 295
- المبحث الرابع: الحقل العلمي. 306

الفصل الرابع: المعرفة والعنف الرمزي

- تمهيد. 323
- المبحث الأول: العلوم الاجتماعية والفلسفة. 324
- المبحث الثاني: الإنسان الأكاديمي. 331
- المبحث الثالث: علم الاقتصاد وتبرير الليبرالية المتوحشة. 336
- المبحث الرابع: التلغز والتلاعب بالعقول. 345

الفصل الخامس: الأنساق الرمزية والممارسات الاجتماعية

- تمهيد. 358
- المبحث الأول: سوسيولوجيا السوسيولوجيا. 359
- المبحث الثاني: الأنساق الرمزية والسيطرة على مستوى التمثلات. 366
- المبحث الثالث: علم الاجتماع ونظرية الممارسة. 375

المبحث الرابع: العالم الاجتماعي بين الحتمية والحرية.....380

الخاتمة.....388

قائمة المراجع.394

مقدمة

مقدمة

يهتم علم اجتماع المعرفة بمختلف العلاقات الجدلية القائمة بين الأنساق الرمزية والبنى الاجتماعية، فلأفكار جذور واقعية تتجسد في عديد أشكال التفاعلات بين الأفراد وبين الجماعات. كما ترتبط وجهات نظر البشر بالبوقة التاريخية التي تنصهر فيها وبالسياق الحضاري الذي تولد وتنمو وتزدهر فيه، والتمثلات الاجتماعية هي ظاهرة ثقافية تستلزم فرض رؤى جماعات مهيمنة وقناعات نخب مسيطرة. فالمعرفة كباقي النشاطات الإنسانية هي محل رهانات وصراعات اجتماعية.

برزت - مع تزايد النزاعات والخلافات الاجتماعية - تباينات في القيم والتوجهات وطرق التفكير، إلى حد انجلاء التناقضات والمفارقات التي كانت المقاصد المشتركة تضمهرها. ومن خصائص المجتمع المعاصر أنه أعاد النظر، بشكل مكثف، فيما اتفق عليه الأفراد وما سلّموا بصحته. فأضحوا يشكون في قيم صدقوها، ويستغربون أفكاراً اعتادوها، فإذا بالمسلمات تتهاوى أمام زحف الاختراعات التكنولوجية والابتكارات العلمية وتسارع التغيرات الاقتصادية والثقافية والسياسية.

نسعى انطلاقاً من هذه الدراسة إلى إبراز الأهمية الإستراتيجية لعلم اجتماع المعرفة، محاولين القيام بحفريات فكرية تتبعت ميلاد وتبلور ونضج هذا الحقل الأكاديمي الذي يتناول بالدراسة العلاقات المختلفة بين البنى الذهنية والأنظمة المجتمعية، فنشأة المذاهب الفلسفية والدينية والسياسية والقانونية والعلمية تخضع لتأثيرات السياق الاجتماعي التي تشكلت فيه وللشروط الموضوعية لأنساق المجتمع التي انغrust فيها. وقد تأكد لدينا أن لحقل الدلالات والمعاني والتصورات انعكاس على سلوكيات الأفراد والجماعات وتصرفاتهم واستراتيجياتهم ومواقفهم.

يهمل الكثير من المتخصصين في ميدان السوسولوجيا عالم الأفكار بحجة أنه لا يمت بصلة إلى الواقع الموضوعي، وهذا في نظرنا يحمل مغالطة معرفية وخطأ علمياً فادحاً، لأن للأفكار وجوداً واقعياً يتمظهر في مختلف التيارات الفلسفية والعلمية والدينية والأدبية والفنية، إضافة إلى المبادئ الذهنية الموجهة للأفعال والمحفزة على الممارسات، والقناعات الفكرية المشجعة على تبني طرق سلوك معينة. فوجهة نظرنا تستند إلى نظرة جدلية مفادها

أن الوجود الاجتماعي يؤثر على بروز مختلف أشكال المعرفة الإنسانية، كما تسهم الأفكار والآراء والتمثلات في تغيير المجتمع وتطويره، أو الحفاظ عليه والمشاركة في دوام استقراره.

يشترط علم اجتماع المعرفة - ك تخصص أكاديمي - التحكم في حقول معرفية كثيرة مثل نظرية المعرفة وفلسفة العلوم، علم النفس المعرفي واقتصاد المعرفة، تاريخ العلوم والإبستمولوجيا، وأكثر من ذلك فالضرورة المنهجية تستوجب الفصل بين تلك الحقول المعرفية وعدم الخلط بين المقاربات التي تقترحها.

يعمل علم اجتماع المعرفة على إثراء عديد التخصصات في حقل السوسيولوجيا، خاصة علم اجتماع التربية، وعلم اجتماع المثقفين، وعلم اجتماع المهن، وعلم اجتماع السياسة، وعلم اجتماع التراث، وعلم اجتماع الأدب والفن، وأخيراً علم اجتماع الإعلام. فسوسيولوجيا المعرفة تقترح أدوات معرفية صارمة ووسائل منهجية جادة، تهدف أساساً إلى محاولة استقراء الكيفية التي تتشكل بها الأفكار ورصد الطرق التي تنتشر بها، وإدراك الآليات التي تدفع الأفراد والجماعات على الاعتقاد بصحتها والوثوق في مصداقيتها، ومن ثم تحقيق الفهم اللائق لمدى تأثير تلك الأفكار على أنماط التنظيم التي صممها الإنسان، وعلى طرق التربية ومناهج التدريس التي تصورها بنو البشر، وبالتالي تصل إلى تفسير موضوعي لميلاد المذاهب السياسية وبروزها، وتكوّن النخب المثقفة وتفاعلها، وتساعد على إيجاد أفضل التقنيات لتحليل مضامين الرسائل الإعلامية بشتى أنواعها وبمختلف تشعبات خطاباتها.

والمشكلة المعرفية الأساسية التي واجهتنا بعد اختيار هذا الموضوع، والوقوف عند أبعاده النظرية، غياب التجليات التطبيقية والملازمات العملية للمقاربة المقترحة، فاهتدينا إلى فكرة ربط موضوع علم اجتماع المعرفة بمفكر سوسيولوجي أسهم في إغناء هذا الحقل والتجديد فيه، وهو "بيار بورديو" فرأيناه الأنسب لذلك، خاصة في إطار النظرية التي اقترحها والمعروفة بالبنوية التكوينية.

يُعرف عن الفكر السوسيولوجي لدى "بيار بورديو" أنه يمتاز بالذكاء الثاقب، والرؤية النقدية الفذة، والثقافة الفلسفية والعلمية والأدبية الواسعة، والتماسك النظري المنقطع النظير،

حيث شمل علم الاجتماع عنده مزيجاً منسجماً من تراث علم اجتماع الأوائل (ماركس، دوركايم، فيبر) وثقافة واسعة بالأدبيات العالمية الخاصة بالعلوم الإنسانية.

لا يجب إغفال مسألة أن "بيار بورديو" أنجز بحثاً ميدانية متعددة ومتنوعة انطلقت من فلاحى منطقة القبائل بالجزائر، مروراً بالجامعات الفرنسية وطلابها وصولاً إلى الأدب الراقي والفن المتميز والخياطة الرفيعة وعلاماتها العالمية.

ما حفزنا أكثر على دراسة علم اجتماع المعرفة لدى "بورديو" هو نحتة لمفاهيم أساسية حققت قفزة نوعية في هذا المجال، كالتطبع (L'habitus) والرأسمال الثقافي (Le culturel capital) والعنف الرمزي (La violence symbolique)، فالمغزى الحقيقي من الأطروحات التي قدمها هو محاولة فهم الصراع الاجتماعي على مستوى التمثلات الاجتماعية، فالهيمنة الاجتماعية لا تركز على الاستغلال الاقتصادي فحسب، بل تنبني كذلك على فرض رؤية للعالم تبرر كل أشكال السيطرة، وتصوّر للعالم الاجتماعي يعمل على إعادة إنتاج نسق التراتبات الذي يسكن الفضاء الاجتماعي ومختلف مواقعه.

والسؤال الرئيس الذي اجتهدنا للإجابة عليه طيلة هذه الدراسة هو الآتي:

ما هي الأطروحات الأساسية في فكر "بيار بورديو" والتي يتجلى فيها علم اجتماع المعرفة؟

ولرسم المعالم المحورية لهذا البحث بلورنا أفكاراً تعكس لب سوسيولوجيا المعرفة لدى "بيار بورديو"، نجلها في النقاط التالية :

- استمرار اللامساواة الاجتماعية بين مختلف الطبقات يستلزم فرض رؤية محددة عن العالم الاجتماعي، وإرغام المسودين على الاعتراف بدونيتهم على أنه أمر طبيعي، وإجبارهم على الإقرار بحتمية احتلالهم مواقع اجتماعية غير مرموقة، وأكثر من ذلك يسهمون بتواطئهم في تكريس التفاوت الاجتماعي.

- تعمل المدرسة على إعادة إنتاج اللامساواة بين طبقات المجتمع، بغرسها لإيديولوجية تكافؤ الفرص، التي تخفي حقيقة سوسيولوجية مفادها أن النجاح المدرسي يتحدد بالأصل الاجتماعي للتلاميذ وبالرأسمال الثقافي الذي بحوزة أسرهم.

- على العلوم الاجتماعية استخدام مكتسباتها المعرفية لتصحيح أخطائها وترقية أدائها والاستجابة لمتطلبات العلم لا لإكراهات السياسة أو الاقتصاد أو حتى لمستلزمات البيروقراطية. وعلى عالم الاجتماع موضعة ذاته العارفة لتجسيد المسافة النقدية التي تحقق الحياد العلمي.

أرشدتنا طبيعة الموضوع المدروس إلى تبني منهجية كيفية، تصبو إلى إيجاد الإيحاءات الفكرية والدلالات المعرفية التي تخترق علم الاجتماع عند "بيار بورديو" والتي تتعلق بمجال التمثلات الاجتماعية الذي يعتبر ميداناً للصراع الاجتماعي تتجسد فيه منافسة شرسة لفرض تصوّرات محددة للعالم الاجتماعي وتصنيفات معينة للأفراد والجماعات حسب مواقعهم في الحقل الاجتماعي.

ولتحقيق المرامي السابقة، اقترحنا خطة عمل قسمنا على أساسها الرسالة إلى بايين، الأول يعتبر محاولة لإعادة تأسيس نظري لعلم اجتماع المعرفة والثاني يمثل تتبع تجليات سوسيولوجيا المعرفة في فكر "بيار بورديو".

قسمنا الباب الأول إلى خمس فصول وهي كالاتي:

الفصل الأول: عرفنا فيه علم اجتماع المعرفة وأبرزنا أسسه وموضوعاته وآفاقه، وبعده النقدي وموقعه بين المنظور البنيوي والمنظور الظاهراتي.

الفصل الثاني: اقتفينا فيه معالم علم اجتماع المعرفة عند الرواد الأوائل، افتتحناه بالحديث عن "أوغست كونت" الذي بيّن أن الإصلاح الاجتماعي يتطلب إصلاحاً فكرياً ويعتبر العلم الأداة الرئيسية لتقدم المجتمع. تحدثنا كذلك عن "كارل ماركس" الذي أسهب في بلورة مفهوم الإيديولوجيا الذي يعبر عن الفكر المشوّه غير المطابق للواقع، وأكد أن البرجوازية لا تسعى لامتلاك وسائل الإنتاج المادي فقط بل تسعى أيضاً للاستحواذ على وسائل الإنتاج الفكري، تستخدمها لإحكام قبضتها على باقي الطبقات الاجتماعية. وقد توقفنا

عند الفكر السوسولوجي الدوركامي لإبراز أطروحاته المتعلقة بالمحددات الاجتماعية لمختلف التصنيفات والتصورات الاجتماعية، وإن أصل كل أشكال المعرفة الإنسانية هو الدين، الذي بدوره ينبع من أصل اجتماعي.

ختمنا هذا الفصل بعرض نظرية "ماكس فيبر" المرتبطة بمفهوم العقلانية التي تركز على العلم وتخصصاته والأشكال المعاصرة للتنظيم، وأكدنا على دور المحددات الدينية في تشكيل الأنساق الاقتصادية.

الفصل الثالث: قدمنا فيه المقارنة الإبستمولوجية لموضوع العلم، مركزين على منظرين أساسيين في هذا المجال وهم على التوالي:

- "غاستون باشلار": الذي أصل لمفهوم القطيعة الإبستمولوجية ليبين أن المعرفة العلمية ليست تراكمية، بل شهد تاريخ العلم قفزات نوعية كان الغرض منها أن النظريات الجديدة تقول "لا" للنظريات القديمة.

- "كارل بوبر": انتقد بشدة المنهج الاستقرائي، وأثبت بمنطق واضح وبحجج دامغة أنّ البحوث العلمية ليس هدفها تأكيد الملاحظات المدونة والفرضيات المصاغة، بل المغزى الأساسي لجميع العلوم هو محاولة تكذيب المنطلقات المعرفية وتفنيدها.

- "توماس كون": أوضح أن تاريخ تطور العلوم هو تاريخ الثورات العلمية، فالبراديغم الجديد يعوّض البراديغم القديم بعد حدوث أزمة علمية تتمثل في عجز النظريات الموجهة للبحوث على حل ألغاز علمية مستجدة، وأن العلماء الشبان هم الرّواد في تغيير نظرتنا للعلم وللعالم وفي تغيير طريقتنا لطرح الأسئلة وصياغة الفرضيات.

- "جون بياجي": وظف تجاربه في ميدان علم النفس لإثراء المنظور الإبستمولوجي، وركّز على اعتبار معرفي مفاده أنّ مناهج العلم تختلف تمام الاختلاف عن مناهج الفلسفة، لأن هذه الأخيرة تركز في الأساس على التجريد والتأمل والتعالي، عكس العلم الذي يستند إلى الملاحظة والتجربة والتحقق.

الفصل الرابع: خصصناه للكلام عن المنظور السوسولوجي للمعرفة العلمية، معتبرين العلم مؤسسة اجتماعية تنبني على معايير وقيم مصدرها ثقافة المجتمع من جهة ومستلزمات النشاط العلمي من جهة ثانية.

حاولنا في هذا الفصل رصد وظائف العلم واستنتاج الشروط الاجتماعية المحددة لعمل العلماء، مبرزين دور المنافسة في حث الباحثين على انجاز دراسات قيّمة للحصول على اعتراف اجتماعي يجنى منه خيارات مادية ورمزية متميّزة.

الفصل الخامس: أدرجنا فيه العلاقة التي توجد بين المعرفة ومختلف الأنساق الاجتماعية، وشرحنا بصورة دقيقة مفهوم المعرفة وأوضحنا مكامن الروابط المختلفة بين المعرفة والإعلام، كما بينا أن الثورة النوعية التي شهدتها وسائل الإعلام والاتصال أثرت بشكل مذهل على كثافة المعلومات والأخبار التي تنتشر في وقت زمني قصير.

تطلب الاقتصاد الحالي الالتزام بأسس جديدة أبرزها الرأسمال الفكري الذي يتلخص في توفر المعلومات الدقيقة الضرورية لأداء فعال في مجتمع معرفي يعطي الأفضلية والأولوية لقطاع الخدمات ويعلي من شأن العقلانية في التسيير والذكاء الجماعي في التخطيط، وإننا نتحدث في المرحلة الراهنة عن المصانع الذكية، والمنازل الذكية، والسيارات الذكية، والهواتف الذكية لأنها مشيّدة على منظومات معرفية معقدة تحقق التسيير الذاتي والضبط الآلي.

ولا يخفى على أحد أنّ المجتمع المعاصر يتميّز بالتدفق الهائل للبيانات والمعلومات والمعارف بفعل توسع استخدام الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، وعلى المنظومات التربوية أن تساير هذه الثورة المعلوماتية بتجديد مناهجها ومحتوى برامجها وطرق التدريس فيها. فلا يعقل أن نبقى على طريقة تعليم تمتاز بالتلقين والحفظ والاجترار بدل الحوار والمناقشة والمحاكاة.

يستلزم إدراك المعرفة على حقيقتها أن نضعها في إطارها الطبيعي وهو الثقافة، ومضمون المعرفة ينبت في تربة ثقافة المجتمع، وتعبّر المعرفة عن وعي الأفراد والجماعات

وطرق إدراكهم للأمور، ونحن نقصد أساساً الإبداع الأدبي والفلسفي والعلمي، والإنتاج الفكري في الميدان السياسي والمجال القانوني، وكذا القصص الشعبي المكوّن للمخيال الجمعي.

ولن يكتمل الحديث عن المعرفة إلا إذا سبرنا غور حقيقة علاقتها بالإيديولوجيا، باعتبار أن الإيديولوجيا تمثل الفكر المنحاز والتصور المشوّه والتمثّل غير المطابق للواقع، والمهم هو فهم أسباب الأخطاء الفكرية والمغالطات المنطقية، ومصالحة الأفراد والجماعات في التعصب لمعتقدات دون أخرى ولمسلمات دون غيرها.

قسمنا الباب الثاني إلى خمس فصول وهي كالآتي:

الفصل الأول: تحدثنا فيه عن علم الاجتماع كما تصوّره "بيار بورديو"، مركزين على المقاربات الجديدة التي اقترحها، انطلاقاً من المفاهيم الأساسية التي نحتها وهي بنية الاستعدادات المكتسبة (التطبّع) والرأسمال الثقافي والحقل الاجتماعي.

الفصل الثاني: خصصناه لعرض نظرية "بيار بورديو" عن المدرسة، بغرض تبيان حقيقة أنّ المنظومات التعليمية تكرس التفاوت الاجتماعي بين مختلف الطبقات الاجتماعية، بممارستها عنفاً رمزياً يتجسد في فرض أيديولوجية الموهبة وتكافؤ الفرص على حساب المنظور الموضوعي الذي يبرز أنّ النجاح المدرسي والتفوّق في التعلّم مصدره الخلفية الاجتماعية للتلاميذ والطلاب، والرأسمال الثقافي الذي بحوزة أسرهم.

الفصل الثالث: تكلمنا فيه عن تمظهر علم اجتماع المعرفة في تفسير "بيار بورديو" لكيفية اشتغال مختلف الحقول الاجتماعية، فالحقل الثقافي في اعتقاده هو فضاء للصراع بين مختلف أشكال المتقنين من أجل تحقيق التمتع اللائق في مجال الإنتاج الفكري أو الأدبي أو الفني أو العلمي، للحصول على امتيازات رمزية والوصول إلى اعتراف اجتماعي يمكنهم من تثبيت مصالحهم وتأكيد تفوقهم.

توجد علاقة وثيقة بين سوسيولوجيا العلم وتصور "بيار بورديو" للحقل العلمي، فقد أوضح أنّ المكانة العلمية التي يحتلها الباحثون لا تتحدد فقط بالكفاءة العلمية للأكاديميين وجدارتهم العقلية وتمييزهم في ميدان البحث، بل تخضع في الغالب إلى مقاييس بيروقراطية

ومعايير مؤسساتية اعتباطية، تسهل عملية الارتقاء في سلم الشهادات واحتلال المناصب الإدارية المرموقة.

الفصل الرابع: تحدثنا فيه عن نظرية الممارسة كما اقترحها "بورديو" موضحين علاقتها بالأنساق الرمزية، وكذا الجدلية السوسيولوجية التي تعتقد أن العالم الاجتماعي يتوسط حتمية البنى الاجتماعية وحرية الأفراد، ف "بورديو" لا يتصور البنى الاجتماعية كمحددات حتمية مطلقة للأفراد، بل يعتقد أنّ للأفراد حرية نسبية تخضع لتتشبثهم الاجتماعية.

لا يفوتنا في السياق نفسه التأكيد على المقترح الإبستمولوجي الفعّال الذي تقدم به "بيار بورديو" وهو سوسيولوجيا السوسيولوجيا، ففي اعتقاده إنه ينبغي على علماء الاجتماع أن يستفيدوا من مكتسبات العلم الذي يمارسونه، وهذا لتحقيق الحياد في طرح الأسئلة، وتجسيد الموضوعية في تفسير الواقع الاجتماعي.

الفصل الخامس: خصصناه لإثبات حقيقة أن العنف الرمزي يتخلل كل أشكال المعارف الإنسانية، فعلم الاقتصاد الحالي يعمل جاهداً لتبرير الهمجية والاستغلال الفاحش للبرالية الجديدة، فهو يعتمد على معادلات رياضية صماء تبرر استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وتشجع الحكومات للحفاظ على نسب "مقبولة" للبطالة، وتحفز المؤسسات الصناعية والخدماتية الكبرى للجوء إلى عقود العمل المؤقتة للإبقاء على اليد العاملة الزهيدة.

أكدنا في ثنايا هذه الدراسة على النقد اللاذع الذي قدمه "بورديو" للتلفزيون كوسيلة إعلام مضللة تتلاعب بعقول المشاهدين، باعتبار أن التلفزيون ينشر ثقافة الاستهلاك الفكري السريع، فهي تهمل لدواعي تجارية الأدب الراقي والفن الرفيع والفكر الجاد.

ختمنا الرسالة بتقديم حوصلة شاملة للنتائج المهمة التي توصلنا إليها من خلال قراءة وافية، واعية ومنضبطة للفكر السوسيولوجي عند "بيار بورديو" الذي أعطى لمسألة المعاني والتصورات دوراً أساسياً لفهم مختلف الممارسات الاجتماعية، وهذا بالطبع دون إغفال وظيفة الشروط الموضوعية والبنى الواقعية في بلورة الأفكار والآراء والمعتقدات.

الباب الأول

المعرفة والمجتمع

الفصل الأول

ماهية علم اجتماع المعرفة

تمهيد

نسعى انطلاقاً من معطيات هذا الفصل إلى تحديد مفهوم علم اجتماع المعرفة، مبرزين جل المقاربات النظرية التي أسست لهذا التخصص الأكاديمي الذي يتجلى يوماً بعد يوم كحقل معرفي هام، استثار عقول عديد علماء الاجتماع للبحث فيه وإظهار معالمه والكشف عن خطوطه العريضة ومضامينه المستترة.

لا يفوتنا في هذا الإطار التنويه بضرورة تحديد أسس علم اجتماع المعرفة استناداً إلى المؤسسين الأوائل لهذا التخصص المفيد نظرياً وعملياً في ميدان السوسيولوجيا، كـ "ماكس شيلر" «Max Scheler» و"كارل مانهايم" «Karl Mannheim» و"روبرت ميرتون" «Robert Merton».

ولا يخفى علينا أن نتناول أي تخصص بالدراسة يتطلب تعيين وتمييز موضوعه على أساس مرجعيات نظرية مؤسسة وأدبيات معرفية متقنة، وهذا لتفادي الخلط في صياغة المسائل العلمية وقضايا البحث، وتجنب الضبابية في التصور والغموض في المقاربة، وقد ركّزنا في هذا السياق على أفكار كل من "بيتر بيرغر" «Peter Berger» و"توماس لوكمان" «Thomas Luckmann» اللذان تحدثا عن البناء الاجتماعي للواقع، بالإضافة إلى الرؤى الرائدة التي جاء بها "جورج غورفيتش" «George Gurvitch» فيما يتعلق بأنواع المعرفة.

ارتأينا في هذا المقام الإشارة، ولو بشكل غير مفصل، إلى المنظور النقدي لعلم اجتماع المعرفة مستوحين أهم القضايا من مدرسة "فرانكفورت" «Francfort». كما أننا حاولنا المقارنة بين التناول البنوي «Structuraliste» لأساسيات علم اجتماع المعرفة والتناول الظاهراتي «Phénoménologique»، فرغم الاختلاف الشديد بينهما إلا أن كل نظرية تكمل الأخرى.

المبحث الأول: أسس علم اجتماع المعرفة

سوسيولوجيا المعرفة فرع من علم الاجتماع تتسم بطابع مميز، إذ يمكن اعتبارها نظرية من جانب، وبحثاً تاريخياً من جانب آخر، وهي بصفقتها نظرية تحاول أن تحلل العلاقة بين المعرفة والوجود، ولكن بصفقتها بحثاً تاريخياً تحاول أن تتعقب الأشكال التي اتخذتها هذه العلاقة خلال تطور الفكر البشري¹.

يتجلى دور علم اجتماع المعرفة في محاولاته فحص الظروف الاجتماعية التي تجعل المعرفة ممكنة، وفي سبر أغوار الأبعاد الرمزية للبناء الاجتماعي.

ومنذ الإرهاصات الأولى لعلم اجتماع المعرفة، لم تعد العلاقة بين الفكر وموضوعاته مسألة فلسفية بحتة ينشغل بها الفلاسفة وحدهم، بل أصبحت تلك العلاقة مبحثاً سوسيولوجياً يتصدى فيه علماء الاجتماع للعلاقة بين المقولات والأفكار من جهة والأنساق الاجتماعية والثقافية من جهة أخرى².

تبدو المعرفة، لأول وهلة، من بين المنتجات الحضارية، الأكثر انفصالاً عن الواقع الاجتماعي، فالمعرفة تزعم أنها صحيحة بشكل شامل وعام، وتدّعي أنها تركز على أحكام صادقة، وبأنها في الغالب حكر على الوعي الفردي. وفي الحقيقة، إن الواقع الملموس، يدعو إلى ما لا يترك مجالاً للشك أن الدين والحياة الأخلاقية والتربية، وحتى الفن، وخاصة الحقوق، تبني مع الأطر الاجتماعية روابط أكثر بروزاً، وتلاحظ مباشرة، أي كروابط مكثفة ومميزة في الأساس.

وإننا لن نستغرب مسألة أن عبارة "علم اجتماع المعرفة" أثارت عديد المخاوف عند العلماء والفلاسفة على حد سواء، فهم يتساءلون، عما إذا كانت المقاربة السوسيولوجية

¹ غريب محمد سيد أحمد وآخرون، دراسات في علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995، ص15.

² نبيل رمزي، علم اجتماع المعرفة: الجزء الأول: المدخل والتطورات، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 1992، ص59.

للمعرفة أداة مستجدة أبدعت ليلقى على المعرفة ثوب العجز من قبل مذهب الشك ونظرية العدمية¹.

وبعيداً عن هذا السجال الفلسفي، يمكن تعريف علم اجتماع المعرفة بأنه العلم الذي يهتم بدراسة الظروف والعوامل الاجتماعية والواقعية التي تؤثر في الفكر. فالمعرفة ترتبط بطبيعة البناء الاجتماعي والمرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمع. وأفكار العلماء والباحثين تتبع من بيئتهم الاجتماعية وتتأصل في موقعهم وطبقتهم والفترة الزمنية التي يعاصرونها.

إن الفوارق والاختلافات لا تكون فقط بين مضامين وأبعاد وأنماط وأهداف الأفكار بل تكون أيضاً في طرق ومناهج دراستها والتعبير عنها وفي أساليب جمعها وتصنيفها وصياغتها².

يعتبر "ماكس شيلر" "Max Scheler" أول من صك مصطلح "علم اجتماع المعرفة" وذلك عام 1924 . وحدد عناصره المحورية كالآتي:

(1) - الطبيعة الاجتماعية والجماعية للمعرفة.

(2) - التوزيع الاجتماعي للمعرفة من خلال مؤسسات متخصصة: مثل المدارس والجامعات، والمؤسسات الصحفية، ودور النشر، وأجهزة الاتصال الجماهيري.

(3) - دور المصالح الاجتماعية في تشكيل كافة أنواع المعرفة.

انطلق "شيلر" « Scheler » في تحديده للموضوعات الأساسية لعلم اجتماع المعرفة من أن كل عمل ذهني، وكل تفكير عقلي مشروط بالبناء الاجتماعي الذي يتم فيه³.

وليس هناك متغيراً مستقلاً دائماً يحدد نشأة أو أصل الأفكار، بل قد يحدث عبر التاريخ نوع من تعاقب العوامل الواقعية التي تحدد الفكر، ففي المجتمعات الأمية تشكل

¹ Georges Gurvitch, les cadres sociaux de la connaissance, presses universitaires de France, paris, 1966, pp 3-4

² إحسان محمد الحسن، "الأسس الاجتماعية والحضارية للعلم"، دراسات عربية، العدد 04، فبراير 1985، ص 64.

³ نبيل رمزي، المرجع السابق، ص46.

روابط الدم والقرباة متغيراً مستقلاً، ثم تأتي العوامل السياسية لتؤدي نفس الدور بعد ذلك، ثم أخيراً وفي العالم الحديث نجد العوامل الاقتصادية تمثل المتغيرات المستقلة التي ترتبط بها بناءات الفكر¹.

تتمثل عبقرية "شيلر" في قدرة نظريته على التمييز بين جوهر القيم المثالية من ناحية والحقيقة الواقعية من ناحية أخرى. والمدلولات المثالية ذات وجود مجرد في الأفكار والقيم، أما المدلولات الإمبريقية فتعتبر جزءاً من الأحداث المتغيرة.

وفي تناوله للأسس الوجودية للمعرفة، ميّز "شيلر" بين علم اجتماع ثقافي وعلم اجتماع الحقائق، وأساس هذا التمييز أن المعطيات الثقافية مثالية، تتعلق بما ينبغي أن يكون، في مجال القيم والمعايير والمثل، أما المعطيات الواقعية فتتجه إلى واقع الطبيعة والمجتمع لتؤثر فيه وتغيّره، أما من ناحية المصدر فإنها تنتج عن بواعث بنائية (الجنس، القوى السياسية والإنتاج الاقتصادي).

وتكون الأفكار حقيقية وواقعية متى ارتبطت بالمصالح الاجتماعية والفردية والبواعث والعواطف والميول الجماعية، ومتى ارتبطت بالبناءات والمؤسسات النظامية، حينئذ فقط يكون للأفكار تأثيراً على الأفعال والممارسات الاجتماعية، أما الأفكار التي لا تتجذر في الواقع فيحكم عليها بأنها يوتوبيا عقيمة².

العلاقة بين الأفكار والعوامل الوجودية هي علاقة تفاعل فالعوامل الوجودية تمثل عاملاً محدداً من حيث أنها تقوم باختيار، حيث تفتح وتغلق قنطرة المجتمع لدخول أفكار معينة وانتشارها أو عدم السماح بتداولها، فما يحتويه المجال الفكري ونسق المعرفة من أفكار وآراء ومفاهيم ومعتقدات يتحدد اجتماعياً، إلا أنّ هذه العوامل الاجتماعية الوجودية لا تخلق أفكاراً أو تحدد محتوى الفكر.

لا يمكن، فصل فكرة ما عن سياقها الاجتماعي والثقافي. فالمعرفة والمعتقدات والأفكار والأنساق الاقتصادية والثقافية والسياسية والدينية... الخ تمثل كلاً اجتماعياً ووحدة بنائية، لا

¹ طه نجم، علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996، ص ص 38 . 39.

² نبيل رمزي، المرجع السابق، ص 47.

يمكن النظر إليها مجزأة. على سبيل المثال: نشأة النزعة الميكانيكية في الفكر الأوربي في القرن السادس عشر التي هي نوع من التفكير يحلل الحركات المعقدة إلى حركات بسيطة يمكن التحكم فيها. هذه النزعة الفكرية لا يمكن فصلها عن المذهب الفردي، وتسيّد الآلة على أدوات الإنتاج الحرفي اليدوي وبداية تحول الجماعة المحلية إلى مجتمع، وتحول الإنتاج إلى السوق، وبروز المنافسة.

إذن، لا يمكن طبقا لما يراه "شير"، الفصل بين العوامل البنائية والفكر، ذلك أنّ نسق المعرفة وما يتضمنه هو أحد عناصر الكل الاجتماعي الذي ترتبط أجزاؤه في وحدة بنائية، تلك الوحدة هي التي تحدد هوية المجتمع وطبيعته في لحظة تاريخية محددة.

ومن بين علماء الاجتماع الذين أثروا حقل سوسيولوجيا المعرفة لدينا "لوسيان ليفي برول" "Lucien Lévy-Bruhl" الذي آبي أن تستخلص استنتاجات فلسفية من بحوثه حول العقلية البدائية، ورفض أن تستنبط مقارنات بين تجربة البدائيين وتجربة المتمدنين، لا في مداركهم ولا في تصرفاتهم، وقد ألح على فكرة سوسيولوجية مبتكرة وهي أنه في النمط الاجتماعي الواحد تتولد أشكال متعددة من المعارف ومنازل متباينة من التصوّف (التعبّد) والتعقل¹.

وقد أدرك "لوفي بريل" من خلال أبحاثه وتجاربه العلمية أن التفاوت في مختلف أنواع المعارف يظهر جلياً بالانتقال من نمط مجتمعي إلى نمط مجتمعي آخر، فإدراك الزمان والمكان ومقولة السببية وتبصر الأنا والآخر والعالم الخارجي يختلفون كأشكال من الوعي من أنساق مجتمعية إلى أنساق مجتمعية أخرى.

يذهب "كارل مانهايم" "Karl Mannheim" في تفسيره لنسبية المعرفة والإطلاع على أبعادها الحقيقية بأننا لو اعتبرنا الفكر والمعرفة يحددان بالأوضاع الاجتماعية التاريخية، فإن كل مرحلة تاريخية، بل كل جماعة إنسانية تعيش في عالم من الآراء والأفكار المتناقضة مع

¹ Georges Gurvitch, op cit p4.

نظم التفكير لدى الجماعات الأخرى، وذلك لأن كل مرحلة تاريخية تعيد كتابة التاريخ حسب منظورها ودرجة نموها والمصالح السائدة فيها¹.

لا يحدد المجتمع فقط شكل أو مظهر الفكر الإنساني بل يحدد مضمونه ومحتواه أيضاً، باستثناء الفكر الرياضي وبعض الأجزاء من العلوم الطبيعية، لذلك فإن علم اجتماع المعرفة يصبح منهجاً علمياً ووضعياً لدراسته كل جوانب الفكر الإنساني.

لقد صك "مانهايم" مصطلح "الارتباطية" كتمييز بالتضاد للنسبية، والذي يشير به إلى المنظور الإبستمولوجي لعلم اجتماع المعرفة، لا كمحاولة لإخضاع الفكر للنسبية السوسيو تاريخية، بل كإدراك واع بأن المعرفة يجب أن تكون دائماً معرفة من وضع معين، وأن الجماعات الإنسانية المختلفة تتفاوت كثيراً في مدى قدرتها على تجاوز وضعها أو مكانتها الضيقة، ومن ثم وضع جل أمله في فئة المثقفين المتحررين اجتماعياً تلك الفئة المنفتحة التي تتحرر نسبياً من المصالح التطبيقية.

عرّف "مانهايم" علم اجتماع المعرفة كنظرية في التحديد الاجتماعي أو الوجودي للفكر، حيث يرى أن كل الأفكار وكل المعارف ترتبط بموقع ما، ودرجات متفاوتة داخل البناء الاجتماعي والعملية التاريخية. أما مهمة علم اجتماع المعرفة فتتمثل في نظره على تأكيد العلاقة الإمبريقية بين وجهات النظر الفكرية والأوضاع البنائية والتاريخية.

التأمل والتفكير ليسا بأنشطة مجردة ومتحررة من الآثار الاجتماعية والحضارية، لذا يجب دراستهما وفهمهما وتفسيرهما بموجب إطارهما ومحيطهما الاجتماعي والحضاري... والفرد لا يستطيع تكوين أفكاره وقيمه ومقاييسه ولا يستطيع التوصل إلى الحقيقة والواقع بمفرده طالما أن أفكاره وقيمه ومقاييسه وخبراته وتجاربه حصيلة تفاعله واحتكاكه مع الجماعة والمجتمع².

في اعتقاد "روبرت ميرتون" "Robert Merton" "إن علم اجتماع المعرفة تبلور كفرع علمي واتخذ شكلاً ملائماً بسبب تأثير عوامل اجتماعية وثقافية مختلفة، كتفاقم الصراعات

¹ طه نجم، المرجع السابق، ص9.

² إحسان محمد الحسن، المرجع السابق، ص65.

الاجتماعية والتباين في القيم وتفاوت أنماط الفكر واتجاهاته إلى الحد الذي طمست فيه هذه الاختلافات ما كان مشتركاً وعماماً.

لقد أدى هذا التساوق في الوجود بين هذه المنظورات والتفسيرات المتصارعة داخل نفس المجتمع بدوره إلى عدم الثقة بين الجماعات. وفي خضم هذا الشك والريبة لم يعد يتطلب من المرء أن يبحث في محتوى الاعتقاد أو الحكم ليحدد ما إذا كان صادقاً أم كاذباً، كما لم يعد المرء يواجه هذه الأحكام بالشاهد أو الدليل المناسب، بل يقدم تساؤلات جديدة تماماً حول ما الذي حدث لكي يكتب لهذه الآراء أو وجهات النظر الوجود والبقاء¹.

تطرق "ميرتون" إلى مفهوم المعرفة من منظور شامل، فبالنسبة إليه من اللازم إيضاح هذا المفهوم بأسلوب علمي متعمق ومتبحر، حيث يتضمن تلك الدراسات الخاصة بالنتائج الكلي للثقافة مثل الأفكار والمعتقدات والتشريعات والفلسفة والعلم والتكنولوجيا. وهو يرى أن سوسيولوجيا المعرفة تهتم بالعلاقات القائمة بين المعرفة والعوامل الوجودية الأخرى أو الثقافة في المجتمع.

شيد "ميرتون" مخططاً لعلم اجتماع المعرفة، يتضمن معظم الإشكاليات والقضايا التي يتناولها الباحثون في هذا العلم في صورة مكثفة مركزة ومتسقة منطقياً. وفي هذا الإطار سنتناول محورين أساسيين من النموذج التحليلي لعلم اجتماع المعرفة عند "ميرتون"².

المحور الأول: الأصول الاجتماعية والثقافية للنتائج الفكرية.

أ - الأصول الاجتماعية، الوضع الاجتماعي، الطبقة، الجيل، الدور المهني، نمط الإنتاج، تنظيمات جماعية (جامعة، بيروقراطية، أكاديميات، فرق دينية، أحزاب سياسية)، موقف تاريخي، المصالح والاهتمامات، النسب أو العرق، الحراك الاجتماعي، بناء القوة، العمليات الاجتماعية (التنافس، الصراع... الخ).

¹ السيد عبد العاطي السيد، المرجع السابق، ص 64.

² Robert Merton, éléments de théorie et de méthode sociologique, traduit par Henri Mendras, 2^{ème} édition, Plon, paris, 1965 PP 325-350.

ب - الأصول الثقافية: القيم، الأخلاق، نمط الثقافة، عقلية الثقافة.

المحور الثاني: التحليل السوسيولوجي للناتج الفكري.

أ - مجالات الفكر: المعتقدات، الإيديولوجيات، الفلسفة، العلم، التكنولوجيا، المذاهب الدينية... الخ.

ب - جوانب تحليل مظاهر وعمليات الفكر: مستويات التجريد، النماذج المثالية والأطر التصورية، المضمون أو المحتوى، أنماط التحقق، أغراض الفكر وموضوعاته مستلزمات التفكير (ما يؤخذ كمعطيات وما يعالج كإشكاليات)، تجليات الفكر¹.

أما عن علم اجتماع العلم فهو حقل من حقول علم الاجتماع يهتم بدراسة العلاقات الإنسانية في المؤسسات العلمية وفحص آثار العلم في المجتمع والحضارة وآثار المعطيات الاجتماعية والاقتصادية في استمرارية ونمو وتطور العلم، إضافة إلى اهتمامه في رسم صيغة العلاقة المتفاعلة بين الصفات الاجتماعية للعلم والأنشطة العلمية من جهة وبين الصفات الاجتماعية للعلم والسمات الإبيستيمولوجية من جهة أخرى، والظروف الاجتماعية التي تشجع أو تعرقل التطور العلمي، ودراسة أثر البيئة التي يعيش فيها العالم في أفكاره وأطروحاته وأنشطته العلمية. وأخيراً دراسة خصوصية النشاط العلمي وعلاقته بتقدم وتطور العلم².

إن دراسة العلاقة بين العلم والبناء الاجتماعي ترجع إلى حقل علم اجتماع العلم هذا الحقل الذي يهتم بصورة رئيسة بدراسة الظروف الواقعية والاجتماعية للعلم وترجع أيضاً إلى حقل علم اجتماع المعرفة، وذلك كون العلم جزءاً لا يتجزأ من المعرفة وشكلاً من أشكال الوعي الذي غالباً ما يتأثر بالعوامل الاجتماعية والحضارية وبانعكاساتها القريبة والبعيدة الأمد.

¹ السيد عبد العاطي السيد، المرجع السابق، ص 67.

² إحسان محمد الحسن، المرجع السابق، ص 62.

العلم هو شكل من أشكال النتاجات الفكرية للإنسان وهو نشاط فكري اختصاصي يؤديه شخص أو عدة أشخاص عن طريق جمع وتنظيم وتصنيف وبرمجة المعلومات والبيانات الموضوعية المشتقة من طبيعة الظواهر والأشياء المرئية وغير المرئية التي يهتم بها المختصون وذلك لفاعليتها وأهميتها للمجتمع.

فالعلم الذي هو مؤسسة اجتماعية يتسم بالخصائص والمزايا الاجتماعية التالية:

(1) - يعتمد العلم في وجوده على مجموعة ظروف اجتماعية وحضارية، كما أنه يتأثر باستمرار بقواها وفاعليتها.

(2) - يتأثر العلم بالأهداف الاجتماعية التي يعتمدها المجتمع، ووظيفته تتحدد بموجب حاجات المجتمع ومشكلاته.

(3) - يركز العلم على قاعدة اجتماعية تحدد وجوده وترسم طريقة تطوره وتقدمه وهذا معناه أن العلم يتأثر بالقوانين التاريخية للعلاقات الاجتماعية بشكلياتها التفصيلية والشمولية.

والبحث العلمي هو الدراسة الموضوعية التي يقوم بها الباحث في أحد الاختصاصات الطبيعية أو الإنسانية، والتي تهدف إلى معرفة حقائق واقعية ومعلومات دقيقة حول مشكلات معينة يعاني منها المجتمع والإنسان، سواء أكانت هذه المشكلة تتعلق بالجانب المادي أو الجانب الحضاري غير المادي للمجتمع¹.

ثمة أهداف ثلاثة للعلوم: الفهم، التفسير، التنبؤ. فالفهم يدل على وجود فكرة عامة عن الكيفية التي تحدث بها الظاهرة. ما هي أسبابها وكيف ترتبط بالنواحي الأخرى من عالم الطبيعة؟ إنه يتضمن إزالة الغموض عن تلك الناحية من عالم الطبيعة التي تنتمي إليها الظاهرة. أما التفسير فيمضي أبعد من ذلك، إنه يقول لنا لماذا تحدث الظاهرة أو العملية قيد البحث بتلك الطريقة وليس بسواها؟ في حين نجد أن التنبؤ يكون أكثر تحديداً إذ يخبرنا بما سيحدث في المستقبل لجسم معروف جيداً حين تتحقق شروط معينة. كذلك هناك ما يشبه

¹ إحسان محمد الحسن، المرجع السابق، ص. ص 56-58

كثيراً التكهّن بالماضي أو "التكهّن الارتجاعي" وذلك حين يتم استخلاص النتائج فيما يتعلق بتاريخ سابق غير مكتشف بعد، لجملة معينة من الأشياء¹.

¹ فيكتور وايسكوف: "العلم، جبهاته وحدوده"، الثقافة العالمية، العدد 20، سنة 1985، ص41.

المبحث الثاني: موضوع علم اجتماع المعرفة

بالنسبة لـ "بيتر بيرغر" "Peter Berger" و"توماس لوكمان" "Thomas Luckmann" على علم الاجتماع أن يحلل العمليات التي يجرى فيها بناء الواقع اجتماعياً. ويُعرّف الواقع بأنه صفة تتعلق بالظواهر التي نتعرف عليها بوصفها مستقلة عن إرادتنا الخاصة وتحدد المعرفة بوصفها التأكد من أن الظواهر واقعية وتملك سمات محددة¹.

ويبرر الاهتمام الاجتماعي بقضيتي الواقع والمعرفة مبدئياً بحقيقة نسبتها الاجتماعية. فما هو واقع بالنسبة إلى الراهب التبتى قد لا يكون كذلك بالنسبة إلى رجل الأعمال الأمريكي وتختلف المعرفة لدى كل من المجرم وعالم الجريمة، ويلزم من ذلك أن تتعلق تكديسات محددة للواقع والمعرفة بسياقات اجتماعية محددة. كما يجب أن تضمّن هذه العلاقات في أي تحليل اجتماعي سديد لهذه السياقات... وبعبارة أخرى يجب أن يعالج عالم اجتماع المعرفة ليس فقط التنوع الإمبريقي للمعرفة في المجتمعات الإنسانية، بل أيضاً العمليات التي تتشكل بها كواقع أي معرفة اجتماعياً².

يهتم علم اجتماع المعرفة بكل ما يقبل كمعرفة في المجتمع، بغض النظر عن المصادقية المطلقة أو عدمها لهذه المعرفة.

وحسب قناعة كل من "بييرغر" و"لوكمان" هناك تعريفات مختلفة لعلم اجتماع المعرفة ومجالاته، ولهذا أكدنا أن تاريخ هذا الحقل العلمي النوعي هو إلى الآن تاريخ لتعريفاته المختلفة.

رغم ذلك هناك إجماع عام إلى حد القول أن علم اجتماع المعرفة يهتم بالعلاقة بين الفكر الإنساني والسياق الاجتماعي الذي يظهر فيه. ولهذا فإنه يمكننا القول أن هذا التخصص يؤلف البؤرة الاجتماعية لمشكلة أكثر عمومية من ذلك بكثير، وهي مشكلة الحتمية الوجودية للفكر. وبالرغم من التركيز على العوامل الاجتماعية فإن الصعوبات

¹ بيتر بيرغر وتوماس لوكمان، البنية الاجتماعية للواقع، تر: أبو بكر أحمد باقادر، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2000، ص11

² المرجع نفسه، ص 12.

النظرية شبيهة بتلك التي تنشأ عندما تقترح عوامل أخرى (كالعوامل التاريخية أو النفسية أو البيولوجية) بوصفها محددة للفكر الإنساني. ولقد كانت المشكلة العامة في كل هذه الحالات هي المدى الذي ينعكس فيه الفكر أو يكون مستقلاً فيه عن العوامل المحددة المقترحة¹.

ويتمثل طموح علم اجتماع المعرفة في الوصف الدقيق للأساليب التي تؤثر بها العوامل الاجتماعية على المنتجات الذهنية، وهذا باستخدام مناهج مضبوطة وتقنيات محكمة تتجسد في الملاحظات الإمبريقية والتحريات الميدانية².

وما يجب التنويه به في هذا الإطار هو أن علماء اجتماع المعرفة لم يقتصروا في بحوثهم على المعرفة العلمية، حيث اهتموا بكل المنتجات الثقافية: الإيديولوجيات السياسية، الفلسفة، العلم والتكنولوجيا، المذاهب الأخلاقية والقانونية. بالإضافة إلى التأكيد على أن العوامل الاجتماعية والثقافية متعددة ومتشابكة: بنية المجتمع، الانتماء إلى طبقة، الانتساب إلى جماعة مهنية، ذهنية الثقافة، الجيل الخ.

وحسب "فلوريان زنانبيكي" « Florian Znaniecki » إن منظر المعرفة ليس موضوعه دراسة الأبعاد المختلفة للإدراك المعرفي من وجهة نظر مطلقة وإنما دراستها كما تقدم نفسها تاريخياً للبشر الحقيقيين. أي على الباحث في ميدان المعرفة أن ينظر إلى المعرفة باعتبارها كل ما فهم على أنه معرفة خلال الحقب والجماعات المعاصرة³.

قسم "جورج غورفيتش" « George Gurvitch » المعرفة إلى الأنواع التالية :

1- المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي التي تؤكد صحة مجموع متناسق من الصور، الموضوعة في أمكنة وأزمنة ملموسة وخاصة. فإدراكها وإمكان صوغها في مفاهيم وفي معايير كمية من الأمور البالغة التنوع. وإنّ المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي، بوصفها واقعة اجتماعية، تفترض أولاً الإدراك الجماعي للأمكنة وللأزمنة حيث يقع هذا العالم.

¹ بيتر بيرغر وتوماس لوكمان، المرجع السابق، ص ص 14-15

² Jacques J. Maquet, sociologie de la connaissance, Nauwelaerts, Louvain, 1949, P30.

³ خليل أحمد خليل، "الحالة التأسيسية في علم اجتماع المعرفة". دراسات عربية، العدد 9، سنة 1987، ص 69.

ومن الصعوبة بمكان إدراكها وإمكان تصورها وتكميمها بسبب تنوعها الشديد. تفترض هذه المعرفة في آن واحد إدراكات جماعية وكذا أحكاماً جماعية، إما فيما يتعلق بمركب الأمكنة والأزمنة أو فيما يخص محتواها.

قدّم "غورفيتش" مثلاً واحداً ليبين الأهمية النسبية لهذا النوع من المعرفة داخل نسق تراتبي، وهو المجتمع الإقطاعي، حيث كانت المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي فيه مندرجة في ذيل الترتيب، والدليل على ذلك هو أن الفن كان منعدم الأفق، والمدن والقرى بعمرانها ومحيطها كانت منغلقة على نفسها¹.

(2) - معرفة الآخرين، النّحن، الجماعات، الطبقات، والمجتمعات المدركة في واقعها والمقررة بحكم واع، والتي تمثل في نظر "غورفيتش" شكلاً مميزاً من المعرفة والتي لم تدرك في علم الاجتماع إلا مؤخراً، بل كانت سجينة المنظور الفلسفي. وهذا يعتبر مفارقة تفسّر استناداً إلى ثلاثة أوجه:

أ- لا يمكن أن نتصور أي إطار اجتماعي (ميكرو اجتماعي، جماعي، شمولي)، لا يحدث فيه هذا الإدراك وهذه المعرفة، باعتبارهما عنصران بنائيان للواقع الاجتماعي ذاته، لكن يحدث ذلك ضمناً لا صراحة. إن كثافة الإدراك والمعرفة وأهميتهما ومزايتهما، والدور الذي يؤديه مظهر الآخر، تعابير وجهه، سلوكياته، إيماءاته وكلماته، مواقفه الاجتماعية، رغبته أو رفضه الاتصال، تتنوع حسب تنوع الإطار الاجتماعي. مثلما تتنوع في معرفة الآخر المعايير والنماذج والرموز التي توحى بها الجماعات، الطبقات والمجتمعات الشمولية.

ب- في موضع مغاير، في بعض الأطر الاجتماعية وفي ظروف خاصة، الآخر كموضوع إدراك أو معرفة يمكن أن يقدم كأب، كأخ، كصديق أو عدو، كمرافق أو غريم، كزميل أو خصم، كدوني أو مقتدر، كنصير أو مضطهد، كمركز اجتذاب أو نبذ أو عدم اكتراث. يمكن أن يأخذ خاصية مبهمة إذا امتزجت فيه سمات متعارضة.

¹ جورج غورفيتش: المرجع السابق، ص.ص 30،31.

ج- لم تؤد معرفة الآخر دوراً فعالاً إلا في المجتمعات الأبوية والإقطاعية وخاصة ضمن الجمعيات الحرفية والتنظيمات الرهبانية في القرون الوسطى، وهي تتدخل كذلك في بعض التجمعات الضيقة (الأسر، العائلات، الأقسام الداخلية). ويمكن أن تصبح أساسية في أنماط المجتمعات المنظمة وفق مبادئ النزعة الجماعية اللامركزية والتعددية القائمة على التسيير العمالي الذاتي¹.

(3)- معرفة الحس السليم: التي يمكن أن نطلق عليها كذلك "معرفة الحياة اليومية" والتي تمثل شكلاً خاصاً من المعرفة. تفضل معرفة الحس السليم المعرفة التقليدية، معرفة المسنين وذوي الخبرة، معرفة أدب العيش التي لا نجدها لدى الجيل الجديد بل نجدها لدى الجيل القديم، فالأجداد والآباء يعلمون الأحفاد والأبناء كيفية مواجهة مصاعب الحياة وطريقة تجنب الخطى غير السديدة.

هذا النوع من المعرفة لا يصلح في المجتمعات المعاصرة التي تتميز بسرعة كبيرة في التغيير ومن ثم التجاوز المستمر للمعرفة التقليدية، وأكثر من ذلك يغيب هذا النوع من المعرفة في المجتمعات المتفتحة².

(4)- المعرفة التقنية: وهي حسب "غورفيتش" معرفة قائمة بذاتها لا تقبل أن تحال إلى نوع آخر من المعرفة، وهي مسكونة بالرغبة في السيطرة على العالم، وإخضاعه واستعماله وقيادته. ومن الخطأ الجسيم اعتبار المعرفة التقنية معرفة القدرة على استخدام المادة فقط وكذا في مطابقتها للتكنولوجيا. المعرفة التقنية هي من جهة صريحة لأنها تنقل وضمنية من جهة أخرى لأنها تمارس.

تشمل المعرفة التقنية كل الاستعمالات الفعالة التي تبتغي الاستقلال والبحث عن قيمتها في ذاتها، إنها استخدامات دقيقة، قابلة للتلقين، مجددة. ومصدرها هو الرغبة في السيطرة على الطبيعة، والإنسان والمجتمع، وهذا من أجل الإنتاج، والتدمير، والصون، والتنظيم، والتخطيط والإيصال والبحث.

¹ جورج غورفيتش، المرجع السابق، ص.ص 34،35.

² المرجع نفسه، ص. ص 35،36.

في اعتقاد "غورفيتش" إنّ المعرفة التقنية متنوعة جداً داخل النمط الاجتماعي الواحد وتمتد من الخبراء أو المخترعين إلى المنفذين أو العمال البسطاء. وقد تطورت التقنيات مع بداية الرأسمالية ليس كنتيجة للاكتشافات العلمية لكن تطورت داخل المصانع والورشات.

إننا نشهد اليوم تفاوتاً ملحوظاً بين البنى الاجتماعية وأعمالها الحضارية غير التقنية من جهة ، وبين التقنيات من جهة أخرى، إن المعارف التقنية المنفلتة من عقالها لا تخضع لأية سيطرة أو رقابة. والتقنيات في مستواها الأعلى تظهر قوتها التدميرية، ويبدو التكنقراط-هؤلاء السحرة المتعلمون- عاجزين عن كبح القوى التي تطلقها. إن التقنيات تبدو كأنها إحصار، يقوم سباق سرعة بينها وبين المجتمعات. وهذا الوضع إنما يزيد من جاذبية علم اجتماع المعرفة التقنية، ويثير الأسف لأنه لم يجر حتى الآن شيء جوهري في هذا المضمار¹.

(5)- المعرفة السياسية: التي من اللازم تمييزها عن علم السياسة وعن علم الاجتماع السياسي، اللذان يدرسان، بمناهج مختلفة، الأنظمة السياسية، إعداد وسير الانتخابات، والأحزاب السياسية الخ. باختصار كل ما يرتبط بالدولة. وكذلك من الضروري تمييز المعرفة السياسية عن المذاهب السياسية أو الفلسفة السياسية التي تبرر الأنظمة القائمة والمستقبلية، والتي تهدف كذلك إلى تنسيق المعارف السياسية المكتسبة.

يقصد "غورفيتش" بالمعرفة السياسية جانبين أساسيين:

أ- إستراتيجية الفعل الاجتماعي التي تشمل الدولة أو لا تشملها.

ب- المعرفة التلقائية أو المفكر فيها والتي توجه هذه الإستراتيجية، والتي تتخطى بدورها الفعل الذي يمس سياسة الدولة.

ومن ثم فهو يعارض عن وعي ويقين مصطلح "معرفة سياسية" ليراد به أي علم من العلوم، بما في ذلك العلم الذي يدرس كل ما يمت بصلة، بشكل مباشر أو غير مباشر، للدولة أو لنشاطها.

¹ جورج غورفيتش، المرجع السابق، ص. 38، 36.

تعني المعرفة السياسية لـ "غورفيتش" تلك المعرفة التلقائية أو المفكر فيها، خارجة عن كل علم وتتجز مباشرة داخل الصراع الاجتماعي حيث الرهانات متعددة. إنها معرفة نضالية خالصة، فيها يكون المناضلون والقياديون (رجال السياسة) أكثر قوة من العلماء المشبّعين بعلوم السياسة أو بعلم الاجتماع. وهذا النوع من المعرفة لا يتطلب وجود الدولة أو نشاطها السياسي. ولهذا باستطاعة المعرفة السياسية الظهور في مختلف أنماط المجتمعات البدائية بصراع العشائر والقبائل، والمنافسات فيما بينهم.

يمكن رصد المعرفة السياسية في الأفعال والدسائس والمكائد والصراعات التي تحدث بشكل مباشر بين الجماعات والطبقات والأحزاب.

وما تجدر الإشارة إليه، في هذا السياق، هو أنّ أحكام القيمة وأحكام الواقع يمتزجان في المعرفة السياسية، وأنّ هذه الأخيرة تتضمن وعياً جلياً بالمصاعب اللازم تجاوزها وقهرها وكذا بالسلوك الواجب إتباعه في ظرف اجتماعي معين أو آخر. وفي الغالب يكتسي هذا النوع من المعرفة طابعاً إيديولوجياً أكثر من باقي الأنواع¹.

(6) - المعرفة العلمية وهي نوع من المعرفة تمتاز بالحياد والتجرد وبالانفتاح والتراكم والتنظيم والتنسيق والربط بين النظري والتطبيقي.

تتطلق المعرفة العلمية من إطار إجرائي مبني في الأساس ومدعم بنتائج محصلة تتطلب تحقيق ميداني. وقد ارتبطت هذه المعرفة بالرأسمالية التنافسية، فمنذ نشأة المجتمعات الصناعية، دخلت المعرفة العلمية في تنافس مع المعرفة الفلسفية حيث أخذت الأولى مكان الثانية.

وإدعاء أن المعرفة العلمية تتعالى عن الأطر الاجتماعية هو طرح غير صائب، بل يعتبر استقلالها نسبي، فالعوامل الاجتماعية تتدخل في أي نشاط علمي خاصة في مراحله المتقدمة.

ويظهر ذلك جلياً في العلوم الطبيعية من أربع زوايا :

أولاً: تركز العلوم الطبيعية على التجارب والاختبارات وهي في الأساس إنسانية أي يخضعان لتأثير الإنسان.

¹ جورج غورفيتش: المرجع السابق، ص.ص 38-41

ثانياً: يبنى كل علم على الربط بين إطار نظري وإجرائي من جهة، وعلى التجربة والاختبار من جهة ثانية. وعمليات التنظير الخاصة بكل علم تسهم في إدخال العامل الاجتماعي في صيرورة المعرفة. فتحمل كل فرضية متحققة أم لا صبغة المجتمع الذي أنتجت فيه.

ثالثاً: تحتاج العلوم الدقيقة إلى مختبرات وأجهزة بحث ضخمة تولد منافسة بين المنظمات الخاصة للبحوث العلمية، المرتبطة بالاحتكارات الصناعية، الوطنية والعالمية. رابعاً: هناك ارتباط وثيق بين العلوم والواقع الاجتماعي، إذ يمكن لهذا الأخير أن يسيطر على العلوم بفعل القوى المنتجة لها، وكذا خضوع الواقع لهيمنة العلوم إذا استعملت نتائجها بشكل اجتماعي واسع¹.

(7) - المعرفة الفلسفية: إن هذا النوع من المعرفة يمتاز بالتعالي والارستقراطية، والمعرفة الفردية تتغلب على المعرفة الجماعية، ومن هنا يمكن فهم معنى البرج العاجي الشهير للفلاسفة.

من المعلوم أنّ الفلسفة هيمنت على العلوم مدة طويلة من الزمن، قبل أن تستقل مع أفول عصر الأنوار، ورغم ذلك تعتمد العلوم في بعض منطلقاتها النظرية على الفلسفة وأكثر من ذلك تستثيرها بأسئلة محرجة وجريئة.

ومن الصعوبة القيام بتحليل سوسيولوجي للمعرفة الفلسفية، خاصة المذاهب والمدارس الفلسفية التي تتقارب فكرياً ومنطقياً رغم البون الزمني بينها².

¹ جورج غورفيتش: المرجع السابق، ص.ص 42-44.

² المرجع نفسه، ص.ص 45،46.

المبحث الثالث: علم اجتماع المعرفة من منظور نقدي

ارتأينا لتعميق ما تعرضنا إليه سابقاً، تقديم نظرة نقدية لواقع الفكر الإنساني وللانعكاسات السلبية لتطبيقاته؛ وهذا من منطلق عالم اجتماع مشهور يتمثل في "هربرت ماركوز" « Herbert Marcuse » الذي تصوّر أنّ العلاقة بين الفكر الديالكتيكي والواقع المعطى هي علاقة تناقض أكثر منها علاقة تطابق، والحكم الصحيح يحاكم هذا الواقع لا بمفردات هذا الواقع وإنما بمفردات توجب هدم هذا الواقع ومن خلال هذا الهدم يدرك الواقع حقيقته الخاصة.

وعن طريق التكنولوجيا، كما يقول "ماركوز"، تلتحم الثقافة والسياسة والاقتصاد في نظام كلي الحضور، يفترس أو ينبذ كل الاختيارات والحلول البديلة، ولهذا النظام إنتاجية وطاقات متعاضمتين تقودان المجتمع إلى الاستقرار، وتحبسان التقدم التقني في مخطط السيطرة، إن العقلانية التكنولوجية قد غدت عقلانية سياسية¹.

فالإنتاجية ووسائل التدمير تنمو بوتيرة واحدة، والبشرية مهددة بدمار شامل والفكر والأمل والخوف رهن بإرادات السلطات، والبؤس يجاور الغنى الذي لم يسبق له مثيل في السابق. أفلا تبرز هذه الظواهر وضع المجتمع موضع اتهام، حتى وإن لم تكن مبرر وجود هذا المجتمع، وإنما تمثل فقط نتائجه الثانوية. الحق إن عقلانية المجتمع المعاصر وتقدمه وتطوره هي في مبدئها لا عقلانية².

هذا الاتجاه الفكري أخذ على عاتقه مهمة نقد الممارسة الديمقراطية داخل المجتمع الرأسمالي من خلال فضح الهيمنة اللامباشرة لمؤسسات الدولة على مسار تطور الوعي الجماعي والكشف عن الآليات "العقلانية" التي تحقق بشكل خفي وظيفة الردع لكل محاولة

¹ هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، تر: جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، 1972، ص33.

² المرجع نفسه، ص30.

جذرية تمتلك طاقة الرفض والاحتجاج خارج الحدود المرسومة لها من قبل النظام السياسي-الاقتصادي القائم¹.

انتقد "هوركهايمر" « Horkheimer » الوضعية بوصفها نظرية في المعرفة أو فلسفة المعرفة، خاصة فيما يتصل بالعلوم الاجتماعية، ويقدم هذا النقد عبر نقاط ثلاث أساسية :

- إنها تعامل البشر المفعمين بالحيوية والنشاط، بوصفهم حقائق وأشياء مجردة، داخل نطاق محدود ومخطط من الحتمية الميكانيكية.
- إنها تتصور العالم كمعطى بشكل مباشر في التجربة فقط، مما حدا بها ألا تميز بين الجوهر والمظهر.
- إنها تقيم تمييزاً مطلقاً بين الحقيقة والقيمة، ومن ثم فإنها تفصل المعرفة عن المصالح البشرية².

وهكذا استطاعت الوضعية أن تنسى تداخل منهجية العلوم مع سيرورة التكون الموضوعية للنوع البشري، وأن تقيم منهجية كلية صرفة على قاعدة النسيان والكبت.

إذا أردنا إعادة بناء السجال الفلسفي للعصر الحديث، كما يقول "هابرماس" على شكل مداورات تجري في محكمة، فإن مثل هذا السجال سيكون مدعواً لحسم السؤال الوحيد التالي: كيف يمكن أن نحصل على معرفة موثوقة³؟

يبني "هابرماس" « Habermas » مسعاه الفلسفي، على إمكانية فتح ثغرة في عالم اليقين الوهمي الذي أدى إليه انتصار البورجوازية والاقتصاد الرأسمالي، في سبيل إعادة تفعيل الفكر النقدي وتعميق التساؤل الراديكالي حول جذور السيطرة وآليات استغلال الإنسان والطبيعة معا. وهو يعتقد أن العقل الذي أتاح للإنسان أن يتحرر من القلق والهشاشة،

¹ علاء طاهر، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماس، الطبعة الأولى، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، (د.ت)، ص5.

² توم بوتومور، مدرسة فرانكفورت، تر: سعد هجرس، الطبعة الثانية، دار أويا، طرابلس، ليبيا، 2004، ص44.

³ يورغن هابرماس، المعرفة والمصلحة، تر: حسن صقر، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، 2001، ص 9.

ومكنه من السيطرة على الطبيعة، هو نفسه العقل الذي عمل على استلابه عندما تحولت السيطرة على الطبيعة إلى وسيلة لحبس الإنسان في شبكات السيطرة الاجتماعية¹.

لإعطاء هذا المنظور أسسه النظرية وأبعاده المعرفية، نقترح تناول مفهوم العقل الأداة في إطار مدرسة فرانكفورت؛ فيذهب "هوركهيمر" « Horkheimer » إلى أن العقل الأداة هو العقل المهيمن في المجتمعات الرأسمالية الحديثة التي فقد فيها العقل دوره كملكة فكرية وتم تقليصه إلى مجرد أداة لتحقيق أهداف معينة، وبالتدرج فقد العقل رؤيته للهدف وأصبح مجرد أداة لتوفير الوسائل. وأدى ذلك إلى فقدان العقل للقدرة على إدراك الحقائق في ذاتها حيث أصبح كل شيء مجرد وسيلة²

يؤكد "هابرماس" « Habermas » أن العقل الأداة يعتبر في حد ذاته إيديولوجيا فالتقنية (كتجسيد للعقل الأداة) هي السيطرة ذاتها على الطبيعة والإنسان، والتقنية مشروع تاريخي اجتماعي تنعكس فيه ما يريده المجتمع والمصالح المسيطرة أن تفعله بالبشر وبالأشياء.

ينظر العقل الأداة إلى الطبيعة والواقع من منظور التماثل ولا يهتم بالخصوصية ويحاول هذا العقل الأداة تفتيت الواقع إلى أجزاء غير مترابطة وينظر إلى الإنسان باعتباره مجرد جزء يشبه الأجزاء الطبيعية المادية؛ فالإنسان بالنسبة للعقل الأداة شيء ثابت وكمي.

يتدخل "هابرماس" ويطور مفهوم جديد للعقل، مفهوم أكثر كفاءة وقوة وحدائة وهو العقل التواصلية، فهذا العقل يرتبط بالحدائة وتنتج ويستفيد من معطيات العقل النقدي ويتجاوز عيوب العقل الأداة ويطرح نفسه بديلاً للممارسات التقنية والإجرائية³.

¹ حسن مصدق، بورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت: النظرية النقدية التواصلية، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص6.

² أبو النور حمدي، بورجين هابرماس، دار التنوير، بيروت، 2009، ص133.

³ المرجع نفسه، ص 134.

يشير "هابرماس" إلى العقل التواصلي باعتباره فاعلية تتجاوز العقل المتمركز حول الذات، والعقل الشمولي المنغلق الذي يدعي أنه يتضمن كل شيء، والعقل الأداة الوضعية الذي يفتت ويجزئ الواقع ويحول كل شيء إلى موضوع جزئي حتى العقل نفسه¹.

العقل التواصلي هو عقل يحدث قطيعة مع العقلانية الغربية التي قدمت أسبقية مطلقة للعقل الغائي الذي لا يعمل إلا على تجسيد مصالح ضيقة ومآرب إيديولوجية، ومن ثم فالعقل التواصلي فعالية مبدعة تتأسس انطلاقاً من الاتفاق أي بعيداً عن الإكبار والإرغام والإملاء، ومن امتزاج الفرد داخل الفضاء العام واندماجه مع المجهود الجماعي الذي يبني على التفاهم والتواصل العقلي.

وما يهمننا نحن، من منطلق علم اجتماع المعرفة، هو الإجابة عن سؤال محوري مفاده: كيف يحدّد "هابرماس" مفهوم العقل؟ فنؤكد على أنّ العقل عنده لم يعد جوهرًا سواء كان هذا الجوهر موضوعياً أو ذاتياً، بل رأى أنه من الحكمة البحث فيما هو عقلائي عوضاً عن البحث في مفهوم العقل وعليه ينتقل الاهتمام المركزي إلى العقلانية بدل التركيز على العقل في شكله المجرد².

ومن المتعارف عليه، من منظور سوسيوثقافي، أنّ العلم طوّر عديد المناهج، الباهرة والبارعة، لإدراك المواضيع الخارجية، لكنه عجز عن امتلاك منهج لإدراك ذاته والتفكير فيها³.

هذه الفكرة المحورية من ابتكار عالم الاجتماع الفرنسي "إدغار موران" Edgar Morin « الذي عمل على إبراز خصوصيات العقل المتفتح الذي يسعى إلى نزع الصبغة التبريرية عن المعرفة بشكل عام.

يؤكد "موران" أنه رغم أن الانتقادات الموجهة إلى العقلانية ما تزال قائمة، لكن نقداً جديداً، داخلياً، ينبثق من قلب العقلنة، حسب هذا النقد المعاصر، يدان العقل لا فقط من

¹ أبو النور حمدي، المرجع السابق، ص 135.

² المرجع نفسه، ص 137.

³ Edgar Morin, science avec conscience, Fayard, France, 1982, P34.

حيث كونه مفراطاً في العقلانية بل يدان كذلك على أنه غير معقول، إن الأزمة الحديثة للعقلنة هي الكشف عن اللاعقل ضمن العقل.

والحال أنه حيثما ذابت الفكرة ذات النزعة الإنسانية (وقد أصبحت هشة أكثر فأكثر) وحيثما تراجعت الخميرة النقدية فإن التبرير العقلي المغلق يلتهم العقل، وسيتم الكف عن تصور الناس كأفراد أو ذوات فاعلة. إن عليهم الاستجابة للعقلنة الظاهرية (للدولة وللبيروقراطية وللصناعة).

إن العقل، يتضمن في باطنه نفسه لا عقلانية مخيفة. يصبح العقل أحمقاً عندما تتطلق من عقاله هذه اللاعقلانية المستترة، وعندما تصبح سيدة العقل وموجهته، أي عندما يتحول تطور العقل انفلات لما ليس معقولاً وعندما تتم في هذا التحول العملية التي يطلق عليها التحطم الذاتي للعقل.

إن العقل يصبح أحمقاً عندما يصبح في نفس الوقت أداة خالصة للسيطرة ولمظاهر القوة، والنظام، وعندما يصبح كذلك غاية للسلطة وللقوى الرهيبة.

إن النقد الذاتي العقلي يبين أن العقل الشمولي يبدو بمثابة تمويه إيديولوجي لرؤية جزئية ومحدودة للعالم. ولممارسة متغلبة ومحطمة للثقافات غير الغربية ومن ثم فإن عقل القرن الثامن عشر يبدو لا فقط كقوة تحرر كونية بل أيضاً كمبدأ الاستعباد الذي يمارسه اقتصاد معين ومجتمع معين وحضارة معينة على المجتمعات والحضارات والاقتصاديات الأخرى.

ويبدو لنا اليوم أنه من الضروري عقلياً نبذ ألوهية العقل، أي نبذ كل عقل مطلق ومكتف بذاته، يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار إمكانية تطور العقل. وإن عقلاً متفتحاً هو وحده الذي يمكنه ويتعين عليه أن يعترف بوجود اللامعقول (الصدف، مظاهر عدم الانتظام، النقائص، الثغرات المنطقية) ويمكنه أن يشتغل على ما ليس معقولاً، إن العقل المتفتح ليس كبتاً، بل حواراً مع اللامعقول.

وقد اقترح "ادغار موران" بديلاً معرفياً وهو "العقل المركب" الذي لا يتصور الأشياء في تعارض مطلق، بل في تعارض نسبي، أي في تكامل وتواصل وتبادل للحدود التي ظلت لحد الآن حدوداً متناقضة: الذكاء والوجدان، العقل واللاعقل، ليس الإنسان كائناً عاقلاً فقط، بل هو كائن عاقل/مختل¹.

¹ انظر: ادغار موران، من أجل عقل متفتح، تر: محمد سبيلا، دراسات عربية، العدد الرابع، 1984.

المبحث الرابع: علم اجتماع المعرفة بين البنيوية والظاهرية

إن مفاهيم وأفكار "ليفي ستروس" Claude Lévi-Strauss في ميدان الأنثروبولوجيا، وإن أخذت صيغاً متعددة، فهي لا تزال تلهب خيال عدد غير محدود من الأنثروبولوجيين، العاملين في مجال أنثروبولوجيا المعرفة والأنثروبولوجيا الرمزية. ففيما يخص الأنثروبولوجيا على وجه الحصر، فإن "ليفي ستروس" لم يتسبب في القضاء على البنائية- الوظيفية المهيمنة حتى الخمسينات على الأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا، وإنما ساهم كذلك في القضاء على الاتجاهات الوظيفية المتعددة الأوجه والتي كانت سائدة بين مدارس الأنثروبولوجيا الثقافية في أمريكا. وقد ترتب على ذلك ليس فقط تناول الأنثروبولوجيا لموضوعها بشكل مختلف وإنما حتى إعادة النظر في الكيفية التي تعاملت بموجبها البنائية-الوظيفية مع موضوعات مثل: البناء الاجتماعي، القرابة، الطقوس، الأساطير، ونظم المعتقدات¹.

في العقل الوحشي تتجلى أهداف "ليفي ستروس"، لعل من أبرز تلك الأهداف ما كان يراه في الأنثروبولوجيا باعتبارها مشروع بحث يجب ألا يتوقف عند حدود الوصف الاثنوغرافي للوقائع الاجتماعية-الثقافية، إنما يجب أن يتعدى ذلك، أي أن تتجه مباشرة إلى معالجة التساؤلات الفلسفية الأولى التي حملها الإنسان معه أينما وجد (سواء في بدائيته أو تحضره)، وأنه لا توجد وسيلة لمعالجة هذه التساؤلات سوى الغوص فيما وراء هذه الوقائع، أي الغوص في بناها العميقة والمستترة.

سعى "ليفي ستروس" من خلال إنكبابه على دراسة الأساطير والدين والتنظيم الاجتماعي... الخ، للكشف عن الخصائص البنيوية للعقل البشري، الذي في تعامله مع الطبيعة (المستوى التصنيفي مثلاً) إنما يكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية التي تربط الإنسان مع أخيه الإنسان سواء في حدود الثقافة الواحدة أو بين ثقافة وأخرى.

وقد دعا إلى نقد التصور الذي يريد أن يتعامل مع الفكر الغربي باعتباره فكراً عقلاً في حين ينظر إلى الفكر غير الغربي على أنه غير عقلائي، وقد حاول من خلال جميع

¹ عبد الله عبد الرحمن بنيتيم، "الفكر الأنثروبولوجي لكلود ليفي ستروس"، عالم الفكر، الكويت، المجلد 25، العدد 1، يوليو- سبتمبر،

أعماله، التأكيد على وحدة العقل البشري وعلى عالمية آلية عمله. وقد ناقش حججه تلك من خلال عدد هائل من الأساطير التي تخص المجتمعات البدائية والتقليدية. وأثبت وجود نمط بنيوي عالمي للعقل بغض النظر عن شكل التنوعات العرقية أو الثقافية التي ينتمي إليها هذا العقل¹.

لم تعد البنية مجرد مفهوم علمي أو فلسفي يجري على أقلام علماء اللغة، وعلماء الأنام والتحليل النفسي، أو الفلاسفة المهتمين بتاريخ الثقافة. بل إن كلمة البنية التي تحمل طابع العصرية هي تلك الوحدة الجديدة التي تضمن للعقل فهم الواقع والتأكد منه والسيطرة عليه... ولا شك في أنّ البنية ليست مجرد تعبير عن ذلك "الكل" الذي لا يمكن رده إلى "الموضوع" على أنه "نظام" أو "نسق" حتى يكون في الإمكان إدراكه أو التوصل إلى معرفته. والواقع أنّ بنيوية "ليفي ستروس" في أصلها إنما هي محاولة - دراسة - علمية من أجل القيام بـ "حفرات جيولوجية" في أعماق التربة الحضارية. بدلاً من الاقتصار على تقديم وصف جغرافي سطحي لبعض ربوع الثقافة الإنسانية².

والبنيوية تنزع في اختيار موضوع دراستها إلى تفضيل باطن المجتمعات على ظاهرها. فحين يدرس عالم الإناسة قرية مثلاً فإنه يعيش فيها، ورؤيته من الداخل تمكنه من استخلاص البنى: يدرس مثلاً البنية السياسية معتبراً إياها كوكبة من العلاقات المعقدة حول سيدّ ما، زعيم ما.

وإذا كان "ليفي ستروس" نفسه قد حرص، أكثر من مرة، على القول بأنّ البنيوية الأنثروبولوجية منهجٌ لا نظرية، فذلك لأنه أراد التأكيد على دور العقلانية العلمية في تأسيس الظاهرة الاجتماعية بوصفها واقعة علمية تقبل التحليل والصياغة الرياضية الدقيقة ككل ما عداها من وقائع طبيعية. وهكذا فالسمة الأساسية الأولى التي تميّز إبستمولوجية "ليفي ستروس" هو أنها تبحث فيما وراء العلاقات الحسية عن تلك البنية التحتية اللاشعورية التي لا يمكن الوصول إليها إلا بفضل عملية بناء استنباطي لبعض النماذج المجردة. ولقد أراد

¹ عبد الله عبد الرحمن بنّيم: المرجع السابق، ص.ص 123-126

² محمد عبد الهادي، ليفي ستروس: الأنثروبولوجيا البنيوية... البنية والحادثة، كتابات معاصرة، المجلد السابع، العدد 26، شباط، آذار 1996، ص.123.

بناء العلم الاجتماعي على أسس منهجية متينة من خلال أخذ مبدأ أساسي يقوم على مفهوم البنية الاجتماعية، وهذا المفهوم لا ينصب على الواقع التجريبي بل على النماذج التي يتم إنشاؤها انطلاقاً من ذلك الواقع، وهي التي استخدمها في محاولته الوصول إلى أنساق من المعقولة، ولئن ارتكزت على نماذج لغوية أساساً إلا أنها ليست مجرد نماذج لغوية وإنما نماذج رياضية¹.

وكما طبّق "ليني ستروس" منهجه على أنظمة القرابة نجده يطبقه على الأساطير، فلا سبيل إلى فهم الأساطير إلا باعتبارها لغة أو لغات رمزية. والفكرة الرئيسة التي يستخلصها هنا هو أن العقل واحد، والتفكير الأسطوري ليس تفكيراً سابقاً على المنطق، بل هو تفكير منطقي على مستوى المحسوس، بمعنى أنه تفكير تصنيفي يستعين بمجموعة من المقولات (نبي ومطبوخ، طازج وفساد، مبلل ومحروق... الخ). والواقع أن مضمون الأسطورة لا يمثل العنصر الأهم من عناصرها، بل إن حقيقة أي أسطورة إنما تنحصر في تلك العلاقات المنطقية الخالية من كل مضمون، أو بالأحرى تلك العلاقات المتمسمة بخصائص ثابتة تستوعب كل ما لها من قيمة عملية، ما دام بالإمكان إقامة علاقات مماثلة بين العناصر الداخلة في تكوين عدد كبير من المضامين المختلفة.

أما عن الفينومينولوجيا فإن مادة التحليل لديها هي خبرة الحياة اليومية، وعالم الحياة المعطى كما يتجسد من خلال تركيبات من المعرفة التي يتم تكوينها ونقلها اجتماعياً. فعلم الاجتماع الفينومينولوجي لا يقتصر في دراسته على مضمون هذه التركيبات المعرفية، ولكن مجال اهتمامه يمتد إلى العمليات التي من خلالها تتكون وتنتقل، وتستقبل مثل هذه التركيبات المعرفية، ودور الأبنية التنظيمية والنظامية في تشكيل مثل هذه العمليات.

ينظر علم الاجتماع الفينومينولوجي للإنسان على أنه يمتلك المبادأة في الفعل الاجتماعي؛ فالفاعل يقف في علاقة جدلية مع الواقع. فهو يعدّ خالق هذا الواقع ونتاجاً له في ذات الوقت².

¹ محمد عبد الهادي، "ليني ستروس: الأساطير، النصوص والعلاقات اللغوية"، كتابات معاصرة، المجلد السابع، العدد 27، نيسان-أيار 1996، ص 121.

² ياس خضير البياتي، النظرية الاجتماعية: جذورها التاريخية وروادها، الجامعة المفتوحة، طرابلس، 2002، ص 205.

تسعى الفينومينولوجيا إلى وصف ظواهر الوعي، وتوضيح كيفية تشكلها. وهذا ما جعلها تنتقد النزعة السيكلوجية، ذاهبة إلى أن العلوم التي تدرس الإنسان (علوم النفس والاجتماع والتاريخ) تحاول تفسير الخبرات الإنسانية من خلال مجموعة من الأسباب الخارجية والداخلية وهي أسباب تعبر عن وجهة نظر الباحثين أكثر مما تعبر عن وجهة نظر المبحوثين.

وتهدف الفينومينولوجيا إلى دراسة أشكال الخبرات الواعية التي طالما سلم بها الفلاسفة والعلماء واعتمدوا عليها في إقامة فلسفاتهم وصياغة نظرياتهم، أي أن الفينومينولوجيا تحاول الوصول إلى أعماق الخبرات الإنسانية باستخدام أسلوب منهجي محدد وهو "الرد الفينومينولوجي" بقصد وصف الخبرات الخالصة¹.

يصر "شوتز" على إعطاء المعرفة العامة الشائعة بعداً تاريخياً وسياسياً واجتماعياً من خلال أفكاره الآتية:

- 1 - المعرفة العامة الشائعة تتألف من نسق معرفي عام يكون من خلاله الفاعل مقولاته الفكرية، التي تساعد على تحديد معالم البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها.
- 2 - تكتسب المعرفة وجوداً تاريخياً، ثم ما تلبث أن تنتقل من خلال أساليب أو وسائل عامة كلغة الحياة اليومية. ومعنى ذلك أن المعرفة تنشأ نشأة تاريخية وتكتسب وجودها الحقيقي من خلال مجموعة من العمليات التاريخية.
- 3 - أن "المعرفة المتبادلة" تتوزع اجتماعياً توزيعاً متبايناً، مما يؤدي إلى ظهور فئة من الناس تتميز بالمبادرة الفكرية في مقابل فئة أخرى تتخذ دور الاستجابة الفكرية.
- 4 - يعتقد "شوتز" بوجود علاقة بين المعرفة والقوة والسلطة في المجتمع الحديث. فالمعرفة تتحول في نهاية الأمر إلى سلاح يستخدم في المواقف الفعلية².

ولتحقيق فهم أفضل للاعتبارات النظرية السابقة من الضروري الغوص في ثنايا المبادئ الفلسفية للمنظور الفينومينولوجي، وهذا بالتأكيد على أن التفكير الفلسفي، بالنسبة

¹ المرجع نفسه، ص.ص 209، 208.

² ياس خضير البياتي، المرجع السابق، ص.ص 217، 216.

إلى "هوسرل"، يتحدد انطلاقاً من موقفنا من إمكانية المعرفة... إن ما يهم الفينومينولوجي بالضبط هو "كيف" المعرفة¹.

أول فكرة نركّز عليها في هذا المقام، هو أنّ كينونة العالم لا تعني وجوده الواقعي، بل معناه الذي يتأسس تدريجياً بواسطة وداخل شعور الأنا المتعالي، أي أن المعرفة لن تكون معرفة إلا إذا ارتبطت بموضوع، كما أن الموضوع لن يكون معروفاً على نحو مطلق، أي في بدهة قطعية، إلا إذا كان محايداً للأنا الترنسندنتالي الذي يستمد منه، ومنه فقط معناه².

في الحقيقة، إن رد الوجود إلى مجموعة من الدلالات والمعاني التي تدركها الذات كحالات معيشة مقصودة من الأنا أفكر الخالص الذي يضيء عليها اليقين المطلق، بالإضافة إلى كونه محاولة لتجاوز الاتجاهين الواقعي والمثالي إلى اتجاه فينومينولوجي ترنسندنتالي يجمعهما ويتخطاهما في آن واحد، وفي بعد شعوري جديد، فإنه أيضاً، وقبل كل شيء، محاولة للتملص من النزعة السيكلوجية التي ظل شبحها يرافق المشروع الفينومينولوجي مدة غير يسيرة من الزمن، ويحول دون فهمه على وجهه الصحيح.

لقد أدرك "هوسرل" أن العلوم الموجودة، رغم أنها لا تصل إلا إلى نتائج تقريبية وغير كاملة على الدوام، فإنها موجهة من حيث القصد. وهنا تكمن قيمتها بالنسبة إلى الفيلسوف، نحو موضوعية مطلقة، وهكذا فإن ما يجب تحليله هو قصد العالم، أي قصدية الشعور، فالأساس لا يمكن أن يوجد إلا من جهة الذات³.

نعود من جديد إلى التحليل الفينومينولوجي للإقرار بأن هناك أمر مهم يجب الإشارة إليه وفهمه جيداً بالنسبة إلى كل من أراد فهم هذا النوع من التحليل، وهو أن الباحث الفينومينولوجي يطرح السؤال التالي: ما هي دلالة ما يكون في أذهاننا عندما نحكم، نثبت، نعلم، نحيا... الخ.

¹ نادية بونفكة، فلسفة إدموند هوسرل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005، ص20.

² المرجع نفسه، ص22.

³ المرجع نفسه، ص53.

وهذا يعني أن الفينومينولوجيا لا تبحث في الوقائع الخارجية والداخلية، بل تركز فقط على الواقع الموجود داخل الشعور، أي على الموضوعات باعتبارها مقصودة من الشعور وفيه، باختصار، على ما يسميه "هوسرل" الماهيات المثالية التي يعني بها بالتحديد الظواهر. فماذا يقصد "هوسرل" بالظاهرة؟

إنّ الظاهرة هي ما يظهر مباشرة في الشعور، أي أنها تدرك في الحدس قبل كل تفكير أو حكم، وما علينا إلا أن نتركها تظهر وتعطي نفسها، فالظاهرة هي ما يعطي نفسه بنفسه.

وعلى هذا الأساس فالمنهج الفينومينولوجي لا يركز فقط على العناية بمضامين وموضوعات المعرفة من حيث قيمتها أو واقعيتها، بل إنه يركز أساساً على وصفها على الصورة التي تعطي كمقاصد خالصة وبسيطة للشعور، أو كدلالات، وعلى إبرازها للعيان. هذا، وليست الماهية، في هذه الرؤية الماهوية حقيقة مثالية ولا حقيقة سيكولوجية، بل هي هدف مثالي، موضوع قصدي للشعور، ملازم له¹.

إن اتخاذ هذا القرار الإرادي، التفكير في الذات، معناه أن تكف هذه الذات عن أن تكون وأن تظل ذاتاً معرفية ساذجة منهمة فقط في دراسة ما تصادفه أمامها من موضوعات، متجاهلة نشاطها الخاص وطبيعته وماهيته².

رأينا أن الفينومينولوجيا، هي أساساً نظرية للمعرفة، غير أن المقصود هنا ليس نظرية للمعرفة أو ابستمولوجيا بالمعنى الكانطي، بل المقصود بالضبط نظرية للوجود، ذلك أن تبيان الكيفية التي تكون بها المعرفة ممكنة لا يعني فقط تحديد الشروط التي يجب أن تتوفر لكي تحصل معرفة ما وإنما، وهذا هو الأهم والأحرى، أن نبين ماهيتها، فالإمكانية والماهية شيء واحد عند "هوسرل"، وبما أن الإمكانية هي الماهية فهي حقاً القبلي الحقيقي... والفعل المعرفي لا يمكن أن يفهم إلا في ارتباطه بشيء ما، أي في علاقته بموضوعه، باعتبار أن هذه العلاقة هي التي تحدد ماهية كل منهما، ومن هنا، وبهذا المعنى كانت ماهية المعرفة

¹ نادية بونفقة، المرجع السابق، ص.ص 60، 61.

² المرجع نفسه، ص 69.

عند "هوسرل" هي نفسها ماهية الوجود، والعكس صحيح، أي من حيث إن إحداها ضرورية ضرورة مطلقة لفهم الأخرى¹.

لا ريب أن الموقف الطبيعي بسذاجته الأصيلة هو محور الهجوم الرئيسي في فلسفة "هوسرل" بأسرها، وهو الأصل الذي تصدر عنه النزعة الطبيعية السائدة في العلوم الإنسانية، والتي وضعت بدورها هذه العلوم في أزمة لا مخرج منها. وإذا كان "هوسرل" قد توجه بالنقد أيضاً للنزعة التاريخية والنظرة الشاملة للعالم فلأنها عجزت في مجال الفلسفة عن التحرر والخلاص من بقايا ذلك الموقف الطبيعي الذي أسلمها إلى النسبية والشك. على حين أن "هوسرل" قد نذر نفسه لوضع الأسس والمبادئ لكل من الفلسفة والعلم، تلك التي في وسعها أن تحقق على نحو حاسم ونهائي، كل ما هو ضروري للوصول إلى فهم سليم من شأنه أن يوضح كل معرفة تجريبية، وكل معرفة على وجه العموم. فكأنه قد حاول في ضربة واحدة أن يقضي على الشك والنسبية في كل مجالات المعرفة ليقيم على أنقاضها الموضوعية في الفلسفة والعلم على السواء².

والموقف الطبيعي هو ذلك الموقف الذي يسلم في سذاجة بوجود العالم الخارجي دون أن يتوجّه إليه أولاً بالشك وتعليق الحكم. ويترتب عليه النظر إلى الذات مقابلاً للموضوع كما يؤدي إلى كثرة من الثنائيات الذائعة الشهرة في الفلسفة مثل الحقيقة والظهور، والجوهر والعرض، والشيء في ذاته والظاهرة، وهي ثنائيات أسهمت في إنشاء المذاهب المتعارضة كالمثالية والواقعية، والعقلانية والتجريبية التي قامت بدورها في عرقلة مسير الفلسفة نحو غايتها لكي تكون علماً محكماً.

وإذا كان لنظرية المعرفة أن تبحث العلاقة بين الوعي والوجود فلا بدّ أن تُعنى بالوجود بوصفه شيئاً مقصوداً وفقاً لأسلوب الشعور: أي بوصفه مدركاً، أو متذكراً، أو متوقفاً، أو متمثلاً على هيئة صورة ذهنية، أو متخيلاً، أو معتقداً فيه... الخ.

¹ نادية بونفقة، المرجع السابق، ص.ص 116، 117.

² صلاح قنصوه، الموضوعية في العلوم الاجتماعية، دار التنوير، بيروت، 2007، ص.ص 206، 207.

المبحث الخامس: آفاق علم اجتماع المعرفة

من المواضيع المحورية لعلم اجتماع المعرفة لدينا التحليل السوسيولوجي لمضامين البرامج الدراسية، التي تمثل على مستوى المخيال الاجتماعي، فرض ثقافة معينة على حساب ثقافات أخرى، وفكر نخبة محددة على حساب نخب أخرى؛ ومصالح طبقة اجتماعية على حساب مصالح طبقات اجتماعية أخرى. وكل هذا في إطار تصور منظومات التربية كرهانات اجتماعية تسمح في الغالب بإعادة إنتاج الاجتماعي.

وتحمل مقترحات الإصلاح التربوي في طياتها بعض الافتراضات حول القاعدة المعرفية اللازمة للتدريس. فعندما يدعو الداعون إلى الإصلاح بتعزيز أوجه إعداد المعلمين وزيادة مدة التدريب فإنهم يفترضون ضرورة أن يكون هناك شيء هام ينبغي تعلمه. وعندما يوصون برفع مستوى المعلمين وإدخال نظام اختبار لقياس قدراتهم فإنهم يفترضون أن هناك قدرًا من المعرفة والمهارات ينبغي إجراء اختبار عليها¹.

لو أردنا تضمين المعرفة التي ينبغي أن يتحلى بها المعلم، في كتاب مرجعي أو دائرة معارف أو أي شكل آخر من أشكال تصنيف المعرفة، فما هي العناوين الرئيسية لهذه المعرفة؟ ربما تتضمن هذه العناوين، في حدها الأدنى، الأبواب التالية:

- معرفة المحتوى العلمي.

- معرفة عامة بالتدريس، مع الإشارة بشكل خاص إلى تلك القواعد والاستراتيجيات الخاصة بإدارة الفصل وتنظيمه التي تتسامى على المحتوى العلمي.

- معرفة بالمنهج، مع فهم خاص للمواد التعليمية والبرامج التي تشكل الأدوات الأساسية للمدرس.

¹ لي. إس. شومان، "المعرفة والتعليم"، تر: علي حسين حجاج، الثقافة العالمية، العدد 40، ماي 1988، ص 48.

- معرفة المحتوى العلمي بطريقة تدريسية، أو ذلك المزيج من المحتوى وأساليب التدريس الذي يتقرّد به المدرسون، أو ذلك الشكل الخاص من أشكال الفهم المهني الذي لا يعرفه سوى المدرسين.

- معرفة المتعلمين وخصائصهم.

- معرفة المحيط التربوي، بدءاً بعمل الطلبة في مجموعات داخل الفصل، مروراً بالإدارة المالية والمدرسية إلى خصائص المجتمع وثقافته.

- معرفة الأهداف التربوية ومراميها وقيمها وأسسها الفلسفية والتاريخية¹.

ما أثار اهتمامنا في مجال علم اجتماع المعرفة، هو دراسة التيارات الدينية بمختلف مشاربيها الفكرية ومصالحها الاجتماعية ومشاريعها السياسية، وهذا من خلال الاهتمام بالجذور التاريخية للمذاهب والفرق الدينية، وعلاقة ذلك كله بالمحددات الثقافية والاقتصادية للرؤى والقناعات والمواقف الدينية.

يمكن لعلم اجتماع المعرفة المساهمة في تقييم الفكر العربي وهذا عن طريق الاستعانة بأدوات منهجية صارمة وأطر نظرية ناضجة، وهذا للخروج من التناولات الاجترارية والمقاربات السطحية والأطروحات المتحيّزة، فما لمسناه بصفة عامة هو أن الدراسات المنجزة لفهم الفكر العربي لم تلتزم الاعتبارات الإبيستمولوجية ولا الضوابط العلمية فإزداد التيه والضبابية والغموض.

ونحتاج لفهم التراث العربي إلى استخدام المقاربات العلمية المقترحة من طرف علم اجتماع المعرفة، وخاصة لإبراز دور الأطر الاجتماعية في تحديد مضامين الفكر، ومن ثم تجاوز المعالجات المجردة والمناهج التأملية البعيدة عن التجليات الملموسة واستبدالها بروى موضوعية وفحص واقعي.

¹ لي. إس. شولمان، المرجع السابق، ص52.

إن معظم الأسئلة التي ينبغي طرحها على التراث لا تزال تدخل في دائرة اللامفكر فيه أو المستحيل التفكير فيه. هذا يعني أن السؤال المطروح ليس هو: ما هي الأشياء والموضوعات التي فكر فيها الفكر العربي المعاصر، وهل فكر بشكل صحيح أم لا؟ وإنما هو: ما هي الأشياء التي لم يفكر فيها حتى الآن، وما هي الموضوعات التي لم يطرقها؟

السؤال المطروح ليس هو: كيف نفهم التراث، وطبقاً لأية منهجية "مادية" كانت أم "مثالية" أو غير ذلك من الكلام والثرثرة وإنما هو: لماذا لا نستطيع أن نطرح حتى الآن أي سؤال له معنى على التراث؟ السؤال إذن يخص بداية الأسئلة، يخص الأسس والجذور لا الفروع والقشور. ولذا فإنه يلزمنا قبل كل شيء "كاسحة ألغام" لعزل الطريق وحفر الركاب ثم إزاحة الأسئلة الخاطئة أو المجانية والتمهيد من أجل طرح الأسئلة الصحيحة أو الحقيقية. يلزمنا أن نفعل ذلك قبل أن نتمكن من طرح أبسط سؤال على ماهية التراث وأصل التراث وتطور التراث عبر العصور والمجتمعات ثم أخيراً: تاريخية التراث. هل التراث له علاقة بالتاريخ والمجتمع أم أنه يسبح خارج التاريخ وفوق المجتمع؟ هل هو الذي يقود المجتمع ويوجهه في كل الظروف والمنعطفات أم أنه يتأثر بالمجتمع ويتلون بألوانه المحلية الخاصة؟ هل الأحداث الكبرى والشخصيات الأساسية والنموذجية التي تملأ ذاكرتنا الجماعية وخيالنا الواسع لها علاقة بالتاريخ والصراعات الاجتماعية والسياسية التي عايشتها أم أنها تعلو على كل الإكراهات والقيود؟¹

إنّ على مؤرخ الفكر أن يقوم بعمل الأركيولوجي من أجل إزاحة الركاب واكتشاف الطبقات العميقة للحقيقة التاريخية أو الواقع التاريخي. يعني التفكيك أيضاً تعرية آليات الفكر الذي وُلد النظريات المختلفة والتشكيلات الإيديولوجية المتنوعة والتركيبات الخيالية والأنظمة الإيمانية والمعرفية. وكل ذلك من أجل نزع البدهة عنها وتبيان منشأها وتاريخيتها وبالتالي نسبيتها.²

ومن الإشكاليات الكبرى في علم اجتماع المعرفة لدينا مسألة العلاقة بين العلم والفلسفة فالدراسات التي أنجزت في هذا الباب لم تقدم إجابات وافية ومعارف مؤسسة، خاصة إذا

¹ هاشم صالح، التراث العربي الإسلامي والطفرة العلمية الحديثة، الوحدة، السنة الثانية، العدد 20، ماي 1986، ص 32.

² المرجع نفسه، ص 33.

علمنا أنّ من ثوابت تاريخ الفلسفة حتى عهد غير بعيد محاولة، استيعاب العلوم داخل الأنساق الفلسفية بصيغ مختلفة. وهي عملية تنتهي دائماً إلى تزكية الفلسفة معرفة وحيدة جديدة بأن تكون "المعرفة"، وترشيح الفيلسوف عالماً، جديراً بأن يكون "العالم" واصطفائه المؤتمن الوحيد على "الحقيقة"، مطلق الحقيقة، وبذلك تكون الفلسفة، في السلم التفاضلي، قيمة مهيمنة والعلوم قيمة مهيمناً عليها.

والحقيقة أن الشأن هنا لا يختلف جوهرياً عما نجد في بقية استراتيجيات الهيمنة القاضية كلها بضرورة إفراغ "الآخر" من محتواه وإفقاره إلى الحد الأقصى، أي أن شرط إمكان هيمنة الفلسفة على العلم هو هذا الإفكار الذي تمارسه عليه.

فالفلسفة لا تكون "إدراك الكل" و"الخطاب المؤسس" و"القول المشرّع" إلا تجاه "علم خيالي" (=مثالي = وهمي) هو الذي تهضمه في صهرها وتضع له الأسس وتشرّع له الحدود. فلئن كان لا بد من القول بأن "الفلسفة أم العلوم"، فلنكن أماً ولكن لعلومها هي، لأنها لا تستطيع أن تكون أم علوم العلماء، وهو عجز لا تقدر الفلسفة على أن تُقر به لأنها لا تعيه موضوعياً¹.

لا يفوتنا في السياق نفسه التأكيد على قضية سوسولوجية مهمة، والتي طرحت منذ عقود، وهي اعتمادنا على علم اجتماع الغرب في دراسة أفكارنا ومخيلتنا الاجتماعية وفي بحث نسقنا الرمزي.

لقد أضى الاهتمام المتأخر نوعاً ما بعلم اجتماع المعرفة شاهداً لا يدحض على ضرورة "ارتباط المعرفة ككيان ذهني يتمتع بعناصر مستقلة وثابتة، بالمسار الاجتماعي العام... فمعرفة (المعرفة)، أي معرفة مدى ارتباط أشكالها بالإطار الاجتماعي هي مهمة علم اجتماع المعرفة الرئيسية" ومن ثم فإن "ملاحظة الواقع ودراسة خصوصياته على الصعيد المعرفي تؤدي بنا حتماً إلى تحديد معالم علم اجتماع معرفي يتلاءم مع المعطيات العربية بصفة عامة" والقاسم المشترك بين علماء السوسولوجيا في تحديد مفهوم المعرفة هي "أنها تتكوّن من مجموعة الأحكام والأفكار والتصورات التي تحكم أذهان مجموعة بشرية، وعدة

¹ حمدي بن جاب الله، "العلم في الفلسفة"، الفكر العربي المعاصر، العدد 29، 1984، ص 24.

مجموعات بشرية، تعيش في إطار اقتصادي وسياسي محدد. ومهمة علم اجتماع المعرفة هي دراسة جميع الترابطات الممكنة والمعبرة بين بعض، أو جميع هذه المستويات¹.

وليس بإمكان علم اجتماع المعرفة أن يؤسس على هامش التنازع والتغالب الحضاري/ ومنه السياسي في العلم، بل من الضرورة بمكان أن يكون تأسيسه شمولياً، وعالمياً، حتى يكتسب أهليته كعلم. وإلا فإننا نعاود الصراع من منظور مختلف، ونرهن كل شيء بالخيار الإيديولوجي المسبق. ومثال ذلك أن "غورفيتش" الذي يحذرنا كثيراً من الانجرار وراء العقبات التي يصادفها هذا العلم، وفي مقدمتها الأوهام والمفاهيم الشائعة عن المعرفة، وفي مجرى إنتاجها الاجتماعي، نراه يستغرق بدوره، في دوامة الأوهام الإيديولوجية التي تصب بشكل أو بآخر في تاريخ المعرفة الذي يتطلب نقداً علمياً، لا انقياداً عقائدياً، من أقل نتائجه إلغاء الآخر كعارف/ تمهيداً لإلغاء أو تجميد مرتكزات معرفته الاجتماعية، المعارة من الدوافع التاريخية والحضارية. إن "جورج غورفيتش" حين سعى إلى كتابة تاريخية لعلم اجتماع المعرفة أسقط معرفة "الآخرين" من حسابه - ليس لأنه من الصعب عليه أن يطلع على بعض الكثير المنشور عنها في اللغات التي يعرفها (كالروسية والفرنسية وسواهما)، بل لأنه انطلق من وهم إيديولوجي خاطئ، ومن تصنيفات مسبقة تستحق النقد التقويمي، لا الاعتماد كمراجع ثابتة وخالصة. الآخرون المعرضون للإلغاء هم هنا على الأرض، ونحن منهم، وبما أن هذا العلم ما يزال في حالته التأسيسية، فليس من المقبول عندنا التسليم بهذه البضاعة الثقافية، فنقبل على استهلاكها كما نستهلك أي سلعة منتجة ومستوردة دون أن نكلّف أنفسنا عناء التدقيق في نوعيتها وجودتها وصلاحها أو سلامتها².

إن مستقبل العلم عامة، وعلم اجتماع المعرفة خاصة، مشروط في بلادنا بشرط التخطيّ النقدي لكل الحالات اللاسوية التي تعترض مصداقية العلم وفعالية العلماء، واجتثاث جذور المزاعم والابتسار والأوهام السائدة، ليس من العمليات الذهنية التي يمكن أن تتم في مختبر فلسفي تجريدي. إننا بحاجة إلى الدخول في حالة التجربة العلمية المعرفية النقدية.

¹ غالي شكري، "من الإشكاليات المنهجية في الطريق إلى علم اجتماع المعرفة"، المستقبل العربي، العدد 1985، 77، ص 126.

خليل أحمد خليل، المرجع السابق، ص 64.

الفصل الثاني

جذور علم اجتماع المعرفة

تمهيد

خصصنا هذا الفصل للحديث عن علم اجتماع المعرفة من منظور غربي، وهذا للحفاظ على الاتساق العام للمقاربة المقترحة طيلة هذه الدراسة. وعدم إدراجنا لابن خلدون كرائد من رواد علم اجتماع المعرفة ليس إنكاراً للمساهمات الكبيرة التي أنجزها في هذا الإطار.

ما أردنا التأكيد عليه في ثنايا هذا الفصل هو الوقوف عند دقائق المسائل والقضايا المرتبطة بعلم اجتماع المعرفة كما تصورها علماء الاجتماع الأوائل، والأكثر من ذلك سعيينا لتقديم تفاصيل تمس المعرفة بأكملها في إطار سوسيولوجي شامل.

وما تجدر الإشارة إليه كذلك، هو أنّ رواد علم اجتماع المعرفة في الغرب، انفقوا على أمور كثيرة تبرز الأصل الاجتماعي للمعتقدات والأفكار والآراء والتوجهات، واختلفوا في أساليب التفسير والفهم والشرح، فـ "ماركس" مثلاً يعطي الأولوية للاقتصاد كعامل أساسي لتحديد مضامين الإيديولوجيات، أما "أوغست كونت" فقد رأى أن الإصلاح الاجتماعي والتقدم الإنساني يستلزمان إصلاحاً فكرياً جذرياً، في حين أكد "إميل دوركايم" أن الدين لا يعبر في الواقع إلا عن المجتمع الذي وجد فيه، والفلسفة والعلم يجسدان الامتدادات المختلفة للدين، وكل التصنيفات الاجتماعية والمقولات البشرية (كمقولتي الزمان والمكان) ما هي إلا تعبيرات منطقية للنشاطات الإنسانية القائمة على التفاعلات الاجتماعية المتعددة.

وقد أعطى "ماكس فيبر" أبعاداً جديدة لعلم اجتماع المعرفة بدراسته للعقلانية الغربية المبنية على تطوّر العلوم وبروز التخصصات، وأشكال التنظيم. كما اهتم بتأثير الأخلاق الدينية على الممارسات الاقتصادية.

ولا يكتمل عرض جذور علم اجتماع المعرفة، إلا إذا أدرجناه في إطار أوسع يتمثل في المبادئ الأساسية لعلم الاجتماع وتصور كل مؤسس لموضوعه والمناهج التي من اللازم الاهتداء بها، للوصول إلى الحقيقة العلمية المتصلة بالواقع الاجتماعي.

المبحث الأول: "أوغست كونت" وتطور الفكر البشري

كان تفكير "أوغست كونت" Auguste Comte انعكاساً للأحداث المضطربة التي اتسم بها عصره. فقد أدخلت الثورة الفرنسية تغييرات مهمة على المجتمع، وكان التصنيع المتنامي قد بدأ بتعديل أساليب الحياة التقليدية للفرنسيين. ومن هنا سعى "كونت" إلى وضع علم جديد للمجتمع لتفسير القوانين التي تنظم حياة العالم الاجتماعي مثلما هي الحال في العالم الطبيعي.

أدرك "كونت" أن لكل مجال علمي موضوعه الخاص، إلا أنه رأى أن هذه المجالات جميعها ينظمها منطق واحد، وتتحرك وفق منهج علمي يهدف إلى كشف النقاب عن قوانين شاملة. ومثلما يسمح لنا اكتشاف القوانين التي تحكم العالم الطبيعي بالسيطرة على الأحداث والتنبؤ بوقوعها حولنا، فإن كشف القوانين التي تحكم سلوك المجتمعات الإنسانية سيعيننا على رسم مصائرنا والارتقاء بحالة الرفاه البشري. والمجتمع، مثله مثل العالم الطبيعي، يمثل في أنشطته لقوانين ثابتة لا تتغير¹.

لقد ذهب "جون ستيوارت مل" إلى أن تأثير "كونت" في تطور علم الاجتماع كان أكبر بكثير من منجزاته الفعلية، وأن أعماله، وإن لم تقدم علم الاجتماع كعلم، إلا أنها جعلت من مهمة مثل هذه أمراً ممكناً و ميسوراً.

وعلى الرغم من أن شارحي أعمال "كونت" قد أشاروا إلى تحيِّزه القوي للنزعة المحافظة إلا أن مكانته في تاريخ علم الاجتماع ستظل مرموقة، وتشهد بها محاولاته لوصف وتفسير نشأة المجتمع الصناعي وتطوره، وتحليله الرائع للآثار الاجتماعية الناجمة عن تقسيم العمل وتراكم الثروة وتطور النزعة الفردية، ثم نبذه للميتافيزيقا من أجل وضع مناهج علمية لدراسة الوقائع الاجتماعية².

¹ أنتوني غدنز، علم الاجتماع، تر: فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص.ص 61، 62.

² ألان سوينجود، تاريخ النظرية في علم الاجتماع، تر: السيد عبد العاطي السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996، ص. 55.

وقد كان موقف "كونت" من فلسفة التنوير موقفاً سلبياً: فعلى الرغم من قبوله لنظرية التقدم، وبخاصة فكرة "كوندرسيه" عن التطور الاجتماعي الذي يحدث من خلال فعل قوانين طبيعية خاصة، إلا أنه - أي "كونت" - رفض الاتجاه الوضعي النقدي الذي سيطر على الفلسفات العقلانية في القرن الثامن عشر، منتقداً بشدة هجومه السلبى على قيم السلطة والأخلاق التقليدية وعلى النظم الدينية والأسرة. لقد رفض على وجه الخصوص وجهة نظر فلاسفة التنوير التي رأت في مجتمع ما قبل الصناعة، وبخاصة في العصور الوسطى، كما لو كان يمثل فترات الظلمة الحالكة في تاريخ الحضارة.

فقد اتفق "كونت" مع "سان سيمون" في أن عصر التنوير قد قوّض أسس "الصرح الجديد" أكثر مما دعمها. إن هذا البناء الجديد يجب أن يوجه كلياً لصالح النظام والاتفاق الاجتماعي، فيجب أن يكون الهدف الأسمى للسياسات هو العمل على تجنب الثورات العنيفة التي تنشأ عن الصعوبات المواجهة أو المعارضة لتقدم الحضارة والمدنية¹.

من هذا المنطلق أخذت دروس "كونت" الوضعية على عاتقها مهمة إعادة التنظيم الاجتماعي: ففي خضم "الفوضى" التي كانت تسود المجتمع في ذلك الوقت، بدأ لـ "كونت" أن "العلم الحقيقي" لا يقل بحال من الأحوال عن كونه تأسيساً لنظام عقلي أو فكري، الذي هو أساس أي نظام آخر. ومن ثم يصبح من الممكن أن ننظر إلى الاتجاه الوضعي، كعلم لإعادة البناء والاستقرار الاجتماعي وعلى أنه استجابة مباشرة لما خلفته فلسفة التنوير من تراث تميز بالنقدية والسلبية، خاصة في محاولته الربط أو التوحيد بين فكريتي النظام والتقدم.

كان "كونت" معجباً بمؤلف "روح القوانين". فقد لاحظ أن القوة الكبيرة في هذا العمل التذكاري، تكمن في اتجاهه لاعتبار الظواهر السياسية موضوعات تخضع لقوانين ثابتة، شأن كل الظواهر. وعلى غرار "مونتسكيو"، افترض "كونت" وجود علاقة اعتماد متبادل بين الأجزاء في النظام الاجتماعي. فكل عنصر من العناصر الاجتماعية العديدة، ينظر إليه دائماً بالنسبة لكل العناصر الأخرى، التي يرتبط بها في تضامن أساسي. ولأنّ الظواهر

¹ ألان سوينجود، المرجع السابق، ص.ص 55،56.

الاجتماعية مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً فإن كل دراسة منعزلة للعناصر الاجتماعية تعد غير عقلانية من حيث الطبيعة الأساسية للعلم الاجتماعي، وسوف تظل عقيمة¹.

إن رؤية "كونت" لعلم الاجتماع كانت رؤية علمية وضعية. وكان ينبغي على علم الاجتماع، في اعتقاده، أن يطبق المنهجيات العلمية الصارمة نفسها في دراسة المجتمع، كما هو الحال في الأساليب التي تتهجها الفيزياء وعلم الأحياء في دراسة العالم الطبيعي. وترى المدرسة الوضعية أن على العلم أن يُعنى بالكيانات العيانية التي يمكن ملاحظتها واختبارها بالتجربة فحسب².

والمجتمع الإنساني هو نسق يتألف من أجزاء متساندة، وهو شيء يفوق الأفراد، ومن ثم يحتاج إلى دراسة خاصة. ذلك أن الأفراد لا يمكن فهمهم إلا في سياق المجتمع الذي يعيشون فيه.

وعلم الاجتماع مثله مثل العلوم الأخرى ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما: الاستاتيكا (الاستقرار) والديناميكا (التطور). وتهتم الاستاتيكا بدراسة الشروط الضرورية لوجود المجتمع الإنساني، ومن ثم فإن التركيز يكون أساساً على النظام العام. ودراسة النظام العام هي دراسة عوامل التوازن والتناغم والانسجام في بنية المجتمع، تلك العوامل التي تستند أساساً إلى ما أطلق عليه "كونت" مصطلح الاتساق العام، والاتساق العام هو الارتباط الضروري القائم بين عناصر المجتمع ومكوناته الرئيسية، ذلك الارتباط المائل في عقل الباحث، بحيث يجتهد في العثور على أفضل المناهج والطرق الملائمة لدراسته. وجدير بالذكر أن هذا الاتساق قائم في كافة مجالات الحياة الإنسانية.

تشبه الدراسة الاستاتيكية للنظام الاجتماعي ما اصطلح على تسميته بلغة علم الاجتماع المعاصر باسم البناء الاجتماعي. ذلك أنها دراسة عضوية، تتجه نحو التركيز على "الكل" ذلك أنه بحكم مسألة الاتساق، فإن الأجزاء يمكن فهمها في إطار العلاقة

¹ ميشيل تومبسون وآخرون، نظرية الثقافة، تر: علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 223، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997، ص 201.

² أنتوني غدنز، المرجع السابق، ص 62.

المتبادلة بينها وبين الكل. ومن ثم فإن بؤرة هذه الدراسة تتمثل في التركيز على الصلات المتبادلة بين الوقائع الاجتماعية. وقد ركّز "كونت" على عدد من الوحدات الأساسية مثل الأسرة، وتقسيم العمل، والملكية، والحكومة، والدين والأخلاق.

أما الديناميكا فإنها معنية بالتطور الذي يطرأ على العلاقة بين هذه الأنظمة الأساسية في مختلف المجتمعات، وخلال العملية التاريخية التراكمية. فالديناميكا الاجتماعية تبدأ بدراسة النمو في ذاته. ولكن "كونت" يذهب شأنه شأن معاصريه إلى أن هذا النمو تقدمي أساساً. فالتقدم ظاهرة ملحوظة في كل المجتمعات الإنسانية. والاستاتيكا بحكم موضوعها هي دراسة تحليلية، أما الديناميكا ينبغي أن تكون دراسة إمبريقية.

يؤكد "كونت" أنه بدراسته التطور الكلي للتاريخ الإنساني في مجالات النشاط المتعددة منذ انطلاقة الأولى الأكثر بساطة حتى الأيام التي عاشها، فقد اعتقد أنه اكتشف قانوناً كبيراً وأساسياً، يرتكز على أن كل مفهوم من مفاهيمنا الأساسية، كل فرع من معارفنا، يمر بالتعاقب بثلاث مراحل نظرية مختلفة: المرحلة اللاهوتية أو الوهمية، المرحلة الميتافيزيقية أو المجردة، المرحلة العلمية أو الوضعية. وبكلمات أخرى، فإن الذات الإنسانية في طبيعتها، تستعمل بالتعاقب في كل واحدة من أبحاثها ثلاثة طرق للتفلسف، حيث صيغتها مختلفة جوهرياً ومتضادة جذرياً: أولاً المنهج اللاهوتي ثم الميتافيزيقي، وأخيراً المنهج الوضعي. ومن هنا ثلاثة أنواع من الفلسفة، أو المنظومات العامة للمفاهيم حول مجموعة المعارف الإنسانية، والتي تتباعد تبادلياً، الأولى هي نقطة البداية الضرورية للذكاء الإنساني الثالثة هي حالته الثابتة والنهائية، الثانية مخصصة فقط لمساعدة الانتقال¹.

المرحلة اللاهوتية: في هذه المرحلة تقود الذات الإنسانية أبحاثها جوهرياً نحو الأسباب الأولى والنهائية، أي نحو المعارف المطلقة، حيث تتمثل الظواهر كنتائج بواسطة الفعل المباشر والمتصل بعوامل فوق طبيعية.

والعقل الإنساني في هذه المرحلة يبحث عن أصول الظواهر وأسبابها النهائية محاولاً تحليلها كنتيجة لفعل قوى خفية خارقة للطبيعة، ومن ثم غلب الخيال والمشاعر على هذه

¹ Auguste comte. Cours de philosophie positive. Leçon 1 et 2. Cérès Editions, Tunis, 1994, P16.

المرحلة. وتنقسم المرحلة اللاهوتية بدورها إلى ثلاث فترات منفصلة وهي فترة الفتشية أو عبادة الأصنام؛ وهنا تعرّف الطبيعة في حدود مشاعر الإنسان وأحاسيسه. ثم فترة تعدد الآلهة أي الإيمان بآلهة وقوى روحية متعددة. ثم أخيراً فترة الوجدانية الإلهية أي الاعتقاد بوجود إله واحد، واليقظة التدريجية للعقل والفكر البشري بما يحتويه من قيود على الخيال¹.

والخيال والشعور هما محركا البحث عن الحقائق في المرحلتين الأوليتين للفلسفة اللاهوتية، وفي مرحلة الوجدانية يظهر الفكر التحليلي والنقدي اللذان يحضران للمرحلة اللاحقة.

ويلاحظ أن طبيعة التنظيم الاجتماعي السائد خلال المرحلة اللاهوتية هو تنظيم عسكري. فالقوة العسكرية هي التي تحقق الاستقرار الاجتماعي.

المرحلة الميتافيزيقية:

إن التبريرات التي تصاحب تقديم المرحلة الثانية تنتمي بدقة إلى نفس متطلبات الاتصالية. فالذهن الإنساني لا يعمل بواسطة تحويل جذري لمرحلته الأولى نحو مرحلته النهائية، بل بواسطة تحويلات متدرجة، فمن الواضح أنه عندما يتكلم "كونت" عن ثورة للذهن الإنساني، يجب أن يفهم هذا الحد بالاستناد إلى أنموذج طبيعي لثورة فلكية، كانتقال بطيء وتقدمي بدلاً من ثورة سياسية. فالعقل الإنساني مضطر إلى السير ببطء درجة فدرجة، لا يستطيع أن يمر بطريقة فجائية ودون وساطة من الفلسفة اللاهوتية إلى الفلسفة الوضعية. إن المفاهيم الميتافيزيقية هي التي تملأ هذا الدور الوسيط.

إن محتوى هذه المفاهيم محدد تماماً بواسطة الوظيفة المؤقتة التي تضطلع بأعبائها، كتوسطات فهي ملتبسة كذلك. والذكاء الإنساني كان عليه أن يستعمل مفاهيم وسيطة، لها صفة هجينة مختصة لذلك لكي تقوم بالنقلة تدريجياً. فالذات عندما تصبح ميتافيزيقية، لا تكون أبداً في المرحلة اللاهوتية، ولا كذلك في المرحلة الوضعية. ففي المرحلة الميتافيزيقية،

¹ بيار ماشري، كونت: الفلسفة والعلم، تر: سامي أدهم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1994، ص. ص

التي ليست سوى تغير بسيط عام للمرحلة الأولى فإن المحرضات فوق/طبيعية تستبدل بقوى مجردة¹.

إن آخر هدف للمنظومة الميتافيزيقية يتعلق في تصور كائن عام وحيد عوض كائنات مختلفة خاصة، وتصور الطبيعة كمنبع وحيد لكل الظواهر. لكن هذا التفسير "الطبيعي" لا يقل عن أن يكون فوق/طبيعي في مبدئه، كالمبادئ التي ينوى أن يحل مكانها.

تمتاز المرحلة الميتافيزيقية كذلك، بالتأمل، والبحث عن المعاني، والكشف عن الجواهر. أما التغيرات النظامية التي تشهدها هذه المرحلة فهي نمو القدرة الدفاعية واتساع نطاق القانون بحيث يمهد ذلك الأساس للحياة المدنية التعاونية.

المرحلة الوضعية

إن الذهن الإنساني في المرحلة الوضعية الذي يتعرف على استحالة الحصول على مفاهيم مطلقة، يتراجع عن البحث عن الأصل وعن مصير العالم، ومعرفة الأسباب الخاصة للظواهر، وذلك للمثابرة فقط على الاكتشاف بواسطة الاستعمال المدمج تماماً للبرهان والملاحظة، عن قوانينها الفاعلة، أي عن علاقاتها الثابتة للتعاقب وللتشابه.

إن الميزة الأساسية للفلسفة الوضعية هي ملاحظة كل الظواهر وهي خاضعة لقوانين طبيعية ثابتة، حيث الاكتشاف الدقيق والاختزال إلى أقل عدد ممكن هو الهدف لكل جهودنا، وذلك باعتبار أن البحث عن الأسباب الأولى والنهائية هو فارغ من أي معنى ولا يمكن الوصول إليها على الإطلاق².

وهكذا فالذات العارفة تعاد إلى حدود التجربة، وهذا لا يعني أن تكون خاضعة لها ويتراجع عن تفسير الظواهر بواسطة علل مطلقة، من خارج التجربة، فهو يحاول تحديدها بواسطة قوانينها... ومن هنا فالعقلنة لا توجد أبداً وراء التجربة، بل تتطابق مع الأشكال الداخلية لتنظيمها.

¹ بيار ماشري: المرجع السابق، ص35.

² المرجع نفسه، ص37.

وليس الغرض هنا عرض الأسباب المكوّنة للظواهر، بل الهدف هو التحليل الدقيق لظروف إنتاجها، ومقارنة الواحدة مع الأخرى بواسطة علاقات متطابقة من التعاقب والتشابه. يتجه العلم الوضعي نحو البحث عن القوانين التي تحكم وقوع الظواهر، تلك التي لا تزيد عن كونها قضايا تتعلق بالارتباط بين الوقائع.

والنظرية في نظر "كونت" تعتمد على الوقائع الملاحظة، وكذلك الوقائع لا يمكن ملاحظتها من غير توجيه نظري. ومن غير هذا التوجيه، تصبح الوقائع مبهمة وعقيمة، بل ويتعذر علينا إدراكها.

الروح الوضعية الحقة إنما تنهض أساساً على البحث من أجل التنبؤ، والتنبؤ في جوهره هو معرفة الوقائع بطريقة غير مباشرة، وذلك من خلال علاقتها المباشرة بوقائع أخرى معروفة. وهكذا، يصل "كونت" إلى قاعدة محورية وهي من العلم يأتي التنبؤ، ومن التنبؤ، يأتي العمل.

ذهب "كونت" إلى أن نمو كل علم خضع إلى المراحل الثلاث، ويبدو ذلك على أنه تنظيم ضروري لمعرفة البحث الإنساني. وهكذا، يبدو ضرورياً ترتيب تسلسل العلوم في ضوء تطورها التاريخي، وفي ضوء الاعتماد المتبادل بعضها على بعض، ذلك أن كل علم يركز على العلم السابق عليه، ويمهد الطريق للعلم الذي يأتي بعده، وكذلك درجة العمومية، ودرجة التعقيد، ومدى قدرة كل علم على تعديل الوقائع التي تناولها. وعلى أساس هذه المعايير حدّد "كونت" ترتيبه للعلوم وفق تسلسلها على النحو التالي: الرياضيات، والفلك، والكيمياء، والفيزياء، والبيولوجيا وعلم الاجتماع.

يظهر العلم لكي يحقق هدفاً معيناً، وهو تفسير طائفة من الوقائع واكتشاف القوانين التي تحكمها. ومن ثم يمكن ترتيب العلوم بطريقة منظمة وفقاً لمنطق ظهورها. وكل علم له استقلالية في تطوير المناهج الملائمة لدراسة موضوعه الخاص.

جدير بالذكر أن "كونت" لم يزعم بأن هذا التسلسل للعلوم نهائي أو مطلق، وإنما هو يعتقد أنه ربما يكون مفيداً ومقنعاً من حيث قدرته على تنظيم المعرفة العلمية وإتاحة الفرصة

لإجراء الاستنتاجات والاستخلاصات الممكنة بين العلوم. وكذلك أكد "كونت" أن دراسة الإنسان والمجتمع التي هي موضوع علم الاجتماع هي أكثر الدراسات تعقيداً وتشابكاً.

إن يشغل علم الاجتماع قمة النسق التسلسلي للعلوم، وذلك لأنه يعتمد على هذه العلوم جميعاً في تكوين رؤية متكاملة للحياة الاجتماعية، وظهور علم الاجتماع هو الذي يكمل ويتم سلسلة العلوم، لأنه سوف يغطي النقص الذي عانت منه المعرفة العلمية كثيراً، والذي تمثل في انعدام وجود فيزياء اجتماعية¹.

إن التطور الاجتماعي الذي تصوره "كونت" على أنه تطور تقدمي للعقل البشري ممثلاً في قانون المراحل الثلاثة، هو إذن عملية دون تدخل من الذات، إنه تاريخ عام وعالمي للإنسانية يؤكد أهمية المعرفة بالنسبة لأهداف إعادة التنظيم الاجتماعي، ولكنه في الوقت ذاته يخضع الفرد لحقائق أو وقائع الحياة الاجتماعية التي لا مفر منها، ألا وهي الحاجة إلى النظام والتقدم².

لقد كان من المؤلف قبل "كونت" أن توصف علاقة ما هو اجتماعي بما هو سياسي كما لو كانت علاقة انسجام وتناغم داخلي وتلقائي. إلا أنه حرص على أن يفصل ما هو اجتماعي عن ما هو سياسي واقتصادي، وذهب إلى أن التماسك الاجتماعي - أي السلطة الاجتماعية - ينبثق في المجتمع الحديث بصفة أساسية عن القوى الأخلاقية والفكرية، وليس عن القوى الاقتصادية أو السياسية. فالحكومة تجسد التزاماتها، لا من خلال ممارسة القوة، بل من خلال القيادة الأخلاقية والفكرية.

انتقد "كونت"، وبشدة، المنظرين الاجتماعيين السابقين عليه ممن قللوا من أهمية الدور الذي تقوم به العناصر "الروحية". فالأخلاق وحدها التي تدعم الانسجام والتناغم الاجتماعيين.

¹ محمد علي محمد، تاريخ الفكر الاجتماعي، الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999، ص41.

² ألان سوينجود، المرجع السابق، ص64.

وقد وضع في المرحلة الأخيرة من حياته خطاً طموحاً لإعادة بناء المجتمع الفرنسي بصورة خاصة والمجتمعات الإنسانية عموماً. واعتمد في ذلك على منظوره الجديد لعلم الاجتماع. فقد حضّ على إقامة ما سمّاه "دين الإنسانية" الذي يقوم على الميل عن الإيمان القطعي بالعقيدة وإلى الارتكاز إلى المبادئ العلمية. وسيكون علم الاجتماع بمنزلة النواة لهذا الدين الجديد. وكان "كونت" واعياً كل الوعي لحالة المجتمع الذي عاش فيه؛ إذ كان من همومه الأساسية حالة انعدام المساواة التي خلفها التصنيع، والخطر الذي يمثله التفاوت على التماسك الاجتماعي. والحل النهائي لهذا الوضع، في رأيه، هو الوصول إلى إجماع أخلاقي من شأنه أن ينظّم المجتمع أو يعزّز أواصر العلاقات فيه رغم بروز الأنماط الجديدة من عدم المساواة¹.

¹ أنتوني غدنز، المرجع السابق، ص.ص 63، 62.

المبحث الثاني: "كارل ماركس" والوعي الاجتماعي

ارتبط تطور الماركسية ارتباطاً عضوياً بالحركة العمالية، وبخاصة في إنجلترا وفرنسا، وبالتطور السريع للصناعة والعلاقات الاجتماعية الجديدة للإنتاج الرأسمالي، هذا إلى جانب ارتباطه بحركة هامة أخذت على عاتقها مهمة نقد النظام الاجتماعي الجديد وقام بها بعض المفكرين المنشقين ممن تأثروا كثيراً بالاقتصاد السياسي الكلاسيكي، وبالتيارات الثورية التي ارتبطت بالاتجاه الجمهوري الديمقراطي¹.

ظل ماركس مؤمناً بالمبادئ الأساسية للنزعة الإنسانية والجدل الهيجلي حتى آخر أيام حياته. ولقد تصور الرأسمالية على أنها نسق أو نظام للإنتاج أسس على متناقضات، أو كنسق اجتماعي حوّل القيم الإنسانية إلى أشياء خارجية².

وتعلن الكتابات الأولى لماركس عن قضيتين أساسيتين، أولهما أنه على الرغم من أن الإنسانية خلقت العالم الاجتماعي من خلال نشاطها الخاص، إلا أن العالم الذي تتعامل معه جد غريب عنها ومعاد لها. أما القضية الثانية فمؤداها أن الفلسفة المثالية والاقتصاد السياسي الكلاسيكي، وخاصة النظريات التي كشفت منذ البداية عن الاتجاه نحو الاغتراب، قد صورت العلاقات الإنسانية لا على أنها علاقات بين أشخاص، بل على أنها علاقات بين أشياء، وتتضح عملية التشييء على نحو أكثر جلاء في الاقتصاد السياسي.

تؤكد الماركسية أن المدركات والأفكار ليست سوى انعكاسات للأشياء المادية. فعمليات الوعي عمليات تعكس الواقع الخارجي المادي، ولا يمكن أن يولد شيء في الوعي إلا كانعكاس للعالم الخارجي.

وحين نقول إنّ الواقع المادي ينعكس في الوعي فإننا نعني أن سمات الواقع المادي تصوّر في الوعي، وأنّ الواقع المادي أولي وتصويره في الوعي ثانوي أو مشتق. إنّ البنية

¹ ألان سوينجود، المرجع السابق، ص. ص 80، 81.

² المرجع نفسه، ص 84.

الاقتصادية للمجتمع هي الأساس الحقيقي الذي يقوم عليه صرح قانوني وسياسي، تتوافق معه أشكالٌ محددة من الوعي الاجتماعي.

وقد تصورت هذه النظرية وجود تقابل بين البناء الاجتماعي وأنساق الفكر: فالأفكار ليست سوى مجرد انعكاسات للنظام الاقتصادي. والمعرفة مسألة ثانوية مصاحبة، وهي نتاج المصالح الاجتماعية، ومن ثم فهي عاجزة عن القيام بدور في التغيير الاجتماعي¹.

يشكل نمط الإنتاج القاعدة التي تقوم عليها البنى الفوقية السياسية والقانونية والأيدولوجية ويتألف نمط الإنتاج في مجتمع ما من "القوى المنتجة" (الناس والآلات والتقنيات)، ومن "علاقات الإنتاج" (العبودية، المزارعة، الحرفية، المأجورة)، في المجتمع، وفي سياق التاريخ تعاقبت عدة أنماط إنتاجية: النمط القديم، والآسيوي، والإقطاعي، والبرجوازي. ويوصلها إلى درجة معينة من التطور فإن القوى المنتجة تدخل في صراع مع علاقات الإنتاج، ومن هنا "يبدأ عصر الثورة الاجتماعية".

إن التغيير في الأسس الاقتصادية يتوافق مع انقلاب سريع إلى حد ما في صرح "الأشكال القانونية والسياسية والدينية والفنية والفلسفية، باختصار، الأشكال الأيدولوجية، التي يعي الناس فيها هذا الصراع ويدفعونه إلى النهاية.

نعود إلى الهدف الأساسي من هذا المبحث، لنؤكد مع "ماركس" بأن الواقع المادي ينعكس في الوعي وهذا يعني أن سمات العمليات المادية تصوّر، في عملية مادية أخرى هي عملية حياة المخ، في أشكال خاصة هي أشكال المدركات الحسية والأفكار.

من المعروف أن الاختلافات في خبرة الناس وأسلوب حياتهم تحدد الاختلافات فيما يدركونه عن الأشياء. إدراكات المهندس الماهر الذي يفحص آلة معقدة مثلا ليست نفس إدراكات رجل لا يعرف مثل هذه الآلات رغم أن حواسهما قد تتأثر بطرق متشابهة تماماً.

¹ ألان سوينجود، المرجع السابق، ص 93.

وأكبر من ذلك الاختلافات التي تنشأ بين مفهومات الناس وأفكارهم عن الأشياء على أساس الاختلافات في الطبقة والخبرة والتربية¹.

والتفكير لا ينشأ إلا عن الإدراك الحسي، ولا بد أن يسبقه هذا الإدراك الحسي. فحتى نفكر في العالم لا بد أولاً أن ندركه حسيّاً، ولا نستطيع أن نكون أي مفهوم لا يقوم على الإدراك الحسي ولا يدفعه هذا الإدراك. وبشكل عام لا تتشكل أية أفكار دون الإدراكات الحسية التي هي المادة الضرورية التي يعمل عليها النشاط التفكيرية².

إن أفكارنا إنما تتطور مع ازدياد إدراكاتنا الحسية، بازدياد النشاط والاتصالات الاجتماعية، وهكذا فإن التفكير ينمو عن الإدراك الحسي، ولا يحدث هذا التطور إلا داخل العلاقة الإيجابية بالعالم الخارجي التي يقيمها الناس لأنفسهم في مجرى نشاطهم الاجتماعي العملي وخلال هذه العلاقة. والإدراك الحسي نفسه ليس مجرد تلقٍ سلبي للانطباعات من الموضوعات الخارجية.

وأساس نشاط الإنسان الاجتماعي هو العمل، وفي العمل وخلالها بدأ الإنسان يوسع إدراكاته الحسية، وبدأ يستخدم مخه في التفكير، وفي تكوين الأفكار وإيصالها وفي تطوير الفكر واللغة، إننا نجد في العمل مصدر الفكر واللغة ومنشأهما.

وفي إنتاج وسائل معيشتهم وبالتالي إنتاج حياتهم المادية الفعلية بشكل غير مباشر، محكومين بتنظيمهم الجسدي، يبدأ الناس بالتصرف ككائنات إنسانية ويطورون تنظيمهم الاجتماعي، وبذلك يكونون الأفكار ويفكرون وينطقون.

يقوم العنكبوت بعمليات تشبه عمليات النساج، والنحلة تزري بكثير من المهندسين في بناء خلاياها. لكن ما يميز أسوأ المهندسين عن أفضل النحل هو أن المهندس يقيم بناءه في

¹ موريس كورنفورث، مدخل إلى المادية الجدلية، الجزء الثالث: نظرية المعرفة، تر: محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت،

1981، ص34

² المرجع نفسه، ص 38.

خياله قبل أن يشيده في الواقع. وفي نهاية العمل نحصل على نتيجة كانت موجودة من قبل في خيال العامل عند بدايتها¹.

عرف "ماركس" العمل بأنه "الجوهر المؤكد لذات الإنسان" أي ذلك النشاط الذي فلق الاقتصاد السياسي في تحويله إلى موضوع أو شيء خارجي. لقد كان العامل في منظور الاقتصاد السياسي الكلاسيكي عبارة عن "نشاط مجرد"... يعتمد على كل التقلبات التي تحدث في سعر السوق وفي استخدام رأس المال وفي ميول ونزوات الأثرياء. وهكذا عرّف النشاط الإنساني في ضوء ما هو غير إنساني بالمرّة.

وفي الواقع يجب أن نفهم أن الأطروحة الرئيسية لماركس تتضح في زمنين. أولاً يريد أن يعارض النظرات المثالية للتاريخ، وبشكل رئيسي نظرة تيار "الهيغيليين الشباب" الذين انتقدهم بشدة في كتابه "الأيدولوجية الألمانية"، يزعم هؤلاء المثاليون أن الأفكار تحكم العالم، وأنه في سبيل تغيير المجتمع يجب فرض أفكار جديدة. يدافع "ماركس"، ضد هؤلاء الأيدولوجيين، عن مادية من حيث المبدأ قاطعة بما فيه الكفاية في صياغتها. قاده نقده للهيجلية إلى "قلب" الأوضاع المثالية وإلى تأكيد تصور مادي يبدو فيه المجتمع على شكل هرم، قاعدته مؤلفة من أساس مادي هو الاقتصاد، وعليه تنهض السياسة، والقانون، ثم الأفكار. إن الانتقال من نمط إنتاج إلى آخر ينجم عن التناقضات الاقتصادية والصراع الطبقي الذي ينجم عنها. ونجد في البيان الشيوعي، أن المادية عنيدة والحتمية صارمة.

كان مشروع "ماركس" إذن فهم دينامية صراع الطبقات أكثر منه تأكيد وجود الطبقات أو وصف حالتها، فهو يحدد أولاً الطبقات عن طريق موقعها من علاقات الإنتاج. البرجوازيون هم من يحوزون على الرأسمال؛ و"البرجوازية الصغيرة"، وهي فئة ضبابية، تشير إلى الحرفيين والتجار والمشاهير والمحامين وكافة "الموظفين". أما البروليتاريا فهم الذين "يبيعون قوة عملهم". وفي زمن "ماركس" كان بالإمكان المطابقة، بشكل مشروع، بين مفهومي البروليتاريا والعمال: كان 90% من مدفوعي الأجر عمالاً. لكن الذي كان يهم "ماركس"، ليس أن يقدم وصفاً للتراتب الطبقي الاجتماعي، بل أراد أن يصف دينامية المجتمع التي

¹ موريس كورنفورث، المرجع السابق، ص44.

تفعل، كما يرى، حول صراع مركزي، هو الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا؛ فالبرجوازية مدفوعة بتنافسها وعطشها للربح، ليس أمامها سوى استغلال متزايد للبروليتاريا. وطبقة البروليتاريا، المحكومة بالإفقار والبطالة المستمرة، ليس لها من مخرج سوى التمرد الفردي أو الثورة. فلكي يصل صراع الطبقات إلى تغيير المجتمع، يجب أن يتحول التمرد إلى ثورة¹.

يميز ماركس، وهو يستعير تعابير موروثه من "هيجل"، بين "الطبقة بذاتها en soi" و"الطبقة لذاتها pour soi". فالطبقة بذاتها تدل على مجموعة من الأفراد تجمع بينهم شروط العمل ذاتها والكيان القانوني ذاته والمشاكل ذاتها. لكنهم ليسوا بالضرورة منظمين في مشروع مشترك. أما الطبقة لذاتها فهي طبقة تنتظم، بعد أن تعي مصالحها المشتركة، في نقابات وأحزاب، مشكلة بذلك هوية لنفسها².

يرجع الفضل إلى الماركسية في تحديد علاقة الإيديولوجية بشروطها وظروفها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وفي توضيح العملية التي من خلالها يولد الأساس المادي للمجتمع (أي بنيته التحتية الاقتصادية) بناءه الفوقي (الفكر). فالمجتمع لا يفسر من خلال الأفكار، بل الأفكار هي التي تفسر من خلال المجتمع... والأفكار هي تعبيرات عن مصالح الطبقة.

وعلى أية حال، فإن أكثر ما أسهم به "ماركس" في مجال نظرية الإيديولوجية هو نقده المكثف للاقتصاد السياسي في القرن الثامن والتاسع عشر، فقد حرص على تمييز العلم عن الإيديولوجية، وعن علاقة مصالح الطبقة بالفكر. حيث نراه يذهب إلى أن الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، عند "سميث" و"ريكاردو"، ينتمي إلى مرحلة لم يكن النضال الطبقي فيها قد تطور بعد، تلك المرحلة التي تميزت بالتقدم السريع في مجال علم الاقتصاد. ولكن مع بداية القرن التاسع عشر، ومع تزايد الصراع الطبقي حدة، ومع غلبة وسيطرة القوة السياسية عن

¹ فيليب كايان وجان فرانسوا دوروتيه، علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية، تر: إياس حسن، دار الفرقد، دمشق، 2010، ص39.

² المرجع نفسه، ص40.

طريق البرجوازية الإنجليزية والفرنسية، بدأ النضال الطبقي، نظرياً وعملياً، يأخذ شكلاً صارخاً ومهدداً بالخطر ليكون إيذاناً بالاقْتِصاد البرجوازي العلمي.

يحدد ماركس موقع الإيديولوجيا، كمجموعة من الأفكار المهيمنة التي يحملها المجتمع أو فئة اجتماعية، في إطار البنى الفوقية للمجتمع. وهي مشروطة بالإطار الاقتصادي وتشكل انعكاساً له. وهكذا فإن البرجوازية الصاعدة قد ثمنت مثل الحرية وحقوق الإنسان والمساواة ضمن إطار صراعها ضد النظام السابق. وهي تميل إلى أن تحوّل إلى قيم كونية ما ليس سوى تعبيرٍ عن مصالحها الطبقيّة.

وبصدد الحديث عن نظريات فائض القيمة، نجد "ماركس" يضع عنصرين هامين للإيديولوجية هما:

(1) - أن كل فكر اجتماعي يتبنى بالضرورة موقفاً تجاه موضوع دراسته، يرتبط ارتباطاً مباشراً بالمصالح العملية وبنشاطات رواده البارزين - أي رواد هذا الفكر-، لذا كان كل من "سميث" و"ريكاردو" يعبران عن مصالح البرجوازية الثورية مع الملاك.

(2) - تعمل المعرفة الإيديولوجية على تخريب وتقويض دعائم المعرفة العلمية إذا كانت - أي المعرفة الإيديولوجية- تعبر عن وجهة نظر جماعة اجتماعية ذات مكانة اقتصادية متدهورة، أو كما سماه ماركس بـ "طبقات التحول والانتقال" مثل الأرستقراطية وجماعات الملاك¹.

فالتطور الإيديولوجي يحكمه التطور المادي للمجتمع . تطور الإنتاج، وعلاقات الإنتاج، والطبقات، والصراع الطبقي. ومن هنا فإننا نجد الأسباب التي تدفع التطور الإيديولوجي في هذا الاتجاه أو ذاك، في التحليل الأخير، لا داخل نطاق التطور الإيديولوجي ذاته وإنما في مجال ظروف الحياة المادية.

تُطوّر الإيديولوجيات لخدمة مصالح طبقية محددة، إنها أدوات فكرية، أسلحة فكرية، تصنعها وتصهرها طبقات محددة، بما يتماشى مع مركز هذه الطبقات المادي واحتياجاتها،

¹ ألان سوينجود، المرجع السابق، ص.ص 98، 99.

ولكن لأنها أدوات فكرية وأسلحة فكرية فإن صلاحيتها تستوجب أن تشبع احتياجات فكرية. ولا بد أن تخضع لقواعد صياغة الأفكار تماماً كما الأدوات المادية والأسلحة المادية لا بد أن تخضع لقواعد صياغة المعادن على سبيل المثال¹.

كل إيديولوجية هي محاولة يقوم بها أناس معينون لفهم وشرح العالم الذي يعيشون فيه، أو بعض جوانبه، ولفهم وشرح حياتهم، حتى يمكن أن تخدمهم في الظروف المحددة التي يعيشون فيها. ومن هنا لا بد أن يسعوا دائماً إلى تطوير إيديولوجياتهم كنسق متماسك من الأفكار يتفق مع الوقائع بقدر ما مارسوها وتحققوا منها. وهذا يفرض متطلبات فكرية ينبغي أن تستوفيها الإيديولوجيات واستيفائها قانون يعمل دائماً ويؤثر على تطور الإيديولوجيات.

أوضح "ماركس" و"انجلز" وهما يتحدثان عن تطور الأفكار أو الوعي الإنساني أنّ وعي الإنسان لا ينشأ ولا يتطور: إلا من الحاجة، من ضرورة الاتصال بغيره من الناس... فالوعي إذن نتاج اجتماعي منذ بدايته الأولى، ويظل كذلك طالما ظل الناس موجودين.

يذهب ماركس إلى أن التاريخ التأملي الذي اقترحه هيجل يتجاهل الأفراد الحقيقيين والمواقف الفعلية الواقعية. ومن خلال فهمه للاقتصاد السياسي، عرّف العمل على أنه أساس الثقافة البشرية. إن الثقافة عنده ليست تعبيراً عن قوة تاريخية سامية، بل هي نتاج النشاط الإنساني خلال العمل. لذلك يصبح الاغتراب عملية تتحول الإنسانية بمقتضاها لتصبح غريبة في عالم أوجده العمل².

وهكذا فإن "برودون" - وأساساً لأنه يفتقر إلى المعرفة التاريخية - لم يدرك أن الناس إذ يطورون قواهم الإنتاجية، أي إذ يعيشون، يطورون علاقات معينة ببعضهم البعض، وأن طبيعة هذه العلاقات لا بد أن تتغير مع تغير القوى الإنتاجية ونموها. إنه لم يدرك أن المقولات الاقتصادية ليست سوى تعبيرات مجردة عن هذه العلاقات الفعلية، وأنها لا تظل صحيحة إلا طالما وجدت هذه العلاقات. ومن هنا فإنه يقع في خطأ الاقتصاديين البورجوازيين الذين يعتبرون هذه المقولات الاقتصادية أبدية وليست قوانين تاريخية لا تعدو

¹ موريس كورنفورث، المرجع السابق، ص.ص 78، 79.

² ألان سوينجود: المرجع السابق، ص. 85.

أن تكون قوانين تطور تاريخي معين، قوانين تطور محدد للقوى الإنتاجية. ومن هنا فبدلاً من النظر إلى مقولات الاقتصاد السياسي كتعبيرات مجردة عن العلاقات الاجتماعية التاريخية الانتقالية فإن "برودون" - بفضل عملية مسخ صوفي- لا يرى في العلاقات الواقعية إلا تجسيدات لهذه التجريدات¹.

ولأن "برودون" يضع الأفكار الأبدية، مقولات العقل الخالص، في جانب، والكائنات الإنسانية وحياتها العملية - والتي هي بالنسبة له تطبيق هذه المقولات- في الجانب الآخر، فإننا نجد عنده منذ البداية ثنائية بين الحياة والأفكار، بين الروح والجسد، وهي ثنائية تتكرر في كثير من الأشكال، وتستطيع الآن أن ترى أن هذا التناقض ليس إلا عجز "برودون" عن فهم الأصل الدنيوي والتاريخ الدنيوي للمقولات التي يؤلفها².

فالأفكار ليست نتاج عمليات فكرية خالصة، وليست مجرد استجابات أوتوماتيكية لمنبه يصلنا من الموضوعات الخارجية، وإنما ينتجها المخ البشري في مجرى النشاط الاجتماعي الإنساني. إنها تعكس صلات الناس ببعضهم ببعض وبالعالم الخارجي، تعكس ظروف وجود الإنسان الواقعية.

مصدر كل الأفكار المجردة، دون استثناء، هو الخبرة في العالم المادي الموضوعي، هو علاقات الناس العملية بالأشياء وبعضهم البعض، لأن خبرات الناس المحددة، المستمدة من صلتهم بعضهم ببعض وبالطبيعة، هي التي تقودهم إلى تشكيل أفكار مجردة. وتخدم هذه الأفكار استمرار وتطور الاتصال وتعكس علاقات محددة توجد موضوعياً بين الأشياء، وبين الناس، وبين الناس والأشياء، تجد ترجمة لها في أذهان الناس في صورة أفكار.

ومن المصادر الهامة لتطور الأفكار المجردة تطور العلاقات الاجتماعية بين الناس... وعلى سبيل المثال فحين يستولي بعض الناس على الأرض تتشكل أفكار عن ملكية الأرض وما يتماشى معها من واجبات وحقوق وامتيازات. ومثل هذه الأفكار عن الملكية أفكار مجردة، لا يقابلها أي موضوع تدركه الحواس مباشرة.

¹ كارل ماركس، يؤس الفلسفة، تر: محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت، 1979، ص. ص 164، 165.

² المرجع نفسه، ص 169.

مع ظهور الأفكار المجردة يظهر انفصال العمل الذهني عن العمل اليدوي. ويمثل هذا بداية محددة للعمل الذهني كشيء متميز عن العمل اليدوي، وإلى جانب هذا يبدأ في الظهور الحكماء والشيوخ ومختلف أنواع القادة، الذين يتخصصون في الأفكار ويعرضونها ويطوّرونها. ويتطوّر هذا التخصص في الأفكار كسمة لا غنى عنها للحياة الاجتماعية، فدون أفكار لا يمكن الإبقاء على تقسيم العمل ومختلف العمليات الإنتاجية والعلاقات الاجتماعية المترتبة عليه أو تطويرها. وهكذا لاحظ "ماركس" و"انجلز" أن " تقسيم العمل يصبح حقا تقسيماً للعمل منذ اللحظة التي يظهر فيها انقسام العمل الذهني عن العمل اليدوي"¹.

ومصدر الأوهام في الإيديولوجية هو دائماً بنية المجتمع الاقتصادية الواقعية، فكما يعيش الناس يفكرون، وفي تجاوب مع العلاقات التي يدخلونها في إنتاج وسائل معيشتهم ينتجون أفكاراً اجتماعية ونظريات اجتماعية.

يقول ماركس: "كل طبقة جديدة تضع نفسها مكان الطبقة التي تحكم قبلها مجبرة ، لمجرد تحقيق أهدافها، إلى تصوير مصلحتها كمصلحة مشتركة لكل أفراد المجتمع، موضوعة في شكل أفكار، وستضفي على أفكارها شكلاً كلياً وتصورها باعتبارها الأفكار الوحيدة العقلانية الصحيحة كلياً، ولا تبدو الطبقة التي تقوم بالثورة منذ البداية الأولى، ولمجرد أنها تعارض طبقة ، كطبقة وإنما كمثل للمجتمع بأسره"².

وفيما يخص مسألة العلوم فهي في الأساس مهام متخصصة، لها تقنياتها ونظرياتها المتخصصة. وتنشأ العلوم حين يبدأ، نتيجة لتقسيم العمل، بحث خاص في مميزات مختلف الموضوعات الطبيعية والعمليات الطبيعية، متميز عن الإنتاج ذاته، وحين يتم نتيجة لذلك . إحكام خاص، تعميم وتنظيم للأفكار المتصلة بهذا البحث.

هناك نفوذ إيديولوجي في النظرية العلمية يحدث دائماً تمايزاً في تطور العلوم بين الاكتشافات التي يحققها العلم والتصورات المسبقة التي يأخذها العلم ويستخدمها.

¹ موريس كونفورت: المرجع السابق، ص 69.

² المرجع نفسه، ص. ص 92، 105.

وينشأ العلم دائماً عن حاجة ما، واحتياجات الإنتاج، في التحليل الأخير، هي التي تستدعي العلوم الطبيعية، وتجري أبحاثها باسم أي طبقة توجه الإنتاج. وتستدعي الحاجة إلى الإدارة العامة للشؤون الاجتماعية والتحكم فيها بدورها إلى العلم الاجتماعي. وتجري أبحاثه باسم أي طبقة تدير الشؤون الاجتماعية وتتحكم فيها، أو تناضل لبلوغ مثل هذه الإدارة والتحكم.

والوظيفة الاجتماعية للعلم الطبيعي هي مساعدة الإنتاج، ومن هنا تتبع وظيفته الثانوية في الصراع الطبقي. فأوجه التقدم المحددة في العلم والتكنولوجيا تخدم مصالح طبقات محددة، سواء في صراعها من أجل السلطة أو في دعم نظم حكمها حين تكون في السلطة. وهكذا مثلاً خدمت أوجه التقدم الأولى للعلم والتكنولوجيا الحديثين ظهور البرجوازية بطريقتين أولاً بتمكينها من زيادة ثروتها وبذا من دعم مركزها الاجتماعي، وثانياً من الناحية الإيديولوجية بمساعدة صراعها ضد الإيديولوجية الإقطاعية¹.

وقد تحدث "ماركس" عن الاغتراب وهو مفهوم سوسيولوجي، يعبر عن ظاهرة اجتماعية، تتمثل في شعور العامل بالبعد عن الشيء الذي أنتجه، وأنّ الجهود والتضحيات التي يبذلها لا تعود عليه بالفائدة، والمستفيد الوحيد هو رب العمل الذي يمتلك وسائل الإنتاج. والطبقة العاملة تنتج الثروة لكنها تعيش التعماسة والفقر ولا تتمتع بالثراء الذي هي سبب وجوده. "والعامل يشعر بأنه لا يملك نفسه ولا جهده، و أن جهوده تباع وتشتري في سوق العمل لقاء أجر زهيد².

والفرد هو الذي يخلق الدولة لتنظيم أموره، وفض النزاع بينه وبين الآخرين. ولكن سرعان ما يعتقد بأنه مغترب عنها، وذلك للهوة التي تفصل بينه وبين الدولة، فيبدأ بالخوف منها والابتعاد عنها شيئاً فشيئاً، حيث يعتبرها قوة تقيد عمله وفعاليته وحركته، مما يشعره بأنه مغترب عنها³.

¹ موريس كونفورث: المرجع السابق، ص. ص 111-125.

² إحسان محمد الحسن: علم الاجتماع الاقتصادي، دار الحكمة، بغداد، 1995، ص 46.

³ ياس خضير البياتي: المرجع السابق، ص. ص 158، 159.

وتكشف عملية "التشيؤ" عن نفسها بوضوح في الوعي والإدراك، ذلك أن أولئك الذين يدركون العالم الاجتماعي من خلال مقولات شيئية يؤكدون بالضرورة على الجانب الخارجي للعالم وعلى حتمية طبيعية غاشمة لعالم تحكمه قوانين عمياء لا تخضع لتوجيه أو ضبط إنساني، أو بالأحرى عالم تكون فيه الأشياء وحدها العناصر الفعالة والإيجابية. وفي مجتمع ما قبل الصناعة وحيث لم تكن قيمة التبادل تسيطر على قيمة الاستخدام، كانت العلاقات الاجتماعية واضحة ومحددة تركز على أساس الروابط والالتزامات الشخصية، كما كانت العادات والتقاليد تقضي باستمرار على العلاقات غير المتساوية¹.

وقد انتقد علماء اجتماع الغرب مبدأ المحددات الاجتماعية لمنتجات الأنشطة الذهنية، وهو في نظرهم يعيق وجود اعتراف بمعرفة موضوعية للواقع. فإذا كان الوعي محددًا بالمجتمع فهذا يعني استحالة قيام معرفة موضوعية، لأن كل طبقة اجتماعية تحركها أهدافها ومصالحها، ويكون بالتالي وبعيها متحيزاً ومشوهاً.

تجيب الماركسية، على هذا الاعتراض، بأن المسألة تتحدد بطبيعة المصلحة الواقعية لكل طبقة وعلاقتها بالموقع الذي تحتله داخل بنية المجتمع، وعندما تتطابق المصالح الأساسية للطبقات مع الصيرورة الموضوعية للتاريخ، فإن مصالحها تتضمن حينئذ الوعي المطابق للواقع.

إن تاريخ أي مجتمع حتى الآن، ليس سوى تاريخ صراعات طبقية... حر وعبد، نبيل وعامي، بارون وقن، معلم وصانع، وبكلمة ظالمون ومظلومون، في تعارض دائم، خاضوا حرباً متواصلة، تارة معلنة وطوراً مستترة، حرباً كانت تنتهي في كل مرة إما بتحول ثوري للمجتمع كله، إما بهلاك كلتا الطبقتين المتصارعتين.

غير أن عصرنا، عصر البرجوازية، يتميز بتبسيطه التناحرات الطبقيّة. فالمجتمع كله ينقسم أكثر فأكثر إلى معسكرين كبيرين متعاضدين، إلى طبقتين كبيرتين متجابهتين مباشرة: البرجوازية والبروليتاريا.

¹ ألان سوينجود، المرجع السابق، ص 95.

أوجدت الصناعة الكبيرة السوق العالمية التي مهد لها اكتشاف أمريكا، والسوق العالمية أنمت التجارة والملاحة والمواصلات البرية. وهذا النمو أثر بدوره في توسيع الصناعة، فبقدر ما كانت الصناعة والتجارة والملاحة والسكك الحديدية تتوسع، كانت البرجوازية تتطور، وتنمي رساميلها، تدفع إلى المؤخرة بكل الطبقات الموروثة عن القرون الوسطى.

والبرجوازية حيث ظفرت بالسلطة دمرت كل العلاقات الإقطاعية من كل لون، التي كانت تربط الإنسان بساتته الطبيعيين، ولم تبق على أية رابطة بين الإنسان والإنسان سوى رابطة المصلحة البحتة والإلزام القاسي بـ"الدفع نقداً." و أغرقت الرعشة القدسية للورع الديني، والحماسة الفروسية، وعاطفة البرجوازية الصغيرة، في أغراضها الأنانية المجردة من العاطفة، وحولت الكرامة الشخصية إلى قيمة تبادلية، وأحلت حرية التجارة العاشمة وحدها، محل الحريات المثبتة والمكتسبة التي لا تحصى. وبكلمة أحلت استغلالاً مباحاً وقها مباشراً وشرساً، محل الاستغلال المغفّف بأوهام دينية¹.

¹ كارل ماركس وفريدريك انجلز: البيان الشيوعي، تر: خالد بكداش، ط3، دار البديع، 1957، بغداد، ص.ص 4،5.

المبحث الثالث: "إميل دوركايم" والضمير الجمعي

لقد أشار "دوركايم" « Durkheim » إلى أن أفكارنا حول العالم وكيف يسير مستمدة من علاقاتنا الاجتماعية. فلا الخبرة الفردية ولا العقل الفطري، كان يستطيع توليد الأفكار الأساسية كالزمن، والفضاء، والسببية. ولا سبيل لفهم التصنيفات المختلفة للأمكنة والأزمنة من طرف بني البشر وكذا تقييئتهم المتباينة للأشياء إلا بإدراكنا كعلماء اجتماع للأصول الاجتماعية للفكر.

إن الأفراد يتمثلون النظام الاجتماعي لغرض معين، ربما يكون خافيا عليهم لكن عالم الاجتماع يستطيع رؤيته. هذا الغرض، أو الوظيفة، هو دعم نمط حياة ما. "ما كان المجتمع بقادر على إلغاء الفئات أمام الاختيار الحر للفرد من دون إلغاء نفسه". ونتيجة لاستبطان المعتقدات حول ما هو مقدس وما هو مدنس، ما الذي يشكل فعلا إجراميا، أو ما الأفكار المعقولة، يتم حماية نظام اجتماعي معين. فالعلاقات الاجتماعية تولد أنماطاً لإدراك العالم تساهم في الحفاظ على تلك العلاقات¹.

أدرك "دوركايم" أن الأدوار والمعايير التي تشكل المؤسسات الاجتماعية تكمن في داخل الأفراد الذين استبطنوها، وكذلك خارج هؤلاء الأفراد، بمعنى أنه بمجرد إرسائها، تمارس هذه المعايير تأثيراً مستقلاً على من أوجدوها. هذا المجال من "الحقائق الاجتماعية"، والذي دلل "دوركايم" من خلاله على نتائج العلاقات بين الأشخاص، هو الذي يجب، في اعتقاده، أن يكون المنطقة الخاصة للعالم الاجتماعي.

رفض "دوركايم" بكل حزم أن يفصل العارف عما ادعى معرفته، أو المفكر عما دار بفكره. وفي تصوره لا توجد مشكلة فلسفية حول العقل-الجسد. فالعقول والأجساد أي الأفكار والمفكرين، مترابطون على الدوام. وبرغم ذلك فالذي شغله لم يكن فقط أو أساساً العقل الفردي، ولكن عقل الفرد في ارتباطه بالآخرين من خلال المنتجات المشتركة لتفاعلاتهم، أي

¹ ميشيل تومبسون وآخرون: المرجع السابق، ص 223.

التعبيرات الجمعية الممكنة للجميع. هذه التعبيرات الجمعية هي محصلة تعاون هائل... لجعلها بمنزلة حشد من العقول التي قد تراكبت، ووحدت وخلطت أفكارهم ومشاعرهم¹.

وفي كتابه "الأشكال الأولية للحياة" يشرع "دوركايم" في توضيح كيف يمارس أعضاء المجتمع سيطرة على بعضهم البعض، عن طريق المعتقدات والطقوس الدينية. وهو يجادل بأن السمة المميزة للدين هي تقسيم العالم إلى مملكتين... متعارضتين جوهرياً، الأولى تحتوي على كل ما هو مقدس والأخرى تحتوي على كل ما هو مدنس. ويشرح بأن الأشياء المقدسة هي تلك التي تحميها وتعزلها المحرمات، ولا ينحصر نطاق الأشياء المقدسة في الكائنات الشخصية التي تسمى آلهة أو أرواحاً، ولكنه ربما يضم صخرة، شجرة، نبعاً، حصاة صخرية، قطعة خشبية، منزلاً، وباختصار، أي شيء يمكن أن يكون مقدساً. فمعيار التقديس يرتكز في العلاقات الاجتماعية، وليس في طبيعة الأشياء.

يحاول "دوركايم" إثبات أن وظيفة الدين هي تقوية الأواصر التي تربط الفرد بالمجتمع الذي هو عضو فيه. وبرغم أن أشكال الممارسة والمعتقدات الدينية قد تتنوع، فإنها تحقق نفس الوظائف في كل مكان، وتحديداً، دمج الفرد في الجماعة².

وكقارئ هام لـ "مونتسكيو وسان سيمون وكونت"، استعاد "دوركايم" الطموح لتأسيس علم مستقل يخص المجتمعات البشرية: هو السوسيولوجيا. وللقيام بذلك فقد مضى، من جهة، يضع حدودها الصريحة مع البيولوجيا ومع علم النفس، ومن جهة أخرى مضى يحتل الحقل الثقافي والجامعي وهو يؤسس مدرسة فكرية حقيقية، فريق الحولية السوسيولوجية، عن اسم المجلة التي أنشأها عام 1896، والذي سيكون خلال عشرين عاماً على رأس السوسيولوجيا الفرنسية. وفيه نجد أشخاصاً بأهمية "مارسيل موس" و"لوسيان ليفي برول" اللذين سيكونان على رأس الإثنولوجيا الفرنسية فيما بين الحربين، وكذلك "فرانسوا سيميان" الذي ساهم بتمهيد الطريق نحو التاريخ الجديد لمدرسة الحوليات، من خلال تطبيقه المنهج السوسيولوجي على

¹ ميشيل تومبسون وآخرون: المرجع السابق، ص224.

² المرجع نفسه، ص229.

التاريخ الاقتصادي ومن خلال مجادته ضد التاريخ السياسي الحديث (الوقائعي) événementiel. أما "موريس ألبواش" فقد طور فيها سوسيولوجيا الطبقة العاملة¹.

لا يقتصر إنجاز "دوركايم" على تأسيس السوسيولوجيا كعلم، فهي تتجذر في تأمل تاريخي قلق حول قدوم المجتمع الصناعي، وما يتسم به من اختفاء الأطر الاجتماعية القديمة، وما صاحبه من أزمة في القيم والمعتقدات الجماعية. ففي كتابه عن تقسيم العمل الاجتماعي، يحلل الانتقال من نمط إجمالي للمجتمع إلى نمط آخر. فالمجتمع القديم يتصف بتضامن ميكانيكي، حيث يمكن للأفراد أن يحلّ بعضهم محل بعضهم الآخر، ووعيهم بكامله مهموم بالأخلاق والمعتقدات الجماعية. أما المجتمع الجديد فيتصف بتضامن عضوي: فهو مؤلف من أفراد متميزين بشكل صريح بسبب تأثير تقسيم العمل، ويعتق الوعي الفردي بشكل كبير من أخلاق الجماعة ومن قيمها².

وجد "دوركايم"، وهو يحلل النظام الطومبي للبدائيين الأستراليين، أن الطوم هو في آن واحد رمز القبيلة ورمز للألوهية. ألا يشكل الإله والمجتمع شيئاً واحداً؟ نشعر هنا أن "دوركايم"، وهو مأخوذ بما يريد بناءه، يضيف على الديني قوة خلاقية وربما مفرطة. وما يريد تبيانه بشكل أساسي هو أنّ المقدس منتجٌ للجماعة منذ أن تفكر بنفسها ككل لا ينقسم وهي تتجذر في ماضٍ متحد مع حاضر ومع مستقبل³.

وبخصوص تعريف الأخلاق، يلح على أنها ليست فقط مجموعة من الضوابط الإلزامية في التصرف. فهي أيضاً، وبشكل لا ينفصل، الوعي بمعنى التصرف، الرغبة في القيام بما نعتقد بأنه الخير⁴.

إذا وجد علم لدراسة المجتمعات فإنه من الضروري ألا يتوقع المرء أن تكون مهمة هذا العلم قاصرة على مجرد ترديد الأفكار غير المحصّنة التي يتوارثها الناس بصدده هذه الظواهر. وإنما يجب أن يرينا هذا العلم الأمور الاجتماعية على نحو مختلف لما تبدو عليه

¹ فيليب كابان وجان فرانسوا دورتيه: المرجع السابق، ص54.

² المرجع نفسه، ص57.

³ المرجع نفسه، ص58.

⁴ المرجع نفسه، ص59.

للعامّة. وذلك لأن كل علم من العلوم يهدف إلى الكشف عن بعض الحقائق، وكل حقيقة مكتشفة تتعارض، إلى حد كبير أو قليل، مع الآراء التي يتناقلها الناس¹.

من القضايا التي أثارت أكبر قدر من الاعتراضات، في فكر "دوركايم"، القضية القائلة بوجود دراسة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء. وهذه القضية بالذات هي الأساس الذي تقوم عليه منهجية "دوركايم". فقد وجد الكثير أنّ هذه القاعدة تمثل فكرة غريبة وطريقة تدعو للسخط، فكيف نشبه حقائق العالم الاجتماعي بحقائق العالم الطبيعي؟

يؤكد "دوركايم" أن الظواهر الاجتماعية ليست أشياء مادية، ولكن من الضروري أن توصف بأنها "أشياء" كالظواهر الطبيعية تماماً. "فما حقيقة الشيء في الواقع؟ إن الشيء يقابل الفكرة، بمعنى إن معرفتنا له تأتي من الخارج على حين أن معرفتنا بالفكرة تأتي من الداخل. والشيء هو كل ما لا نستطيع أن نكون لأنفسنا عنه فكرة تنطبق عليه تمام الانطباق لمجرد قيامنا بعملية عقلية تحليلية. وهو كل ما لا يستطيع العقل إدراكه إلا بشرط أن يخرج من عزلته، وأن ينتقل بالتدرج وعن طريق الملاحظة والتجربة من خواصه الأكثر ظهوراً والأقرب تناولاً إلى خواصه الأكثر خفاءً والأبعد غوراً²."

ومن ثم على عالم الاجتماع أن يشعر حين يطرق العالم الاجتماعي بأنه يلج عالماً مجهولاً، ولا مناص له من أن يشعر بأنه يوجد وجهاً لوجه مع بعض الظواهر التي تخضع لقوانين ما كان يدور بخلده قط أنها توجد حقيقة، كما كان شأن عالم الحياة قبل أن ينشأ العلم الذي يدرسها. ويجب أيضاً أن يكون هذا العالم على استعداد للقيام بكشوف جديدة سيحار لها، وسوف تبدو له هذه الظواهر بمظهر الغرابة... فحين يشعر عالم الطبيعة شعوراً قوياً بما تجابهه به الظواهر من مقاومة لا يستطيع عليها إلا بمشقة بالغة يبدو لنا في الواقع أن عالم الاجتماع يجول وسط أمور يدركها العقل مباشرة لوضوحها الشديد وذلك لأننا نراه يميل إلى البت في أشد المسائل الاجتماعية غموضاً بنوع من الاستخفاف بخطرها³.

¹ إميل دوركايم: قواعد المنهج في علم الاجتماع؛ موفم للنشر، الجزائر، 1990، ص 1.

² المرجع نفسه، ص. ص 12، 13.

³ المرجع نفسه، ص. ص 14، 15.

إن الفكرة التي نكونها لأنفسنا عن العادات الاجتماعية، أي عن حالتها الراهنة و عما يجب أن تكون عليه في المستقبل عامل من عوامل تطورها ولكن هذه الفكرة نفسها، في نظر "دوركايم" ظاهرة اجتماعية لا يمكن تحديدها تحديداً مناسباً إلا إذا درست هي الأخرى دراسة "موضوعية" أي من الخارج، وذلك لأنه لا يهمنا أن نقف هنا على الطريقة التي يتبعها الفرد في فهم إحدى الظواهر الاجتماعية. وإنما يعيننا أن نعرف الفكرة التي تكونها الجماعة لنفسها عن هذه الظاهرة بعينها؛ وذلك لأن فكرة الجماعة هي وحدها التي تؤثر، في الحقيقة، من الناحية الاجتماعية، ولا نستطيع معرفة هذه الفكرة بمجرد ملاحظتنا لشعورنا الداخلي. وذلك لأنها لا توجد بتمامها في شعور أي فرد منا. ومن ثم فإننا مضطرون إلى البحث عن بعض العلامات الخارجية التي تقربها إلى فهمنا. ومن جهة أخرى فإن هذه الفكرة الاجتماعية لا تنشأ من العدم؛ بل هي نتيجة لأسباب خارجية لا بد لنا من معرفتها لكي نستطيع تقدير الوظيفة التي ستؤديها هذه الفكرة فيما بعد¹.

ومن المسائل المهمة التي عالجها "دوركايم" هي التفريق بين علم النفس وعلم الاجتماع، فمن البديهي لديه "أن المرء لا يستطيع تفسير "مادة" الحياة الاجتماعية بعوامل نفسية محضة، أي ببعض حالات الشعور الفردي. والتصورات الاجتماعية لا تعبر في الواقع عن شيء آخر غير تفكير الجماعة في الصلات التي تربطها بالأشياء التي تؤثر فيها. إن تركيب الجماعة مخالف لتركيب الفرد، كما تختلف طبيعة الأشياء التي تؤثر فيها عن طبيعة العوامل التي تؤثر فيه. وليس من الممكن أن تكون التصورات التي لا تعبر عن نفس الأشياء ولا عن نفس الأشخاص خاضعة لنفس الأسباب.

إذا أردنا فهم الفكرة التي يكونها المجتمع عن نفسه وعن العالم الذي يحيط به فلا بد لنا من دراسة طبيعة هذا المجتمع لا طبيعة أفراده. فإن الرموز التي يتخذها المجتمع شعاراً يستعين به على التفكير في ذاته تختلف باختلاف الحالات التي يوجد فيها؛ فإذا تصوّر المجتمع مثلاً أنه ينحدر من سلالة حيوان أسطوري، واتخذ هذا الحيوان شعاراً له، فمعنى ذلك أنه يتألف من إحدى تلك الجماعات الخاصة التي نطلق عليها اسم العشيرة. أما إذا استعاض عن هذا الحيوان الأسطوري بجد إنساني أسطوري، هو الآخر، فمعنى ذلك أن

¹ إميل دوركايم، المرجع السابق، ص. 15، 16

طبيعة العشيرة قد تغيرت؛ وإذا تخيل المجتمع وجود آلهة أخرى أسمى مقاماً من آلهته المحلية والعائلية، واعتقد أنها تسيطر على تلك الآلهة الأخيرة، معنى ذلك أن الطوائف المحلية التي يتكون منها هذا المجتمع قد أخذت تميل إلى التركيز، وتتجه إلى تكوين وحدة اجتماعية، وإن درجة التركيز التي يدل عليها وجود معبد يضم جميع الآلهة تقابل درجة التركيز التي وصل إليها المجتمع في ذلك الوقت نفسه¹.

إنّ الأساطير والقصص الشعبي والآراء الدينية، بمختلف أنواعها، والمذاهب الخلقية تعبر عن حقيقة تختلف عن الفكرة التي يكونها الفرد لنفسه عن هذه الظواهر. ومن ثم لا يجوز لعالم الاجتماع أن يستعير من علم النفس بعض قضاياها لكي يطبقها دون تحوير، على الظواهر الاجتماعية، بل لا بد له من دراسة التفكير الاجتماعي برمته، أي شكلاً وموضوعاً، في ذاته ولذاته.

ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد الذين يجبرون على الخضوع لها في كل لحظات حياتهم. فهذه الضروب أشياء ذات وجود قائم بنفسه. ويجدها الفرد تامة التكوين منذ ولادته، وهو لا يستطيع القضاء عليها أو تغيير طبيعتها ولذا يجبر على أن يحسب لها حسابها. وإنه لمن العسير عليه كل العسر (ولا نقول مستحيل) أن يغيّر أشكالها؛ وذلك لأنها تساهم إلى حد ما في خلق كل النفوذ المادي والأدبي الذي يباشره المجتمع على أفرادها².

في نظر "دوركايم" التفكير يسبق نشأة العلم، وأنّ هذا الأخير لا يفعل شيئاً آخر غير الاستفادة من هذا التفكير بطريقة أكثر دقة. ذلك بأن المرء لا يستطيع أن يحيا وسط الأشياء الطبيعية، دون أن يكون لنفسه عنها الأفكار التي تساعده على تحديد سلوكه اتجاهها. ولكن لما كانت هذه الأفكار أقرب إلينا من الحقائق الخارجية التي تعبر عنها وأسهل تناولاً منها، فإننا نميل بطبيعة الأمر نفسه إلى الاستعاضة بهذه الأفكار عن تلك الحقائق، وإلى اتخاذها مادة لما نقوم من بحوث نظرية، وفي مثل هذه الحال نكتفي باستحضار معاني الأشياء في

¹ إميل دوركايم، المرجع السابق، ص. ص 20، 21.

² المرجع نفسه، ص. ص 29، 30.

شعورنا لكي نحللها أو نؤلف بينها. وذلك بدل أن نتجه إلى الأشياء نفسها، لكي نلاحظها ونصفها ونقارن بينها¹.

لم ينتظر الناس نشأة علم الاجتماع حتى يكوّنوا لأنفسهم فكرة عامة عن القانون أو الأخلاق أو الأسرة أو الدولة أو المجتمع. وكيف لهم أن ينتظروا وما كانوا يستطيعون الحياة دون أن يكوّنوا لأنفسهم هذه الفكرة؟

يؤلف العقل كما يرى "دوركايم" نسقاً من المقولات التي تعتبر عنده نتاج الحياة الاجتماعية. ذلك لأن محتويات العقل وما يتضمنه الفكر من صور ومقولات صدرت جميعها عن أصل اجتماعي، ومن ثم كان الأصل بمثابة الأساس الموضوعي للفكر الإنساني. ومن ناحية أخرى، فإن العلم ولد من الدين والفلسفة نشأت في أحضانه. ولما كان للدين أصله الاجتماعي كانت المقولات والتصورات بالضرورة من نتاج المجتمع لأنها صادرة عن الفكر الجمعي².

من هنا أنكر "دوركايم" بصدده حديثه عن التصورات الفكرية أو العقلية، الاتجاهات البيولوجية والنزعة الحيوية التطورية، مميّزاً بين التصورات البيولوجية الصادرة عن الغرائز والدوافع الفطرية، وبين التصورات الاجتماعية الناجمة عن المجتمع، ذلك لأن التصورات الفردية لا تنهض كتصورات بذاتها، بل تستمد أصولها من بنية الحياة الاجتماعية التي تتألف من تصورات عامة تشيع في البناء الاجتماعي. كذلك أنكر "دوركايم" دعاوى النزعة السيكوفيزيقية التي ترد الظواهر العقلية المرتبطة بقوى الإدراك والمعرفة مثل التذكر والتخيل والتصور إلى مادة عضوية تصدر عن أصول بيولوجية أو خلايا عصبية.

يتصوّر "دوركايم" المقولات على أنها أدوات للفكر صدرت عن حركة التاريخ، استعارها الفكر الإنساني عن طبيعة الحياة الاجتماعية. أي أنها على وجه العموم ذات أصل

¹ إميل دوركايم، المرجع السابق، ص 40.

² محمد علي محمد، المرجع السابق، ص. ص 255، 256.

اجتماعي مشبعة بعناصر دينية اجتماعية. فالفكر الإنساني برمته وبمقولاته ومبادئه ثمرة من ثمرات الفكر الديني وبالتالي ثمرة من ثمرات الفكر الجمعي¹.

لقد حاول "دوركايم" البحث في الأصول الاجتماعية لمقولات الفكر، مؤسساً افتراضه على ثلاثة نماذج من الأدلة هي:

(1) - أن التنوع الثقافي لمقولات المنطق وقوانينه تبرهن على أنها تعتمد على عوامل تاريخية واجتماعية.

(2) - لما كانت المفاهيم والتصورات تذوب في اللغة التي يكتسبها الفرد، ولما كانت بعض هذه التصورات تشير إلى أشياء لم نختبرها كأفراد، لذا يتضح أنها نتاج للمجتمع.

(3) . إنَّ قبول أو رفض هذه التصورات لا يتحدد فقط من خلال ما لها من ثبات وصدق موضوعي، بل وأيضاً من خلال مدى اتساقها وتطابقها مع غيرها من المعتقدات السائدة².

ذهب "دوركايم" إلى أن مبدأ التصنيف كان قد اشتق من تقسيم المجتمع إلى عشائر. ذلك أن البناء الأساسي للمجتمع هو الذي حدّد، في نظره، بنية الفكر الإنساني ومن هنا كانت مقولات الزمان والمكان والعدد مقولات اجتماعية وليست مقولات نظرية في العقل البشري. ومن ثم، ارتبط تقسيم السنة إلى شهور وأسابيع وأيام ارتباطاً مباشراً بالطابع الدوري والمرحلي للقيام بالشعائر والاحتفالات والطقوس العامة، حتى أن "التقويم" كان تعبيراً واضحاً عن إيقاع الحياة الاجتماعية.

من هنا كانت أشكال المعرفة وصورها المختلفة أموراً وظيفية بالنسبة للمجتمع بمعنى أن الاتصال بين الأفراد يكون أمراً ممكناً لأنهم يشاركون في تمثلات جمعية. ولا يقتضي العيش في المجتمع الحاجة إلى المسابرة والامتثال الأخلاقي فحسب، بل يتطلب أيضاً تحقيق قدر من المسابرة المنطقية من غيرها يتعذر استمراره بسلام.

¹ محمد علي محمد، المرجع السابق، ص. ص 256، 257.

² المرجع نفسه، ص 257.

ترتبط المعرفة في نظر "دوركايم" بمتطلبات النظام الاجتماعي العام، بالدرجة التي تشتق فيها المقولات العقلية، التي تكون التمثلات والتصورات الاجتماعية، من المبادئ الأساسية للترابط الاجتماعي. ويضيف أنه مع تطور المجتمعات الحديثة والمعقدة أصبح الفكر نفسه منفصلاً عن أصوله الاجتماعية من أجل تحقيق الاستقلال والموضوعية. لذلك ذهب إلى أن نسق التصنيف الذي كان يميّز التنظيم الاجتماعي البدائي، لا يصلح لأن يكون أساساً لتفسير سوسيولوجي للفكر الحديث¹.

ميّز "دوركايم" بين الزمان الشعوري أو الذاتي كحالة سيكولوجية شعورية تتتابع في وجداننا كجزء من ماضينا وحاضرنا، وبين الزمان الموضوعي كديمومة لا نهائية ولا تتقطع، أو زمان كل إنسان في كل حضارة وهو الزمن الكلي أو الزمن الجمعي، باعتباره تنظيمياً للأحداث وتصنيفاً للوقائع، لذلك فهو زمان تشتق مقولته من طبيعة الحياة الاجتماعية وما يتخللها من تتابع لمختلف الظواهر والأحداث الدينية. إن تقسيم الزمان ودوام هذه التقسيمات إلى سنين وشهور وأيام له صلة وثيقة بدورات اجتماعية كالمناسبات الدينية والشعائر والأعياد. ولم يكتف "دوركايم" بهذا التمييز السابق للزمان الشعوري الذاتي والزمان الموضوعي الجمعي، بل جعل الأول نتاجاً للثاني ومشتقاً منه، فالزمان الموضوعي زمان اجتماعي كلي يتشخص في كل حالة فردية وجزئية. لذلك كان الزمان الكلي الموضوعي الاجتماعي تعبيراً عن إيقاع الحياة الاجتماعية ومظاهر النشاط الجمعي على شكل تقسيمات زمانية متتابعة لتأخذ في النهاية صورة "التقويم الزمني".

رفض "دوركايم" التصورات الفلسفية لفكرة السببية أو العلية. فلم يتفق مع العقليين في القول بوجود علاقة ضرورية وكلية وقبلية في الذهن بين العلة والمعلول أو بين السبب والنتيجة، كما لم يتفق مع التجريبيين في ردهم فكرة السببية إلى تداعي أو تواتر توكده التجربة لتكون عادة ذهنية تصل ما بين العلة والمعلول، وإنما ذهب إلى أن العلية أو السببية ترجع إلى مصدر موضوعي (لا هو عقلي ولا هو تجريبي) اجتماعي. فالعلة فكرة من صنع العقل الجمعي يقدمها جاهزة للعقل الفردي ليرى من خلالها أو ليدرك ما بين الأشياء والظواهر من علاقات. ويرجع الأصل الاجتماعي لمقولة السببية عند "دوركايم" إلى فكرة "

¹ محمد علي محمد، المرجع السابق، ص. 257-259.

القوة الفاعلة"، بمعنى أن هناك قوة موجودة هي المجتمع وما يتميز به من سلطة إلزامية تعلق سلطة الأفراد.¹

¹ محمد علي محمد: المرجع السابق، ص. ص 259، 260.

المبحث الرابع: ماكس فيبر والعقلانية

لقد اتصف "ماكس فيبر" "Max Weber" بسعة معلوماته الأكاديمية وبذكائه الثاقب، وشملت معارفه الميادين المختلفة، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والقانونية والتاريخية لبلدان أوروبا في ذلك العصر وبلدان أخرى عديدة.

وعلى الرغم من إحداه فقد اهتم بمسائل دينية شكّلت جزءاً مهماً من مؤلفاته وهنا نذكر مؤلفه المشهور "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية". كما حاول وضع المادية التاريخية موضع تساؤل، إنه يقول بالتفاعل بين الديانات والأنظمة الاقتصادية... انتقد المادية التاريخية لأنه يعتبر إعطاء الأفضلية للاقتصاد "ادعاء غير علمي"¹.

شكّلت المسائل المنهجية حيزاً مهماً من مؤلفاته، ترجمت تحت عنوان "محاولات حول نظرية العلم". ويفسر هذا الاهتمام بالنواحي المنهجية بالجو الفكري الذي كان سائداً في الجامعات الألمانية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فالنقاش كان حاداً وعميقاً حول طرائق وقيمة العلوم والفروق في المناهج.

يقول "ريمون آرون": "يعتبر "ماكس فيبر" دون منازع أكبر عالم اجتماع ألماني وهو خبير قانوني، وعارف بالاقتصاد، متمكن في التاريخ، وكذلك فيلسوف، أضحى أستاذاً لعلم اجتماع الفهم. تميّز بتبحره في ميادين العلم والمعرفة وبتنوع الأسئلة التي صاغها، وبالصرامة المنهجية، وبعمق فلسفته. ومؤلفاته تقدم كنموذج لعلم اجتماع تاريخي ونسقي في نفس الوقت"².

أصالة وعبقورية "ماكس فيبر" تتأتى بداية من رغبته في أن يصبح سياسي وعالم في نفس الوقت، وللتدقيق أكثر نؤكد على أنه جمع وفصل، في الوقت ذاته، بين السياسة والعلم.

¹ علي سالم، "قراءة في نظرية المعرفة عند ماكس فيبر"، مجلة الفكر العربي المعاصر، 1981. ص85.

² Raymond Aron, La sociologie allemande contemporaine, PUF, Paris, 1981. P81

حسب "مادلين غرافيتش": "إن مؤرخ القانون والخبير في العلوم السياسية والاقتصادية تحوّل في خضم النقاش الذي أجراه مع ظل "كارل ماركس" إلى عالم اجتماع¹."

تبدو الأهمية الخاصة لآراء "فيبر" في مساهمته في النقاش الذي ساد ظهور العلوم الثقافية (الاجتماعية) كمجال مستقل للمعرفة، إذ كانت المهمة الملحة، وربما لا تزال تتمثل في تحديد مجال وموضوع المعرفة الاجتماعية وكذلك طبيعتها ومكانتها الإبيستمولوجية في فترة سيطرت فيها العلوم الطبيعية من خلال تقديمها أنموذجاً صارماً لما يجب أن يتوفر عليه أي نشاط معرفي من معايير وقواعد مثل الدقة والثبات والصدق سعياً وراء تحقيق معرفة موضوعية.

يتعين علينا لتحقيق فهم أفضل لموقف "فيبر" الرجوع إلى الوراء قليلاً وفحص موقف الفلسفة الألمانية عامة من مسألة قيام علوم ثقافية (اجتماعية) ذات موضوع محدد وتتمتع باستقلالية نسبية تجاه العلوم الطبيعية، لقد تأثرت آراء "فيبر" حول هذه القضية إلى جانب قضايا أخرى لا تقل أهمية عنها بتيارين متنافسين في الفلسفة الألمانية، التيار المثالي والتيار الكانطي المجدد، وسنتعرض بشيء من التفصيل لكلا الموقفين².

فيما يخص التيار المثالي يبرز لدينا تأثير الفيلسوف "ديلتي" الذي رأى ضرورة التمييز بين العلوم الطبيعية والثقافية (الاجتماعية) اعتماداً على اختلاف موضوع المعرفة.

لقد اعتبر دراسة الحوادث الطبيعية بأنها تتدرج ضمن محاولة إقامة قوانين عامة. فالعلاقات السببية تمثل موضوع الاهتمام الأول والأساسي للعالم الطبيعي، غير أن فهم ظاهرة أو مجموعة من الظواهر يعني دراستها من الداخل، أي البحث عن العلاقات الكامنة التي تربط بينها بشكل أو بآخر، عملية غير ممكنة التحقيق في العالم الطبيعي لأن دراسة الظواهر من الداخل يعني البحث عن كيفية نشأتها، وهذا ضرب من المستحيل لأن الإنسان لا يخلق الظواهر الطبيعية.

¹ Madeleine Grawitz, *Méthodes des sciences sociales* Dalloz, Paris, 1986.P129

² العياشي عنصر، "ملاحظات حول الإشكالية المنهجية عند ماكس فيبر"، *دراسات عربية*، العدد 3، 1986، ص111.

أما في المجال الاجتماعي فتمثل الظواهر محصلة نشاط البشر، محصلة العقل والوعي الإنساني، لذلك يمكن دراستها من الداخل وفهم معانيها. وما دامت المسألة تتعلق بفهم هذه الظواهر فإن أفضل الطرق لتحقيق ذلك هو الحدس والمعاشة الوجدانية لتجارب الآخرين.

رفض "فيبر" مبدئياً الفصل القاطع بين شطري الوجود العضوي واللاعضوي وبالتالي بين قسمي المعرفة الإنسانية ولم ير قاعدة منطقية ومعقولة لاعتبارهما متباينين لدرجة أنهما يشكلان أنموذجاً ثنائياً. وهو لا يعتقد أن فهم الأشياء يتم بواسطة الحدس وحده، الحدس برأيه يكشف ويفتح طرقاً جديدة بقدر ما يثير فرضيات جديدة وتماتلات منطقية¹.

يرى في المعاشة الداخلية طابعاً وهمياً يبعدها عن المعرفة، فالمعرفة قد تتطلب هذه المعاشة لكنها لا تتماثل معها، ولا يمكن لمبهم المعاش أن يحل محل المفهومات، لأنه شخصي ولا يمكن نقله والتحقق منه، وهو عصي على البرهان إنه يؤلف مقارنة جمالية للواقع، لا مقارنة علمية².

التيار الثاني الذي تأثر به "فيبر" يتمثل في التيار الكانطي المجدد وبالتحديد آراء الفيلسوف (ريكتر) الذي يعبر عن موقف مغاير في هذه الإشكالية بالتمييز بين العلوم الثقافية والطبيعية. هنا يعتمد على الاعتقاد في أن الاختلاف قائم في طرق المعرفة وليس في طبيعة الموضوع، إذ أن العلوم الطبيعية تهتم بالانتظام القائم الذي يشبه القوانين العامة التي على أساسها نستطيع فهم الظواهر والحوادث الطبيعية بالاعتماد على تصنيفها إلى بعض الفئات العامة لذلك فإن منهجية هذه العلوم ذات طبيعة تعميمية أساساً.

أما العلوم الثقافية فتهم بالبحث في الخصوصيات أو ما يجعل الظواهر فريدة، إنها تحاول معرفة لماذا يحدث شيء ما بطريقة معينة في زمن ومكان محددين، لذلك فإن المنهجية اللائقة والملائمة ذات طبيعة تخصيصية.

¹ علي سالم: المرجع السابق، ص 86.

² جوليان فروند، علم الاجتماع عند ماكس فيبر، تر: تيسير شيخ الأرض، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق، 1976، ص 52.

إنّ موقف "فيبر" من التيار الثاني هو قبول الفكرة الأساسية المتمثلة في وجود اختلاف إبستمولوجي ومنهجي، لكنه يعارض بشدة ربط كل من المجالين بطريقة منهجية محددة وبالتالي يرفض أن تقتصر العلوم الطبيعية على المنهج التعميمي بينما تكتفي العلوم الاجتماعية بالمنهج التخصصي، ويعتبر هذا التمييز القاطع غير معقول وليس له مبرر، فالمنهجان يمكن استخدامهما في المجالين الطبيعي والاجتماعي إذ مهما كانت العلوم الطبيعية تهتم أكثر ببلوغ قوانين عامة وإقامة تصنيفات كبرى، فإنها كثيراً ما تلجأ إلى دراسة المميزات الخاصة بالظواهر تحت ظروف وفي أوضاع محددة. وبنفس الطريقة، فإن العلوم الثقافية تلجأ إلى استخدام المنهج التعميمي، كما يبدو ذلك من خلال المفاهيم النظرية العامة التي تشكّل جزءاً أساسياً في خطابها مثل : البنية، المؤسسة، المكانة، الدور، الطبقة... الخ¹.

إنّ النظرة التي كوّنّها "فيبر" عن طبيعة المعرفة التي يمكن تحقيقها في المجال الاجتماعي متأثرة إلى حد كبير بالموقفين السابقين، كما أنه حاول تقديم حلول جديدة للمعضلات التي واجهها من خلال صهر الآراء المختلفة في محصلة تركيبية جمعت بين مواقف الفلسفة الألمانية بتيارها المتنافسين وبينها وبين بعض التصورات والأفكار المستمدة من الفلسفة الوضعية عموماً والتيار التجريبي بالخصوص.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، وفي السياق نفسه، سنحاول الإشارة إلى بعض المواقف الإبستمولوجية والإجراءات المنهجية، التي تبناها "ماكس فيبر" في بلورته لنظريته في المعرفة:

أولاً: العالم غير محدود ولا توجد معرفة باستطاعتها الإحاطة به وفهم كل أبعاده وجوانبه².

ثانياً: في نظر "فيبر" المنهج عبارة عن وسيلة للحصول على معارف وهو بذلك يخضع للقانون الذي يحكم جميع الوسائل: الملائمة والفعالية لذلك يرفض الادعاء غير

¹ العياشي عنصر: المرجع السابق، ص. ص 112، 113.

² Raymond Aron, op.cit. P82

المنطقي الذي يرى أن هذا المنهج أو ذلك أفضل إذ أن ما يحدد قيمة المنهج هو قدرة الباحث من جهة وطبيعة وهدف البحث من جهة أخرى، ففعالية المنهج لا يمكن تحديدها إلا في ضوء النتائج التي يمكن تحقيقها.

ثالثاً: رفض "فيبر" فكرة أن الإدراك العلمي السليم لا يكون إلا في شكل كمي معتبراً المناهج الكمية بمثابة وسائل إضافية يمكن الاستفادة منها في مجال العلوم الاجتماعية. كما يمكن الاستغناء عنها، إذ ليس هناك ضرورة ملحة لاستخدامها إلا إذا اقتنع الباحث بأهميتها وقيمتها في ميدان بحثه، من هذا المنطلق نجده يرفض ربط إمكانية تحقيق التصور العلمي باستعمال الإجراءات الرياضية والإحصائية حيث أن مثل هذا التصور يمكن بلوغه من خلال النقد، المنطق، الملاحظة الدقيقة ربما الحدس في بعض الأحيان.

يرى "فيبر" أن المناهج التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر هي مناهج مذهبية أكثر منها علمية إذ كان هناك توافق بين العلم وفلسفة التاريخ، فالعلوم الاجتماعية كانت تعمل على تغيير الواقع القائم، وبذلك فهي برأيه علوم إصلاحية، وليست علومًا بحثية، إذ أن العلم برأيه بمعزل عن الطريقة التي يستخدمها، يجب ألا يكون مرتبطاً بأهداف اجتماعية أو بطبقة معينة.

بالإضافة إلى ما سبق، فإن "فيبر" يعتقد أن السوسيولوجيات المختلفة في القرن التاسع عشر كانت عقائدية، ففي هذه الظروف لم تكن تفعل شيئاً غير حث العلم على المسير، وإنها كانت قبل كل شيء تدّعي تغيير المجتمع القائم¹.

وقد اهتم "فيبر" شأنه شأن غيره من علماء الاجتماع بتحديد الخصائص المميزة لهذا العلم الذي يقع ضمن ما أطلق عليه "العلوم الثقافية"، واعتقد أن الوقوف على هذه الخصائص بوضوح وتمييز هو بمثابة حجر الأساس في وضع قواعد منهجية ملائمة للدراسة الاجتماعية. والخاصية المميزة لعلم الاجتماع هي أن يدرس الفعل الاجتماعي بهدف فهمه وتفسيره، ولا تتعلق الدراسة في علم الاجتماع بالمظاهر الحسية الخارجية للسلوك فحسب، وإلا أصبحت دراسة قاصرة كل القصور، وإنما يتعين على علم الاجتماع لكي يكون جديراً

¹ جوليان فروند، المرجع السابق، ص 53.

بهذا الاسم أن يدرك المعاني التي تتطوي عليها الأفعال والصلات المتبادلة بين الأفراد. وهكذا حدّد "فيبر" بؤرة الدراسة السوسيولوجية في طائفة من الظواهر وأنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تفهم فهما ذاتياً¹.

وعلى ضوء ذلك عرّف "فيبر" علم الاجتماع بقوله "علم الاجتماع هو ذلك العلم الذي يسعى إلى فهم الفعل الاجتماعي وتفسيره، لكي نتمكّن من تقديم تفسير سببي لمجره ونتائج"².

ينكر "فيبر" بشدة وجود عامل واحد يسهم بصفة أساسية في تشكيل المجتمع أو بالتأثير على التغيّر الاجتماعي فيه. ولكن الطابع الذاتي الذي ميّز تصويره لعلم الاجتماع، فضلاً على تأكيده للفعل العقلي الرشيد، قد يكونان مبررين لأن نذهب إلى أنه كان يميل إلى تأكيد الدور الذي تلعبه الأفكار في الحياة الاجتماعية³.

والفهم عند "فيبر" ليس مرادفاً للحدس التعاطفي الغامض الذي تحدث عنه غيره من الفلاسفة ولكنه فهم فكري، وتحليلي وتفسير تنبؤي للسلوك.

إن الفهم عنده يحقق هدفين اثنين: فهو من ناحية يمكّننا من معرفة الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى حدوث الظواهر الاجتماعية، وذلك من خلال صياغة فئات سوسيولوجية عامة، وهو من ناحية أخرى يمكّننا من إدراك المعاني الذاتية التي تتطوي عليها الأفعال الإنسانية، وهكذا، يتعين أن يكون الفهم، في رأي "فيبر" فهماً ملائماً سببياً وملائماً أيضاً على مستوى المعنى، ويتحقق النوع الأول من الفهم من خلال تفسير سلسلة من الأحداث في ضوء تعميمات تكشف إمكانيات ظهور هذه الأحداث في مواقف متعددة، أما الفهم الملائم على مستوى المعنى فهو يستند إلى الحقيقة التي مؤداها، أن الكائنات الإنسانية على وعي مباشر بأفعالها، وأنها حينما ندرس العلاقات المتبادلة بين الناس نستطيع أن نذهب إلى ما

¹ محمد علي محمد، المفكرون الاجتماعيون، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، ص193.

² Max Weber, *économie et société*, Plon, Paris, 1971, P4.

³ نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، تر: محمود عودة وآخرون، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص 174.

وراء العلاقات السببية والوظيفية إذ نستطيع فهم النوايا والمقاصد الذاتية للناس، وطالما أن الفعل هو الإطار المرجعي التحليلي عند "ماكس فيبر" فإن المعاني تصبح ذات قيمة خاصة.

والسلوك الخالي من المعنى الذاتي يظل دائماً على هامش الدراسة السوسيولوجية إذ أن الفهم منهج للتفسير، وهو بهذه المثابة مدخل فريد للعلوم الثقافية لأنه يتعلق بالإنسان أكثر من أي شيء آخر، فالإنسان هو القادر على فهم مقاصده الخاصة بواسطة الاستبطان، وهو كذلك الذي يستطيع أن يفسّر دوافع الآخرين من خلال معرفة مقاصدهم¹.

يقول "فيبر" بالسببية المفردة، إذ ليس صحيحاً ألا يكون للسببية من معنى إلا في إطار البحث بهدف اكتشاف قوانين، لأن حدثاً مفرداً يمكنه أن يكون سبباً لحدث مفرد آخر، بمعزل عن أي تعميم.

ويؤكد على ضرورة الاختزال السببي، فالمؤرخ مثلاً إذا وجد أمام تغيرات نوعية، فسوف يجد نفسه مضطراً للقيام باختيار سببي لأنه لن يتمكن من أخذ كل العناصر السببية في الاعتبار إنه يقسم الأسباب إلى أسباب مهمة وأخرى غير مهمة، ويعتقد أن أسباب الوقائع التاريخية هي من إنتاج معرفتنا وليس من إنتاج المجرى الحقيقي للأشياء، من ناحية أخرى، يعتبر أن تحديد العناصر السببية للأحداث هو تحديد مرتبط بـ "أفكار القيمة"².

وفي الإطار نفسه يتحدث "فيبر" عما يسمى بـ "السببية المناسبة" وهي عبارة عن علاقة سببية أو ربط سببي بين سبب ونتيجة والعلاقة هذه ذات إمكانية موضوعية في الحدوث³.

نعود لنشير إلى ما قدّمه "فيبر" عن علاقتنا كباحثين بالقيم، فهو يؤكد أن العلاقة بالقيم تكون أساس الأسئلة التي نطرحها على الواقع، فإذا سألنا مؤرخاً عن اهتمامه مثلاً بالثورة الفرنسية، وسألنا عالم اجتماع عن سبب دراسته للعلاقات الاجتماعية في مدينة عمالية، أو للشروط الراهنة للطلاب، أجبانا تقريباً بهذا الجواب. إنّه يثير الاهتمام، أو أيضاً: أنه من

¹ محمد علي محمد، المرجع السابق، ص 207.

² علي سالم، المرجع السابق، ص.ص 86،87.

³ Max weber, essais sur la théorie de la science, Plon, Paris, 1965, P312

الأهمية بمكان، بيد أن "فيبر" لا يقتنع بهذا الجواب الغامض، وإنما يطرح سؤالاً له صلة بالموضوع لماذا كان هذا من الأهمية بمكان وبالنسبة إلى أي شيء؟ إنَّ الإجابة عن السؤال الأول، شأنها شأن الإجابة عن السؤال الثاني، تتضمن إحالة إلى القيم، ونحن حينما نختار موضوع تفكيرنا نجمع الوثائق والعناصر التي نختار منها، لأن بعضها يبدو جوهرياً وبعضها الآخر يمكن إهماله، ولكن بفضل أي شيء، نقوم، والحالة هذه، بهذا الانتخاب، إذا لم يكن وفقاً لعلاقتنا بالقيم.

لقد أصبح من السهل علينا الآن أن ندرك دور العلاقة بالقيم ودلالاتها فإذا سلمنا بلا تناهي الواقع الاختباري اتساعاً وكثافة، الذي لا يتوصل أي علم إلى أن يشملته بكامله بدت لنا العلاقة بالقيم هي مبدأ الانتخاب وشرط المعرفة الجزئية على الأقل، وعلى نحو أدق، أنها اللحظة الذاتية التي تجعل المعرفة الموضوعية المحدودة ممكنة، بشرط أن يكون العالم واعياً بهذا التحديد الذي لا يمكن تفاديه¹.

ليس من واجب علم الاجتماع دراسة ماهية الظاهرة الدينية، كما يعتقد "فيبر"، وإنما السلوك ذو المعنى الذي يسلكه الإنسان الديني. فالمسألة لا تتعلق بالنظر في القيمة الخاصة بالعقائد أو بضروب اللاهوت المتنافسة أو بفلسفات الدين، ولا تتعلق أيضاً بمشروعية الإيمان بعالم علوي، وإنما يتعلق بدراسة السلوك الديني، من حيث هو فعالية إنسانية في هذا العالم الأرضي، تتوجه توجهاً ذا معنى، وفقاً لغايات عادية والمسألة لا تتعلق إطلاقاً بتبني الموقف الوضعي، الذي يقوم على أساس إنكار الدين أو احتقاره عموماً، ولكنها تتعلق بفهم تأثير السلوك الديني على الفعاليات الأخرى، من أخلاقية أو اقتصادية أو سياسية أو فنية².

انطلاقاً مما سبق، يمكن التأكيد على أن سلوك الأفراد في مختلف المجتمعات يفهم في سياق تصورهم العام للوجود وتعتبر المعتقدات الدينية وتفسيراتها إحدى هذه التصورات للعالم التي تؤثر في سلوك الأفراد والجماعات، بما في ذلك السلوك الاقتصادي.

¹ Max Weber, op.cit. PP 297-298

² جوليان فروند، المرجع السابق، ص 169.

لقد توصل "فيبر" من خلال تحليل دقيق لتعاليم "لوثر" و"كالفن" إلى نتائج مفيدة معرفياً فروح البروتستانتية كما تبدو في أخلاقياتها العملية في الحياة اليومية، تطابق روح الرأسمالية الحديثة، وذلك أن العقيدة البروتستانتية تهتم اهتماماً بالغاً بتنشئة الفرد تنشئة عقلية، وهي تمنح المهنة قيمة أخلاقية كبيرة كما أنها تقدس العمل، بل وتعتبر أن تأدية العمل بأمانة وحماس واجب مقدس، والعقيدة البروتستانتية فوق كل ذلك تعتبر جمع المال بطريقة شريفة نشاطاً ذكياً¹.

وفي حديثه عن حرفة العالم، يؤكد "فيبر" أن العالم يهدف إلى صياغة قوانين تتعلق بالارتباطات السببية بين الوقائع أو أنه يسعى إلى التوصل لتفسيرات شاملة وصادقة لما يدرسه من ظواهر، وعلى هذا النحو يصبح البحث العلمي ضرباً من السلوك العقلي الذي يصبو نحو تحقيق غايات محددة بوضوح. وتتمثل هذه الغايات في اكتشاف الحقيقة المطلقة، وهنا يمكن القول أن غاية العلم قد تحددت على أساس حكم قيمي، ذلك الحكم هو ما أطلق عليه "الحقيقة المطلقة".

وهكذا أصبح السلوك العلمي هو في جوهره عبارة عن سلوك عقل له علاقة بهدف معين من جهة وبقيمة من جهة أخرى، القيمة هي الحقيقة. والعقلانية هي القواعد المنطقية للبحث التي لا بد من الاهتمام بها لكي نستطيع أن نثق في صحة النتائج، والواقع أن "فيبر" يدرك العلم بوصفه جانباً من العقلانية التي أصبحت سمة من سمات المجتمعات الغربية الحديثة، إذ أن العصر الحديث هو الذي امتلك أدوات الفهم العقلي الشامل لكافة الظواهر وطريقة عملها، على نحو لم يتحقق في أي مرحلة تاريخية سابقة وعلى ذلك قد حدد "فيبر" خاصيتين للعلم هما:

- (1). أن العلم لا يمكن أن يصل إلى درجة الكمال.
 - (2). أن العلم ينشد الموضوعية ويسعى إلى التحرر من أحكام القيمة.
- أدرك "فيبر" قيمة التخصص في تطور العلوم، فقد قال أنه " عن طريق الاختصاص الضيق وحده يستطيع العامل في الحقل العلمي تحصيل الإدراك التام بأنه قد أنجز شيئاً

¹ Max Weber, l'éthique protestante et l'esprit du capitalisme, Plon, Paris, 1964, PP 11-28

سوف يقترن بالبقاء والدوام، فالإنجاز المحدد والجيد بالفعل هو اليوم بصورة مطردة إنجاز متخصص¹.

وفي نظره دائماً، إن اتخاذ موقف سياسي وعملي هو شيء، والقيام بتحليل علمي للبنيات السياسية ومواقف الأحزاب شيء آخر تماماً، وعندما يتحدث المرء في اجتماع سياسي عن الديمقراطية، فإنه لا يخفي موقفه الشخصي. والحق أن الكشف بوضوح عن الموقف المتخذ هو فرض، واجب عليه، ومسؤولية ينبغي تحمّلها. فالكلمات التي يستخدمها في مثل ذلك الاجتماع ليست عبارة عن وسائل للتحليل العلمي، بل طرق سياسية تهدف إلى كسب المؤيدين واستعطاف ودهم. وهي ليست كالمحاريث التي تستعمل لشق تربة الفكر التأملي، بل كالسيوف الموجهة ضد الأعداء. إن الكلمات هي أسلحة في الصراع².

والصفات التي تجعل من المرء عالماً ممتازاً وأستاذاً جامعياً، ليست هي تلك الصفات التي تجعله قائداً، يعطي التوجيهات في ميدان الحياة العملية، أو بنوع خاص في مجال السياسة... ورجل العلم عندما يقم حكمه القيمي الشخصي في مسائل العلم، يبطل لديه حصول الفهم التام للحقائق والوقائع³.

¹ ماكس فيبر، صناعة العلم، تر: سعد رزوق، الدار العلمية، بيروت، 1972. ص21.

² المرجع نفسه، ص48.

³ المرجع نفسه، ص50.

الفصل الثالث

الإستيمولوجيا والعلم

تمهيد

يعتبر البحث الإبستمولوجي إجراء عرفاني ضروري لتحقيق طفرات نوعية في مجال العلوم ولتجسيد إدراك وتبصر لطبيعة المعرفة العلمية وكيفية تطورها. ولا نستطيع إنجاز مشروع إبستمولوجي، يؤدي إلى وعي حكيم بمنجزات الإنسان العلمية، بعيداً عن نشاط مكثف في ميدان الدراسات الأساسية والتطبيقية.

كل إبستمولوجيا هي إبستمولوجيا متخصصة تتحدد استناداً إلى المعرفة العلمية التي تدرسها، ولا تهدف إلى إدراك العموميات بل تتابع إنتاج الأفكار العلمية ونشأتها داخل علم بذاته وفي حدود فرع أكاديمي بعينه.

إن تشابك المعرفة وتقارب فروعها لا يعني ذلك تجاهل الاختصاصات أو الوثب عليها أو محوها للاهتمام بالعموميات، بل من اللازم إثراءها والولوج إلى المسائل التي يستدعيها كل علم على حدة دون إغفال الجسور المعرفية التي تربط بين مختلف التخصصات.

ينبع النقد العلمي الوجيه من ذات عارفة تتميز بصفتين متكاملتين، ذات تزاؤل الأبحاث الميدانية بضوابطها ومستلزماتها، وذات مفكرة تمارس التنظير العلمي الصارم وصياغة المفاهيم المجردة والإجرائية السديدة والصائبة.

وما نرمي إليه انطلاقة من محتوى هذا الفصل، هو عرض الثقافة العلمية والأدبيات المعرفية المرتبطة بالدراسات الإبستمولوجية، استناداً إلى تصورات ورؤى عديد العلماء الراسخين في هذا الميدان الذي يتطلب تجربة معتبرة في حقل البحوث المعمّقة، ويقظة نظرية تتجاوز الحس المشترك والتناول السطحي لقضايا العلم والمعرفة.

المبحث الأول: غاستون باشلار والقطيعة الإبستمولوجية

يعتقد "غاستون باشلار" Gaston Bachelard أنه من الأسلم حينما نريد البحث عن الشروط النفسية التي تصاحب تقدم العلم أن تطرح مسألة المعرفة العلمية في صيغة عوائق، وإن المطلوب ليس اعتبار العوائق خارجية مثل تركيب الظواهر، وإدانة ضعف الحواس أو العقل، بل في صميم المعرفة بالذات تبرز الاضطرابات بنوع من الضرورة الوظيفية¹.

أول عائق أمام تكوين العقل العلمي هو عائق الاختبار الأول، الاختبار الموضوع قبل النقد وفوق النقد، الذي يعتبر بالضرورة عنصراً من عناصر القول العلمي، وبما أن النقد لم يفعل فعله صراحة فلا يمكن للاختبار الأول في أي حال من الأحوال أن يكون سنداً موثقاً.

يشير "باشلار" في السياق ذاته إلى أنه ينبغي علينا أن نعي كون الاختبار الجديد يقول "لا" للاختبار القديم، ومن الواضح أنه دون هذا النفي لا يكون الأمر متعلقاً باختبار جديد وهذه "اللا" ليست نهائية أبداً في نظر علم يجيد مجادلة مبادئه.

يتم، بصفة عامة، تجاوز العوائق الإبستمولوجية حين يحقق العلم في نموه وتطوره قفزات نوعية، والقطيعة الإبستمولوجية ليست ذلك الفاصل الزمني اللحظي أو ذلك التغير السريع الذي ينتج عنه أمراً جديداً كل الجدة، لكنها عبارة عن مسار معقد متشابك الأطراف تنتج عنه مرحلة جديدة ومتميزة في تاريخ العلم.

يؤكد "باشلار" أن كل تقدم حقيقي في الفكر العلمي يتطلب تحولات وأن فلسفة العلم لا يمكن أن تكون سوى فلسفة منهكة باستمرار في مهمة صعبة هي الكشف عن الأخطاء التي وقع فيها العقل البشري، وإبراز الوهم الذي تصوره البعض عندما كَوّنوا لأنفسهم مفهوماً استاتيكيّاً عن الروح العلمية.

¹ غاستون باشلار: تكوين العقل العلمي، تر: خليل أحمد خليل، ط3، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،

إن العقل العلمي يمنعنا من تكوين رأي حول قضايا لا نفهمها، حول قضايا لا نحسن صياغتها بوضوح، قبل كل شيء لا بد من معرفة طرح المسائل، فإن المسائل لا تتطرح ذاتياً، ومن الواضح أن هذا المعنى للمسألة، كما يرى "باشلار"، هو الذي يعطي للعقل العلمي الحقيقي طابعه... ولا شيء معطى، كل شيء مبني¹.

العالم العلمي هو ما نحقق، والعلم يقوم فوق الذات ووراء الموضوع المباشر، انه يقوم على أساس المشروع، وأن تأمل الذات للموضوع ليأخذ في الفكر العلمي دوماً صيغة المشروع ومن ثم من الضروري نقل العقل من لماذا إلى لماذا لا؟ وكل حقيقة جديدة تولد بالرغم من البداهة، وكل تجربة جديدة تولد بالرغم من التجربة المباشرة.

في نظر "باشلار" دائماً، ليست الذاكرة هي التي تتدرب في تعداد الأفكار بل العقل، وليس الأمر أمر إحصاء ثروات، بل تحقيق طريقة إغناء. والتوصل إلى العلم معناه التجدد والقبول بطفرة مفاجئة يفترض بها أن تناقض ماضياً. وإن التوضيح والتصحيح والتنويع هي من أنماط الأفكار الناشطة التي تتهرب من اليقين والوحدة.

بالنسبة إلى عقل متحرر نفسياً من عبوديتي الذات والموضوع فكل اكتشاف هو على الفور تصحيح ذاتي ولا بد للعقل العلمي من أن يتكون وهو يرمم ذاته، وإن الإنسان الذي يتكون لديه انطباع بعدم الانخداع أبداً، سينخدع دائماً².

نقرأ في كتابه تكوين العقل العلمي أن "الفكر العلمي يوجد في حالة تربية دائمة"، ويؤكد بشكل أساسي أن "العلم مدرسة، مدرسة دائمة"

إنّ العلم، كمدرسة دائمة، هو إذاً النموذج لكل مدرسة، وفي الوقت نفسه، النموذج للحياة الاجتماعية لأن المجتمع، والحياة في المجتمع... يجب أن يصنع على صورة المدرسة ومن أجل المدرسة: "المدرسة هي النموذج الأرقى للحياة الاجتماعية.

¹ غاستون باشلار، المرجع السابق، ص15.

² المرجع نفسه، ص192.

وبالفعل، فإن الفكرة التي يكونها "باشلار" عن المدرسة ليست، ببساطة، أصيلة. فهي تُعبّر، في آن واحد، عن المثال الأعلى لفلسفة الأنوار، وعن ترجمته السياسية في الفلسفة الجمهورية. وتعدّ اليوتوبيا، الباشلارية مغفّفة، بشكل افتراضي جزئياً، بمثل هذا التقليد الفكري¹.

فالفكرة القائلة بأنه لا وجود لتقدم اجتماعي، ولتقدم إنساني، من دون تكوين للعقل، ومن دون تعليم، تعود إلى الإرث الفلسفي الفرنسي للقرن التاسع عشر منذ الثورة الفرنسية. إن باشلار ينهض بهذا الإرث².

والواقع أنه عندما تحدث "باشلار" عن القطيعة الإبستمولوجية بصدد النظريات العلمية الجديدة في الرياضيات والفيزياء، كان الفكر العلمي يموج بالتجديدات في مفاهيمه ونظرياته وأأسسه ويحقق قفزة كبيرة وخطيرة في تطوره. فقد بلغت العلوم الرياضية والفيزيائية والكيميائية في ذلك الوقت قدراً كبيراً من الثورية إلى حد يمكننا أن نقول إن فيزياء القرن العشرين ساهمت في تحطيم هذا الإطار المتصلب من المفاهيم العلمية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر. وهذا التحطيم تمّ على مرحلتين منفصلتين: بدأت المرحلة الأولى مع اكتشاف نظرية النسبية حين اتضح أن مفاهيم أساسية، كالزمان والزمان، يمكن أن تتغير أو قل يجب أن تتغير لتنسجم مع التجارب الجديدة. وهذا التغير لم يكن يخص مدلولاتها كما تفهم في اللغة العادية حيث يكتفها الكثير من الغموض بل أصاب صياغتها الدقيقة في اللغة الرياضية لميكانيكا نيوتن، هذه الميكانيكا التي ارتضيها، خطأ، غايةً ووسيلةً.

أما المرحلة الثانية فقد بدأت مع مناقشة مفهوم "المادة"، هذه المناقشة التي أجبرتنا عليها النتائج التجريبية في بنية الذرة. ولعل فكرة واقعية المادة كانت أقوى نقطة في الإطار

¹ جيل ديبويه، باشلار والثقافة العلمية، تر: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1996، ص83.

² المرجع نفسه، ص89.

المتصلب لفيزياء القرن التاسع عشر، وكان لا بد من تعديل هذه الفكرة للانسجام مع التجربة الجديدة.

وهنا أيضاً ظلت المفاهيم كما كانت عليه في اللغة العادية، فلم يتحدث أحد عن التجارب الذرية ونتائجها. لكن تعميم هذه المفاهيم على أصغر أجزاء المادة لا يمكن أن يتم بالطريقة البسيطة التي توحى بها الفيزياء التقليدية، بالرغم من أن هذه الطريقة كانت المعتمدة، خطأ، في كل وجهات النظر حول قضايا المادة¹.

آمن "باشلار" بأن الإبستمولوجية الديكارتية لا يجب أن تستمر في عصر العلم الراهن، عصر التعقيد العلمي للظواهر الفيزيائية الغاية في الصغر. وذهب إلى أن كل منهج وطريقة بحث لا بد وأن تنتهي بفقدان خصوصيتها الأولى، حتى تأتي دائماً لحظة لا يجد المرء فيها فائدة للبحث عن الجديد في أطلال القديم ويعجز الفكر العلمي عن التقدم إلا بخلق منهج وطرق جديدة. وقد تفقد المفاهيم العلمية ذاتها شمولها الكلي، كما أن كل مفهوم ينتهي بفقدان فائدته ودلالته ذاتها عندما يزداد بعده عن الشروط التجريبية التي صيغ فيها، فالمفاهيم ومناهج البحث معاً تتبع مجال التجربة، وعلى الفكر العلمي برمته أن يتبدل حيال تجربة جديدة، ذلك أنه لن يوجد بحث علمي يصف بصفة نهائية، بنية الفكر العلمي. وهذا الموقف ينطلق من مقولة أساسية ألا وهي أن الفكر العلمي يعاصر بكل دقة المنهج والطريقة المعن عنها².

ويرى "باشلار" أن الموقف الفلسفي الملائم للمرحلة التي عرفت تطور العلوم الفيزيائية هو موقف "العقلانية التطبيقية" التي ترى أن الموضوع العلمي الحقيقي هو الموضوع الذي يتم بناؤه وليس الموضوع المعطى، كما أنها ترى أن العمل العلمي ينطلق من النظرية إلى التطبيق: ففي الفيزياء المعاصرة تبدو القطيعة الإبستمولوجية بين المعرفتين العلمية والعامية في موضوع المعرفة. فموضوع المعرفة العامية هو الموضوع المعطى، أما موضوع المعرفة

¹ السيد شعبان حسن: بروشفيك وباشلار بين الفلسفة والعلم، الطبعة الأولى، دار التنوير، 1993، بيروت، ص162.

² المرجع نفسه، ص180.

العلمية فهو الموضوع الذي يتم بناؤه بفضل العمل العلمي العقلاني والتقني في آن واحد، نعني بذلك أن موضوع البحث في الفيزياء الحديثة ليس هو الموضوع الذي يعمل عالم الفيزياء على بنائه بفضل تقنيات متعددة بالإضافة إلى عقلنته، وجعله عقلانياً وتقنياً في آن واحد كما ينص على ذلك "باشلار"، فهو يصف الفكرة العقلانية بكونها مشروعاً للعمل يسعى إلى التطبيق¹.

لكل فيلسوف الحق في أن يدعو إلى موقف فلسفي جديد، ولكن ليس من حظ أي فيلسوف أن يجد دائماً، مثلما كان الأمر بالنسبة لـ "باشلار"، الدعامة التي يعتمد عليها في دعوته؛ والأساس الموضوعي الذي استند إليه هو الثورة العلمية التي بدأت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر واستمرت خلال القرن العشرين. لقد عاصر "باشلار" جزءاً كبيراً من هذه الثورة وعابن الأثر العميق الذي أحدثته في المفاهيم العلمية والفلسفية على السواء. وكانت المهمة التي انتدب نفسه للقيام بها هي أن يعمل على إبراز القيم الجديدة التي حملتها معها تلك الثورة العلمية، بل إنه يجعل من هذه المهمة ما ينبغي أن ينجزه ميدان بأكمله هو فلسفة العلوم².

ينطلق "باشلار" من معطيات الفكر العلمي المعاصر لينتقد الفلسفات المعاصرة له التي يكتشف فيها عدم قدرتها على مسايرة ما حدث من تطور. فقد لاحظ أن هنالك هوة تفصل هذه الفلسفات عن علم عصرها وجعل من مهمته أن يعمل في تقليص هذه المسافة هذه الهوة من أجل أن يقدم الموقف الفلسفي المطابق للعلم، أو من أجل أن يقدم للعلم المعاصر الفلسفة التي يستحقها تبعاً لتعبيره³.

يقدم لنا "باشلار" تصوراً جديداً لفلسفة العلوم يقوم على نقد التصور الذي كان سائداً، وذلك بفضل إعادة النظر في المهام التي ينبغي أن ترجع إلى فلسفة العلوم وفي الشروط

¹ السيد شعبان حسن، المرجع السابق، ص 190.

² محمد وقيدي: فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1980، ص 8.

³ المرجع نفسه، ص ص 27، 28.

التي تلزم لإنجاز هذه المهام. وينبغي أن نقدر هذا الأمر حق قدره ذلك لأنه يندر بين مجموعة المفكرين الذين يشتغلون بميدان معين من يجعل جزءاً من عمله إعادة النظر في أسس الميدان ذاته. ويفتضي هذا أن يكون الذي يعيد النظر قد توصل إلى نتائج جديدة لا يمكن الإعراب عنها ضمن التصور القديم.

لا يريد "باشلار" لفلسفة العلوم أن تكون تدخلاً فلسفياً في العلم. وهو في هذا يعارض كل الفلسفات التقليدية التي كانت سائدة. فهذه الفلسفات التقليدية كانت تجعل الهدف من تفكيرها في العلم احتواء النتائج العلمية لصالح الأنساق الفلسفية، واستغلال النتائج العلمية بالتالي لأهداف تبريرية تخرج عن إطار الممارسة العلمية¹.

إن الفيلسوف، لكي يقوم بمهمته على أكمل وجه، لا ينبغي أن يقف من مسيرة العلم موقف الحكم، بل ينبغي أن يسير في نفس اتجاه هذه المسيرة وأن يعبر عن قيمتها من حيث هي قيم للعقل الإنساني وقيم للثقافة الإنسانية وقيم نفسية لأنها بتجدها تطور لا تفكيرنا في الموضوعات فحسب بل فكرنا ذاته².

هناك خاصية للعلم المعاصر يسميها "باشلار" بالخاصية المجتمعية، والهدف منها أن يبين أن العمل العلمي أصبح عملاً جماعياً. ذلك أنه لم يعد هنالك في العالم المعاصر مكان لعمل علمي ينجز بصوت واحد. في كل الاكتشافات العلمية المعاصرة تعاون وتكامل بين عمل مجموعة من العلماء. وهذا التعاون على عدة مستويات، فهو أولاً تعاون بين العلماء النظريين علامته أنه لم يعد هنالك في الوقت الحاضر عمل علمي نظري يوقع باسم واحد. وهو ثانياً تعاون بين التقنيين، حيث أن كل انجاز تقني أصبح يقتضي تعاون عدد كبير من التقنيين وأصبح يقتضي كما يقول "باشلار" مدينة تقنية. والتعاون أخيراً هو تعاون بين النظريين والتقنيين، ففي المدينة العلمية المعاصرة لا يوجد عمل نظري منفصل عن عمل

¹ محمد وقيدي، المرجع السابق، ص.ص 52-55.

² المرجع نفسه، ص.65.

تقني؛ وبالنظر إلى كل إنجاز علمي معاصر سنجد أنه كان نتيجة لتكامل مستمر بين الدليل النظري والدليل التقني.

يقول باشلار: "كيف لا نرى إذن أنه ينبغي على فلسفة تريد أن تكون حقاً مطابقة للفكر العلمي، وهو في تطور دائم، أن تنظر في أثر المعارف العلمية على البنية العقلية"¹

ليس هنالك بالنسبة للفلسفة العلمية لا فلسفة عقلانية ولا فلسفة واقعية مطلقتين، وأن ليس يلزم للحكم على الفكر العلمي الانطلاق من موقف فلسفي عام. ذلك لأن الفكر العلمي لا يعرف الصراع التقليدي الذي يدور بين هذين الاتجاهين الفلسفيين داخل الميتافيزيقا. فهما يوجدان داخل الفكر العلمي في حالة تساكن وتكامل، إلى الحد الذي يمكن معه القول أن الاكتشاف العلمي الواحد لا يفهم في إطار موقف فلسفي ذي طرف واحد بل يفهم من فلسفة ذات طرفين².

¹ محمد وقيدى، المرجع السابق، ص73.

² المرجع نفسه، ص81.

المبحث الثاني: توماس كون وبنية الثورات العلمية

اعتقد "توماس كون" « Kuhn » في كتابه "بنية الثورات العلمية" « Structure of Scientific Revolutions » الذي اعتبر أحد أهم النصوص المكتوبة في مجال فلسفة العلم، بأن هدفه هو إحداث تحول جذري في صورة العلم التي استحوذت علينا. يستمد عنوان الكتاب مسوغه وكذا دلالاته من التساؤل عن طبيعة الانقلابات العلمية ودورها في تقدم العلم.

وقد وصف "كون" معظم تاريخ العلم الذي قابله بأن قيمته لا تتعدى قيمة دليل السائح، وهو مضلل أساساً، فالمبدأ الموجه في وصف تاريخ العلم، وكذلك مفهوم التطور عن طريق التراكم، كانا عرضة لهجوم قاس¹.

تحدث توماس كون « Thomas Kuhn » عن سر اهتمامه بالعلم فقال "إن هذا البحث هو النشرة الأولى الكاملة لمشروع يعود أصله إلى ما يقارب خمس عشرة سنة. في ذلك الوقت كنت قد اجتزت امتحاناتي في الفيزياء النظرية وشارفت على إنهاء رسالتي. لحسن الحظ طلب مني المساعدة في تعليم جامعي تجريبي للفيزياء لغير العلميين. كان هذا أول احتكاك لي مع تاريخ العلوم. ولمفاجأتي الكبرى نسف هذا الاحتكاك في العمق، مع نظريات وممارسات علمية تمّ تجاوزها ، بعض تصوراتي الأساسية حول طبيعة العلم وأسباب نجاحه الخاص"².

سعت البحوث التي أنجزها إلى تحديد ماهية الثورات العلمية وإبراز وظيفتها في تقدم العلم، ووفق منظوره تعتبر الثورات العلمية كحلقات لا تراكمية النمو، من خلالها يعوض براديجما قديماً في كليته أو في جزء منه، ببراديجم مغاير.

¹ باتريك هيلي، صور المعرفة: مقدمة لفلسفة العلم المعاصرة، تر: نور الدين شيخ عبيد، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008. ص155.

² توماس. س. كوهن، بنية الثورات العلمية، تر: علي نعمة، الطبعة الأولى، دار الحداثة، بيروت، 1986، ص5.

والبراديغم هو مجموع الاكتشافات العلمية المعترف بها جماعياً والمسلم بنتائجها، توفر في فترة زمنية معينة لجماعة من الباحثين أنماطاً محددة من المشكلات المعرفية والفرضيات العلمية وكذا نماذج من طرق المعالجة وأساليب الحل.

يسلم "كون" بأنه حدثت ثورة هامة في ميدان التاريخ للعلم فبدلاً من إظهار الإسهامات التي أضافها العلماء السابقون إلى مسيرة العلم حتى أصبح العلم على ما هو عليه اليوم. رأى المؤرخين يوجهون اهتمامهم إلى دراسة طبيعة العلم والأفكار العلمية التي يزخر بها عصر محدد تحديداً زمنياً وكذلك إبراز خصوصية العلم وتفردته في ذلك الزمان.

وعلى هذا الأساس لم تعد أسئلة المؤرخين للعلم تدور حول علاقة الأفكار التي جاء بها "جاليليو" بالعلم الحديث بل حول علاقة أفكاره بأفكار المعاصرين له. وبطبيعة تيار الفكر العام الذي ساد العصر الذي عاش فيه. فهم يتساءلون مثلاً عن أساتذته الذين تتلمذ على أيديهم وعن زملائه العلماء أمثاله، وعن الرجال المعاصرين له أو اللاحقين عليه مباشرة ممن تأثروا به وهكذا.

استعمل "توماس كون" عبارة "العلم السوي" ليعني بها البحث المؤسس بعمق على الإنجاز أو الإنجازات العلمية الماضية، إنجازات يعتبرها فريق علمي معين كافية لتكون نقطة انطلاق لأعمال أخرى¹.

إن الرجال الذين تركز أبحاثهم على نفس البراديغم إنما يلتزمون بنفس القواعد وبنفس المعايير في الممارسة العلمية. إن هذا الالتزام والاتفاق الظاهري الذي ينتجه هما مقدمات وتهيئات ضرورية للعلم السوي².

في إطار البراديغم، ليس ممكناً العمل بشكل آخر، إن التخلي عن البراديغم، يعني التوقف عن مزاوله العلم الذي يحدده.

¹ توماس كوهن، المرجع السابق، ص 31.

² المرجع نفسه، ص 32، 33.

وقد استعمل "كون" « Kuhn » تعابير "أحجية وحلّ أحجية" لتبين بوضوح عدة أطروحات أخذت أهمية متزايدة في صفحات كتابه. "قالأحاجي"- جمع أحجية أو لغز (بالفرنسية Enigme وبالإنجليزية puzzle)- تمثل هذه المشاكل النوعية التي تعطي لكل واحد الفرصة لبرهنة عبقريته أو مهارته¹.

وفي الواقع الملموس، إنّ تشييد براديجم ما يجلب للمؤسسة العلمية، من بين أشياء أخرى، وسيلة اختيار المشاكل التي نستطيع أن نفترض أنّ لها حلاً، طالما اعتمدنا أو تمسكنا بكون البراديجم أمراً مكتسباً، إلى حد واسع إنها المشاكل الوحيدة التي سوف تعتبرها المؤسسة علمية أو التي سوف يقبل بالتصدي لها كما هي. إن مشاكل أخرى، البعض منها كان قد ظهر مقبولاً حتى ذلك الوقت، هي إذن مرفوضة، لأن ميدانها ميتافيزيقي، أو لأنها تعود لنظام آخر، أو أحياناً لأنها عويصة جداً بحيث أنها تستحق إعطاءها الكثير من الوقت. يستطيع براديجم ما أن يجعل فريقاً من الباحثين بمنأى عن المشاكل التي لها أهميتها الاجتماعية لكنها ليست مختصرة أو محجّمة في معطيات لغز، نظراً لأنها لا تطرح نفسها في تعابير متلائمة مع الآليات المفهوماتية المنظرية والدولتية التي يقدمها البراديجم.

وأحد الأسباب التي جعلت العلم السوي يبدو أنه يتقدم بسرعة زائدة هو أن اختصاصيه ينكبون على مشاكل كان يجب على نقص عبقرتهم وحده أن يمنعهم من حلها².

إن المنشأة العلمية، في مجموعها، تكشف أنها مفيدة فعلياً من وقت لآخر، وتفتح ميادين جديدة، وتبرز النظام وتضع تحت المحك الأفكار المشيدة جيداً. مهما يكن، فليس هذا، تقريباً أبداً، ما يشغل "الفرد" الذي يكرّس نفسه لمشكلة البحث الصحيح. فهو بمجرد أن يبدأ عمله، يصبح دافعه مختلفاً. إنّ ما يستهضه ويحثه هو القناعة أنه إذا كان فقط ماهراً كفاية فلسوف ينجح في حلّ لغز لم يحلّه شخص آخر حتى الآن، أو لم يحلّه شخص آخر بشكل جيد. ثمة عدد لا يستهان به من النفوس العلمية كرس كل اهتمامه على المستوى

¹ توماس كوهن، المرجع السابق، ص 71.

² المرجع نفسه، ص 73.

المهني لمشاكل من هذا النوع. في معظم الوقت إنها المهمة الوحيدة التي تقدم نفسها في أي ميدان متخصص، مما لا ينقص في شيء من فتنها وسحرها بالنسبة للذين ينصرفون إليها¹.

إن دراسة تقاليد العلم السوي تكشف العديد من القواعد التقليدية التي تعلمنا وتفيدنا بوضوح عن الإلزامات التي يفرضها على العلميين القبول بالبراديجمات. إذا كنا نريد تصنيف هذه القواعد إلى فئات، فالأكثر جلاءً والأرجح، الأكثر ضغطاً وإلحاحاً هي الفئات الموضحة بواسطة نوع التعميم، أي التأكيدات المختصة بالمفاهيم والنظريات العلمية... إن قوانين نيوتن، على سبيل المثال، لعبت هذا الدور طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. طالما كانت رائجة، فكمية المادة كانت فئة انطولوجية أساسية (ontologique) بالنسبة للفيزيائيين، والقوى التي تؤثر بين أجزاء المادة شكلت أحد المواضيع الرئيسية من البحث. في الكيمياء، كان لقوانين النسب الثابتة والمحددة أهمية مشابهة لفترة طويلة. كي تطرح مشكلة الأوزان الذرية (Poids atomiques)، وتحصّر النتائج المقبولة في التحاليل الكيميائية، وتشرح للكيميائيين ما كانت عليه الذرات والجزيئات وما هي المركبات والأخلاق. تملك معدلات ماكسويل وقوانين الحرارة الدينامية السكونية نفس القوة الضاغطة المؤثرة ونفس الوظيفة².

إن إلزامات أخرى تبيّننا الدراسة التاريخية بانتظام ومرتبطة أقلّ بعوامل محلية ومؤقتة، ودون أن تكون في كل مرة غير قابلة للاختراق أمام كل تغيير، هي ذات مستوى أكثر ارتفاعاً وشبه ميتافيزيقي. بعد عام 1630، على سبيل المثال، وبالأخص بعد ظهور مؤلفات "ديكارت" التي كان لها تأثير هائل على العلوم، انطلق معظم الفيزيائيين من المبدأ أن الكون كان مؤلفاً من جسيمات مجهرية وأن كل الظواهر الطبيعية تستطيع أن تشرح نفسها بواسطة الشكل، والقامة، والحركة وتفاعل هذه الجسيمات. هذا المجموع من الإلزامات هو ميتافيزيقي بمقدار ما هو منهجي. من حيث المستوى الميتافيزيقي، علمّ العلميين ما هي الكيانات التي توجد أو لا توجد في الكون: لم تكن توجد سوى المادة المتمتعة بالشكل والحركة وتفاعل

¹ توماس كوهن، المرجع السابق، ص74.

² المرجع نفسه، ص78.

الجسيمات، والشرح يجب أن يختصر كل ظاهرة طبيعية معطاة لتفاعل جسيمات محكوم بهذه القوانين. وثمة واقع أكثر أهمية أيضاً، هو أن التصور الجسيمي للكون أملى على العلميين ما كان يجب أن يصبح عليه عدد لا بأس به من مشاكلهم في البحث.

يوجد على مستوى أكثر ارتفاعاً، طاقم آخر من الإلزامات التي بدونها لا أحد يستطيع القول عن نفسه أنه رجل علم. يجب على رجل العلم مثلاً أن يهتم بمحتوى النظام الذي يسود، هذا الإلزام يجب بدوره أن يقوده إلى دراسة بعض جوانب الطبيعة بتفصيل أكثر، وإذا كشفت هذه الدراسة المفصلة مناطق اختلال ظاهري، فهذه الأخيرة يجب أن تحثه على صنع تقنيات جديدة للملاحظة أكثر ضبطاً ولتحديد نظريته بدقة أفضل¹.

تكشف الدراسة التاريخية الدقيقة لاختصاص علمي ما، في لحظة ما، مجموعاً من التوضيحات المكررة والموحدة النمط تقريباً لمختلف النظريات، في تطبيقاتها التصورية، والأدواتية والتطبيقات التي تعود إلى الملاحظة. إنها براديغمات الفريق، معروضة في موجزاته، وتعليمه وتمارينه المخبرية. بدراستها ووضعها قيد التطبيق يتعلم أعضاء الفريق اختصاصهم وبالطبع سيكتشف المؤرخ كذلك منطقة ظلّ تحتلها انجازات لا تزال دساتيرها موضع شك، لكن مجموع المشاكل المحلولة والتقنيات يكون واضحاً عادة. وعلى الرغم من بعض الالتباسات العرضية التي تحصل بالمصادفة، فمن السهل نسبياً أن نحدد وبيسر نسبي براديغمات المؤسسة العلمية الذي وصل إلى النضج.

يعمل العلماء حسب أنماط ونماذج تأتيهم من دراستهم أو مما قرؤوا، وهم غالباً لا يعرفون أو لا يحتاجون إلى أن يعرفوا، بالتالي أية مميزات أعطت لهذه النماذج قيمة البراديغم بالنسبة للفريق. من هذا الواقع، ليسوا بحاجة إلى طاقم كامل من القواعد. من الممكن أن التماسك الذي يظهر في تقليد البحث الذي يساهمون فيه لا يلزم حتى بوجود هذا الطاقم من القواعد والافتراضات الذي قد تكتشفه بالتالي دراسة فلسفية أو تاريخية. وبما أن العلماء لا

¹ توماس كوهن، المرجع السابق، ص.ص 79، 80.

يتساءلون عموماً عما يشرعن هذه المشكلة أو ذاك الحلّ، فإنهم يعرفون الجواب بالحدس على الأقل. ومن الممكن في كل الحالات أن يكون عندهم فقط الانطباع بأن السؤال والجواب لا يدخلان في بحثهم¹.

فالعلماء، لا يتعلمون أبداً مفاهيم، قوانين أو نظريات في المجرّد والعزلة. بالعكس ومنذ البداية، التقى العلماء بهذه الأدوات الذهنية في وحدة سابقة (أكان ذلك من وجهة النظر التاريخية أم من وجهة النظر التربوية) أظهرتهم مع تطبيقاتهم وبواسطتها تمّ ذلك. إن نظرية ما جديدة تكون دائماً معلنة في نفس الوقت مع تشكيلة أكثر محسوسة من الظواهر الطبيعية، بدون هذا الأمر فإنها لن تؤخذ بعين الاعتبار. بمجرد أن تقبل النظرية، فإن هذه التطبيقات لا تذكر هنا بهدف تزييني أو حتى وثائقي. بالعكس، إنّ تعلّم نظرية ما هو سياق يتعلّق بدراسة تطبيقاتها وإيجاد حلول للمشاكل العملية.

ولدى تفحص "توماس كون" لحظات الانعطاف الرئيسية في التطور العلمي، في أعمال كوبرنيكوس (Copernicus) ونيوتن ولافوازييه (Lavoisier) وإينشتاين، أبرز الملامح الآتية التي يعتبرها صفات للثورة العلمية: هناك رفض لنظرية مفضلة لصالح أخرى غير متوافقة معها؛ هناك انزياح في المشكلة لصالح التمهيص ومعايير التقويم، أي - لمن يجب أو لا- أن تعتبر المشكلة مشكلة مشروعة، أو الحل مشروعاً، لتلك المسألة، فالخيال العلمي يتغير، وهناك تحول في العالم الذي ينجز فيه العمل العلمي².

إن الفترة السابقة لتشكل براديجم تكون، على الأخص، متميزة عادة بنقاشات عديدة وعقيدة حول المناهج الشرعية والمشاكل والحلول المقبولة، على الرغم من أن هذا يصبّ في تحديد وتعريف مدارس، أكثر مما يصب في لمّ شعث الإجماع³.

¹ توماس كوهن، المرجع السابق، ص.ص 87، 88.

² باتريك هيلي، المرجع السابق، ص 157.

³ توماس كوهن، المرجع السابق، ص 90.

عل كل حال، إن النقاشات من هذا النوع لا تختفي مرة واحدة عند ظهور البراديغم. وعلى الرغم من أنها غير موجودة تقريباً طيلة مراحل العلم السوي، فإنها تعاود إنتاج نفسها بانتظام بالضبط قبل وأثناء الثورات العلمية، في اللحظات التي تكون البراديغمات فيها مهاجمة أو قابلة للتغيير. إن العبور من الميكانيكا النيوتنية إلى ميكانيكا الكوانتة (quanta) وُلد العديد من النقاشات حول الطبيعة ومعايير الفيزياء، ولا يزال بعضها مستمراً¹.

يبدأ الاكتشاف عندما يدرك وجود شذوذ، أي عندما يكون الانطباع أن الطبيعة، بطريقة أو بأخرى، تعارض النتائج المنتظرة في إطار براديغم يحكم العلم السوي².

في السياق العادي للاكتشاف، حتى مقاومة التغيير يكون لها فائدة ... بمنع البراديغم من الانقلاب بسهولة كبيرة، تضمن المقاومة للعلماء عدم الانزعاج دون سبب وتضمن أن تتدرج بعمق في المعارف القائمة الأمور الشاذة التي أدت إلى تغيير البراديغمات.

لنتقبل إذن أن الأزمات شرط مسبق تمهيدي وضروري لظهور نظريات جديدة ولتساعل الآن كيف يتصرف العلماء في حضورها؟ هناك جزء واضح ومهم من الجواب هو أولاً ملاحظة ما لا يعمل العلماء حتى في مواجهة شذوذ خطير ومستديم. ومع أنهم يبدأون بفقدان قناعاتهم ويتفحصون نظريات أخرى، فإنهم لا يتخلون عن البراديغم الذي قادهم إلى الأزمة. إنهم لا يعتبرون هذه الشذوذ كبرهان معاكس... ورفض براديغم ما دون استبداله بآخر في نفس الوقت هو رفض للعلم بذاته.

لكن التلاميذ في العلم يقبلون النظريات بسبب سلطة معلمهم وموجزاتهم، وليس بسبب البراهين... إن التطبيقات المكتوبة في الموجزات ليست فيها خدمة كبراهين وإنما لأن معرفتها تشكل جزءاً من معرفة البراديغم، التي هي أساس العمل العادي³.

¹ توماس كوهن، المرجع السابق، ص 91.

² المرجع نفسه، ص 98.

³ المرجع نفسه، 137-142.

إن العبور من براديغم في حالة أزمة إلى براديغم جديد يستطيع أن يوّد تقليداً جديداً من العلم السوي، هو بعيد عن أن يكون سياقاً تراكمياً ممكن تحقيقه انطلاقاً من توسيع وتمديد للبراديغم القديم، إنه بالأحرى إعادة بناء قطاع بكامله على أسس جديدة.

أثناء المرحلة الانتقالية يوجد تداخل مهم، لكن غير كامل أبداً، بين المشاكل التي تقدر أن تكون محلولة بواسطة البراديغم القديم وأيضاً بواسطة البراديغم الجديد. لكن توجد كذلك فروق حاسمة في أنماط الحلّ، عندما يكون الانتقال كاملاً، يكون للاختصاصيين حينئذ طريقة أخرى مغايرة في تفحص ميدانهم ومناهجه وأهدافه.

إن الرجال الذين حققوا الاختراعات الأساسية لبراديغم جديد. كانوا إما شباناً أو قادمين جدد على الاختصاص الذي قاموا بتغيير براديغمه. والثورات العلمية معتبرة هنا مثل مراحل غير تراكمية للنمو يستبدل فيها براديغم أكثر قدماً، كلياً أو جزئياً، ببراديغم جديد متعارض.

إن الثورات العلمية، لا تبدو بالضرورة ثورية إلا في عيون الذين تلقّت براديغمتهم اللكمة المضادة من الثورة، بالنسبة للمراقبين من الخارج يمكن أن تظهر لهم كمراحل طبيعية لسياق النمو¹.

البراديغمت مصدر المناهج وميادين البحث ومعايير الحلول المقبولة في أي وقت كان من كل فريق علمي بالغ النضج. بالتالي ونتيجة لذلك، فإن تقبل براديغم جديد يستلزم غالباً تعريفاً جديداً للعلم الخاص به. إن بعض المشاكل القديمة قد يكون متروكاً لعلم آخر أو أن يعلن عنه بكل بساطة بأنه "غير علمي"².

البراديغم وسيلة نقل لنظرية علمية ... في هذا الدور، إن فائدته تكون في تعليم العلماء ومدّهم بالمعلومات حول الكيانات التي تحتويها الطبيعة أو لا تحتويها وحول الطريقة التي تتصرف بها. هذه المعلومات تقدم خريطة تفصيل موضحة بواسطة الأعمال العلمية الأكثر

¹ توماس كوهن، المرجع السابق، ص.ص 149-160.

² المرجع نفسه، ص.177.

تقدماً. وبما أن الطبيعة تكون شديدة التعقيد والتنوع كي تكون مسيرة بالصدفة، فإن هذه الخريطة أيضاً تكون جوهرية للنمو المتواصل للعلم كالمراقبة والتجريب. بواسطة نظريات تدمجها وتستوعبها تجد البراديغمات نفسها إذن كعنصر مكوّن لنشاط البحث. ومع ذلك فإنها كذلك عناصر مكوّنة للعلم من وجهات نظر أخرى...

إذا قام مؤرخ العلوم بفحص وثائق ماضي البحث من وجهة النظر، التاريخية المعاصرة، فإنه سيُغزى لربما بكتابة أنه عندما تتغير البراديغمات فإنّ العالم نفسه سيتغير معها. اعتمد العلماء، المنقادين ببراديغم جديد، أدواتاً جديدة، وتوجهت أنظارهم في اتجاه جديد¹.

يذهب "كون" إلى أن تطور العلم يمر بمرحلتين: تراكمية وثورية. في الطور التراكمي تسيطر في العلم منظومة من الأفكار والمبادئ والنماذج في التفسير العلمي. تأخذ بها الأوساط العلمية، وتبقى لوقت ما، غير معرضة للشك. وتطور العلم القياسي الذي تستدعيه الاكتشافات العلمية الجديدة وضرورة تفسير الوقائع الجديدة، يجري في إطار نموذج إرشادي معين. وفي حال اكتشاف وقائع لا تتفق مع النظريات القديمة فإنها لا تترك جانباً، وإنما يتم تحسينها أو يجري إكمالها بنظريات تتيح إدراج تفسير الوقائع الجديدة في منظومة النظريات المعترف بها من قبل الجميع.

وتتميز النماذج الإرشادية دوماً بالثبات والاستقرار، ويتم تقدم العلم القياسي على نحو "تراكمي" ففي إطار النماذج الإرشادية المعنية يجري توسع المعارف. ولكن في مسيرة العلم يأتي بالضرورة زمن تبدو فيه النماذج الإرشادية منظومة لم تعد تلبي الأهداف المسطرة. ولم تعد قادرة على توفير الحل الناجع للمهمات العلمية. ويجري تذليل الأزمة الناجمة في العلم بالتخلي عن النماذج الإرشادية السابقة، واستبدالها بنماذج إرشادية جديدة. وتحدث ثورة في

¹ توماس كوهن، المرجع السابق، ص.ص 185-189.

العلم، تغيير جوهرياً طبيعة النظرة إلى العالم، وأساليب حل الألغاز النظرية، التي تشكل عند "كون" مهمة العالم الأساسية¹.

فهل في تسمية هذه العملية، أي استبدال براديجم بآخر، انقلاباً يبرز وجود تماثل أو تشابه ما بين التطور السياسي والتطور العلمي، رغم الفروق الشاسعة بينهما؟ على هذا السؤال الجوهري يجيب "كون" مباشرة بوجود ذلك التماثل مما يبيح استخدام لفظ انقلاب فيهما معاً، وأول وجه من وجوهه أن الانقلابات السياسية تبدأ بالشعور المتنافي لدى فئة ضيقة، أحياناً من الطبقة السياسية أن المؤسسات القائمة لم تعد تستجيب، بصورة مرضية وملائمة للمشاكل التي يطرحها محيط، ساهمت تلك المؤسسات في خلقه، نفس الشيء يحدث في الانقلابات العلمية حيث يظهر شعور متزايد لدى مجموعة محصورة من العلماء، أعضاء الجماعة العلمية، بأن البراديجم القائم لم يعد يشتغل بصورة مرضية وملائمة تساعد على كشف جانب من أسرار الطبيعة، كان نفس البراديجم فيما مضى، يشكل مظلة الأبحاث المتعلقة به. ففي المجالين معاً، السياسي والعلمي، يظل الشعور بوجود خلل أو عيب ما في نظام العمل وسيره يؤدي إلى أزمة، شرطاً ضرورياً للانقلابات².

يبدو واضحاً أن الاختيار بين البراديجمات المتصارعة، وتفضيل أحدها على الآخر، كالاختيار بين المؤسسات السياسية المتصارعة يكون اختياراً بين أنماط حياة اجتماعية متعارضة.

إن البحث السوي هو بحث تراكمي من حيث أن الممارسة العلمية فيه لا تحتمل اكتشافاً جديداً يقول شيئاً آخر عما يفرضه البراديجم. ويعني هذا أن اكتشاف المعارف الجديدة ليس مجرد أمر نادر فيه فحسب، بل هو، في الحقيقة، غير متصور، وغير محتمل الوقوع من حيث المبدأ. فالبحث السوي والذي هو بحث تراكمي، مدين بنجاحه إلى كون المشتغلين بالعلم ينتقون بإتقان ودقة المشكلات القابلة لأن تلقى حلها بنفس الكيفية التي تم

¹ السيد نفاذي، المرجع السابق، ص31.

² سالم يفتوت، سلطة المعرفة، الطبعة الأولى، دار الأمان، الرباط، 2005، ص.ص 18، 19.

بها حل سابقاتها واستنادا إلى ذات المفاهيم والأساليب التقنية المماثلة لتلك التي كانوا على دراية بها. لأجل ذلك فإن الرغبة في التصدي، وبأي ثمن، لمشكلات هامة ومفيدة، دونما اعتبار لعلاقتها بالمعرفة والتقنية السائدتين، قد تكون من العوامل المؤدية إلى كبح التطور العلمي¹.

يمكن إيجاز تصور "توماس كون" لتاريخ العلم ولتقدم الأفكار العلمية في الصياغة التالية: في الممارسة العلمية لا يتعامل الباحثون مع الظواهر وهم متحللون من كل قيد، بل إنهم يرزحون تحت نير رؤى يفرضها العلم السوي القائم، فتغدو بمثابة مظلة نظرية يستظلون بها ويستلهمون منها نماذجهم التفسيرية. وتتشكل للعلم السوي هذه المظلة أي البراديجم من مجموع المكتشفات العلمية والمكتسبات التي يلتف حولها كافة العلماء وتحظى بإجماعهم فتحدد للجماعة العلمية أي لجماعة الباحثين نوعية الحلول والمشاكل لفترة من الفترات. فيتكسر تقليد علمي هو تقليد العلم السوي الذي تتعاقب عليه أحيانا أجيال من المتخصصين إلى أن تظهر نقائصه فتتم الإطاحة به ليظهر تقليد جديد مكانه تكرسه مظلة نظرية جديدة أو براديجم جديد².

ولإتمام هذه الأفكار المحورية لـ "توماس كون" نقترح الاستنتاجات الآتية:

- لا يمكن لأي بحث علمي أو دراسة تطبيقية أن تكون مثمرة، إلا متى أحس العلماء أن لديهم إجابات محددة عن أسئلة كهذه: ما هي المادة الأساسية التي يتكون منها العالم؟ وما علاقة أجزاء تلك المادة بعضها ببعض؟ وكيف يكون أثرها على أجهزة الإحساس في الإنسان؟ ما هي الأسئلة التي يصح أن تطرح حول طبيعة تلك المادة وما هي التطبيقات العلمية التي يجب إتباعها من أجل معرفة طبيعة المادة وإيجاد الحلول التي تناسب تلك الأسئلة؟

¹ سالم يفوت، المرجع السابق، ص22.

² المرجع نفسه، ص43.

- يقترح "توماس كون" مصطلح "العلم العادي" أو "السوي" وهو العلم الذي كان شائعاً بين العلماء في عصر من العصور ويقضون معظم وقتهم ونشاطهم في البحث في قضاياها وممارسة تجاربه وتطبيقاته، وهذا النشاط من العلم هو الذي يميل العلماء إلى التشبث به والدفاع عنه بحسب نظرتهم إلى الطبيعة ويقدر تصورهم للمشكلات التي تسود عصرهم.

- قد تلتزم جماعة العلماء في زمن معين بجانب اعتباطي بعيد كل البعد عن ميدان العلم الذي تأخذ به، إذ ربما يدخل العلماء في زمن ما إلى ميدان العلم جانباً ذاتياً أو حادثة تاريخية مما لا يمت بصلة لطبيعة العلم الذي يأخذون به. وهذا العنصر الغريب أو هذا الجانب الاعتباطي على أية حال لا يعني أن بناء العلم متهاك وإنما يعني أن جماعة من العلماء في زمن من الأزمان لا يمكن أن تمارس العلم من غير هذا الجانب الاعتباطي الذي يتغلغل في ثنايا العلم.

- تبدأ المنظومات المعرفية والنظريات العلمية في التأزم عندما تصطدم بوقائع مضادة وحوادث شاذة، لكن مسألة إعادة النظر ليست أمراً يسيراً باعتبار أن أهل العلم، رغم تزرع ثقتهم بنظريتهم، لا يتخلون عنها وجل ما تفعله الوقائع المضادة المنافية للنظرية، في بداية الأمر هو المساهمة في بلورة الأزمة، لكنها بذاتها لا تستطيع أن تثبت خطأ النظرية.

- يؤكد صاحب كتاب "بنية الثورات العلمية" أن البحث أثناء فترة الأزمة يشبه كثيراً البحث في الفترة السابقة على تشكل المنظومة المعرفية. كما يرى أن الأزمات شرط ضروري لبروز النظريات الجديدة. وإنَّ عدم التخلي عن منظومة معرفية رغم تأزمها يعتبر شيئاً طبيعياً والتخلي عن نظرية ما دون تعويضها بنظرية بديلة يعني التخلي عن العلم.

- بالإضافة إلى ذلك إنَّ أهل العلم غالباً ما يعتبرون الوقائع المضادة لنظرياتهم بمثابة مشكلة يفترض بهم أن يحلوها بواسطة منظومتهم المعرفية وذلك بالنظر إلى هذه المشكلة كباقي المشكلات التي اعتادوا على حلها. لكنهم في حال الأزمة لا يميزون بين المشكلة أو الأحجية وبين المثل المضاد.

- يعتقد "كون" أنّ عملية الانتقال من نظرية متأزمة إلى أخرى بديلة لها أبعد ما تكون عن العملية التراكمية، بل إن هذا الانتقال هو عبارة عن إعادة تركيب لقطاع بأكمله على أسس جديدة وهو أكثر من مجرد إضافة تضاف إلى تلك النظرية أو اجتهاد عليها. بل هي غالباً ما تترافق مع تغيير في النظرة العامة إلى الأمور، بل إلى العالم بأسره¹.

¹ أحمد أبوزيد، "لا عقلانية العلم والعلماء: توماس كون ونقد المنهج العلمي"، العربي، العدد 459، فبراير 1997، ص.ص 66-69.

المبحث الثالث: "جان بياجي" الإبستمولوجية التكوينية

قام "جان بياجي" « Jean Piaget » بتأسيس علم إنساني جديد أسماه "الإبستمولوجية التكوينية" وهذا بمحاولة تحديد موضوع خاص واكتشاف مناهج نوعية. وميزة الإبستمولوجية التكوينية أنها تسعى إلى إبراز جذور مختلف أنواع المعارف، وإظهارها ابتداء من أبسط أشكالها ومتابعة نموها وتطورها إلى أن تبلغ مستوى التفكير العلمي.

ننطلق مما هو متعارف عليه بخصوص مفهوم الإبستمولوجيا فهي دراسة نقدية موضوعها المعرفة العلمية من حيث المبادئ التي ترتكز عليها والفرضيات التي تنطلق منها والنتائج التي تنتهي إليها، أما هدف هذه الدراسة فهو البحث في الأصول المنطقية لهذه الفرضيات والمبادئ والنتائج من جهة وبيان قيمتها من جهة أخرى¹.

ينطلق "بياجي" من قناعة معرفية مفادها أن الاختلاف في التناول الإبستمولوجي بين الفلسفة والعلم يكمن في أن الأولى تعتمد على التأمل والثاني يعتمد الملاحظة والتجربة والاستنباط الدقيق. وبعبارة أوضح إن ما يميّز العلم عن الفلسفة في هذا المجال هو أن الفلسفة تهدف إلى احتضان الكل لهذا فليس لها منهج خاص غير التأمل².

إن كان ما يميز نظريات المعرفة التقليدية وما يطبع فلسفات العلوم في حديثها عن العلوم هو روحها الشمولية ونزعتها نحو التوحيد، فإن ما يميز الإبستمولوجيا المعاصرة هو سعيها نحو التخصيص.

إنّ بناء نظرية في المعرفة لن يكون إلا محاولة لإدخال العلم المتطور باستمرار ضمن نسق فلسفي مغلق... لهذا تبدو نظرية المعرفة بصفة عامة معارضة للإبستمولوجيا، ولهذا أيضا يبدو أنه على الإبستمولوجيا أن تنتبه إلى القيم المعرفية المعاصرة لها، وأن تدرك هذه

¹ André Lalande, vocabulaire technique et critique de la philosophie, PUF, Paris, 1962, P293

² Jean Piaget, introduction à l'épistémologie génétique, 2ème édition, PUF, Paris, 1973, P13.

القيم في نسبتها وإرجاعها إلى فترة من تاريخ العلم المعاصر لها، أما بناء نظرية في المعرفة، فإنه مهما يكن مجهوداً ضخماً يصبح حقيقة متجاوزة بفضل تطور العلوم.

ومن أجل تجاوز نظريات المعرفة التقليدية والخروج من الإشكالية العامة التي في إطارها مسألة المعرفة نورد سببين كونا عائقاً أمام تكوين نظرة صائبة عن العلم وهما:

(1) - الأسئلة التي وضعت في نظريات المعرفة لم تكن أسئلة نابعة من صميم المعرفة ذاتها.

(2) - العلاقة التي أقامتها الفلسفة في نظريات المعرفة التقليدية مع المعرفة العلمية، علاقة إبديولوجية. في هذه النظريات استخدمت الفلسفة المعرفة العلمية استخداماً إبديولوجياً.

إنّ فلاسفة العلم حتى وإن هم حاولوا أن يواكبوا العلم في حركته وأن يتابعوه في نشاطه، فهم لم يفهموا روحه الجديدة المتجددة، ولم يرتادوا طريقه المفتوحة لذا وقعوا ضحية عيوب نجمها فيما يلي:

أولاً) - إن فلاسفة العلم حاولوا تطبيق مفاهيم ميتافيزيقية على العلم واستخلاص دروس أخلاقية من فعاليته، كما أنهم أسقطوا على تاريخه مفهوماً فلسفياً عن التاريخ.

ثانياً) - يتحدث هؤلاء عن العلم بصيغة المفرد كأن هناك علماً واحداً لا دراسات متخصصة متنوعة، وعلوماً متباينة المناهج والموضوعات والتواريخ.

ثالثاً) - ظل الفلاسفة سجينين مفهوم وضعي اختباري عن العلوم واعتقدوا أن العلم يصف الواقع، وأن العالم يقرأ كتاب الطبيعة¹.

¹ عبد السلام بن عبد العالي وسالم يافوت، درس الإبستمولوجيا، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1988، ص33.

إن المناسبات التي يظهر فيها دائما التفكير الإبستمولوجي هي الأزمات التي يمر بها هذا العلم أو ذاك. وعلة هذه الأزمات هي الثغرات المتعلقة بالمناهج التي تستخدم في هذه العلوم، وإن تجاوز هذه الأزمات مشروط باختراع مناهج جديدة.

والإبستمولوجية التكوينية ليس عليها أن تتساءل دفعة واحدة ومنذ البداية عما هي المعرفة، لأن هذا السؤال عن الماهية سيبقيها ضمن النقاشات الفلسفية. وباعتبار المعرفة العلمية معرفة قائمة فليس على الإبستمولوجيا أن تجتهد لإعادة تأسيسها أو لإعطائها مصداقية نظرية.

والمعرفة في نظر "بياجي" لا يمكن أن تعتبر تامة التحديد، لا في البنيات الباطنية للذات العارفة ما دامت تلك البنيات حصيلة تكوّن مستمر ولا في المميزات التي يتعيّن بها الموضوع المعروف، ما دامت تلك المميزات لا تدرك إلا بفعل تدخل تلك البنيات.

يستند صاحب كتاب "علم النفس والإبستمولوجيا"¹ في بلورة مقارنته الإبستمولوجية إلى مناهج علم النفس التكويني الذي يبحث في التفسير السببي للآليات العقلية من خلال تحليل الطريقة التي تكونت بها تلك الآليات. وما مهّد لهذه الأطروحة هي الدراسات المتعددة والمتواصلة التي أنجزها "بياجي" في حقل علم نفس الطفل، مثل تحليله لهياكل وبنيات التفكير المنطقي البسيط عند الأطفال وبحوثه المتعلقة بأفكار الأطفال حول العدد والسبب والصدفة... الخ.

إنّ اعتماد إبستمولوجيته على مناهج علم النفس التكويني لا يعني انه يستثني من ميدان الإبستمولوجيا المناهج الأخرى. إنّه لا يستبعد إلا الطرق التي لا تنسجم مع المتطلبات العلمية ومن ثم فهو يدعو إلى وجوب تضافر مختلف العلوم والاختصاصات.

¹Jean Piaget, psychologie et épistémologie, éditions Denoël-Gonthier, Paris, 1970

تلخيصاً لكل ما سبق نستشهد بعبارة مفيدة قدمها "بياجي" لضبط مفهومه عن الإبستمولوجيا التكوينية حيث يؤكد، أن الأمر يتعلق بإبستمولوجيا طبيعية دون أن تكون وضعية. إبستمولوجيا تبرز فعالية الذات دون أن تكون مثالية، وتعتمد على الموضوع ولكنها تعتبره حداً أي كموضوع له وجود مستقل عنا، ولكننا لا نستطيع مع ذلك أن نبلغه بصورة تامة. وأنها إبستمولوجية تنظر إلى المعرفة كتكوين مستمر فهذا المظهر الأخير هو الذي يضع علينا أكبر قدر من المشاكل التي يتعين علينا أن نحاول وضعها بصورة جيدة ومناقشتها بما فيه الكفاية¹.

مسألة المعرفة هي المسألة الأساسية التي شغلت فكر "بياجي" في كل مراحل حياته العلمية. بدأ يطرحها في صيغة بيولوجية، وانتقل إلى البحث فيها في ضوء شروطها النفسية، وحاوّر النظريات الفلسفية المتعلقة بها، وجعل من مهمته إقامة دراسة علمية بها هي الإبستمولوجيا التكوينية، ووجد لنتائج من البحث فيها امتدادات وتطبيقات في مجال التربية التعليمية بصفة خاصة².

لقد كان بالأساس باحثاً في مسألة المعرفة العلمية وشروط تكوّنها، وكان شاغله الأساسي هو تأسيس العلم الذي يدرس هذه المسألة وفق شروط المنهج العلمي، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر من تناولها تبعاً لمنهج الفلسفة التأملية. وكان اهتمام "بياجي" بعلم النفس مندرجاً ضمن هذا السياق، أي أنه بعبارة أخرى لم يكن مقصوداً في ذاته، بل كان في خدمة الأسئلة الأساسية التي كانت متعلقة بمسألة المعرفة.

يؤكد "بياجي" في أحد الحوارات معه أن الاهتمام بالنمو العقلي عند الطفل كان ضرورةً بالنسبة للتوجه الذي سارت فيه أبحاثه. ذلك أن الاقتصار على الاهتمام بالراشد سيكون نوعاً من الاقتصار على البحث في تاريخ الفكر، مع أنه في هذا المستوى نفسه سيكون الباحث

¹ Jean Piaget, psychologie et épistémologie, op.cit, P 45.

² محمد وقيدي، الإبستمولوجيا التكوينية عند جان بياجى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص.ص 7،8.

مواجهاً بالنقص في المعطيات المتعلقة بالمرحل ما قبل التاريخية. ولا يمكن أن يكون هناك سد للشجرة في هذا البحث، ولا يمكن الذهاب إلى ما تريد الإبستمولوجيا بلوغه، أي الوصول إلى الجذور الأولى للمعارف، دون أن نعود إلى الطفل ومرحل نموه العقلي، وبخاصة منها الأكثر أولية. فلكي نتمكن من إعادة تشكيل تطور الفكر الإنساني ونرسم الكيفية التي مرّ منها هذا الفكر عبر مراحل متعاقبة، لا تكفي العودة إلى سلوك الإنسان الراشد، بل لا بد من العودة إلى الطفل في مراحل نموه الأولى للوقوف على ما يوازي المراحل الأولى لتطور الإنسان ونشأة المعارف لديه¹.

وإذا كان البعض قد يلاحظ على "بياجي" بأن أحكامه المنتقدة للفلسفة لا تتلاءم مع كونه كان هو نفسه أستاذاً للفلسفة في فترة من حياته العلمية، فإنه يرد على ذلك بقوله إن تدريسه للفلسفة كان مناسبة أدرك من خلالها حدود هذا الميدان وعدم قدرته على تقديم معرفة بالمعنى التام للعبارة، وأدرك كيف يكون من السهل على الفلاسفة أن يقولوا ما يشاءون، وما داموا لا ينطلقون من ملاحظة الوقائع، ولا يقدمون أفكاراً قابلة للتحقق من صلاحيتها عبر تجارب. ومن السهل علينا، أن ننساق وراء السير في طريق التأمل من أن نحاول جمع وقائع. وأنه لأمر عجب أن يظل الإنسان في مكتب عمله وأن ينشئ من هذا الموقع نسقاً فلسفياً يفسر عدداً لا حصر له من الوقائع².

يعترف "بياجي" بالفضل لتكوينه في تخصص البيولوجيا في الوعي باضطراب مثل تلك التفسيرات التي يقدمها الفلاسفة. فالتكوين في تخصص البيولوجيا كان مدخلاً لممارسة العلم، وإذا كان قد انطلق منه لوضع مسألة المعرفة موضع بحث، فإن ذلك ساعده على طرح المسألة ذاتها طرحاً علمياً، متجاوزاً بذلك الطرح الفلسفي التأملي.

حيث إن الفلاسفة يعتقدون أن معرفتهم الشمولية تسمو فوق اعتبار الوقائع، وحيث إنهم يعتبرون أن تحليلهم الشمولي أعمق من حيث الفهم والتفسير للوقائع من العلماء

¹ محمد وقيدي، الإبستمولوجيا التكوينية عند جان بياجي، المرجع السابق، ص 11.

² المرجع نفسه، ص 23.

المتخصصين في دراستها ضمن علوم يعتبرها الفلاسفة جزئية، فإن ذلك ما يستندون إليه لكي يسمحوا لأنفسهم بالتدخل في الفيزياء لنقد نظرية النسبية أو في البيولوجيا لدحض نظرية التطور أو لتأويلها وفق ما يريدون، ومن الطبيعي أن نراهم يسمحون لأنفسهم بالتدخل في علم النفس أو في علم الاجتماع وفي كل العلوم التي تدرس الإنسان¹.

لا يرفض "بياجي"، الدراسة النقدية للعلوم، إذ إن كل تحليل إبستمولوجي يقوم بهذه الوظيفة وفق مناهج تحليلية تبحث في شروط إنتاج العلوم للمعارف. غير أنه يرفض أن يتخذ ذلك النقد صيغة حدود للمعرفة العلمية لإفساح المجال بصورة موازية لمعرفة أخرى أسمى منها، حتى في دراستها لموضوعات تلك المعرفة، وهي الفلسفة.

لقد تأثر "بياجي" ببرانشفيك وأخذ عنه بصفة خاصة ما أفاده في بناء منهجه التكويني في الإبستمولوجيا، أي أنه أخذ عنه وجهة نظره القائلة بأن حقيقة المعرفة العلمية تدرك عبر سيرورتها، وبأن هذه المعرفة إبداع مستمر ندرکه عبر متابعة تاريخها. فهذا جانب يدخل ضمن النظر إلى المعرفة العلمية من زاوية تطورها، علماً بأنه لن يقف في بنائه لهذا المنهج عند تاريخ العلوم، إذ أنه سيبحث عن تطور المعرفة العلمية في دراسة مراحل النمو العقلي للتعويض عن النقص الذي قد يتركه البحث في تاريخ المعرفة العلمية، إذا ما كان الهدف هو الذهاب في ذلك إلى البحث عن الجذور الأولية للمعارف².

يعرف "بياجي" الإبستمولوجيات العلمية بأنها الإبستمولوجيات التي تحصر هدفها الخاص في تفسير المعرفة العلمية، ولا تهدف أبداً إلى دراسة المعرفة بصفة عامة، إما لأنها تعتبر أن المعرفة العلمية هي المعرفة الممكنة الوحيدة، أو لأنها تجعل من اختصاصها تأويل هذه المعرفة ذاتها.

¹ محمد وقيدي، الإبستمولوجيا التكوينية عند جان بياجي، المرجع السابق، ص 31.

² المرجع نفسه، ص 45.

فأمام التطورات العلمية التي عرفتتها العلوم المختلفة منذ نهاية القرن التاسع عشر، وخلال القرن العشرين ذاته، أصبح العلماء أنفسهم هم الذين يقومون بتحليل ما يطرح عليهم من مشكلات في سيرورة عملهم، أصبح العلماء بتعبير آخر هم فلاسفة علومهم. وقد رأى "بياجي" أن هذه الوضعية شكلت خطوة حاسمة في سبيل تأسيس الإبستمولوجيا كعلم لأنها حققت شرطاً أساسياً لذلك هو الابتعاد عن التأويل الفلسفي للنتائج العلمية¹.

وإذا كان الإبستمولوجي، وهو يدرس عوامل المعرفة بصفة عامة، يلجأ إلى تقنيات خاصة لمراقبة الصلاحية الصورية للمعارف، فإنه حالما يخرج إلى دور الذات وفعاليتها في المعرفة يجد نفسه أمام ضرورة الاستناد إلى تقنيات أخرى تجريبية لمراقبة صلاحية المعرفة في ضوء مكوناتها الواقعية التي توجد من بينها إلى جانب مكونات أخرى مثل عوامل مجتمعية... فالذات تحدد وتدرس وتعتمد على اللغة والرموز للتعبير عن معارفها، وهي في كل هذا تمارس أفعالها المعرفية متأثرة بشروط واقعية من بينها شروط المحيط المجتمعي².

إن ميزة البحث في المعرفة في ضوء المنهج التكويني الذي يقوم على دراسة المعرفة من خلال تطورها وتشكلها، أنه يقتضي أن نميز بين مستويين من التحليل. فهناك الدراسة الاجتماعية لتكوين المعرفة *la sociogenèse des connaissances*، والتي تتعلق بدراسة التطور التاريخي للمعرفة ضمن المجتمعات كما تتعلق بدراسة الإيصال الثقافي لهذه المعارف. وهناك من جهة أخرى الدراسة النفسية لتكوين المعارف *la psychogenèse des connaissances*، وهي دراسة نمو المعارف في ضوء الشروط النفسية لها وبخاصة تلك التي تتعلق بالنمو العقلي للإنسان منذ لحظة ميلاده وإلى مرحلة بلوغه سن الرشد³.

في ميدان التربية يقترح "جان بياجى"، رؤية جادة لتحسين الأداء البيداغوجي، وذلك بالاعتماد على المناهج النشطة التي تفتح مجالاً واسعاً للبحث التثاقلي للطفل والمراهق،

¹ محمد وقيدى، الإبستمولوجيا التكوينية عند جان بياجى، المرجع السابق، ص 83.

² المرجع نفسه، ص. ص 193، 194.

³ المرجع نفسه، ص 194.

وتفرض أن يقوم التلميذ بإعادة اكتشاف كل حقيقة يراد اكتسابها، أو على الأقل أن يعيد بناءها بدل أن تلقن إليه فقط. إلا أنه حصل سوء فهم على مستويين اثنين أفقد التجارب التي تمت في هذا السياق لحد الآن الكثير من قيمتها. أولهما الخوف (وعند البعض الأمل) من أن لا يبقى للمعلم دور يذكر في هذه التجارب، وثانيهما أن يصبح من الضروري لنجاحها إعطاء التلاميذ الحرية الكاملة في العمل واللعب حسب هواهم.

والواقع أنه لا يمكن الاستغناء عن المربي كمنشط يخلق المواقف المناسبة ويبني الأسس الأولية التي تسمح بطرح القضايا المفيدة للطفل، ثم ينظم بعد ذلك الأمثلة المضادة التي تجبر التلاميذ على التفكير، وتفرض عليهم التروي والتدقيق في الحلول التي يجدونها بشكل سريع جداً¹.

والمبدأ الأساسي في المناهج النشطة يستمد إحياءه من تاريخ العلوم، ويمكن التعبير عنه بما يلي: أن أفهم هو أن ابتكر أو أعيد البناء من خلال الابتكار؛ ويجب الخضوع لهذه الضرورة إن نحن أردنا في المستقبل تكوين أفراد قادرين على الإنتاج والإبداع، لا مقتصرين على التردد².

ومن خصائص الأبحاث العلمية، حالياً، هو تزايد الطابع المشترك بين التخصصات في كل المجالات، والحال أن تهيب باحثي المستقبل للتمكن من هذا الجانب لا يتم بشكل جيد لحد الآن. ويرجع ذلك لطبيعة التعليم الذي يسعى إلى التخصص وينتهي في الواقع إلى التجزيء، متجاهلاً كون أي تعمق في التخصص إلا وتواجهه العديد من الروابط الوثيقة والمشاركة مع ميادين أخرى.

¹ جان بياجى، التوجهات الجديدة للتربية، تر: محمد الحبيب بلكوش، الطبعة الأولى، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1988، ص15.

² المرجع نفسه، ص17.

والأمر يتعلق بأن يكون المدرسون أنفسهم متشبعين بروح إبستمولوجية جد متفتحة تجعلهم - دون أن يهملوا تخصصهم- يمكنون الطلبة بشكل مستمر من النظر إلى علاقة مادة معينة مع مجمل منظومة العلوم¹.

إن أول درس يجب استخلاصه من الاتجاهات الحالية المشتركة بين ميادين المعرفة هو ضرورة إعادة النظر بتمعن في مستقبل العلاقات بين العلوم المسماة الإنسانية والعلوم المسماة الطبيعية، وبالتالي ضرورة البحث عن علاج للنتائج الوخيمة التي خلفها تقسيم التعليم الجامعي إلى "كليات" والتعليم الثانوي إلى "شعب" مفصولة عن بعضها بحواجز عازلة. فمن الناحية النظرية نجد أن علم النفس المعروف بكونه علماً للإنسان قد ارتبط دوماً بالبيولوجيا وعلم النفس الحيواني².

يجب إذن، وهذا أمر بديهي من الناحية البيداغوجية، أن تتجه التربية نحو تقليص عام للحواجز، أو نحو فتح العديد من الأبواب الأفقية كي يتمكن الطلبة (سواء على المستوى الثانوي أو الجامعي) من الانتقال الحر من شعبة إلى أخرى مع إمكانية القيام باختيارات متعددة ومتنوعة. إلا أن ذلك يتطلب أن تكون عقول الأساتذة أنفسهم أقل تجزئاً وانغلاقاً، علماً بأن تحقيق هذه اللامركزية يكون - في كثير من الأحيان - أكثر صعوبة لدى الأساتذة عما هو عليه الأمر لدى الطلبة.

ويستحيل علمياً، إهمال مسألة أن هناك قضية تسبق غيرها من القضايا في كل إصلاح تربوي مستقبلي وهي المتعلقة بإعداد المدرسين. فلن تكون هناك فائدة من وضع أحسن البرامج وبناء أجمل النظريات حول ما يجب القيام به، إن لم يتم حل هذه القضية بشكل مرض وملائم. والحال أنها قضية ذات وجهين. هناك في المقام الأول الجانب الاجتماعي المتعلق بإعطاء القيمة الاجتماعية لهيأة التدريس في التعليم الابتدائي والثانوي.

¹ جان بياجى، المرجع السابق ص.ص 20، 21.

² المرجع نفسه، ص 22.

ثم هناك في الجانب الثاني إشكالية التكوين الثقافي والأخلاقي لهيأة التدريس، وهي قضية جد صعبة لأنه كلما تم اعتماد أحسن المناهج في التعليم وإلا وأصبحت مهنة التدريس شاقة لكونها تفترض في آن واحد أن يكون المدرس من النخبة الملمة بالمعارف المتعلقة بالطفل وبالمواد المدرسة، كما تفترض تفان حقيقي في ممارسة المهنة. ولمعالجة هاتين المسألتين هناك حل واحد لهما معاً: أن يتلقى المدرسون تعليماً جامعياً تاماً سواء كانوا سيعملون بالتعليم الثانوي أو الابتدائي (لأنه كلما كان التلاميذ صغاراً، إلا وازدادت الصعوبات التي يواجهها التعليم إن تم أخذه بجد).

يرتبط نمو الكائن البشري بمجموعتين من العوامل: عوامل الوراثة والتكيف البيولوجي التي يخضع لها نمو الجهاز العصبي والميكانيزمات النفسية الأولية، وعوامل التلقين والتفاعلات الاجتماعية التي تتدخل منذ المهد وتلعب خلال النمو دوراً تتعاضد أهميته باستمرار في تشكّل السلوكات والحياة العقلية¹.

لقد ظل الاعتقاد سائداً لمدة طويلة من الزمن في كون المنطق شيء فطري لدى الفرد، وأنه ينتمي بالفعل وبالقوة إلى هذه "الطبيعة الإنسانية" التي يعتبرها الحس المشترك سابقة عن الحياة الاجتماعية. هكذا نجد "ديكارت" يعتبر "الحس السليم" أي القدرة على التحليل المنطقي، أكثر الأشياء انتشاراً بين الناس. كما أن "روسو" شيّد نظامه البيداغوجي بكامله على التعارض بين الكمال الفطري للفرد والانحرافات اللاحقة الناتجة عن الحياة الاجتماعية².

هذه هي التصورات التي ألهمت المدرسة التقليدية، فبما أن الإنسان الراشد مشكّل مسبقاً في الطفل، وبما أن نمو الفرد ينحصر في تحيين القدرات الكامنة لديه لا غير، فإن دور التربية ينحصر هنا في مجرد تلقين معارف، أي أن المطلوب هو فقط تأثيث وتطعيم قدرات جاهزة مسبقاً وليس تكوينها. ويكفي في نهاية المطاف مراكمة المعارف في الذاكرة، بدل

¹ جان بياجى، المرجع السابق، ص31.

² المرجع نفسه، ص32.

النظر إلى المدرسة كمركز لأنشطة فعلية (وتجريبية) يتم القيام بها بشكل جماعي، ويتشكل فيها الذكاء المنطقي من خلال الممارسة والتفاعلات الاجتماعية.

وفي الواقع، إنَّ المنطق ليس فطرياً لدى الطفل على الإطلاق. فقد تم القيام بمجموعة من الأبحاث ليس فقط حول الفكر التعبيري لدى الصغار، بل وحول ذكائهم العملي أيضاً، وكذا العمليات الملموسة التي يبنون بواسطتها تصنيفاتهم ومفاهيمهم حول العدد والمجال والزمن والسرعة... الخ، ومكنت النتائج الواضحة المستخلصة من هذه الأبحاث من الكشف عن كون بعض الاستدلالات التي تعتبر منطقياً ضرورية ابتداءً من مستوى عقلي معين، تكون غريبة عن البنيات الذهنية للطفل في المراحل السابقة¹.

فإذا كان المنطق نفسه يبنى بدل أن يكون فطرياً، فإن ما ينتج عن ذلك هو أن المهمة الأولى للتربية هي تكوين العقل².

إن حق كل إنسان في التعليم يعني الإقرار بأنه لا يمكن للفرد أن تكتسب بنياته الذهنية الأكثر أهمية دون دعم خارجي يتطلب بدوره وسطاً اجتماعياً ملائماً للتكوين، وأن العامل الاجتماعي أو التربوي يشكل شرطاً للنمو الذهني في كل المستويات.

التعليم هو إذن التزام بمسؤولية أضخم بكثير من مجرد تمكين كل واحد من القراءة والكتابة والحساب، إنه بالضبط ضمان كامل نمو الوظائف الذهنية لكل طفل، وإكسابه المعارف والقيم الأخلاقية الملائمة لممارسة هذه الوظائف إلى أن يتكيف مع الحياة الاجتماعية القائمة³.

¹ جان بياجى، المرجع السابق، ص.ص 32، 33.

² المرجع نفسه، ص. 34.

³ المرجع نفسه، ص. 35.

المبحث الرابع: كارل بوبر والمنهج العلمي

يُعتبر "كارل بوبر" « Karl Popper » من المدافعين عن حقوق البحث النظري أو الأساسي فهو ضد النظرة الضيقة التي ترى أن البحث العلمي ليس له ما يبرره إلا أن يكون ضرباً من الاستثمار المريح، ويجد في العلم أهمية عظمى باعتباره عملاً من أهم الأعمال الروحية رغم أنه يعترف بما للمشكلات العملية والاختبارات الميدانية من أهمية في تقدم العلم. ذلك أن العمل لا حد لقيمته في التفكير العلمي، باعتباره حافزاً وضابطاً له معاً¹.

كما يعتقد "بوبر" أن المثمر من المناقشات المتصلة بالمنهج هي دائماً المناقشات التي أوحى بها ما يصادفه الباحث من مشكلات عملية. أما المناقشات المنهجية التي لم تنشأ على هذا النحو، فيكاد يحيط بها جميعاً جو من الغلو في التدقيق لا طائل من ورائه، فنحن لا نزداد علماء، في أثناء تطور المنهج وإصلاحه، إلا عن طريق المحاولة والخطأ. كما هو الحال في العلم نفسه، ونحن بحاجة ماسة إلى نقد الآخرين حتى نتكشف لنا أخطأنا.

تواجه العلم المشكلات في كل لحظة من لحظات نموه وهو لا يمكنه البدء بالمشاهدات، أو بجمع المعطيات كما يعتقد بعض الباحثين في المناهج، إذ إننا قبل أن نجمع المعطيات لا بد من أن يثير اهتمامنا نوع معين من المعطيات أي أن المشكلة تأتي دائماً في المرتبة الأولى.

أما عن المنهج الأساسي والمحوري الذي ينطلق منه "بوبر" فإنه يتمثل في منهج الفرض، لأنه لا يحقق اليقين المطلق لأي من القضايا العلمية التي يختبرها، وإنما تحتفظ هذه القضايا دائماً بطابع الفروض المؤقتة. وإن بدا أن هذا الطابع قد يزول عنها بعد نجاحها في كثير من الاختبارات القاسية².

¹ كارل بوبر: علم المذهب التاريخي: دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، تر: عبد الحميد صبره، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1959، ص.ص 75، 76.

² المرجع نفسه، ص 159.

إن ما يفسر رؤى وقناعات "بوبر" هي القاعدة الإبستمولوجية التي يشير من خلالها إلى أن النظريات في أساسها محاولات وفروض مؤقتة نختبرها لنبين ما إذا كانت تؤدي الغرض المطلوب منها، وكل تأييد تجريبي فهو ليس إلا نتيجة للاختبارات التي نجريها بروح نقدية، بقصد العثور على موضع الضعف في نظرياتها.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، يرفض "كارل بوبر" فكرة أن العلم يبدأ بمشاهدات يشتق منها نظرياته بطريقة من طرق الاستقراء وإنما يعتقد بأن للمشاهدة والتجربة وظيفة أكثر تواضعاً، هي معاونتنا في اختبار نظريتنا واستبعاد ما لا يثبت منها على محك الاختبار. ولا يمكن القول عن نظرية من النظريات أنها مؤيدة من الواقع إلا إذا عجزنا عن العثور على الوقائع التي تدحضها، لا إذا استطعنا فقط العثور على الوقائع التي تؤيدها أو تدعمها، فهناك نظريات ميتافيزيقية كثيرة يبدو أن الوقائع تؤكدتها ولو دققنا النظر في هذه الوقائع لتبين لنا أنها اختيرت في ضوء النظريات عينها التي نريد اختبارها.

كان "كارل بوبر" أول وأهم من اعتنوا بتوضيح وإثبات أن البدء بالملاحظة الخالصة فقط ثم تعميمها، فتصل إلى قانون أو نظرية علمية وبغير أن يكون في الذهن أي شيء من صميم طبيعة النظرية... فهذه فكرة مستحيلة. وقد مثل لهذا بأقصوصة عن رجل كرس حياته للعلم فأخذ يسجل كل ما استطاع أن يلاحظه، ثم أوصى أن تورث هذه المجموعة من الملاحظات التي لا تساوي شيئاً إلى (الجمعية الملكية للعلوم بإنجلترا) لكي تستعمل كدليل استقرائي. وهي طبعاً لن تفيد العلم في شيء ولن تفضي إلى شيء. وإذا افترضنا جهاز كومبيوتر يقوم بدور آلة استقرائية فيجمع المعطيات الحسية المتمثلة ليعممها في قانون، فإن عمله هذا مستحيل من دون فرض مسبق، لا بد قبلاً من برنامج يحدد للكومبيوتر ما أوجه التماثل التي يبحث عنها ومتى يأخذ الوقائع التجريبية أو المعطيات الحسية على أنها متمثلة. وقد حاول "بوبر" أن يؤكد هذا أكثر، فبدأ إحدى محاضراته في "فيينا" بأن قال لطلاب الفيزياء: "امسك بالقلم والورقة، لاحظ بعناية ودقة، سجل ما تلاحظه" بالطبع تساءل الطلاب عما يريد منهم أن يلاحظوه. وهنا أوضح لهم كيف أن لاحظ فحسب لا تعني شيئاً،

العالم لا يلاحظ فحسب، الملاحظة دائماً منتقاة، توجهها مشكلة مختارة من موضوع ما، ومهمة محددة، واهتمام معين ووجهة من النظر نريد من الملاحظة أن تختبرها. المشكلة هي ما يبدأ به العالم وليس الملاحظة الخالصة كما يدعي الاستقرائيون، فماذا عساه أن يلاحظ ويسجل؟ بائع جرائد ينادي وآخر يصيح، وناقوس يدق... أم يلاحظ أن كل هذا يعرقل بحثه. إن العالم يحتاج مسبقاً إلى نظرية، فهو يبدأ من الحصيلة المعرفية السابقة لتحديد له موقف المشكلة وتعيينه على فهمها، فيقدح عبقريته العلمية ليتوصل إلى الفرض الذي يستطيع من خلاله حلها، هنا فقط يلجأ إلى الملاحظة ليختبر فرضه تجريبياً عن طريق النتائج المستتابة. تلك هي الصورة العامة لمسار البحث التجريبي، إنه المنهج الفرضي الاستنباطي..

تستند فلسفة "بوبر" بأسرها إلى الخاصية المنطقية المميزة للعلم التجريبي هي إمكان تكذيب عبارته، هي قابليته المستمرة للمواجهة مع الواقع والوقائع، للنقد والمراجعة واكتشاف الأخطاء وبالتالي التصويب والاقتراب الأكثر من الصدق. بهذا علمنا "كارل بوبر" كيف تكون فلسفة العلم هي منطق قابليته المستمرة للتقدم، بحيث تكون قواعد البحث العلمي قواعد مباراة هي من حيث المبدأ بلا نهاية. أما العالم الذي يقرر يوماً ما أنّ العبارات العلمية أصبحت لا تستدعي أي اختبارات أخرى ويمكن أن نعتبرها متحققة بصورة نهائية، إنه ينسحب من المباراة. لذا فنحن لسنا في حاجة إلى منطق للتبرير والتحقق أو المواعمة، بقدر ما نحن في حاجة إلى منطق للكشف والتقدم المستمر¹.

لاحظ "بوبر" أن كل فلاسفة العلم منذ جون ستيوارت مل. بل كل فلاسفة المعرفة التجريبية منذ "دافيد هيوم" حتى "ماخ" والوضعيين والأدائيين على السواء، ينظرون إلى المعرفة العلمية بوصفها حقائق مثبتة مؤسسة فينشغلون بتبريرها. وصمم "بوبر" على إحراز الخطوة الأبعد. وأكد أنه على عكسهم جميعاً لا يعني البتة بتبرير المعرفة العلمية أو حدود

¹ يبنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2000، ص316.

صدقها وصحتها، بل يعني فقط بمشكلة نمو المعرفة وكيفية تقدمها، فيصوب الأنظار إلى منطق الكشف العلمي واللحظة الدراماتيكية الكبرى المتمخضة عن الجديد، لحظة التكذيب والتفنيد¹.

في نهايات القرن العشرين يقول واحد من علماء الفيزياء النظرية، بتعبير بليغ حقاً "إن كارل بوبر هو المفرد العلم الذي يشار إليه بالبنان حين طرح السؤال عن المنهج العلمي". كما قال عالم الفلك الإنجليزي سير "هيرمان بوندي" "H.Bondi" "إن العلم ببساطة ليس شيئاً أكثر من منهجه، وليس منهجه شيئاً أكثر مما قاله "بوبر"².

ومن ناحية أخرى انعكست صياغة "بوبر" للمنهج العلمي في مجموعة من الآليات والقيم، تترد نهائياً في صورة مجتمع مفتوح للرأي والرأي الآخر، لكل محاولات حل المشاكل، ليفوز الحل الأقدر والرأي الأرجح، فيكون الانتقال بهندسة اجتماعية جزئية من المشكلات إلى حلولها في إطار ديمقراطي، يستلزم التسامح وينقض كل دعاوى الديكتاتورية والانفراد بالرأي والتعصب والتطرف فضلاً عن الإرهاب، ويستحيل معه صب المجتمع داخل الإطار الشمولي الكلي والنسق الموحد، سواء أكان النسق هو الماركسية أم سواها، لأن هذا مجاف لمنطق العلم ومنطق الواقع ومنطق التاريخ وإن استحقت الماركسية بالذات نقداً مكثفاً³.

يرفض "بوبر" الفلسفات التحليلية اللغوية، بتعبير موجز يقول فيه "ما زلت على اعتقادي بأن أقصر طريق إلى الخسران العقلي المبين هو هجران المشاكل الحقيقية من أجل المشاكل اللفظية"⁴.

¹ يمني طريف الخولي، المرجع السابق، ص316.

² المرجع نفسه، ص317.

³ المرجع نفسه، ص335.

⁴ المرجع نفسه، ص326.

وفي هذا نجد أن المنطلق الأساسي لنظرية "بوبر" في المعرفة أو ركنها الركين هو إصراره على أن المعرفة في كل صورها -وعلى رأسها العلم- موضوعية. ذلك أنه يميز بين مغزيين لمعنى كلمة "معرفة":

- **المعرفة بالمغزى الذاتي:** وهي تتكون من اعتقادات الذات ونزواتها ومشاعرها وما تراه أو تقره أو تتكره. وأن المعرفة بهذا المغزى من اختصاص علم النفس.

- **المعرفة بالمغزى الموضوعي:** وهي تتكون من كل مخزونات الكتب وأجهزة الكمبيوتر، أي كل الأفكار المطروحة سواء كانت فلسفية أو علمية، ما دامت مصوغة لغوياً، إنها موضوع الإبستمولوجيا التي تبحث في محتواها المعرفي وعلاقتها المنطقية وأسسها المنهجية... تفكير نيوتن في نظريته ونزوعه نحو صياغتها مثال للمعرفة الذاتية¹.

لقد ظل "بوبر" "Popper" على امتداد مشواره الفكري رافضاً لكل أنواع الطوباويات والكليات والإطارات المغلقة بل وحتى الأفكار الرومانسية التي تنتهي حتماً بالتوتاليتارية والدوغماتية لأنها تستند بدءاً وانتهاءً على الواحدية².

لقد تأسست العقلانية ضداً على الاعتباطية، وبالتالي تفسير للوقائع بأن نجد لها تعليقاتها وتأكيداتها والتدليل عليها بالبراهين والحجج وكذا العلل. مما يحتم إيجاد أرضية أساس تشكل هذا اليقين الذي يمكن من إقامة ثابتاً لمعرفتنا.

يقوم المبدأ الأساسي لعقلانية "بوبر" على التصور التالي:

يجب أن نضع موضع اختبار كل ما لدينا من أفكار، أي لا يمكن تأكيد قيمة وتقريرها إلا بعد البرهنة عليها، التجربة سبيلنا إلى ذلك وسواء كان الاختبار إيجابياً أو سلباً فإن استفادة الذات مزدوجة. وتكتسب الرهان في الحالتين: إذا تم دحض نظريتي، فإن عدد

¹ يمدى طريف الخولي، المرجع السابق، ص 335.

² روني بوفريس، العقلانية النقدية عند كارل بوبر، تر: سعيد بوخليط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ص 14.

النظريات التي لا زالت قائمة قد تقلص. أما إذا صمدت أمام هذا الدحض، فإنني أكتسبها بنوع من الصلابة.

فإجرائية نظرية وقوتها، تتجلى أساساً في قابليتها للتكذيب والدحض وليس العكس، أي صمودها أمام التجربة كما ظل الاعتماد غالباً. لذا فإن العقلانية النقدية، تشير حتماً إلى ضرورة أن نتملص من النظريات اليقينية الاعتقادية، ونأخذ أساساً بالنظريات الجريئة أي تلك القابلة للتكذيب¹.

لا يجب بتاتاً، الإيمان بثبات وإطلاقية نظرية ما. فالعقلانية النقدية، تؤكد بأن النظرية تظل مجرد فرضية، حتى ولو اجتازت مجموعة من الروايز والاختبارات بنجاح، فاليقين جهل وموت.

كل مهمة لفلسفة العلوم، تقوم على محاربة وتجاوز مختلف أشكال الدوغماتيكيا، وبالتالي السعي إلى معالجة الإشكال الكانطي: كيف يمكننا تمييز الخطاب العلمي عن خطاب آخر شبه علمي؟ هل نتوخى ذلك بالاستقراء باعتباره منهجية العلوم التجريبية وفي تقابل مع تنظيرات الميتافيزيقا والاستنباط الرياضي. لكن ما أظهره "بوبر" هو أن كل هؤلاء الذين يجعلون من المسار الاستقرائي مفتاح المنهجية العلمية غير قادرين على إعطاء معيار للعلم التجريبي، وبالتالي من اللازم اقتراح شيء آخر².

يفصل "بوبر" بين العلم الواقعي والأنساق التأويلية. فهذه الأخيرة غير قابلة للدحض لأنها لا تستبعد أية واقعة محتملة. كما أن التأويلات الماركسية وكذا تلك التي جاء بها التحليلي النفسي تنضبط وتتكيف مع كل الحالات، مما يستحيل معه إيجاد براهين يمكن أن تبطل نتائج هذين العلمين: "ما إن تفتحون أعينكم عليها، حتى ترون أمثلة تؤكدتها في كل مكان.

¹ روني بوفريس، المرجع السابق، ص.ص 16، 17 .

² المرجع نفسه، ص.20.

لكن وانسجاماً مع أبجديات العقلانية النقدية، فإن عدم قابلية هذه الأنساق للدحض، لا يدل على قوتها وتماسكها. بل في حقيقة الأمر، يظهر ذلك ضعفها ووهنها: "توخي أقصى ربح يؤدي في واقع الأمر إلى خسران كل شيء، إن نظرية لا تسعى إلى المجازفة بالفشل. لا يمكنها النجاح أبداً.

وبقدر ما يتوخى التحليل النفسي تأكيد علميته، جاعلاً نظرياته فوق كل دحض وتفنيذ (متوهماً بذلك العلمية)، فإنه يضع نفسه خارج العلم حسب معيار التحديد عند "بوبر". فما يعطي لنظرية ما قيمة تأكيدها العلمي، يتجلى أساساً في قدرة صاحب النظرية على أن يقدم منذ البداية الشروط التي تمكن من تزييف وتكذيب نظريته أي المجازفة بالغلط.

على العلم أن يثير ويستفز ويجازف، وليس المطلوب منه أن يلهث وراء مساحات للأمان والائتمان، وكل نظرية لا يتأتى لها ذلك، أو لا تعطي لنفسها إمكانية كذلك، تتحول بالتأكيد إلى دوغما¹.

يدافع "بوبر" عن موضوعية المعرفة، من خلال منحيين:

1- الوجود الفعلي والواقعي للعالم، لذا فإن العلم يتكلم عن عالم واقعي موجود أساساً.

2- تتفصل المعرفة عن الذات.

يميز "بوبر" بين المعرفة الذاتية والمعرفة الموضوعية. تتأتى الأولى من موقف سلبي أولي بالأشياء: "اعتقاداتنا وانتظاراتنا ثم استعداداتنا للتأثير". والثانية تقوم على نظريات مرتبطة بعلاقات محض منطقية وتشكلت لسانياً².

¹ روني بوفريس، المرجع السابق، ص 21.

² المرجع نفسه، ص 22.

توظيف "بوبر" لمفهومي الذاتي والموضوعي، يجعله قريب من كانط Kant. لأن المعرفة الموضوعية عنده تعني تلك المعرفة التي يمكن تبليغها إلى كل العقول أي تأكيد لحقيقة الحكم وتكون كذلك مقبولة بين الذوات. إلا أن مبدأ الدحض (التكذيب والتزييف) عند "بوبر" يفصله عن "كانط".

يستحيل حسب "بوبر" الحديث عن مجرد مطلق لرجل العلم عن الأحكام والتعميمات الجاهزة والقبلية، فالتحيز العاطفي والوجداني قدر لا مناص منه. لكن الاشتغال الجماعي على المنهجية النقدية، يعطي إمكانية للانفلات والتخلص من هذا النزوع الفردي والسيكولوجي لظاهرة العلم¹.

إذا كان "بوبر" إصلاحياً على مستوى السياسة. فإنه آمن بـ "الثورة الدائمة" على مستوى العلم. هناك تطورا مستمرا ولا نهائيا للنظريات العلمية بشكل منفصل ومتعارض. لكن مع ذلك، فإن نظرية جديدة لا يمكنها إسقاط الأخرى إلا إذا:

أولاً: أدركت كل ما جاءت به النظرية السابقة، إنه البعد المحافظ لتطور المعرفة.

ثانياً: إذا كان بإمكانها فهم بعض الوقائع التي لم تفسرها النظريات السابقة : هل كان بإمكان نظرية نيوتن Newton الحلول محل تلك التي جاء بها غاليلي Galilée . وهل تمكن أينشتاين Einstein بنظريته خلافة نيوتن Newton؟ بمفاهيم أخرى، تصير النظرية المتجاوزة في كل مرة مقارنة للنظريات الجديدة. فالنظريات لا تتوقف عن التطور².

إجمالاً يحدد "بوبر" شروط الفكر العلمي في:

¹ روني بوفريس، المرجع السابق، ص23.

² المرجع نفسه، ص24.

- 1 - على الرغم من تأكيده على التنفيذ، فإنه من الضروري كذلك الأخذ والإقرار بالنجاحات الإيجابية، أي على النظرية تقديم بعض التقديرات الجديدة التي تم اختبارها فعلياً.
- 2 - لا يجب دحض النظرية قبل الأوان والإسراع نحو ذلك.
- 3 - ليس من اللازم دائماً توخي نجاح نظرياتها. صحيح أن ذلك ما يعطي للعلم خاصيته العلمية، إلا أن الأمر على هذه الشاكلة قد يستوجب كذلك خطر الدوغماتية.
- 4- على رجل العلم الدفاع عن نظرياته ضد كل الانتقادات السهلة حتى وإن تطلب الأمر إخضاعها للروائز.
- 5 - لتطور العلم، يتحتم توفر الشروط والمعطيات التالية:
 - استحضار الخاصية اللانهائية لجهلنا.
 - وجود رخاء اقتصادي.
 - ينتعش ويزدهر الفكر النقدي مع انتفاء كلي لشروط الاستبداد السياسي ذلك أن: "الاستبداد والمستبدون يحطمون العلم مطلقاً"¹.

¹ روني بوفريس، المرجع السابق، ص 25.

الفصل الرابع

سوسيولوجيا العلم

تمهيد

يهمل العديد من الباحثين في ميدان العلم المقاربة السوسيولوجية رغم الفوائد المعرفية والثمار الإدراكية التي نجنيها من دراسة العلم كمؤسسة اجتماعية تخضع لقيم ومعايير المجتمع.

والعلم في حد ذاته لا ينفصل عن التوجهات الثقافية والاقتصادية للأمم والبلدان، وأكثر من ذلك فالعلم بالنسبة لبعض الأوطان أضحي قيمة حضارية تستدعي تجنيد كل الإمكانيات والوسائل والكفاءات لتجسيد مشاريع البحث في الواقع الملموس، وتحويلها إلى منشآت إنتاج وتقنيات عمل وإلى سياسات واستراتيجيات تحقق تقدم المجتمعات ونموها.

وقد عرفت المعرفة العلمية تطورات مذهلة وانجازات خارقة، وذلك بفعل تأثير الشبكة العنكبوتية التي حوّلت العالم برمته إلى قرية صغيرة، وذلك انطلاقاً من كثافة وسرعة تدفق البيانات والمعلومات والمعارف. دون نسيان أهمية العولمة والتي استناداً إليها تشكلت هيئات علمية منتقاة من خيرة عقول عديد الأمصار والثقافات.

لم يعد العطاء العلمي مقتصرًا - كما كان في السابق - على المجهود الفردي والإبداع الشخصي، بل صار مبنياً على الذكاء الجماعي حيث يجمع أذهاناً مختلفة لكنها متكاملة، ونهى متنوعة لكنها متساندة. ومع كل هذا من غير المنطقي إغفال عامل المنافسة كأداة لتحفيز العلماء للاجتهد أكثر، ومن ثم الحصول على اعتراف مؤسساتي وتمييز أكاديمي وإقرار مادي واستحقاق رمزي.

المبحث الأول: مفهوم العلم

العلم هو شكل من أشكال النتاج الفكري للإنسان وهو نشاط فكري اختصاصي يؤديه شخص أو عدة أشخاص عن طريق جمع وتنظيم وتصنيف وبرمجة المعلومات والبيانات الموضوعية المشتقة من طبيعة الظواهر والأشياء المرئية وغير المرئية التي يهتم بها المختصون وذلك لفاعليتها وأهميتها للمجتمع.

النسق العلمي من الداخل كمنظومة معرفية متوالية من القضايا الممنهجة، تحمل مضموناً إخبارياً وقوة تفسيرية وطاقة تنبؤية منصبة على العالم الذي نحيا فيه، فتجعل العقل البشري يحكم قبضته عليه.

والمبحث العلمي هو الدراسة الموضوعية التي يقوم بها الباحث في أحد الاختصاصات الطبيعية أو الإنسانية سواء أكانت هذه الدراسة تتعلق بالجانب المادي أو الجانب الحضاري غير المادي للمجتمع.

يتفق الباحثون، غالباً، على اعتبار العلم بحث نظري، أي أنه عناء مبذول للإدراك والفهم والمعرفة، لكل ما يحيط بالإنسان من طبيعة ومجتمع. غير أنّ هناك من يخالف هذا الرأي فلا يعترف إلا بتطبيقات العلم وتجلياته الملموسة¹.

وفي اعتقادنا إن العلم نظرية وتطبيق، بحث أساسي وبحث عملي، يستلزم الاكتشاف والاختراع، الإبداع والابتكار، إما على مستوى التصور والتجريد، أو على مستوى التجسيد والتنفيذ.

هناك موقفان رئيسيان من الصلة بين العلم والإنسان، يتصل الموقف الأول بالتعريف الاستاتيكي للعلم، وهو الذي يقصره على محتواه المعرفي. والإنسان العالم لا يعدو دوره أن يكون مرآة مستوية تعكس ما هناك في الطبيعة، أو إجراء الملاحظات والتجارب. فمجال

¹صلاح قنصوه، فلسفة العلم، دار التنوير، بيروت، 2008. ص42.

العلم، عند أصحاب هذا الموقف، محدود بالوقائع والقوانين التي تجري على سنن حتمية، وتثبتها الملاحظة والتجربة الموضوعية... وكأن الحقيقة العلمية قابضة هنالك، محايدة ومستقلة عن الإنسان، وعلى رجل العلم أن يكشف عنها النقاب.

أما الموقف الثاني، فهو الذي يؤثر التعريف الدينامي للعلم، ويرى في الموقف السابق رأياً مغترباً عن تاريخ الإنسان. فالعلم ليس كائناً مستقلاً يواجهنا ويلزمننا بأن نتخذ موقفاً إزاءه، بل هو أحد جوانب الفاعلية الإنسانية النوعية. وهو جهد موصول يبذله الإنسان للتعرف على الطبيعة، ليستزيد من استقلاله عنها، والسيطرة عليها في نهاية الأمر... والعلم ليس هو الطبيعة نفسها، بل تصورنا للطبيعة، أو معرفتنا بالطبيعة، وهو الطريقة التي نضع بها أسئلتنا بحيث نفرد ونعزل مجالاً محدداً من بين خضم الظواهر¹.

يبدو في العالم الحاضر أنّ العلم بكل أبعاده مجمل الحداثة، فالمنهج العلمي يوجد في كل مجال: في علاج المشاكل الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، فإذا لم يكن الأسلوب العلمي مطبقاً على المشكلة التي نواجهها فإن العلاج والتحليل يكونا ناقصين أو موضع شك، ولا يخلو هذا الرأي من انتقادات خلقية من أولئك الذين يظنون أن للعلم من السلطان ما يجعل دعاويه ذات ثقة زائدة ومبالغ فيها، بل إنه يمكن أن يؤدي إلى تشخيصات خاطئة.

وبات العلم العامل الفاعل الحاسم في تشكيل العقل والواقع على السواء، ومن ثم باتت فلسفة العلم بدورها أهم فروع الفلسفة في القرن العشرين، والمعبرة عن روحه العامة وطبيعة المد العقلي فيه، وحواراته العميقة التي يتلاقى فيها الرأي والرأي الآخر².

نجد تاريخ العلم هو تاريخ العقل الإنساني والتفاعل بينه وبين الخبرات التجريبية أو معطيات الحواس، هو تاريخ المناهج وأساليب الاستدلال وطرق حل المشكلات التي تتميز بأنها واقعية عملية ونظرية على السواء. إنه تاريخ تنامي البنية المعرفية وحدودها ومسلّماتها وآفاقها، تاريخ تطور موقف الإنسان بإمكاناته العقلية من الطبيعة والعالم الذي يحيا فيه،

¹ صلاح فنصوه، المرجع السابق، ص.ص 69،70.

² يمنى طريف الخولي، المرجع السابق، ص.7.

تاريخ تقدم المدنية والأشكال الحضارية والأساليب الفنية التي يصطنعها الإنسان للتعامل مع بيئته¹.

الحديث اليوم عن قيمة العلم يعد أقل تفاؤلاً عما كان عليه في السابق. فعلى الرغم من أن المصانع التي أنشئت بفضل العلم وتقدمه وفرت العديد من السلع والخدمات إلا أن أكثرها قد لوث أنهارنا وبحارنا وبالتالي طعامنا وشرابنا، كما أنها استنفدت في عقود قليلة ثرواتنا الطبيعية التي لا يمكن إعادة تجديدها. وأخلت بالتوازن البيئي بدرجة تنذر بأوخم العواقب. فضلاً عن أن إنسان اليوم يحيا رعب الأسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية التي تهدد كيانه ووجوده. ومهما قيل عما سببه التقدم العلمي من مساوئ أضرت بالإنسان والبيئة. إلا أن أحداً لا يشك في أن هذه المساوئ من صنع الإنسان وحده. واستخدامه السيئ لمكتشفاته العلمية، ولأسباب تتعلق بأطماعه في السيطرة والقهر والاستغلال. أما العلم في حد ذاته فهو محايد يمكن أن يستخدم لمصلحة الإنسان أو لضرره، بل وقد يكون العلم نفسه - والتقدم العلمي - عوناً على تلافي مثل هذه المساوئ إذا ما خلصت نية الإنسان وأدرك تماماً أنه يعيش فوق كوكب له قواعد وقوانين يستحيل تجاوزها أو إهمالها أو خرقها أو اللجوء إلى أنماط فكرية أخرى لا تستوعب وتتمثل هذه القواعد والقوانين².

لأول مرة في تاريخه يظهر العلم في صورتين متباعدتين ومتناقضتين. ففي الصورة الأولى تبرز العملية الحضارية وقد ارتبطت بتطور العلم وبانجازاته التي لا تحصى، فالفيزياء الذرية قد أدخلت الإنسان إلى قلب المادة بكل تفاصيلها واكتشفت له الطاقة الذرية التي بدأت تحرره من الاعتماد على المصادر الطبيعية الجاهزة؛ وعلم الوراثة قد فتح إمكانية بناء أشكال عضوية جديدة وتعديل الكائنات العضوية القديمة لتصبح أكثر إنتاجية وأكثر استجابة لمتطلبات الإنسان وملاءمة لظروفه المستجدة. أما الكيمياء فقد ابتكرت عدداً من المواد التركيبية الاصطناعية التي تتفوق على المركبات الطبيعية. ونجاحات علم الفلك في النصف

¹ يمنى طريف الخولي، المرجع السابق، ص12.

² السيد نفادي، "التقدم العلمي ومشكلاته"، عالم الفكر، الكويت، العدد 2، المجلد 29، نوفمبر-ديسمبر 2000، ص14.

الثاني من القرن العشرين قد قرّنا من تحقيق أحلامنا التاريخية في كشف أسرار الفضاء والإجابة عن سؤال: من نحن؟ وأي مكان يحتل كوكبنا في هذا العالم الفسيح؟

وفي الصورة الثانية تبدو نتائج العلم مثيرة للقلق الاجتماعي والأخلاقي، والخوف من أن تكون سبباً للإضرار بالحياة على كوكب الأرض، وربما تخريبها بالكامل. فالمفاعلات النووية (والأسلحة النووية أيضاً) ما زالت تسبّب أفضع الكوارث؛ وعلم الوراثة أضحى واقفاً على أبواب الخصوصية الإنسانية مما يثير الخوف من أن يخرق جدارها بطريقة خاطئة؛ المركبات الكيميائية المستحدثة يخشى من أن تساهم في سيطرة الكيمياء على معظم جوانب حياة الإنسان فتأخذه رهينة دائمة؛ والأبحاث في مجال الفضاء قد تشكّل تهديداً جدياً للنظام الإيكولوجي العام في غياب الضوابط اللازمة¹.

¹ نزار دندش، ما هو العلم؟ رحلة التفكير العلمي، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت، 2009، ص. ص 11، 12.

المبحث الثاني: نسبية العلم

المعرفة العلمية ليست يقينية، وأن العلم بالشيء، سواء كان طبيعياً أو اجتماعياً، ليس نسخاً من المقولات الأكيدة، ولا هو يتقدم باطراد وانتظام نحو غاية معلومة ونهائية وأن العالم لا يبحث عن الحقيقة ولا يستطيع الوصول إليها، ولا هو يدعي ذلك، فالجهد المبذول في هذا السبيل إنما يبذل من أجل الوصول إلى معرفة ما، نسبية ومؤقتة دائماً، رغم أن البحث الدؤوب على قصوره، هو الباحث الرئيسي في ما يسمى بالاكتشاف العلمي فيدعونا إلى المزيد من العلم، والإكثار منه، والثقة الأكبر والأكبر بثمراته وقدراته وفي نفس الوقت العلم وحده الذي يلغي النظرة السحرية عن نفسه.

يقول "ماكس فيبر" في هذا الإطار: "يعلم كل منا أن ما أنجزه العلم سوف يتخطاه الزمن، هذا هو مصير العلم... وأن نتخطى علمياً ليس قدرنا المشترك فحسب بل هو هدفنا أيضاً"¹.

ويؤكد "برنار" أن الفارق بين التفكير المدرسي في العصر الوسيط والتفكير العلمي، يتمثل في أن المدرسين يبحثون دائماً عن نقطة بدء مطلقة الصدق كي يبدووا منها، أما العالم المجرب فعلى العكس من ذلك يشك في كل شيء دائماً، حتى في نقطة بدئه، وذهنه بالضرورة متواضع مرن... ومن هنا يؤكد "برنار" على ضرورة تسليح الباحث بروح النقد المتشككة².

كما أن العلم لم يبقى مرتبطاً بالتصور الجامد والتقليدي الذي يحصر مفهوم المعرفة الموضوعية في التقرب بوسائل دقيقة من موضوع خارجي ومحاولة الإحاطة به من كل الجوانب بعقلنا بل إن للمنهج المتبع في التقرب من الواقع وتمييزه وتقطيعه إلى ظواهر وموضوعات بحث أثر لا يقل عما يقدمه الواقع في بناء الموضوع المدروس أو الواقع الواعي الذي يشكل موضوع العلم.

¹ ماكس فيبر، المرجع السابق، ص. 29، 30.

² يمني طريف الخولي، المرجع السابق، ص 148.

ولقد تأكدت فكرة تعدد مناهج التقرب من الواقع وترسخ مبدأ تغيير مفهوم الواقع المدروس نفسه وتمييزه عن الواقع الحي الخارجي القائم بذاته خارجنا وتركزت فكرة أن الواقع الواعي الذي نعرفه هو أيضا ما نصنعه ونحن نفكر فيه أو نعيد تركيبه في الذهن.

هناك ثمن للمعرفة والفهم ينبغي أن يدفع قبل أن ينبس الفهم وتتمخض المعرفة، ذلك أن الفهم في أحد معانيه ربما لم يكن إلا احتيالا على الواقع واغتصابا له، أو اختراقا لطبقاته الجيولوجية أو الأركيولوجية، إنه عنف يمارس على الواقع وضد الواقع لكي ينكشف على حقيقته، إن القوة المخزونة في الواقع والممانعة للفهم تتطلب قوة أخرى مضادة لتحبيدها.

ينبغي ألا ننظر أن العالم أو الواقع يدير لنا وجهها واضحا لكي نقرأه، على العكس إنه كثيرا ما يدير لنا وجهاً غامضاً، معقداً، باختصار إنه ليس متواطئاً مع رغباتنا في المعرفة والكشف، يضاف إلى ذلك أن الواقع الكثيف والوضع القائم المسنود بسلطة سرية لا تقبل بأن ينكشف قانونها بسهولة¹.

لا ننسى كذلك شبكة علاقات القوة المزروعة في كل جسد المجتمع والمنبثة في كل مؤسساته وخلاياه. ونظام المجتمع بالذات هو الذي يمنعك من التفكير الحر لأن الحقائق "الشغالة" فيه مضادة للمعطيات الحقيقية.

إن علم النفس ذاته لا يصبح علمياً إلا إذا أخذ بالاعتبار أننا في داخلنا، كما في خارجنا لا نفهم الطبيعة إلا حين نقاومها.

والبحث العلمي إبداع وليس مجرد تكرار لمقولات جاهزة أو تطبيق لها وذلك عن طريق المشاركة في إنتاج المعرفة بواسطة استثمار النتائج العلمية الحالية والأدوات المنهجية السائدة، أينما وجدت، ومحاولة التفكير فيها بما يسمح بإخصابها، والمشاركة في تجاوزها بإعادة بنائها. وذلك يتم برفض الوثوقية والجزم والحقيقة المطلقة، والعلم الكلي، والخصوصية

¹ ميشال فوكو: جينيولوجيا المعرفة، تر: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعيد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1988، ص39.

العمياء، والأصالة المتفردة. في سبيل تعدد منهجي، يقطع مع كل ضلالات أحادية الرؤية المنهجية.

لهذا لا نريد باسم العلم أن تتحول قواعد البحث، ومفاهيمه، إلى نسخ جاهزة صالحة لكل زمان ومكان، ومن غير أي احتراس منهجي، حيث نتخلى عن مطلب اليقظة اللازمة لكل ممارسة معرفية، ونتيه في ممارسة النقل بدل ممارسة التفكير.

ليس الإشكال في التنوع المعرفي لأنه سيبقى دائماً، ولعله يتحول لأن يكون مصدر ثراء منهجي وخصوبة حين تتشغل غالبيتنا عن النسخ بالتأصيل، وعن الانبهار بالحوار، وعن الانقطاع بالتواصل وعن التسليم بالرؤية النقدية¹.

وتعتقد الفينومينولوجيا أن افتقاد العلم للأسس الإنسانية وأبعاد الوعي الإنساني بمنزلة خطر داهم يهدد الحضارة. أما التخلف النسبي للعلوم الإنسانية فهو أزمة العلم الغربي بجملته. ويرجع إلى تبنيها الأعمى لمسلمات ومناهج العلوم الطبيعية على الرغم من الاختلاف النوعي للظواهر الإنسانية عن الظواهر الطبيعية، وعلى هذا تعمل الفينومينولوجيا على أن تشق طريقاً جديداً مختلفاً للعلوم الإنسانية يقلبها من عثرتها ويحقق تقدمها المأمول ويبطل ردها إلى العلوم الطبيعية أو إتباع طريقها².

إنه طريق يقوم على أساس أن التجربة الحية هي المدخل الوحيد للعلم. والمنهج الفينومينولوجي الذي نما وتطور خلال القرن العشرين مع كثيرين نذكر منهم موريس ميرلو بونتي M. MERLEAU PONTY يعني تركيزاً خاصاً على الظاهرة، أي ما يظهر أمام الوعي. إنه يبدأ من الواقعة الأولية المعطاة للوعي والمدركة حدساً، فنكون بإزاء "الإحالة" إلى الوعي و"قصديّة" الوعي، أي أن الوعي يقصد الظاهرة المعنوية فيتوجه إليها، إلى شيء آخر سوى ذاته. بالقصديّة والإحالة المتبادلة بين الوعي وموضوعه تنهار القسمة المصطنعة بين

¹ غالي شكري، المرجع السابق، ص136.

² يمني طريف الخولي، المرجع السابق، ص243.

الذات والموضوع التي ورثناها عن الفلسفة التقليدية والتقابل الشهير بين المثالية والمادية. بالمنهج الفينومينولوجي لا يبقى إلا التجارب الشعورية الحية التي تحمل الطابع الخاص لما هو إنساني، إنها معطيات واقعية، فتظهر الحقيقة بوصفها تياراً من الخبرات، الخبرات باعتبارها أفعالاً خاصة بالوعي، ومن حيث هي بنيات وتراكيب وليست مجرد تجارب شخصية، لأبد إذن من وصف المضامين الخالصة لما هو حاضر في الوعي، في الخبرة والشعور، وتأويل الظواهر بحيث تعرض نفسها للتحليل في شكل خالص لتكشف لنا عن الأشياء نفسها، عن الماهيات. ومن ثم يقوم المنهج الفينومولوجي على تعليق الظاهرة في حد ذاتها أو وضعها بين قوسين، ثم إعادة بنائها عن طريق تحليلها كما هي معطاة للوعي، أي من حيث هي خبرة شعورية مندرجة في تيار الزمان¹.

من أهم المعايير التي تتميز بها المعارف العلمية عن المعارف غير العلمية معيار الموضوعية، فإذا توصل أحد العلماء إلى نتيجة علمية معينة يجب أن يتوصل إليها أي عالم آخر، فيما لو اتبع نفس الطريقة التي اتبّعها العالم الأول، فالنتائج العلمية يجب أن تكون مستقلة عن العالم الذي يتوصل إليها.

¹ يمنى طريف الخولي، المرجع السابق، ص 244.

المبحث الثالث: العلم كمؤسسة اجتماعية

يستحسن على الباحثين، في شتى ميادين المعرفة الإنسانية التي تمتاز بالموضوعية والعقلانية، قراءة علم اجتماع العلوم، الذي يجدون أنفسهم من خلاله ويفهمون بشكل أفضل ممارستهم والمناخ الذي يعملون فيه. رغم الصورة غير المبهرة التي تقدمها السوسيولوجيا للعلم وللمشتغلين به.

يفتح علم اجتماع العلوم بواقعيته أعين الباحثين المبتدئين ويجعل منهم دارسين يستطيعون فهم العلم والتحرك في عالمه. كما يساعدهم على امتلاك مزيد من وضوح الرؤية، فالعلوم والتقنيات تطرح الكثير من المشاكل (الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية) والتي لن يكون للأسطورة العقلانية المزيفة ولا للنسبية الراديكالية والمتشككة أرض خصبة¹.

ترتبط فكرنا عن العلم عادة بفكرة عن عالم منفصل، عالم يختلف عن المجتمع والحياة اليومية. فصورة العالم المنعزل المتحمس لأشياء غير مفهومة تشكل حتى اليوم بقوة مفهومنا عن ماهية العلوم. تحاول وسائل الإعلام عبثاً القيام بتحقيقات جذابة لمساعدتنا الدخول إلى المضامين العلمية، دون جدوى. فالعلم يظل نشاطاً غامضاً والعلماء كائنات غريبة.

تظهر دراسات العلوم التي يقوم بها علماء الاجتماع صوراً مختلفة كل الاختلاف. فقد قربت تحليلاتهم بالتدرج بين العلم والمجتمع. وابتعدوا عن المفهوم الذي يتعامل مع العلم باعتباره نشاطاً منفصلاً عن بقية الأنشطة الإنسانية².

علم اجتماع العلوم هو أحد العلوم البينية الناشئة حديثاً بسبب الحاجة إلى المزيد من التخصص فهو يقع في نقطة التقاء أربعة علوم: علم الاجتماع العام والعلوم الطبيعية والفلسفة وتاريخ العلوم. وعلم اجتماع العلوم هو العلم الذي يدرس العلوم الطبيعية بشكل أساسي وبقية العلوم الأخرى انطلاقاً من اعتبارات اجتماعية. بمعنى أنه العلم الذي يقوم على

¹ دومنيك فينك: علم اجتماع العلوم، تر: ماجدة أباطة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص15.

² المرجع نفسه، ص18.

مسلمة أساسية هي: أن التطور العلمي أو حركة البحث العلمي مهما كانت تبدو مستقلة إلا أنها مشروطة بالمجتمع والتاريخ ونسق الحقيقة السائد. إذن هناك، أسباب اجتماعية شاركت في صنع الحالة العلمية كما هي عليه في أي وقت من الأوقات.

إن موضوع سوسيولوجيا العلم هو وصف البحث العلمي كفعل، وفهم المعرفة العلمية بوصفها متضمنة في هذا الفعل ومنتجة بواسطته... وأن البحث العلمي: هو ما يقوم به جماعة الباحثين، وليس المقصود البحث الفردي، فعلم الاجتماع يهتم بما يقوم به الناس بشكل جمعي، ويهتم بكيفية هذا الفعل الجماعي وأهدافه وعواقبه وأصبح البحث العلمي نشاط اجتماعي مرتبط بالأفعال والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية والجماعات والتجمعات العلمية.

إن علماء الاجتماع، بتحليلهم المنجزات العلمية، أو في أكثر الأحيان بدخولهم مختبرات البحث، اشتركوا بقدر كبير في إغناء معرفتنا للأليات الاجتماعية والمعرفية التي تفعل فعلها في بلورة الابتكارات العلمية.

ووفق منظور عالم الاجتماع "بوخارين" « Boukharin » للعلم ثلاث وظائف اجتماعية كبرى: أن يزيد معرفتنا بالعالم الخارجي، أن يطور طرائق تقنية، وأن يسيطر على كل قوة تعارض التطور البشري.

كما نبّه "بوخارين" إلى مسألة إبستمولوجية أساسية وهي ضرورة إدراك خطر إيديولوجية "العلم للعلم"، وهي إيديولوجية تخفي واقعاً عميقاً عن أعين أهل العلم أنفسهم. إذن النشاط العلمي تحدده موضوعياً غايات عملية يجب أن ننظر إليها من وجهة نظر التطور الاجتماعي¹.

¹ ميشال دوبوا، مدخل إلى علم اجتماع العلوم، تر: سعود المولى، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2008. ص32.

وما يجب التنويه به في سياق المقاربة السوسيولوجية للعلم أنّ العلماء مثلهم مثل التقنيين، والمعلمين، والمبسطين، والمبدعين، ليسوا رجالاً يعملون خارج أي انتماء إلى زمرة اجتماعية.

والحال أن هذا الانتماء الاجتماعي يؤدي دوراً حاسماً: إذ إنّه يقودهم إلى أن يستبقوا، عن وعي إلى حد ما، طلبات الجمهور. وبعبارة ضمنية، فإن المسألة التي نعالجها هي مسألة العلاقة الوظيفية التي تربط الأدوار الاجتماعية المؤسسة للنشاط العلمي، بالظواهر المعرفية المستمدة من هذا النشاط.

يقترح "لودفيغ فليك" رؤية غير مسبوقة للواقعة العلمية، وللنشاط العلمي عموماً، وهي رؤية تنتظم بشكل أساسي حول المقولة المسماة "أسلوب التفكير" ... والعلاقة المعرفية ليست علاقة بين طرفين: إنّها فعل اجتماعي تكون فيه الجماعة شريكاً أساسياً من خلال الاستخدام الضمني لأسلوب تفكير يجد أصله في المجال الثقافي_ الاجتماعي¹.

وقد عمّق "سوروكين" هذه الفكرة أكثر بتأكيد أنه بروز هذا الاكتشاف العلمي أو ذاك، هذا الإبداع التقني أو ذاك، يفسّر سوسيولوجياً انطلاقاً من علاقته بالمقدمة المنطقية الثقافية السائدة. حتى في العلوم الطبيعية، فإن أكثر النظريات السائدة تتأرجح من وجهة نظر اعتبار هيبتها ومصداقيتها، في علاقة ملموسة مع تقلبات أنساق الحقيقة والأنساق الثقافية السائدة².

و يمكن تقسيم التحليل السوسيولوجي لسوروكين وفق مايلي:

1/ إن كل معرفة تستلزم من طرف صاحبها، الذي يحاول لاحقاً الوصول إليها، على اعتراف جماعي، تحشيداً لموارد معرفية متعددة.

2/ بعض من هذه الموارد لا يتغير، ويتجذر في طبيعة الذات المدركة والبعض الآخر على العكس من ذلك يتغير بين ثقافة وأخرى.

¹ ميشال دوبوا، المرجع السابق، ص. ص 42،43.

² المرجع نفسه، ص46.

3/ الموارد التي تخضع للتغير إذ هي تعين العنصر الثقافي الاجتماعي الذي يلحق به النتائج العقلية، تمثل المتغير المستقل الذي تلتزم سوسيولوجيا الثقافة بأن تقدم له محتوى كل ظاهرة معرفية.

4/ الموارد الثقافية_ الاجتماعية تمتلك ثلاث سمات كبرى: إنها تشكل أحكام قيمة وحقيقة حول الواقع النهائي للأشياء؛ إن تأثيرها يكون بطريقة دورية، وإنها تؤدي دور المقدمة المنطقية في التحليلات التي توجه سلوك الفاعلين الأفراد. وهذه الموارد عددها ثلاث: المورد الروحي: الذي تكون الحقيقة النهائية عنده ما فوق حسية.

المورد الحسوي: الذي تكون الحقيقة الأخيرة عنده محدودة بحدود ما تدركه الحواس، ويرتبط هذا المورد بثمين إشباع حاجيات محض مادية.

المورد الأمثلي: الذي تكون الحقيقة عنده متشكلة من عناصر حسية ومن عناصر ما فوق حسية في آن واحد. وهو ما يرتبط بثمين إشباع حاجات مادية وروحية في آن معاً.

5/ إذا كان لدى مفكرين مختلفين المقدمة المنطقية الثقافية نفسها، على الرغم من انتمائهم إلى مجتمعات متباعدة جداً في الزمان والمكان، فإن نظرياتهم تظهر تشابهات أساسية. وإذا كان الأمر على العكس أي أن تكون الشروط الوجودية متشابهة في حين أن المقدمات المنطقية الثقافية مختلفة، فإن النظريات ستظهر سلسلة من التشابهات في نقاط ثانوية. وحدها العوامل الثقافية تفعل تأثيراً أساسياً في طبيعة المعارف¹.

وفي تصوّر "سوروكين" دائماً فإن تأثير مفكر ما، يمكن تقويمه اعتماداً على ثمانية معايير رئيسية:

(1) عدد الدراسات المفردة الوافية (المونوغرافيا) الخاصة المكرسة له.

(2) التواتر التقريبي لذكر اسمه في أعمال المفكرين المعاصرين واللاحقين من العاملين في الميدان نفسه.

(3) رغبته في تأسيس مدرسة فكرية.

¹ ميشال دوبوا، المرجع السابق، ص.ص 46،47.

- (4) ورود اسمه في المصنفات الأولى جداً للتاريخ والإبستمولوجيا والفلسفة.
- (5) عدد أتباعه المعلنين.
- (6) انتشار كتبه عالمياً.
- (7) إعادة طبع كتبه.
- (8) رغبته في إقامة نسق إبستمولوجي أو فلسفي كامل¹.

وحسب "ميرتون" إن المصالح، والدوافع والسلوكيات الاجتماعية القائمة في حقل مؤسسي ما - حقل الدين أو الاقتصاد على سبيل المثال - تقيم علاقة ترابط مع المصالح والدوافع والسلوكيات الاجتماعية القائمة في حقول مؤسسية أخرى - حقل العلم على وجه الخصوص - ويمتلك الفرد الواحد نفسه أدواراً عدة وأمكناً اجتماعية: علمية، دينية، اقتصادية وسياسية تسهم هذه الروابط الأساسية الملازمة لكل بنية اجتماعية في توليد علاقات بين حقول مؤسسية متميزة.

وإنّ مصطلح علم يعيدنا إلى حقائق مختلفة للغاية، فإن واحدة منها فقط يجب لها أن تستحوذ على انتباه علم الاجتماع: العلم بوصفه مجموع قيم ثقافية تؤثر في النشاطات المعرفية على أنها علمية. وبالفعل فإن هذا المجموع يشكل صلب العلم ولكنّه متميّز على الأقل عن بعده المعرفي البحت الذي يؤثر في النشاط الاجتماعي للرجال والنساء الذين عندهم جماعياً غاية محددة بزيادة معرفتنا عن الحقيقة².

إن العلم لا يمكن تعيينه سوسيولوجياً، لا باعتباره مجموع معارف ولا حتى كونه مجموع تقنيات وممارسات بحثية، وإنما باعتباره مؤسسة تقوم على مجموع قيم ومعايير يلونها نوع من الانفعالات الوجدانية المفترض أن تمارس تأثيراً إكراهياً على رجل العلم. هذه المعايير يعبر عنها على شكل وصفات وتحريمات وأفضليات وإباحات، وهي مشرعة باعتبار أنها قيم مؤسسية. وهذه الأوامر والنواهي المنقلة عبر الإرشاد والوصية والمثال والمعززة عبر لعبة الجزاءات يستتبطها رجل العلم بدرجات مختلفة.

¹ ميشال دويوا، المرجع السابق، ص48.

² المرجع نفسه، ص54.

وأفضل مثال عن ما ذكرناه سابقاً هو أنّ وتيرة المنازعات حول الأسبقية لا تنتج من السمات الفردية المميزة للعلماء وإنما من المؤسسة العلمية التي تحدد الأصالة على أنها قيمة عليا وتجعل من الاعتراف بهذه الأصالة مسألة كبرى¹.

ينطلق "ميرتون" من المسألة العامة المتمثلة في المشاحنات بين العلماء حول الأسبقية في الاكتشاف العلمي، والتاريخ مليء بهذا النوع من المشاحنات أتعلق الأمر بغاليليه، نيوتن، هوك، كافنديش، وات، لافوازييه، آدمز، لوفيرييه، فارادي، لوجندر، غوس، كوشي... الخ².

وما يفيد من الناحية السوسيولوجية هو اعتبار العلم كنسق اجتماعي وأنه تفاعلات وظيفية بين أعضاء الجماعة العلمية، وجرى وصف هذا النسق على أنه متجذر في مجموعة من المعايير الاجتماعية، وموجه نحو إنتاج معارف صحيحة موضوعياً، وأنه يحفز توصيل هذه المعارف عبر تخصيص فارق لمكفآت هي ذاتها مولدة لتفاوتات اجتماعية .

ومن المتعارف عليه أكاديمياً أنّ العلماء ، قدامى ومحدثين ، ليسوا ممارسين منعزلين في مختبراتهم، وإنما هم ممثلون ثقافيون يستند صميم وجودهم إلى أفراد عديدين، وإنهم يعاونون المؤسسات في التدريس أو في فرق البحث من أجل نشر النتائج العلمية أو يحصلون على دعم ملموس... ودون هذه المجموعة من المؤسسات فإنه ليس هناك دور علمي، ذلك أنّ دور العالم في الواقع إنما هو صف مرصوص من التشكيلات عن أدوار أساسية لا غنى عنها.

¹ ميشال دوبوا، المرجع السابق ، ص57.

² المرجع نفسه ، ص56.

المبحث الرابع: اجتماعيات العلم

أخلاقيات روح العلم مركباً متناغماً من القيم والمعايير ترتبط بالمشتغل بالعلم، وتتخذ هذه المعايير صورة وصفات واقتراحات وأفضليات وترخيصات وتتخذ لها وضعاً قانونياً في قيم المؤسسات حيث تنتقل التعليمات عن طريق توصيات ونماذج تدعمها جزاءات ويعتقها العالم بشكل متدرج حتى تشكل ضميره العلمي أو بالأحرى الأنا الأعلى لديه.

هناك خمس مجموعات من التعليمات التنظيمية التي تقترن بالنشاط العلمي: العالمية، العمومية، النزاهة، والشك المنظم، والصالة.

يوحي معيار العالمية بأمرين:

الأول: أنّ قضايا المعرفة لا يحكم عليها على أساس شخصي، وإنما دون اعتبار للخصائص الشخصية للباحث.

الثاني: أنّ كل الأفراد دون اعتبار للنواحي العرقية أو لاعتبارات القرابة أو الانتماء الديني يسمح لهم الالتحاق بعالم الخطاب العلمي.

العمومية: وفقاً لهذه القاعدة تنتمي النتائج النهائية لأي بحث للمجتمع المفتوح، فلا يصح أن تعد أسراراً مقصورة على الباحث، وإنه ليسعد المرء أن يسهل الحصول على نتائجه من خلال النشر بمجرد أن تتخذ الاحتياطات للحيلولة دون الخطأ ومراعاة للدقة.

النزاهة: وفقاً لهذه القاعدة، من المتوقع أن يعرض بحثه عن الحقيقة دون تحيز من خلال الوسائل المتاحة، وأن يتنازل عن كل مكتسب شخصي أو تمجيد لذاته.

الشك المنظم: يتضمن هذا الأمر التنظيمي تعليقاً مؤقتاً للحكم وتحققاً من عزل للمعتقدات بوضعها في معايير منطقية وعلمية.

الأصالة: يتعلق الأمر هنا بتوصية واضحة للبحث عن الحوافز في العلم بتقديم كل ما يتصف بالجدة والمبادرة والمبادأة بأعلى درجات التكريم وتسمية الاكتشاف العلمي منسوباً إلى الباحث.

بينت "زوكرمان" أن النخبة من أهل العلم في أمريكا تمتلك سمات سلوكية مميزة: إن حملة جائزة نوبل ينتجون بسرعة أكبر وأكثر من الباحثين العاديين: بمتوسط 3.9 من الأبحاث في السنة مقابل 1.4 للباحثين العاديين.

وحسب "وارن هاغستروم" إن الدافع الأول للعالم هو الحصول على الشهرة ولا تفعل المؤسسة غير استخدام هذا الحافز والاعتراف بالجميل للوصول إلى غاياتها: توسيع حقل المعارف العلمية¹.

أما عمل "ستورر" المعنون "البنية الاجتماعية للعلم"، فإنه يبدو باعتباره تعميقاً وإعادة توجيه للنظرية المرتونية صوب تحليل المهن. إذ بالنسبة لـ "ستورر" يعني الاستقلال الذاتي للمؤسسة العلمية أكثر مما يعنيه استقلالها النسبي عن بيئتها.

ذلك أن الإدارة الذاتية تفترض تنظيماً داخلياً ووجود علاقات منظمة بين أعضاء المهنة نفسها. وفي حال النشاط العلمي هناك أربع سمات أساسية:

1 - النشاط العلمي مسؤول عن حجم من المعارف المتخصصة من زاوية حفظها، ونقلها وتوسيع نطاقها.

2 - إنه يملك إدارة ذاتية من زاوية توظيف، وتكوين عناصره ومراقبتهم.

3 - إنه يقيم علاقات منتظمة مع المجتمع العام تسمح له بنيل الدعم المادي والحماية.

4 - إنه يملك نظام مكافآت يسمح بتحفيز أعضائه ومراقبتهم في آن واحد.

¹ ميشال دوبوا، المرجع السابق، ص 63.

يقبل أهل العلم معايير العلم لأنهم يعون أن هذه المعايير هي ضرورية لاشتغال نسق التبادل العلمي بصورة سليمة، لأن كل عالم ومنذ لحظة رغبته في أن يكون مبدعاً، يتمنى حفظ بنية اجتماعية يمكن لجهوده أن تكون فيها مثمرة ومقدرة تقديراً شريفاً من أقرانه، إن له مصلحة شخصية في وجود هذه المعايير نفسها¹.

كتبت "دايان كراين" عن الحياد العاطفي الذي اعتبرته أحد معايير العلم؛ ذلك أن تعلقاً عاطفياً قوياً بأفكار المرء العلمية الخاصة به ليس بالأمر المستحسن. والجماعات التي تحاول الدفاع عن وجهات نظر خصوصية وحصرية من دون أن تبررها كفاية يطلق عليها "كنائس" ويجري اعتبارها على أنها تدير ظهرها للروح العلمية... إن الباحثين هم في الأعم أقل تعلقاً بالجماعة التي ينتسبون إليها من تعلقهم بالحل للمسألة التي يدرسونها².

والعلم نشاط ذاتي الاستقلال، أي باعتباره نشاطاً محرراً من الأحكام المسبقة وتاركاً الحرية للحوار العقلاني وللبرهان التجريبي، ولا يقيم سوى علاقات غير مباشرة مع محيطه الاجتماعي³.

هناك في أيامنا نوع من رد الفعل العاطفي حيال العلم والتكنولوجيا فقد قدّما خدمات جليلة للمجتمع، وفي تبؤ العلم لمكانة مرموقة فائدة عملية حيث ترفع من قيمة العلماء ومن ثم تحفزهم للعطاء المعرفي والبحث الدؤوب للوصول إلى الحقيقة التي نعتبرها نسبية دائماً.

ورغم كل هذه الإيجابيات إلا أن لتطبيقات العلم والتكنولوجيا انعكاسات سلبية تتمثل في إنتاج أسلحة الدمار الشامل وتلويث البيئة واستخدام العلم لتجسيد هيمنة وسيطرة قوى الشر والفساد.

يجيب "باري بارنز" عن السؤال: هل يمكن تفسير محتوى المعرفة العلمية بمصطلحات هي سوسيولوجية حصراً؟ بالإيجاب في كتابه "المعرفة العلمية والنظرية الاجتماعية"...

¹ ميشال دوبوا، المرجع السابق، ص 64.

² المرجع نفسه، ص 65.

³ المرجع نفسه، ص 66.

فالمعارف العلمية لا تملك، وضعاً مميّزاً بالنسبة إلى غيرها من المعارف: إنها شكل معرفي من بين أشكال أخرى. ومهمة عالم اجتماع المعرفة العلمية تقوم على أن يظهر طريقة عمل العلماء حين يعتبرون هذه أو تلك من المعارف صحيحة أم خاطئة وذلك من دون إدخال عنصر الحكم حول قيمتها الباطنة (المستمدة من طبيعتها الأصلية) وهذا العمل يستلزم الاشتغال المتزامن لثلاث قضايا افتراضية:

أ - إنَّ القسم الأكبر من المعارف العلمية هو من طبيعة نظرية، إنَّ النظريات هي مفروضة على الواقع أكثر مما هي مستمدة منه.

ب - إنَّ معنى المصطلحات العلمية، وبالنتيجة تطبيقها اللاحق، يبني انطلاقةً من موقعها صلب النظرية.

ج - إن افتراضات الواقع أو الافتراضات الواقعية . الحديثة لا تكتسب معناها إلا بالنسبة إلى توجهات نظرية موجودة مسبقاً¹.

إن التساؤل عن الطبيعة الاجتماعية للنشاط العلمي يعني بداية اعتبار هذا النشاط - من وجهة نظر أولئك الذين يمارسونه؛ وعلم اجتماع العلوم - علم اجتماع الفاعلين العلميين؛ فأن نصف هؤلاء الفاعلين يعني أن نستدعي إلى الذهن بداهة واقع اجتماعي ملموس. وماذا هناك أكثر واقعية وعيانية من الأفراد الذين يشاركون يومياً في اشتغال هذه أو تلك من المؤسسات العلمية².

تتضاعف المعرفة البشرية مرة كل عشر سنوات وقد خَلَفَ العقد الماضي معرفة علمية أكثر مما خَلَفَه التاريخ البشري بأكمله. وتتضاعف قدرة الكمبيوتر كل ثمانية عشر شهراً، أما قدرة الإنترنت فهي تتضاعف مرة كل عام، وفي كل يوم تقريباً تبشرنا العناوين الرئيسية

¹ ميشال دوبوا، المرجع السابق، ص.ص.76،77.

² المرجع نفسه، ص.111.

للصحف بتطورات جديدة في مجالات الكمبيوتر والاتصالات والتكنولوجيا واستكشاف الفضاء.

وفي أعقاب هذه الثورة التكنولوجية تتقلب صناعات وأساليب حياة بكاملها رأساً على عقب لتؤدي إلى نشوء أخرى. غير أنّ هذه التغيرات السريعة والمدهشة ليست كمية فقط. إنها آلام مخاض لمولد عصر جديد.

سجّل المؤرخون أنّ قمة الانجاز العلمي في القرن العشرين كان الكشف عن العناصر الأساسية التي تمثلت في تحطيم نواة الذرة، وفك شفرة نواة الخلية وتطوير الكمبيوتر.

كانت أجهزة الكمبيوتر في الماضي غرائب رياضية. كانت آلات سمجة غريبة الشكل تتألف من كتلة معقدة من الدواليب والرافعات والمسننات، وخلال الحرب العالمية الثانية استبدلت الأنابيب والصمامات المفرغة بالحواسيب الميكانيكية، ومع ذلك فقد كانت هذه أيضاً ضخمة الحجم تملأ غرفاً كاملة بصفوف من آلاف الأنابيب المفرغة من الهواء.

لقد حدث التحول المهم عام 1948 عندما اكتشف علماء في مختبرات شركة "بيل" الترانزستور الذي جعل الكمبيوتر الحديث ممكناً. وبعد عقد من هذا اكتشاف الليزر الضروري للإنترنت ولطريق المعلوماتية السريع.

ويمكن اليوم حشر الملايين من الترانزستورات في مساحة بحجم ظفر الأصبع. وستتغير أنماط حياتنا في المستقبل بشكل دائم عندما تتوافر الشرائح الدقيقة بكثرة، بحيث توزع الأنظمة الذكية بالملايين في كل الأنحاء المحيطة بنا.

إن بزوغ حرية البحث قد أتاحت بلا شك ظهور أكثر الثورات العقلية في تاريخ البشرية، والعلم هو العدو التقليدي لكل المصالح المستغلة: دينية وسياسية واجتماعية متضمنة تلك التي في داخل المؤسسة العلمية ذاتها، إذ تأبى العقلية العلمية أن تدع الأشياء على ما هي عليه، إنّ الشك المنهجي لطبيعة العلم قائم دوماً، وهو في ريبة دائمة مما استقر عليه آخر إجماع للعقول.

هذا التفويض العقلي لفحص كل صور وأحوال الوجود جعل من العلم عدواً تقليدياً لكل الأنظمة التسلطية، وحقاً لا تستطيع هذه الأنظمة أن تحيا إلا إذا كبتت أو قلبت كل صور البحث العلمي التي تكشف عن الطبيعة الحقة للنتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهذا النظام.

وفي العلم الغربي نفسه هناك من يعتبر أنّ العلم قد غدا "مشكلة اجتماعية"، فالنتائج التقنية للعلم، والمستويات المنخرطة للإشعاع المنبعث في أجواء المجتمعات، والاستخدام غير المحكم للمبيدات الحشرية والتدهور العام للبيئة الطبيعية بسبب تفريغ مواد سامة، وزيادة درجة حرارة الأرض، كلها يتحمل وزرها العلم والتكنولوجيا.

إن فهم العلم يضطرننا للحديث عن الجامعة باعتبارها مؤسسة اجتماعية تعمل على إنجاز البحوث العلمية وتكوين العلماء في شتى التخصصات وما يستحق الذكر في هذا الإطار هو أن ازدهار الأنموذج الألماني للجامعات جاء نتيجة لانفتاح الجامعات الألمانية على دراسة مشكلات المجتمع الفعلية والعمل على توظيف الطاقات الهائلة التي تتمتع بها الجامعات لتحقيق أهداف التنمية والتحديث في المجتمع الألماني¹.

بالإضافة إلى ابتكار ما يسمى بالحرية الأكاديمية والتي تعني حرية أولئك الأشخاص المؤهلين مهنيّاً في البحث عن الحقيقة واكتشافها وتعليمها كما يرونها هم في حقول تأهيلهم وتخصصهم، وهي لا تخضع لأية سيطرة أو سلطة غير سيطرة الطريقة العقلانية في البحث، الطريقة التي بواسطتها تلتمس الحقيقة في هذه الحقول وتثبت.

ومن المتعارف عليه في الأدبيات العلمية أن التكنولوجيا لم تنشأ تاريخياً كوليدة للعلم، إذ هي أقدم منه فتطوير المحرك البخاري وانتشاره كبديل للطاقة البشرية أو طواحين الهواء والماء البدائية التي كانت شائعة حينئذ قد سبق بعشرات السنين بلورة نظريات الديناميكا

¹ عبد الله محمد عبد الرحمان، سوسيولوجيا التعليم الجامعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991، ص 67.

الحرارية وأن بناء الطائرات واستخدامها قد سبق ظهور الديناميكا الهوائية كعلم متكامل تطبق نتائجه في تصميم الطائرات.

تخضع العلاقة بين الاكتشاف العلمي والتطبيق العملي لآليات الدفع العلمي والجدب الاجتماعي في آن واحد؛ فالتطور الهائل في صناعة الكمبيوتر خلال العقود الماضية يمثل بصورة فعالة مفعول توفر هذين العاملين في وقت واحد، أي وصول البحوث العلمية إلى درجة كافية من التقدم في مجال له تطبيقات مطلوبة ومرغوبة اجتماعياً؛ وفي أحيان أخرى يكون الجذب الاجتماعي متوفراً دون أن يكون التطور العلمي كافياً كما هو الحال بالنسبة للمحاولات المتواصلة وغير الناجحة في الغرب منذ الستينيات من القرن الماضي للبحث عن دواء فعال للسرطان تلبية لمطلب اجتماعي واضح وقوي؛ وبالمقابل فإن التطور العلمي قد يدفع إلى الوجود بتطبيقات عملية جديدة ومهمة لتواجه بمعارضة اجتماعية كما هي الحال بالنسبة لتكنولوجيا المفاعلات النووية المولدة للطاقة، أو كما يمكن أن يحصل مستقبلاً بالنسبة لبعض تطبيقات الهندسة البيولوجية المثيرة للجدل¹.

والمفروض في خطة السياسة البحثية أن تشمل على ثلاثة جوانب رئيسية، يكمل بعضها بعضاً: جانب أنشطة البحث، أو ما يسمى بالمشروعات والبرامج البحثية، وجانب إعداد وتوفير الطاقات البشرية اللازمة للبحث وغيرها من المدخلات الفنية والمادية وجانب تنمية البنى القاعدية من نظم معلومات، وغيرها.

أفلحت الدول المتقدمة في إعداد فئة الباحثين بينما لم يتم ذلك في البلدان المتخلفة لجملة من الأسباب، من بينها عدم وجود الحوافز المادية الكافية للعمل في هذا المجال وضعف التأهيل العلمي المناسب لهم.

¹ عصام النقيب، دور العلم في التنمية و التغيير في الوطن العربي، في: تهيئة الإنسان العربي للعطاء العلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985، ص. ص 79، 80 .

وقد يكون من لغو الحديث التأكيد على أهمية المكتبات والمجلات العلمية المتخصصة (الورقية والإلكترونية)، وأهمية خدمات التوثيق والإعلام ودور النشر واللقاءات المستمرة بين الباحثين في النشاط البحثي.

ففي البلدان المتخلفة حضارياً، "لا توجد المجلات والدوريات المتخصصة ذات المستوى العلمي العالي التي يستطيع الباحث أن ينشر فيها أبحاثه ونتائج دراساته، وإن وجدت فإن عليه أن ينتظر فرصة النشر بعد وقت طويل من بحثه؛ مما يفقد بحثه قيمته العلمية من جهة، ويجعل نتائجه غير صالحة للنشر في ظل التغيير والتقدم العلمي السريع من جهة أخرى¹.

ومن تحديات العلم أن الإبداع، إن لم تتحول ثماره إلى واقع اقتصادي ملموس الأثر في حياة الناس فلسوف يظل هامشياً لا يحفزه طلب اجتماعي قوي يؤصل جذوره ويرسي دعائمه في المجتمع ويهيئ الانتقال من دنيا الأفكار الرائدة المتداولة في قاعات البحث والمختبرات، خلال القطاع الإنتاجي إلى سلع ومعدات وأساليب عمل يتداولها ويمارسها المواطن في حياته اليومية.

هذا في الأساس ما دفع الجامعات اليابانية، منذ زمن بعيد، إلى توجيه أهدافها ليس فقط لتخريج الكوادر الفنية والمهنية التي تحتاجها المصانع والشركات الحكومية والمستشفيات بقدر ما ركزت على إنشاء المعاهد البحثية المتخصصة وكانت هذه المعاهد أحد الأركان الأساسية التي عملت على تلبية الكثير من احتياجات الصناعة والدولة والمجتمع ككل.

ننتقل بعد تحدثنا عن العلم من منظور سوسيولوجي، وهذا بالإلمام بكل جوانبه وأبعاده وضرورياته التنظيمية ومستلزماته العملية، إلى موضوع آخر مهم كذلك وهو يرتبط بالتجليات المعاصرة وبناء مراكز فكرية تسهم في رسم مستقبل البشرية أو حتى محاولة التحكم في مصير السياسات الإستشرافية للحكومات والدول.

¹ نادر أحمد أبو شيخة، إدارة البحث العلمي في الوطن العربي، المنظمة العربية للعلوم الإدارية، عمان، 1986، ص52.

ولدت مراكز الفكر غالباً بعد الأزمات الكبرى التي هزت الغرب في القرن العشرين، وأنها تزدهر أفضل في أرض الديمقراطية والليبرالية وهذا لا يعني أنه لا يوجد منها في بقية العالم. روسيا والصين لديهما أيضاً مراكزهما الفكرية. طبيعتها مختلفة ولكنها مصاغة لتقديم الخدمات نفسها¹.

جعل جيمس ماكان (J. McGann) ، أستاذ العلوم السياسية في فيلادلفيا في الولايات المتحدة الأمريكية، مراكز الفكر من اختصاصه. فالموضوع بالنسبة له أساسي لدراسة الديمقراطية. ومراكز الفكر تشكل جزءاً من صميم المجتمع المدني وتعمل كمحفز للأفكار والفعل المهم في الديمقراطيات الصاعدة والمتقدمة في العالم².

ويتعلق الأمر بهيئات مستقلة للبحث تركز وقتها لمسائل المصلحة العامة وتحليلها، من أجل اتخاذ المقترحات العملية... على الحدود بين البحث النظري والممارس يولد مركز الفكر هكذا من إرادة التأثير على السيرورة السياسية حسب فهم ما للمصلحة العامة. معتمداً على البحث التطبيقي على الرهانات العامة ونشر الحلول المناسبة بين أصحاب القرار³.

إن يجب أن يكون مركز الفكر حاضناً (Concepteur) لحلول سياسية جديدة ومستشاراً للأمر وخزاناً للأفكار والخبراء وأرضية للتبادل والنقاش وتعميم النظريات الأكاديمية.

ما ينتظره أصحاب القرار من مراكز الفكر هو أن يساعدهم على التغيير. بالفعل، ترتكز على هذا الطموح كل صعوبة استحقاق لقب - مركز فكر. فمركز الفكر يمكنه أن يساعد على "تقويض التقليد" حسب فرنك ديبية (F. Debié) مدير مؤسسة التجديد السياسي. فبالنسبة لهذا الأخير من المهم أن تقتحم مراكز التفكير السياسي في فرنسا

¹ سنتيفن بوشيه ومارتين رويو، مراكز الفكر: أدمغة حرب الأفكار، تر: ماجد كنج، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت، 2009، ص16.

² المرجع نفسه، ص54.

³ المرجع نفسه، ص.ص 56،57.

المجالات حيث الإصلاحات صعبة مثل معاشات التقاعد أو التربية في المدارس. يستطيع مركز الفكر أن يؤثر من خلال عرضه لما يحصل في البلدان الأخرى، وتعرية الامتثالية. ويوضح أن التجديد ليس فقط أفكاراً عظيمة فذلك يمكن أن يكون تطبيق حل نجح في مكان آخر¹.

وبالإجمال، إن مراكز الفكر هي جسر بين أصحاب القرار والخبراء ووسائط الإعلام والجمهور الواسع. من المفروض أن يسمحو بالذهاب والإياب بين التحليل والفعل السياسي. وفي التقاطع بين التفكير والعمل. مراكز الفكر تفكر مثل كل الناس ولكنها تساعد على إقامة الجسر بين مختلف أشكال المعرفة².

وإن منهجيات البحث في مراكز الفكر هي قبل أي شيء أكاديمية: الباحثون أفراداً أو شبكات، يطبقون التقنيات الجامعية الكلاسيكية في السوسيولوجيا والإحصاء والاقتصاد وغيرها. ويوضح لورنس مون (L. Mone) رئيس معهد مانهاتن (institut de Manhattan) أن ما يهم أولاً هو الموهبة. عندما نبحت عن جامعيين لموضوع ما فإننا نجهد للتدقيق في هوية الأفراد الذين يستطيعون الخروج من ضوضاء القاع. بالطبع يجب أن يكونوا خبراء في مجالهم. ولكن عليهم أيضاً أن يكونوا قادرين على الإعلام والإقناع³.

ظهر مراكز الفكر جاء تاريخياً بعد أزمات دولية خطيرة غيرت المشهد السياسي. فجمعية فايبيان، أقدم مركز للفكر في انكلترا، تأسست سنة 1884 من أجل المساعدة على التغيير الاجتماعي بعد الثورة الصناعية ولكنها بقيت تجربة معزولة لفترة طويلة.

تعتبر شركة فايبيان أول مركز فكر في أوروبا وعلى الأرجح في العالم. إنها تحلل التحديات الرئيسية التي تواجهها المملكة المتحدة وبقية العالم الصناعي في مجتمع متغير واقتصاد معولم. وتستكشف الأفكار والإصلاحات التي ستحدد السياسة التقدمية في القرن

¹ ستيفن بوشيه ومارتين رويو، المرجع السابق، ص.ص 69-71.

² المرجع نفسه، ص.77.

³ المرجع نفسه، ص.79.

القادم. كما يدل ذلك موقعها على الانترنت. تغوص جذورها في اليوس الفيكتوري للعمال في نهاية القرن التاسع عشر. أول منشور لها: "لماذا الجماهير فقيرة؟" يعلن عن التزامها الشغوف بالعدالة الاجتماعية والإيمان بالتقدم البشري. أول دراستها ظهرت في 1889 على إثر تظاهرات عاملات عيدان الثقاب. إنها تصبو إلى التطور التدريجي وليس إلى الثورة. اسمها أيضاً مستوى من القائد الروماني (Quintus Fabius) الذي كانت إستراتيجيته تقوم على تأجيل المعركة إلى اللحظة المواتية¹.

إذا كانت مراكز الفكر قد حصلت، بداية، على أوراق الشرف في المجتمعات الانكلو-أمريكية فإن ذلك يرجع جزئياً لأسباب ثقافية وبنوية مرتبطة بالنظام السياسي الانكلو-أمريكي. فازدياد مراكز الفكر في السنوات الأخيرة هو نتيجة العولمة. والدول تدرك أكثر فأكثر أهمية "الدبلوماسية الفكرية"².

إذا كانت الديمقراطية ونوع من الانفتاح على الإسهام الثقافي للمجتمع المدني، كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية وانكلترا، تشجع تزايد مراكز الفكر، فالسبب الرئيسي لتزايدها، خلال العقدين الماضيين هو حقاً العولمة. لأنها تعمل على تقليص مجال سيادة الدول في حقول مختلفة مثل الرقابة على حركة الأشخاص والممتلكات والرساميل وعن طريق الانترنت- الإعلام. فالأفكار تنتشر بلا حدود على الكوكب. الدولة الأمة التي قررت مع ذلك التخلي عن سيادتها دون أن تقدر النتائج، رأت حقل نفوذها يتقلص³.

تستفيد مراكز الفكر أيضاً من جهود الدمج الاقتصادي والمناطقي. البناء الأوروبي تحديداً هو فرصة لها لمضاعفة الرهانات ونقاط الدخول. في النهاية، ترافق حرب الأفكار طبيعياً الحرب الاقتصادية العالمية. فهي تفرض على دول أخرى في العالم التسلح من أجل الدبلوماسية الفكرية. في الحرب المعرفية، المنتصر هو الذي يمحي معلومة بمعلومة أخرى.

¹ سنتيفن بوشيه ومارتين رويو، المرجع السابق، ص91.

² المرجع نفسه، ص108.

³ المرجع نفسه، ص111.

والحكومات بحاجة أكثر من أي وقت لمعلومات واضحة وملائمة تساعد على فهم تعقيدات محيطها ورسم طريق للعمل. إنها بحاجة أيضاً للإلهام في مواجهة عالم سيكون تعداد سكانه تسعة مليارات تقريباً حيث ستزيد الحرارة أكثر من درجتين مئويتين وحيث الصعود القوي للصين والهند سيعيد توزيع الخرائط الجيوسياسية بالعمق. من بين طفرة المنظمات القادرة على إعطاء هكذا خدمات -إدارات، وسائل إعلام، مستشارون الخ- تشكل مراكز الفكر مكملاً دينامياً إذا ما سعينا لفهم وتشجيع ما يعطيها خصوصيتها¹.

¹ ستيفن بوشيه ومارتين رويو، المرجع السابق، ص222.

الفصل الخامس

المعرفة والأنساق الاجتماعية

تمهيد

لا يكتمل الحديث عن المعرفة دون ربطها بالواقع الاجتماعي الذي تتواجد فيه، فالمعرفة لا معنى لها إن لم تدرج ضمن ملامسات سياق الوجود الذي تولد فيه وتتطور وتتجسد، وأكثر من ذلك فإنه يستحيل فهم دور الأفكار والمعتقدات والقناعات إذا لم نرجعها إلى الذات الإنسانية التي توظفها لأغراض شخصية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية.

تنسج المعرفة روابط متينة مع مختلف الأنساق الاجتماعية، كالنسق الإعلامي والنسق الثقافي والنسق التربوي والنسق الاقتصادي وحتى النسق الإيديولوجي، ففي تلك الروابط تتمظهر المعرفة بشتى أنواعها ومختلف تجلياتها وتتخذ أبعادا واقعية تمكننا من إدراكها في شموليتها السوسولوجية وتجسدها الواقعي.

لا يستقيم المنظور المعاصر للمقاربة العلمية لموضوع المعرفة، إذا لم نأخذ بعين الاعتبار المستجدات الراهنة التي تتمحور في هيمنة اقتصاد السوق ونمو الحريات الفردية وسيطرة العولمة وانعكاساتها الثقافية والسياسية والاقتصادية.

المبحث الأول: المعرفة والإعلام

ولد الإعلام الحديث يوم أصبحت الأنباء مطروحة في السوق، في القرن التاسع عشر، بفضل المطابع الدائرية وتثبيت الحريات. هذا الإعلام نفسه، برهاناته وأنظمتها وكذلك بحدوده، قد وجد أفاقاً جديدة مع الراديو والتلفزيون والإنترنت.

لقد اخترعت الصحف اليومية في القرن التاسع عشر، الأخبار، الإعلام، على خلفية الثورة الصناعية والمعركة من أجل الحريات، الشخصية والسياسية، هذه الصحف، من "التايمز Times" التي نشأت في لندن عام 1785، إلى "ول ستريت جورنال" Wall Street Journal، الذي أنشئ في نيويورك عام 1889. هي التي عيّنت للصحافيين مهمتهم: التحدث "عما يجري" من الأخبار. لقد صنعوا من الإعلام ليس فقط علة وجودهم، وغايتهم القصوى، بل أيضاً مؤسسة بكل ما في الكلمة من معنى، بتقنياتها ومهنييها وأنظمتها¹.

أصبحت ثورة الاتصالات السمة المميزة للعقدين الأخيرين من القرن الماضي وأهم خاصية لهذا القرن. فقد أمكن المواطن عبر هذه الثورة أن يتزود بخيارات متعددة لتلقي المعلومات وتوزيعها، وأصبح بإمكان الفرد تبادل الملايين من المعلومات من خلال الهاتف وأدوات البث الفضائي والهواتف الخلوية والحواسيب واتصالات المايكروويف، وبخاصة الإنترنت، وبقية الأشكال المتعددة من الاتصال الرقمي².

إن ما يميز هذه الفترة من التاريخ هو الوسائل والأساليب الجديدة تماماً التي يمكن بها تغيير المعلومات ومعالجتها، والسرعات المتزايدة التي يتم بها التعامل معها واستخدامها.

¹ فرانسيس بال، الميديا، تر: فؤاد شاهين، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2006. ص.ص 65، 66.

² جمال الزرن، تساؤلات عن الإعلام الجديد والإنترنت، في: العرب وثورة المعلومات، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص.112.

وسوف تُحدث قدرات الكمبيوتر، فيما يتعلق بتوفير معالجة ونقل رخيصي التكلفة عاليي السرعة للبيانات الرقمية، تغييرات جذرية في أدوات الاتصال التقليدية في المنازل والمكاتب¹.

لقد ارتقت نظم المعلومات على جبهات عدة، من زيادة سرعة تنفيذ العمليات الحسابية والمنطقية، إلى زيادة سعة التخزين للوسائط الإلكترونية، ومن زيادة كفاءة ملحقات الطباعة وشاشات العرض ومولدات الصور، إلى زيادة إمكانات لغات البرمجة الراقية التي تقترب رويدا رويدا من مرونة اللغات الإنسانية وقدرتها الفائقة على التعبير. في الوقت نفسه الذي تتهاوى فيه كلفة تكنولوجيا المعلومات بصورة غير مسبوقة: كلفة الكمبيوتر وملحقاته، ومعدات الاتصال وإقامة شبكات الاتصالات، بل كلفة إطلاق الأقمار الصناعية أيضا. ولم يقتصر الأمر على انخفاض كلفة اقتناء نظم الكمبيوتر والمعلومات، بل زادت سهولة استخدامها².

أصبحت وسائل الاتصال المتعددة في وضع مميز للتعليم عن بُعد، في كل أنحاء العالم، كان هذا النوع من التعليم لفترة طويلة، يتوجه إلى الذين لديهم، لسبب أو لآخر، ما يمنعهم من التنقل للذهاب إلى المدرسة أو إلى الثانوية، أصبح العلم بعد الآن يذهب إلى التلميذ بدلاً من العكس، وهكذا، لم يعد التعليم عن بُعد حالة استثنائية محصوراً ببعض الأشخاص البعيدين مؤقتاً أو نهائياً عن معلمهم، لقد أصبح نمطاً جديداً لاكتساب المعارف والمهارات وشكلاً جديداً لنهل المعرفة بفضل وسائل الاتصال المتعددة، لم يسبق أبداً للمعلمين أن كانوا قريبين إلى هذا الحد من "المتعلمين" وكذلك المعارف لم يسبق أن كانت سهلة المنال إلى هذا الحد أيضاً³.

من أهم إنجازات تكنولوجيا المعلومات إسقاط الحواجز الفاصلة بين أنساق الرموز المختلفة من نصوص وأصوات وأنغام وأشكال وصور ثابتة ومتحركة. يرجع الفضل في ذلك

¹ نيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001، ص37.

² المرجع نفسه، ص76.

³ فرنسيس بال، المرجع السابق، ص93.

إلى تكنولوجيا الرقمنة التي نجحت في تحويل جميع هذه الأنساق الرمزية إلى سلاسل رقمية قوامها "الصفر والواحد" حتى تتواءم مع نظام الأعداد الثنائي أساس عمل الكمبيوتر.

تقوم الرقمنة على مفهوم بسيط مفاده: إمكان تحويل جميع أنواع المعلومات إلى مقابل رقمي، فحروف الألفباء التي تصاغ بها الكلمات والنصوص، يعبر عنها برموز رقمية تناظر هذه الحروف رقما بحرف، والأشكال والصور يتم مسحها إلكترونيا لتتحول إلى مجموعة هائلة من النقاط المتراسة والمتلاحقة، يمكن تمثيل كل نقطة من هذه النقاط رقمياً سواء بالنسبة إلى موضعها أو لونها أو درجة هذا اللون¹.

والإنترنت تلك الشبكة الكثيفة من مراكز تبادل المعلومات التي تختزن وتستقبل وتبث جميع أنواع المعلومات في شتى فروع المعرفة وفي جوانب الحياة كافة، من قضايا الفلسفة وأمور العقيدة إلى أحداث الرياضة والمعاملات التجارية، ومن مؤسسات غزو الفضاء وصناعة السلاح إلى معارض الفن ونوادي تذوق الموسيقى، ومن الهندسة الوراثية إلى الحرف اليدوية، ومن المؤتمرات العلمية إلى مقاهي الدردشة وحلقات السمر عن بعد، ومن صفقات بورصة نيويورك إلى مآسي المجاعات والأوبئة في أرجاء القارة السمراء².

تكنولوجيا المعلومات هي مجموع الوسائل والإجراءات التقنية التي تمكن، في مكان ما وزمان معين، من تصميم وإنتاج وإعادة إنتاج وتخزين واسترداد المعلومات بمختلف أشكالها وأنواعها وأحجامها ووظائفها، المكتوب منها كما المرئي كما المسموع... الخ.

هذه التكنولوجيا (المعلوماتية بلغة التقنيين) إنما هي البنى التحتية (شبكات وأجهزة وحواسيب وقواعد بيانات وبنوك معطيات وما سواها) والبرامج والبرمجيات واللوجيسيات التي تمكن من صياغة هذه المعلومات وإنتاجها وتخزينها واستردادها و"استهلاكها" في نهاية المطاف. هي بنى تحتية مادية منتظمة على شكل شبكي ومحكومة في تشكيلتها ببرامج رخوة ولينة تصمم لهذا الغرض أو ذاك.

¹ نبيل علي، المرجع السابق، ص77.

² المرجع نفسه، ص93.

ونعني بتكنولوجيا المعلومات الحديثة، كذلك، ظاهرتين أساسيتين: أولهما هي الجمع بين الكلمة، مكتوبة ومنطوقة، والصورة، ساكنة ومتحركة، وبين الاتصالات، سلوكية ولا سلوكية، أرضية أو فضائية، وذلك في جمع المعطيات، وتخزينها وتحليل مضامينها، وإتاحتها بالشكل المرغوب، في الوقت المناسب، وبالسرية اللازمة. أما ثانيهما فاستخدام الأسلوب الرقمي في القيام بهذا كله¹.

وتكنولوجيا الاتصال هي مجموع الوسائل والإجراءات التقنية التي ينتجها مجتمع ما، في زمن ما، بغرض إرسال المعلومات والبيانات والمعطيات (بكل أحجامها وأشكالها) بين جهة مرسلّة وجهة مستقبلية لذلك الإرسال. وهي - بالتالي - البنية التحتية المؤسّسة لبنية الشبكة التي تنتقل عبرها هذه المعلومات والبيانات والمعطيات. إنها محولات الاتصالات والمبدلات الهاتفية والكوابل ومراكز التبديل والأقمار الصناعية ذات الأغراض الاتصالية وغيرها.

هي إذن (شأنها شأن تكنولوجيا المعلومات) بنى تحتية وشبكات مادية متداخلة ومتكاملة، لكنها تحتكم إلى عناصر رخوة وبرمجيات عالية الدقة تمكّن من التواصل بين أطراف الشبكة، وتحول دون تعطلها أو إصابتها بالعطب، وتعمل على المرونة بين باعث الرسالة (كلمة كانت أو صوتاً أو معطى أو صورة) وبين المستقبل لها على الطرف الآخر².

أما تكنولوجيا الإعلام، فهي التقنيات المصممة لأغراض البثّ والإرسال الإذاعي والتلفزيوني المحليّ منه كما الإقليمي كما الدولي، والتمتظهرة منذ مدة عبر الفضائيات المكتسحة للمجال العام والمغطية لكل بقاع الكون. وهي بدورها مكوّنة من موزعات ووسائل بثّ وإرسال وأجهزة توزيع واستقبال وما سواها³.

شهدنا في نصف القرن الأخير "انهياراً عظيماً" في الدول المتقدمة، انهياراً في العلاقات والروابط الاجتماعية جاءت به "ثورة" المعلومات. ولا بد أن تجري حتماً صياغة جديدة للنظام

¹ أسامة الخولي، تكنولوجيا المعلومات. ما بين التهوين والتهويل، في: العرب وثورة المعلومات، المرجع السابق، ص12.

² يحيى اليحيوي، العرب وشبكات المعرفة، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت، 2007، ص15.

³ المرجع نفسه، ص.ص 15، 16.

الاجتماعي، إذ إن الطبيعة البشرية لن تقبل أن تعيش في ظل قيم وممارسات عصر "ما بعد الصناعة". إن حرية الاختيار التي أتى بها انفجار المعلومات قد عرّضت الهياكل السياسية والاجتماعية لضغوط لا عهد لها بها فبدأت تنفتت مع نمو قدرة الفرد على مواجهة مؤسسات هذه الهياكل. وهكذا ازدادت معدلات الجريمة، وتراجعت معدلات الزواج والإنجاب، وانهارت العلاقات الأسرية، وأصبحت مدن كثيرة تعيش في ترف مادي، غير آمنة¹.

يؤكد "غور" نائب الرئيس الأمريكي السابق "بيل كلينتون" أن شبكة الاتصالات سوف تسمح لنا بالمشاركة في المعلومات، والترابط والاتصال كجماعة عالمية وتستمد تقدماً اقتصادياً ثابتاً ونشطاً، وديمقراطيات قوية، وحلولاً أفضل للتحديات البيئية العالمية، وتحسين الصحة، وفي النهاية، إحساساً أكبر بإدارة مشتركة لوكبنا المشترك².

لا تكنولوجيا في غياب الخلفية الفكرية والمرجعية الثقافية لأي مجتمع ودولة. في غياب هذا المحدد تتحول وسائل الاتصال الحديثة إلى نشاز في تشكيل النسيج الاجتماعي والثقافي. فلئن كان ميلاد الإنترنت في السبعينيات في الغرب ذا بدايات تكنولوجية صرفة فإن تقنيته وانتشار المؤسسات الساهرة على تسييره لم يولدا إلا بعد أن تحول إلى أداة اتصال جماهيري، أي بعد أكثر من عشرية على استعماله الرسمي المؤسساتي المحدود³.

يوجد اليوم في الغرب ما يفوق الأربعين مهنة ذات صلة بالإنترنت والإعلام الجديد بدءاً بمصمم المواقع أي "الويب ماستر" وهي الأكثر انتشاراً، مروراً بالمشرف على صفحات الإنترنت، ووصولاً إلى محرري صفحات الويب وغيرها من التخصصات الدقيقة ذات الصلة بالإنترنت والتجارة الإلكترونية⁴.

من الممكن الآن الارتباط ببنوك المعلومات العالمية لمعظم المؤسسات العلمية والحكومية، والحصول بسهولة على معلومات علمية واقتصادية مهمة، كما يستطيع الباحثون العرب تبادل المعلومات والاتصال الإلكتروني بزملائهم في الدول الأخرى بشكل يومي وبسهولة

¹ أسامة الخولي: المرجع السابق، ص.ص 14، 13.

² نايف علي عبيد، القرية الكونية - واقع أم خيال؟ في العرب وثورة المعلومات، المرجع السابق، ص.39.

³ جمال الزرن، المرجع السابق، ص.119.

⁴ المرجع نفسه، ص.122.

وبتكلفة قليلة. طريق الإنترنت هو طريق ذو اتجاهين، ونعني به أنه يجب التفكير بها كواسطة للتأثير في العالم حيث يستطيع المفكرون العرب استخدامها لنقل معلوماتهم ونشرها على العالم دون أية عوائق مما يمكن أن يساهم في تعريف العوالم الأخرى بالشعوب العربية وتراثها وسعيها للتقدم والاستقلال¹.

أضحت عبارة الفضاء المعلوماتي مألوفة على ألسنة الكثيرين في وقتنا الراهن وباتت تستخدم لوصف البيئة الافتراضية للإنترنت، وبقية وسائط الاتصال الرقمية التي يكثر استخدامها في مجتمع المعلومات. ويتجاوز الفضاء المعلوماتي بعناصره الحدود التي تمتد عليها شبكة الإنترنت العملاقة، وبقية العوالم الافتراضية المستحدثة، ليشمل جميع مكونات فضاءات الاتصال السائدة في المجتمع الإنساني بكافة مستويات أنشطته².

من بين المصطلحات المبتكرة لربط المعرفة بعالم الإعلام، لدينا الكيانات المعلوماتية التي تعد مورداً للمعرفة في الفضاء المعلوماتي، والتي تنقسم إلى ثلاثة مستويات رئيسية:

أ- المستوى الأول: البيانات

بصورة عامة يستخدم اصطلاح البيانات لوصف الكائنات، والأرقام والإحصائيات، وغيرها... التي تصلح لل تخزين أو المعالجة في البيئة الحاسوبية.

ب- المستوى الثاني: المعلومات

استخدم اصطلاح المعلومات لوصف كل أنواع البيانات - مسموعة كانت أم مرئية - التي تمّ تجميعها بالملاحظة، أو المراقبة، أو التدوين وتمتاز بكونها قابلة للمعالجة بتقنيات الحاسوب والآليات المعلوماتية المتاحة، فتنحرف إلى خطاب يحمل دلالة معرفية قابلة للتفسير، والتداول بما يضمن إكساب الجهات التي تستخدمها معارف، أو حقائق قابلة للاستثمار في شتى ميادين الأنشطة المعاصرة.

¹ علي الأعمش، عوامل إنتاج شبكة إنترنت عربية: تقنية، تخطيط، استثمار: في العرب وثورة المعلومات، المرجع السابق، ص.ص 129، 130.

² حسن مظفر الرزوي، الفضاء المعلوماتي، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص.17.

ج- المستوى الثالث: المعارف

تمتاز المعرفة بكونها حصيلة عملية تقطير للبيانات، والمعلومات لإنتاج قواعد منطقية تصلح للتوظيف في تجاوز عقبات مماثلة، أو توليد سلوك ذكي يتسم بالخبرة والحنكة في معالجة المواقف.

لذا فإن عملية توصيف المعرفة تشمل : اختزان المفردات، واختيار الآليات المناسبة لمعالجة البيانات والمعلومات، وفق شبكة العلاقات والقواعد التي تربط بين هذه المفردات في أنموذج معلوماتي متكامل فيه الأواصر القائمة بين هذه المفردات وبالشكل الذي يوفر بيئة برمجية متكاملة تمتلك القدرة على صنع قرار يستثمر محتويات قاعدة المعرفة في تحقيق الغايات المحددة له¹.

إن معالجة مسألة الذكاء وفق منظور معلوماتي يجعل منه عبارة عن نسق معرفي يتألف من معلومات أحسن تشكيلا، وتنظيمها، وتوجيهها بحيث يمكن استثمارها على أرض الواقع في حلّ المشاكل والعقبات التي تعترضنا، أو في ابتكار آليات جديدة للتعامل مع الواقع.

يختلف نسق الذكاء المعلوماتي عن بقية الأنساق المعلوماتية التقليدية بكونه عبارة عن نسق بالغ التعقيد، يتألف نسيجه من ارتباطات بين مستويات مختلفة من البنى المعلوماتية، وبأنماط يصعب تفسير كلّ مفرداتها، بحيث تمارس من خلالها سلسلة عمليات إعلام ينشأ عنها توافر بيئة أو منطوق قادر على التعامل مع حقل محدد من المسائل الشائكة.

وفي ضوء ما سبق يصبح الذكاء عبارة عن إطار معلوماتي تتألف مادته من نسيج مبتدع من المعلومات المترابطة في ما بينها وفق منطوق محكم، وتمارس من خلاله سلسلة من العمليات المعلوماتية على وسط رقمي للظفر بحل لمسألة مطروحة، أو تجاوز عقبة معرفية².

¹ حسن مظفر الرزوي، المرجع السابق، ص 19.

² المرجع نفسه، ص.ص 61، 62.

غاب التأثير الكبير الذي كان يمارسه أساطين العلم وجهاذته على ساحة المتغير المعرفي والثقافي المعاصر بعد أن أصبحت موارد المعرفة وبياناتها مطروحة بسخاء على شبكات المعلومات، ودون مقابل في كثير من الأحيان.

وأضحت المعرفة صناعة تعالج من خلالها البيانات الرقمية بواسطة أدوات ذكية تعاود ترتيب المفردات لتغيير المظهر، ومنحها فرصة جديدة لطرح المادة بأسلوب جديد يوهم الإنسان المعاصر أن ما بيديه نتاج إبداعي جديد¹.

زالت في وقتنا الراهن الحدود والتخوم التي تحدد معالم هوية منتج الخطاب المعرفي، أو هوية مستهلك الخطاب، بعد أن أصبحت العلاقة مباشرة، ومتدفقة بصورة دائمة. ولم يعد في الساحة سوى المعيار الشخصي الذي يعاني من حالات تغييب مستمرة للوعي، وضياح في ركاب المعلومات تجعل المستخدم يعاني من حالات انشطار مستمرة في الوعي، كنتيجة لحالات القفز المستمر بين الارتباطات التشعبية للمفردات التي يطالعها في مواقع الإنترنت.

وما لم تقم المؤسسات العلمية، ومراكز البحوث، والجهات التي تعنى بالثقافة بمباشرة عمليات مراقبة مستديمة لما يطرح في الأوعية المتعددة للإنترنت، فلن نكون قادرين على تمييز الغث من موارد المعرفة الرقمية المطروحة، وستفاقم إشكالية التلوث المعرفي وستتمو وتتضخم لتصبح علة مستديمة في الفضاء المعلوماتي².

يقوم مديرو أجهزة الإعلام في أمريكا بوضع أسس عملية تداول "الصور والمعلومات" ويشرفون على معالجتها وتنقيحها وإحكام السيطرة عليها، تلك الصور والمعلومات التي تحدد معتقداتنا ومواقفنا، بل تحدد سلوكنا في النهاية. وعندما يعمد مديرو أجهزة الإعلام إلى طرح أفكار وتوجهات لا تتطابق مع حقائق الوجود الاجتماعي، فإنهم يتحولون إلى سائسي عقول، ذلك أن الأفكار التي تنحو عن عمد إلى استحداث معنى زائف، وإلى إنتاج وعي لا يستطيع أن يستوعب بإرادته الشروط الفعلية للحياة القائمة أو أن

¹ المرجع نفسه، ص226.

² حسن مظفر الرزوي، المرجع السابق، ص.ص 228، 229.

يرفضها، سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي، ليست في الواقع سوى أفكار مموّهة أو مضلّة¹.

تطرح حالياً في مجال الإعلام والاتصال إشكالية حقوق الملكية الفكرية، فرغم أن أغلب المستخدمين يدركون في الوقت الحاضر هذه المسألة، إلا أنه ما يزال انتحال البرمجيات أو برامج التشغيل إحدى القضايا الرئيسية في العلاقات التجارية نتيجة لأن بعض البلدان ليس لديها - أو لا تطبق - قوانين حقوق الملكية الفكرية وتصر الولايات المتحدة على أن تبذل الحكومات الأخرى المزيد من الجهود من أجل أعمال قوانين حقوق الملكية الفكرية بالنسبة للكتب، والأفلام، والأقراص المدمجة، والبرمجيات.

إن كل تقدم في مجال وسائل الإعلام ينطوي على تأثير هائل في الكيفية التي يجري بها التفاعل بين جماهير الناس والحكومات. فقد غيرت المطبعة، والصحف الموزعة على نطاق واسع، في وقت لاحق، طبيعة النقاش السياسي. وأتاح الراديو، والتلفزيون بعد ذلك القادة الحكوميين إمكانية التحدث، على نحو مباشر وحميمي، مع جماهير المواطنين. وعلى نحو مماثل، سيكون للإنترنت تأثير خاص في الميدان السياسي، فأول مرة سوف يصبح بإمكان السياسيين أن يشاهدوا استطلاعات تمثيلية فورية للرأي العام، كما سيكون بإمكان المقترعين الإلقاء بأصواتهم من المنزل أو من خلال كومبيوتر الجيب الخاص بهم دون أدنى مخاطرة بحدوث خطأ أو تلاعب².

في ضوء محدودية قدرة الإنسان على التعامل مع الكم الضخم والمتزايد من المعلومات، أصبح العديد من الباحثين ينظرون إلى الزخم الهائل من المعلومات الحالية على أنه عبء معلوماتي يشكّل مصدراً للضغط على الإنسان - وليس وسيلة مساعدة له - في تعامله مع البيئة والعالم من حوله. فهذا العبء المعلوماتي ينتج عن تزايد حجم المعلومات المتاحة في

¹ هيريت أ. شيللر: المتلاعبون بالعقول، تر: عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1999، ص 5.

² بيل جيتس: المعلوماتية بعد الإنترنت، تر: عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص 368.

العلم أو في وسائل الإعلام أو في الاقتصاد الكوني الصاعد عن قدرة الإنسان على التعامل الإيجابي معها.

ويتزايد الإحساس بالمشكلة مع إدراك أن كمّاً ضخماً من هذه المعلومات ليس أكثر من معلومات منخفضة القيمة، قليلة الفائدة، وقد تكون عديمة المصدقية في كثير من الأحيان كالعروض التسويقية والرسائل الإلكترونية الدعائية، والمتكررة، والدعاية السياسية الرخيصة، والإعلانات التلفزيونية والإعلانات في الطرقات، والفواصل الإعلانية وغيرها مما أصبح يُطلق عليه التلوث المعلوماتي¹.

إن هذا الشعور يؤدي بنا إلى شعور بالضغط أو القلق المعلوماتي إلى ما أصبح يعرف بـ "الإنهاك المعلوماتي" وقد بدأ المختصون في علم النفس وصفه كأحد أخطر الاضطرابات التي تصيب العاملين في حقل المعرفة أو في مجال الإدارة. وتتمثل الأعراض في القلق، وصعوبات الذاكرة، وانخفاض مدى الانتباه، وتدهور الرضا المهني، والعلاقة بالزملاء، بل قد يصل الأمر في بعض الحالات إلى ظهور أعراض الاكتئاب وحتى الاغتراب وفقدان الثقة في المؤسسات وعدم القدرة على التوافق مع صعوبات الحياة في المجتمعات المعلوماتية الحديثة.

إن نقطة البدء في التعامل مع هذا التحدي لا تتمثل كما يرى البعض في تجاهل المعلومات أو اعتبارها غير مهمة (الحل الرومانسي الحالم)، ولا في تخفيض المعلومات المتاحة أو حجبها عن الناس (الحل القمعي الرقابي)، ولكن نقطة البدء تتمثل في تطوير طريقتنا في التعامل مع هذه المعلومات، وبوجه أدق تطوير طريقة تفكيرنا في هذه المعلومات، إذ لم تعد المشكلة هي ندرة وصعوبة الوصول إلى المعلومات ولكن - على العكس - أصبحت المشكلة في تضخم حجم هذه المعلومات².

ما نحتاج إليه في الوقت الراهن هو تشجيع التفكير النقدي - الإبداعي الذي يتعامل مع المعلومات كمادة خام تستحق الاحترام - إذا كانت صحيحة بطبيعة الحال - ولكنها

¹ محمد طه: "عبودية المعلومات، هل المعرفة دائماً قوة"، مجلة العربي، عدد 592، الكويت، مارس 2008، ص150

² المرجع نفسه، ص153.

ليست موضع تقديس. في هذا النوع من التفكير، تمثل المعلومات وسيلة وليست غاية، ونقطة بداية لعمليات من التقييم والمراجعة والتحليل وصولاً إلى الربط بين نطاق واسع من المعلومات للوصول إلى "نمط" أو "نموذج" ينظم الظواهر، ويمثل بُعداً مفهوماً للتعامل مع الظواهر المختلفة¹.

¹ محمد طه، المرجع السابق، ص153.

المبحث الثاني: المعرفة والاقتصاد

لم يتردد البعض في وصف اقتصاد القرن الحادي والعشرين باقتصاد الرموز باعتبار أن المعطى التكنولوجي المركزي الذي جعلته وسائل الإعلام والاتصال ممكناً يتمحور حول اللامادية والسرعة والآنية والشمولية.

فالمؤسسات المالية الكبرى، مثلاً، تتناقل وتتبادل على مدى أربع وعشرين ساعة متصلة، معطيات من كل نقطة على الأرض، في الوقت الذي تعمل فيه كبريات بورصات العالم عبر شبكات تربط بعضها ببعض؛ مؤسسة بذلك لما يصطلح عليه بالشمولية.

ما يصدق على المؤسسات المالية حيث تنتقل، عبر الكوابل والأقمار الاصطناعية مئات مليارات الدولارات في هنيهات من الزمن، يصدق بالتأكيد أيضاً على مؤسسات أخرى غيرها كشركات النقل الجوي مثلاً، إذ نلاحظ أن شركة كبرى كالخطوط الجوية السويسرية قد نقلت نظام محاسبتها ومصالح حجوزاتها إلى الهند، نفس الشيء بالنسبة لشركة "سيمنس" الألمانية التي نقلت إلى الفلبين¹.

فحوى القول هو أن السلطة -في ظل العولمة- لم تعد تكمن في امتلاك الأدوات المادية من أراضٍ وموارد طبيعية وآلات وغيرها، بقدر ما أصبحت تتمحور تدريجياً حول التحكم في الأدوات اللامادية من بحث علمي وتحكم في التكنولوجيا العالية، في الإعلام والاتصال والمال، لدرجة أن الحديث بدأ يتركز على مجتمع الإعلام والاتصال أكثر منه على المجتمع الإنتاجي المادي المقدم نفسه على أنه تقليدي.

لعل إحدى أبرز العلامات على الميل المطرد باتجاه الاقتصاد اللامادي، بروز شركات كبرى للإعلام والاتصال وتوسع نشاطها على المستوى الكوني، إذ من بين 20 مؤسسة صناعية كبرى نجد ستاً منها متخصصة في الإلكترونيات الدقيقة وفي المعلوماتية، في حين لم يكن لمثل هذه الشركات أثر يذكر قبل عشرين سنة².

¹ يحي البجاوي، في العولمة والتكنولوجيا والثقافة: مدخل إلى تكنولوجيا المعرفة، دار الطليعة، بيروت، 2002، ص17.

² المرجع نفسه، ص17.

لم يعد السوق العالمي، مجرد فضاء مادي تتم من خلاله العمليات التجارية والمالية كما عهدناه في مرحلتي التدويل وتعدد الجنسية، بل أضحت ملتقى إعلامياً كوكبياً يجري في إطاره تبادل المعطيات والتحكيكات المالية على الاقتصاد المادي، وخرجت من صلبه مافيات نشيطة ذات خبرة واسعة في مجال المضاربات المالية والعقارية، واندحرت داخله مفاهيم المنافسة الحرة وقيم الشفافية لصالح الممارسات الاحتكارية وثقافة الارتشاء والتهرّب من الضرائب وتبييض أموال المخدرات¹.

ينطلق أصحاب أطروحة " المجتمع الإعلامي " أو "الاتصاليات" من فكرة مؤداها أنه في ظل طفرة تكنولوجيا الإعلام والاتصال بفروعها الثلاثة: اتصالات، معلوماتية، ميدان سمعي- بصري، ستنقل المجتمعات والاقتصاديات من الإنتاج المادي المحض (إذ سيوكل هذا الأخير للروبوتات)، إلى إنتاج وتسيير وهضم المعلومات.

يستدلون، لتزكية طرحهم هذا، على ما نتيجته هذه التكنولوجيا، ولا سيما ترابط شبكاتها، من امتيازات كبرى كالعمل عن بعد والتعلم عن بعد والحجز عن بعد وطبع الجرائد عن بعد، إلى غير ذلك من الخدمات.

والمقصود هو أن هذه الطفرة التكنولوجية قد أغرقت السوق بسلع وخدمات لم يسبق لها مثل حجماً وتنوعاً في التاريخ: تعدّد الشبكات الاتصالية، انفجار عدد القنوات التلفزية بالكابل وبالسواتل، العدد الهائل من البنوك والقواعد المعلوماتية وهو ما جعل، تقنياً على الأقل، مجتمعات الدول المتقدمة عبارة عن "مجتمعات/شبكات" يتم التعامل داخلها بالرموز والبيانات والصور باعتبارها "المحدد" الجديد للنشاط الاقتصادي والمالي والاتصالي، الاجتماعي والثقافي².

¹ يحي اليحياوي، في العولمة والتكنولوجيا والثقافة، المرجع السابق، ص 19.

² المرجع نفسه، ص 26.

أصبح السوق الدولي، المتميز بالعلومة والشمولية، عبارة عن "مجموعات كبرى من الأفراد تتقاسم، بغض النظر عن حدودها الوطنية، نفس طرق الحياة، ونفس أنظمة القيم، ونفس الأولويات، ونفس الأذواق والمعايير؛ وبالتالي نفس العقليات السوسيو- ثقافية¹.

يقول "والتر ريتسون"، المدير السابق لبنك "ستيكورب": "إن السوق المالي الدولي لن يعود أبداً إلى حدوده الوطنية القديمة. فالمال والأفكار تتخطى الحدود بطريقة وبسرعة لم يسبق لهما مثيلاً. وهي هجمة على سيادة سلطة الحكومات.

وثورة تكنولوجيا الإعلام والاتصال قد حوّلت المال والتجارة من أنشطة مادية محضة تتم ضمنها عمليات تبادل السلع والأوراق المالية، إلى أنشطة يتحكم فيها منطق المعلومات والرمزية، فالمال أضحى، في حقيقة الأمر، "معلومات عن المال"، والتجارة بكل أشكالها أصبحت تعتمد على المعلومات: معلومات عن البضائع والخدمات، ومعلومات عن أسعارها، ومعلومات عن النقل والتخزين ومعلومات عن التسديد. ولهذا، فإنه ليس من المستغرب أن الأعمال المصرفية والتسويق والتوزيع تتأثر كلها، وبشكل كبير، بثورة تقنية المعلومات².

لم تعد الأصول المادية التي تملكها الشركة هي التي تحدد قيمتها عند البيع، ولا حتى مبانيها وكبر مصانعها، بل أصبحت صلاتها وقوة تسويقها ومبيعاتها والقدرة التنظيمية لإدارتها والأفكار التي تدور في أدمغة مستخدميها هي التي تحدد قيمة الشركة وقوتها. أي إن الثروة الحقيقية أضحى رمزية، والنقود وهي المظهر الشكلي للمال ورأس المال، لم تعد أصدافاً مرجانية ولا أساور نحاسية ولا أوراقاً محسوسة وملموسة، بل غدت عبارة عن مجموعة من البطاقات الائتمانية والبطاقات الحاذقة والبطاقات المغناطيسية وغيرها، تستخدم في متاجر البيع بالتقسيط ومحطات التزويد بالوقود والمطاعم والفنادق وفي غيرها من المؤسسات التجارية.

تطور اقتصاد المعرفة كتحديد أكاديمي حينما شيدت اقتصاديات مبنية على المعرفة أي الاقتصاديات التي شهدت وظائف ومهن تستخدم بشكل مكثف المعرفة، وكذا النقل

¹ يحي اليحاوي، في العولمة والتكنولوجيا والثقافة، المرجع السابق، ص32.

² المرجع نفسه، ص146.

الاقتصادي لقطاعات الإعلام الذي أضحي حاسماً؛ ونصيب الأسهم اللامادي أو الرمزي تجاوز حصة الأسهم المادي أو الملموس في المخزون الحقيقي للأسهم عامة¹.

وقد تكوّنت الاقتصاديات المبنية على المعرفة تاريخياً انطلاقاً من ظاهرتين أساسيتين هما: من جهة اتجاه واسع نحو الزيادة المعتمدة للموارد الخاصة بإنتاج ونشر المعرفة (التربية والتعليم، التكوين، البحث العلمي، التنسيق الاقتصادي) ومن جهة أخرى تقدم تكنولوجيا كاسح (بروز تكنولوجيات الإعلام والاتصال). النقاء هاتين الظاهرتين أنتج اقتصاداً فريداً، يتميز بالانخفاض المحسوس لتكاليف ترميز وبث وتحصيل المعارف².

تؤدي المؤسسات الصناعية عملية تصفية لحصر كم المعلومات الجاهزة، لتحويلها إلى معارف منقحة معروضة على شكل وحدات إجرائية، يبقى علينا التأكيد على أنّ المعرفة يجب أن تكون مقدّمة بوضوح لأصحاب القرار، ولكي تبث وتنتشر يجب أن تختزل وترجم على شكل رسائل، أي تتحول إلى معلومات. ويعتبر هذا التحويل شرطاً ضرورياً لتبادل المعرفة كثرة.

والصلة بين الذكاء الاقتصادي واقتصاد المعرفة تكمن في منح خيارات جديدة، تسمح بتعزيز فاعلية عملية التنسيق؛ من خلال بناء أفعال موجهة للعمل، لكن كذلك وخاصة نحو الابتكار. وتبنى انطلاقاً من مسلمة شائعة بمقتضاها أن إنتاج المعلومات والمعارف، في المجتمعات المعاصرة، يتأسس، أكثر فأكثر، كنشاط مستقل، يتميز عن النشاطات الأخرى للمنشأة الصناعية³.

وتعتبر تجليات استقلالية مجال الأفكار مهمة للغاية، لأن فضاء الأفكار يفتح آفاقاً واسعة لإستراتيجيات وخطط الفاعلين الاقتصاديين: بإمكانهم إبداع وتبادل واستخدام المعلومات والمعارف وتحفيزهم على إنتاج الجديد. فالاختراع يتطلب الفضول الذي يختلف تماماً عن الجري وراء الجمود والرتابة. ويوحى مفهوم الابتكار المستمر بأن الفاعلين

¹ Dominique Foray, L'économie de la connaissance, casbah Edition, Alger, 2004, p 3.

² Ibid. P3.

³ Bernard Ghithon et Jean Louis Levet, De l'intelligence économique à l'économie de la connaissance Economica, Paris, P6.

الاقتصاديين يشعرون دائماً وبوضوح، وباختلاف قطاعات النشاط، أنّ إبداع معارف جديدة يتحكم في مدى تنافسية المؤسسات الصناعية، ويحدد كذلك إمكانيات التعاون.

لقد فتحت التكنولوجيا أفقاً واسعة للمؤسسات الإدارية العامة والخاصة، بعد أن كانت تواجه العديد من التحديات تتمثل في زيادة تكاليف العمل، ونقص الموارد المالية والبشرية المؤهلة، وتبني أساليب تقليدية لتحقيق أهداف تلك المؤسسات، إضافة إلى انخفاض مستوى الإنتاجية، وتدني مستوى الأداء والإتقان لدى العاملين، وزيادة المنافسة محلياً وعالمياً، ورغبة المستفيد بخدمات ذات جودة عالية، مما حدا بتلك المؤسسات إلى تنويع أساليب إدارتها في العمل، والتخلي عن السياسات الإدارية القديمة وتحديثها، وتوظيف تقنيات جديدة لم تكن معروفة من قبل، لتكون أكثر قدرة على المنافسة ومواجهة المخاطر والتحديات المستقبلية¹.

وتعتبر المعلومات في العصر الحالي الشريان الحيوي لكافة المؤسسات الاقتصادية، والتي أصبحت تضم العدد الكبير من الكوادر البشرية، الأمر الذي أدى إلى ضرورة الاهتمام بالمعلومات المتبادلة داخلها، كما أصبحت المعلومات عنصراً مهماً في التنظيم الإداري؛ إذ تعتبر أداة الربط بين أجزاء التنظيم في كافة المستويات، وهي الأداة الرئيسية للإدارة في عمليات التخطيط والتوجيه والتنسيق والمتابعة والتقويم، ولها الدور الكبير في نجاح المؤسسات وتحقيق أهدافها في ظل المتغيرات العالمية السريعة، كما أن أهمية المعلومات في أداء الأعمال الإدارية داخل المؤسسات تحتاج إلى التأكيد على ضرورة توفرها بشكل دقيق وصحيح وواضح، للاستناد إليها في الأعمال الإدارية المتنوعة، فالمعلومات هي الحجر الأساس الذي ترتكز عليها تلك الأعمال، الأمر الذي جعل من النظم المسؤولة عن إنتاجها (نظم المعلومات الإدارية) مورداً أساسياً ومهماً من موارد المؤسسة، البشرية، والمالية، والمادية، والتي تعمل على تحقيق أهداف الإدارة في المؤسسات الحديثة².

وقد تطلب التطور التكنولوجي والمعرفي، إيجاد أنظمة وأساليب حديثة لجمع البيانات وتخزينها ومعالجتها، لتوفير المعلومات المطلوبة كماً ونوعاً في مجال العمل، وهذا ما يعرف

¹ محمد علي عاشور ورامي إبراهيم عبد الرحمن الشقران، "فاعلية استخدام نظم المعلومات الإدارية في الجامعات الأردنية"، المجلة العربية لضمان جودة التعليم الجامعي، الأردن، المجلد الثالث، العدد 6، 2010، ص 61.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

بمجتمع المعلومات، حيث أصبحت عمليات المعالجة وتحليل المعلومات تشغل حيزاً كبيراً من النشاط الإداري داخل المؤسسات، الأمر الذي أدى لظهور نظم المعلومات الإدارية وزيادة أهميتها كوسيلة مهمة لتزويد الإدارة بالمعلومات الكافية للقيام بكافة الأعمال الإدارية، إذ أصبحت تلك النظم مورداً مهماً ومؤثراً داخلها.

الحاجة الماسة إلى تقديم المعلومات الدقيقة والسريعة إلى إدارات المؤسسات وفئات المستخدمين والمستفيدين، من أجل القيام بعمليات التخطيط والرقابة وتسيير الأعمال وغيرها من العمليات الإدارية بكفاءة وفعالية.

كما وتحدد أهمية وقيمة المعلومات المتداولة في نظم المعلومات الإدارية، بناء على المستفيدين منها، فهم الأكثر قدرة على تمييز أهميتها وقدرتها على تسيير أعمالهم، كما تتحدد قيمتها أيضاً في مستوى جودة تلك المعلومات التي ستستخدم في الأعمال الإدارية، فإذا لم تكن تلك المعلومات الناتجة عن نظم المعلومات الإدارية بالمستوى المطلوب، فإن المستفيد من هذه المعلومات سوف يواجه مصاعب ومشكلات عند تنفيذ المهام الإدارية المطلوبة منه، بحيث تؤثر في صحة ودقة نتائج تلك المهام والأعمال¹.

ومن المواضيع المحورية التي أثرت ميدان الاقتصاد، لدينا موضوع نظام المعلومات في المؤسسة الاقتصادية، وهو مجموعة من الإجراءات التي تقوم بجمع واسترجاع وتشغيل وتخزين وتوزيع المعلومات لتدعيم اتخاذ القرارات والرقابة في التنظيم والتصميم².

ويعرّف نظام المعلومات الإداري بأنه مجموعة شاملة ومنسقة من نظم المعلومات الفرعية التي تتكامل معاً بصورة رشيدة، لتحويل البيانات إلى معلومات بطرق متعددة لرفع الإنتاجية وبما يتفق مع أنماط وخصائص المديرين وعلى أساس معايير متفق عليها للجودة³.

ويعتبر نظام المعلومات الإدارية نظاماً متكاملًا يهدف إلى تدعيم وظيفتي التخطيط والرقابة وتنفيذ العمليات وذلك عن طريق توفير معلومات منمطة ومنظمة عن الماضي

¹ محمد علي عاشور، المرجع السابق، ص 62.

² نوري منير، نظام المعلومات المطبق في التسيير، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص 100.

³ المرجع نفسه، ص 101.

والحاضر والمستقبل بخصوص العمليات الداخلية والخارجية. ويتم تصميم نظام المعلومات بحيث ينتقي البيانات الملائمة من نظام تشغيل البيانات ومن بيئة المنظمة الخارجية لتوفير معلومات مناسبة لاحتياجات الإدارة ويتضمن النظام : الأفراد والإجراءات والأجهزة وبرامج التشغيل وقواعد البيانات¹.

تعني فعالية نظم المعلومات قدرة هذه النظم على تحسين جودة القرارات التي تخدمها من خلال ما تقدمه من معلومات وخدمات مختلفة، وهناك بعض الأبعاد للحكم على فاعلية نظام المعلومات تتمثل فيما يلي:

- التوقيت المناسب في تقديم المعلومات.
- مدى صحة ودقة المعلومات المقدمة.
- مدى الشمولية في المعلومات المقدمة.
- كفاءة العنصر الآلي المستخدم في نظام المعلومات.
- كفاءة العنصر البشري كمستخدم لنظام المعلومات.
- ملائمة البيئة التنظيمية السائدة².

مفهوم رأس المال لم تعد له نفس القدرة التفسيرية التي ميزته لعقود طويلة خلت، إذ لم يعد التراكم في ظلّه محكوماً ومحددًا بعدد المصانع أو بحجم احتياطي المناجم أو ما تكنزه بطون الأرض، بل غدا رأس المال "فاعلا متجولا" يتنقل بمليارات الدولارات (مقنتيا بذلك أقوى ما استجد من شبكات إلكترونية) بين هذه الجهة من العالم وتلك بحثاً عن التكلفة المنخفضة والريح الكبير والسريع دونما تمييز لمالكيه بين هذا القطاع أو ذاك.

¹ نوري منير، المرجع السابق، ص103.

² المرجع نفسه، ص113.

فلم يعد رأس المال أوراقاً مالية وأرصدة بالبنوك ومساهمات عينية من طبيعة ما بل أضحى في حله وترحاله، بتات إلكترونية تنتقل بين الفضاءات لهثاً وراء الريح المضارباتي السريع أو درءاً لمخاطر تقلبات الأسواق المالية والبورصات ... إذا لم يكن هو نفسه مصدر هذه المخاطر.

لم يعد المرء بحاجة إلى رأسمال ضخم حتى يكون باستطاعته ولوج عالم المال والأعمال والاقتصاد، بل أضحى ذلك ممكناً بمجرد استتباط فكرة أو التوفر على خبرة أو إعمال مبدأ المجازفة والمخاطرة لضمان هذا الولوج في قطاعات تكنولوجية (كتصميم البرمجيات مثلاً) لا تستوجب تمويلاً كبيراً أو عتاداً مادياً ذا بال.

مفهوم العمل بدوره لم يعد محكوماً بالتواجد في عين المكان، بل وفرت له تكنولوجيا وشبكات المعلومات والاتصالات سُبُل العمل عن بعد وفي المنازل أيضاً، دونما حاجة منه للتنقل من مكان لآخر أو الخضوع لمنظومة تنظيم هرمية يحكمها منطق الرئيس والمرؤوس أو إكراهات هذه السياسة الاقتصادية أو تلك¹.

الأصول المادية الملموسة للمنشآت - النقدية، الأرض والمباني، المصانع والمعدات وغيرها من بنود الميزانية العمومية - أقل في قيمتها بكثير من الأصول المعنوية (غير المادية) غير المسجلة في دفاترها، ومن الأصول المعنوية براءات الاختراع وحقوق التأليف والنشر وأساسيات عصر المعلومات مثل قواعد البيانات والبرمجيات والأهم من ذلك كله المهارات والقدرات والخبرة والثقافات ... وهلم جرا. هذه الأصول المعرفية - رأس المال الفكري - هي العوامل المتحكمة في النجاح أو الفشل².

إن الشركات التي تفهم أجندة المعرفة فهماً كاملاً هي الشركات التي تنتصر في القرن الحادي والعشرين، فنظراً لأن المعرفة أصبحت عامل الإنتاج الأكثر أهمية والأصول

¹ يحي اليجياوي، العرب وشبكات المعرفة، المرجع السابق، ص8.

² توماس أ. ستيفارت: ثروة المعرفة: رأس المال الفكري ومؤسسة القرن الحادي والعشرون، تر: علا أحمد إصلاح، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، 2000، ص6.

المعرفية عوامل إنتاج الثروة الأشد قوة وفاعلية فإن الشركات الرائدة ، والمؤسسات التي تملك مفاتيح المعرفة هي التي سيكتب لها التفوق والغلبة في ساحة المنافسة¹.

يقوم الاقتصاد المعرفي على ثلاث ركائز:

الركيزة الأولى: أصبحت المعرفة ما نشتره ونبيعه ونفعله.. إنها عامل الإنتاج الأكثر أهمية.

الركيزة الثانية: أصبحت الأصول المعرفية - أي رأس المال الفكري- أكثر أهمية من الأصول المالية والمادية².

الركيزة الثالثة: لكي نزهر في الاقتصاد الجديد ونستغل هذه الأصول الحيوية الجديدة، نحتاج إلى مفردات لغوية جديدة وأساليب إدارية جديدة وتكنولوجيات جديدة واستراتيجيات جديدة.

إنّ حشو السيارات بالمعلومات الذكية هو في حقيقة الأمر تحويل الميزة التنافسية من الأصول المادية إلى الأصول المعنوية غير الملموسة. إنّ المعرفة والمعلومات أصبحتا مندمجتين في كل منتج نستخدمه أكثر فأكثر.

وفي السياق نفسه يمكننا أن نستشعر حجم المعرفة التي يشتريها الناس وبييعونها من خلال مقدار ما يسرق منها، حيث تقدر التكلفة التي تتكبدها المؤسسات الأمريكية من جراء اختلاس الملكية الفكرية-سرقة أسرار والتعدي على براءات الاختراع وما شابه ذلك بـ 250 مليار دولار سنوياً³.

ومع تنامي الاقتصاد المعرفي، يحل العمل المعرفي محل العمل البدني فالمستندات والوثائق التي كان ينقلها السعاة ذات يوم تصل الآن بالبريد الإلكتروني أو الفاكس. وتجري

¹ توماس أ. ستيفارت، المرجع السابق، ص9.

² المرجع نفسه، ص22.

³ المرجع نفسه، ص27.

أيضاً ميكنة العمل الروتيني ففي المصانع أصبح العمل البدني المتكرر من اختصاص الآلات والماكينات وأصبح العمال مديرين لأجهزة ذاتية الحركة¹.

إنّ العمليات ذات التكلفة الأعلى في مؤسسة (وهي البحوث والتطوير والإدارة) إنما هي عمليات معرفية، وأفرادها الذين يتقاضون أعلى المرتبات هم عاملون معرفيون.

لقد تنامي الطلب على الموهبة الفنية-بدرجة تفوق قدرة المدارس والجامعات على توفيرها- إلى حد أن رجال الأعمال يتحدثون عن "الحرب بحثاً عن المواهب". ويبلغ الطلب أقصاه على الوظائف المتصلة بتكنولوجيا المعلومات والعاملين المهنيين المتخصصين والإدارة العليا: إنها الوظائف ذات الكثافة المعرفية الأكبر. وعندما تباطأ الاقتصاد في عام 2001، كانت هذه الفئة الأقل تضرراً ومعاناة، أما عاملو التصنيع والإنشاء الواقعون عند الحد الأدنى من مقياس الكثافة المعرفية فكان بالإمكان الاستغناء عنهم بسهولة أكبر.

ما هو رأس المال الفكري؟ ببساطة الأصول المعرفية هي الموهبة والمهارات والمعرفة التقنية والعلاقات، وكذلك الماكينات والشبكات التي تجسدها، الممكن استخدامها لخلق الثروة².

إنّ رأس المال الفكري معرفة تحوّل المواد الخام وتجعل لها قيمةً أكبر، والمواد الخام يمكن أن تكون مادية. معرفة تركيبة كوكا-كولا أصل فكري يحوّل مقداراً من السكر والماء وثنائي أكسيد الكربون ومكسبات الطعم يساوي قروشاً قليلة إلى شيء تدفع فيه دولاراً أو أكثر. وفي بعض الأحيان، قد تكون المواد الخام معنوية وغير ملموسة مثل المعلومات- فالمحامي على سبيل المثال يأخذ حقائق قضية ما (مواد خام) ثم يشوهها باستخدام معرفته للقانون (أصل فكري) لينتج رأياً أو مرافعة قانونية (مخرج له قيمة أعلى من حقائق القضية في حد ذاتها)³.

¹ توماس أ. ستيفارت، المرجع السابق، ص 29.

² المرجع نفسه، ص. ص 29-31.

³ المرجع نفسه، ص 34.

لقد أصبح من المتعارف عليه القول أن رأس المال الفكري للشركة هو مجموع رأس مالها البشري (الموهبة) ورأس مالها الهيكلي (الملكية الفكرية، المنهجيات البرمجيات، الوثائق والمستندات وغير ذلك من النواتج المعرفية الاصطناعية) ورأسمالها من الزبائن (العلاقات بالعملاء).

في الوقت نفسه، يولد الاستثمار في الرأسمال الفكري المزيد من الاستثمارات التكميلية بصورة شبه دائمة، وينتج عن ذلك دائرة مغذية للذات من الاستثمار وخلق القيمة، فمقابل كل دولار تستثمره الشركات في أجهزة الكمبيوتر، تستثمر 9 دولارات أخرى في أصول معنوية أخرى مثل الإدارة، والبحوث والتطوير والبرمجيات والتدريب.

لقد أطلقت تكنولوجيا المعلومات الموجودة باستمرار والتي تزداد رخصاً وقوة بصورة مضطربة سيلاً عارماً من المنافع الاقتصادية - فما السبب في قوتها الهائلة؟ أولاً: تشكل المعلومات عامل إنتاج في كل الصناعات من الزراعة إلى الصناعات الدوائية، وحين تتحسن كفاءة استخدام المعلومات يصبح بالإمكان تطبيق الابتكار في كل مكان. يضاف إلى ذلك أن المهارات المطلوب توافرها في العاملين المعرفيين تتطلب توظيف استثمارات في الرأسمال البشري - ومن هنا تصبح القوى العاملة أكثر مهارةً وتكتسب القدرة على تطبيق ما لديها من مهارات بطرق وأساليب غير مخطط لها¹.

في نهاية المطاف أصبحت الأصول الفكرية أهم من أي أصول أخرى لأن المعرفة وحدها هي التي تمكّن الشركات من تمييز عملها عن الشركات المنافسة لها، أما مصادر الميزة التنافسية الأخرى فهي آخذة في النضوب بسرعة: الجغرافيا (أضعفتها التجارة الإلكترونية والتعريفات المخفضة والعوائق الأقل أمام الاستثمارات الأجنبية المباشرة) والتنظيم (الذي أسهم يوماً في عزل قطاعات ضخمة مثل النقل والاتصالات والطاقة والخدمات المالية) والتكامل الرأسي (صار أقل أهميةً لأن المزيد والمزيد من الشركات تجد الآن أن الأرخص بالنسبة لها أن تشتري في السوق المفتوحة ما كانت هي نفسها تنتجه يوماً ما).

¹ توماس أ. ستيفارت، المرجع السابق، ص.ص 40، 41.

إنك لست بحاجة إلى أصول مادية لكي تدخل مجال عمل ما، والأصل النوعي - الأصل المميز - ليس الماكينات والآلات بل البرمجيات وما تختزنه داخل عقلك... إنه المعرفة.

إن القانون والنظرية الاقتصادية يقولان إن الشركة عبارة عن مجموعة من الأصول، ويقول واقع عصر المعلومات إنها في حقيقة الأمر خلية نحل من الأفكار، ولذلك التغيير آثاره وانعكاساته العميقة على الكيفية التي تقام بها الشركات وتشغل وأيضاً على الكيفية التي تتنافس بها.

إذا كان أحد مبادئ التجارة الإلكترونية أن المعلومات تزداد رخصاً بصورة مضطربة، فإن المعرفة تتعاضم قيمتها بصورة متواصلة على الجانب الآخر، فإذا كنت تعمل في مجال نقل أو بيع أو المضاربة في المعلومات تكون أشبه برجل شيّد منزله على الرمال فأخذت دعائمه تتآكل باستمرار بفعل الأمواج والمد. أما المعرفة فهي صخرة، والتفرد - وخاصة المعرفة الفريدة - هو المجال الذي تفوز فيه المنشأة أو تخسر، وهذا ما تبرهن عليه الأسواق الإلكترونية الناجحة، اذهب لشراء كمبيوتر من شركة ديل، فيقوم الموظف المختص بمساعدتك على اختيار البرامج والأجهزة الملحقة ويحذرك من أوجه عدم التوافق¹.

لشرح كل ما تقدم نقترح بعض المفاهيم المحورية كإدارة المعرفة، والمنظمة المتعلمة. فإدارة المعرفة هي عملية تحليل وتركيب وتقييم وتنفيذ التغيرات المتعلقة بالمعرفة لتحقيق الأهداف الموضوعية بشكل نظمي مقصود وهادف. وهذا من أجل إيجاد قيمة للأعمال وتوليد الميزة التنافسية.

المنظمة المتعلمة هي المنظمة القادرة على التكيف المستمر مع الأوضاع والتطورات المستجدة، اعتماداً على الدروس والخبرات والتجارب التي مرت بها والاستفادة منها².

صممت تكنولوجيا المعلومات نظم لمساعدة المديرين والمهنيين في أعمالهم من خلال جمع المعلومات ونشرها داخل المنظمة بشكل واسع، ومن هذه الأنظمة نظم المعلومات

¹ توماس أ. ستيفارت، المرجع السابق، ص 79.

² هيثم علي حجازي، إدارة المعرفة مدخل نظري، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2005، ص.ص 10، 9.

الإدارية ونظم دعم القرار ونظم معلومات الإدارة التنفيذية، مما أسهم في تزويد الأفراد والمنظمة بإمكانيات لتحسين الأعمال ومن ثم الإحساس بضرورة الاستثمار في تكنولوجيا المعلومات.

ومن التحديات الأساسية للمؤسسات الاقتصادية لدينا من جانب ضرورة تدريب الموارد البشرية وتنميتها لضمان حيويتها وفعاليتها والمحافظة عليها لمواجهة المنافسة، ومن جانب آخر أن تشجع الإبداع والابتكار وأن تؤسس وتدعم البنية التحتية المؤسساتية اللازمة للأعمال والعمال لضمان بقائها واستمرارها¹.

¹ عبد الستار العلي، المدخل إلى إدارة المعرفة، دار المسيرة، عمان، الأردن، 2006، ص343.

المبحث الثالث: المعرفة والتربية

التربية، تعني التنشئة والتنمية، وتستدعي بذل أقصى الجهود وتقديم أفضل عناية تنطلق من فهم حقيقي لحاجات الإنسان وميوله ودوافعه وأبعاده النفسية والجسمية والعقلية والروحية والاجتماعية، كما تقتضي إحاطة واعية بظروف بيئته والعوامل التي تؤثر في تنشئته¹.

كما تعتبر التربية عملية معقدة ذات أهداف متنوعة ووسائل متعددة ترمي إلى نمو المتربي جسدا وعاطفة وعقلا واجتماعا، معرفة ومهارة، إنها عملية نمو للشخصية الإنسانية بوصفها كلا لا يتجزأ، بوصفها جسدا ونفسا، عقلا وعاطفة وعملا، بوصفها مواقف وتصرفات، مشاعر ونوايا، مفاهيم وأعمال، وبهذا المعنى تكون التربية هي الحياة بمعناها الغني والثري المتعدد الجوانب.

وتطمح التربية في القرن الواحد والعشرين إلى تكوين الإنسان المتكامل من كافة جوانبه الجسمية والعقلية والخلقية والاجتماعية والنفسية والروحية، فهي تسعى لإعداد النشء إعدادا شاملا ضمن هذا الإطار والفهم الشمولي للإنسان والبيئة التي يعيش فيها².

وما نرمي إليه في هذا الإطار، هو ضرورة تصور التربية كعملية مقصودة ومخطط لها تهدف إلى إعداد الفرد إعدادا للحياة في الحاضر والمستقبل، وتأهيله واكتشاف مواهبه وتنمية قدراته واستعداداته، وإكسابه المهارات التي تناسب كفاءاته وميوله ليحقق ذاته في التكيف مع بيئته والمجتمع الذي يحيا فيه.

تعيش البشرية الآن مرحلة الانفتاح الإعلامي والثقافي مما يستدعي إعادة النظر في طبيعة المناهج وأساليب التدريس والأهداف التربوية والمهارات التي يجب أن يتسلح بها المتعلم، كما تتطلب مراجعة كاملة للأنظمة التربوية التقليدية.

¹ خالد القضاة، المدخل إلى التربية والتعليم الطبعة الأولى دار اليازوري العلمية، عمان، الأردن، 1998، ص15

² المرجع نفسه، ص39.

فالإرسال والاستقبال عبر الأقمار الصناعية يجعل من الحدود السياسية للدول ومن وسائل الرقابة التقليدية أدوات بدائية عديمة الكفاءة وقليلة الفعالية في منع أو تحصين الفرد ضد استقبال محتويات الرسائل الإعلامية والثقافية الوافدة من مجتمعات وثقافات أخرى. إنّ التحصين الحقيقي في مواجهة هذا التدفق الإعلامي الثقافي الوافد هو وعي الفرد والمجتمع، وقدرتهما على الفرز النقدي. وهذه مهمة تتجاوز قدرة النظام التعليمي التقليدي.

تتطلب هذه المهمة نظاما تربويا من نوع جديد، بل وتتطلب أجهزة ثقافية خلّاقة في كل مجتمع تتضافر مع النظام التعليمي في القيام بها، إذا كان لهذا المجتمع أن يحافظ على هويته الحضارية، ويصونها من المسخ أو الذوبان.

وتتأثر التربية، بالانفجار الحاصل في المعرفة، وهو انفجار هائل يزداد اتساعا وعمقا، ويتردد صدها في جميع المجالات مطيحا أمامه بالعديد من الأفكار، بل الاتجاهات العقلية التي سيطرت على العقول. إنّ بعض ما يدرسه طلبة الجامعات، في بعض الدول المتقدمة مثلا، لم يكن موجودا أصلا منذ عشرين سنة، بل إن بعض مراكز البحوث تدرس موضوعات لم يعرف عنها -حتى أسماءها- علماء منذ ثلاثين عاما¹.

تواجه مجتمعاتنا العربية، في شرايطها المحلية والكونية الراهنة، مجموعه هائلة ومعقدة من المشكلات والإكراهات والتحديات؛ التي تحاصرها معيقة إياها عن الانخراط الإيجابي الفاعل في زمن الحداثة والتنمية، وعن الانتماء المستحق إلى "ثقافة العولمة" واستحقاقات "النظام الدولي الجديد" بكل قيمه ومعاييره ومتغيراته ورهاناته المتعددة الأبعاد والمرجعيات والدلالات. ولعل من أهم الفئات التي أصبحت أكثر استقطابا للتوافق بل للإجماع هو أن التربية، بمفهومها النظامي العام، وبما أنها بناء للبشر واستثمار في الرأسمال البشري باعتباره ثروة مادية ورمزية عالية القيمة والمردودية، وبما أنها أيضا تأهيل، بفعل ذلك، للمجتمع بكامله، هي الدعامة المفصلية لبناء الذات وتقويتها بهدف المجابهة الممنهجة لما يطرحه على مجتمعاتنا عهد العولمة من قضايا وإكراهات ومشكلات.

¹ سعد مرسي أحمد، التربية والتقدم، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، القاهرة، 1991، ص.ص 27-38.

يتعين علينا إذن إصلاح وتحديث وتجديد نظم التربية والتعليم والتكوين بمجتمعاتنا، وتأهيلها: مؤسسات وتوجهات وآليات اشتغال وتدبير؛ وإقرارها عبر ذلك، على القيام بمهامها المطلوبة في توزيع ونشر المعارف والعلوم والتقنيات والمهارات والقيم الثقافية والحضارية¹.

ونظرا لهذه المكانة الاعتبارية التي احتلتها المؤسسة التربوية في المجتمع الحديث والمعاصر، فإنها قد أمست محط رهانات وصراعات سياسية وفكرية واقتصادية متداخلة ومتعددة. ذلك أنه يفترض، نظريا على الأقل، أن من يتحكم في أنظمة التربية والتكوين والتعليم وتوزيع المعارف والقيم الثقافية - ولا سيما في مجتمع عصري عقلائي قائم على العلم والتكنولوجيا في تنظيماته وعلاقاته وتبادلته المختلفة- سوف يتحكم، بالنتيجة، في هيكله المجتمع، بل في مساره ومآله العام².

والواقع أن المراهنة على ما أضحى يسمى "المجتمع المعرفي" أو "المجتمع المعلوماتي"، إنما تفترض تكوين قوى بشرية وكفاءات عالية تسير خصائص الاقتصاد وتستفيد من محفزاته. وهو مالا يتوافر في الغالب الأعم، بحكم سيادة نمط في التعليم (العالي بالأساس) مرتكز على الدروس النظرية في غياب سبل تطبيق المعارف وتكريس مخرجاتها على أرض الواقع³.

وتؤدي التربية دوراً محورياً في تأكيد استمرارية التعلم، الذي ينبغي أن يكون متواصلاً بتواصل الحياة نفسها، والتأكيد على أن المعرفة قوة وثروة ووجود، وإنها الإنسان حينما يكون مبدعاً وخلاقاً ومنتجاً للمعرفة؛ إضافة إلى ذلك فإن التربية أحد المعابر القوية التي تعمق ثقافة المجتمع التي ينبغي أن تكون نسبية غير مطلقة، منفتحة غير مغلقة، متجددة غير جامدة، قادرة على التفاعل مع الثقافات كافة بتسامح و حرية و إبداع⁴.

ونحن في زمن المعرفة الموسوعية، وتوسيع مصادر المعلوماتية، والتقدم الهائل في ترتيب المعلومات والمعارف وتصنيفها، وتوافر المعرفة بالغة التخصص والمعرفة

¹ مصطفى محسن، نحن والتتوير، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2006، ص7.

² المرجع نفسه، ص27.

³ يحيى اليحيوي، العرب وشبكة المعرفة، المرجع السابق، ص109.

⁴ محمد إبراهيم عيد وآخرون، بحوث في علم الاجتماع المعرفي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2009، ص14.

للمتخصصين ولغير المتخصصين ولجميع الأعمار، وبكل لغات العالم. ويستطيع أي إنسان في أي مكان في مشارق الأرض ومغاربها الحصول على ما يريد من معارف ومعلومات، وهو في مكانه، بفضل التقدم العلمي وثورة الاتصالات وتقدم أجهزة الكمبيوتر التي تتطور بشكل مذهل، والتوسع الهائل في شبكة المعلومات الدولية (انترنت) التي تقدم المعرفة في أشكال وبأساليب متنوعة وجذابة ومبهرة¹.

ونحن نعيش الآن في "مجتمع المعرفة" الذي يشهد نقلة كيفية هائلة لتكنولوجيا المعلومات وانفجاراً معلوماتياً ترتب عليه تسارع شديد في تضخم المعرفة ووسائل استخدامها وتوظيفها. وتتعاظم المعرفة بشكل خيالي في سرعاته وقدراته التي تتجلى في جمع المعلومات واستيعابها وتصنيفها وتبويبها وتخزينها واسترجاعها وتحليلها وتركيبها وتوليد أنواع ومستويات من المعرفة المسجلة باللغات الحية وباللغة الرقمية².

إن أبرز عيب يشوب نظامنا التعليمي هو غلبة عنصر التلقين عليه، وهو ما يتجسد في نظام "الإجابة النموذجية" التي يسعى الطالب إلى الالتزام بها ويحكم المصحح على أدائه من واقعها، وعلى كثرة ما قيل عن ضرورة إتاحة المجال لإعمال الذهن وتنمية التفكير الابتكاري وتشجيع المبادرات الخلاقة لدى طلابنا فما زال أسلوب التلقين - من الناحية الفعلية - هو الغالب على مناهجنا الدراسية. إنه، على الصعيد الفكري الأوسع نطاقاً، يعكس غلبة النقل على العقل، والمحاكاة على الأصالة، والإتباع على الإبداع³.

إن المؤسسة التعليمية الحديثة هي التي تؤكد على التفكير الناقد من خلال التحليل الجدلي للأمور وتطبيق المنطق عليها، وكذلك التأكيد على التفكير الإبداعي، وكيفية تولد الأفكار، ووضع المتعلم في إطار نشاط عقلي، سواء كان في حل مشكلة أو اتخاذ قرار أو فهم موضوع ما، حتى يمارس التفكير في أثناء حل المشكلة وهو ما يجعل للحياة معنى.

¹ حامد زهران، الهوية الثقافية والتربية في مجتمع المعرفة، في: بحوث في علم الاجتماع المعرفي، المرجع السابق، ص 29.

² المرجع نفسه، ص 30.

³ ماهر شفيق: نحن والآخر: ما الذي يمكن أن تسهم به العملية التربوية في حوار الثقافات، في: المرجع نفسه، ص 91.

وعلماء التربية المحدثون ينصب اهتمامهم على طرائق إدراك الطالب للمعرفة، وكيف يستخدم هذه المعرفة في توجيه القرارات والنشاط الفعال، باعتبار ذلك مقصوداً، كما أن هناك مفاهيم جديدة هي: الخطة والتنظيم والإستراتيجية وتخزين المعلومات وتجهيزها، بحيث تؤدي دوراً كبيراً في تفسير عمليات الإدراك والتعلم والتفكير. وتختلف نوعية وكمية المادة التعليمية المستفادة باختلاف الآراء والمعتقدات والمشاعر والتوقعات، فالمتعلمون الذين يستمعون إلى درس ما يختلفون في مدى وكيفية فهمهم للهدف، وذلك بتأثير من خلفية وطريقة تسجيل وخرن المعلومات المتعلمة والمكتسبة لكل منهم¹.

إن ما يجب أن تتجه إليه المدرسة المعاصرة في التعامل مع الطلاب هو إتقان عناصر ومكونات العمليات العرفانية وهي: الإحساس، والانتباه، والإدراك، والتذكر، والتفكير، وهذه العمليات التي يستخدمها الطالب في الحصول على المعرفة والمعلومات من البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها².

ويتخذ التفكير مظاهر متعددة منها الحكم والتجريد والتصور والاستدلال والتخيل والتذكر والتوقع، وهو النشاط العقلي الذي يستهدف حل المشكلة والوصول إلى اتخاذ قرارات أو إصدار أحكام، وجوهر عملية التفكير هو إدراك علاقات بين عناصر الموقف المراد حله. فالحكم هو إدراك العلاقة بين المقدمات والنتائج، والتعليل هو إدراك العلاقة بين العلة والمعلول أو السبب والنتيجة، والفهم في جوهره هو إدراك علاقة بين شيء مجهول وشيء معلوم، والتعميم إدراك بين العام والخاص أو بين الموقف الحاضر والموقف المقبل.

إن المنافسة المفروضة علينا تستلزم الأخذ في الاعتبار معايير الجودة الشاملة في التعليم وكذا معايير الجودة في مخرجات هذا التعليم والمستجدات العلمية والتكنولوجية ونقل مفهوم التعليم من " التعليم البنكي " إلى «التعليم الحواري» من التعليم القائم على الحفظ والاستظهار ونقل العلوم والمعارف من المعلم إلى المتعلم إلى فهم جديد يسعى إلى تعظيم دور الإبداع وتمكين المتعلم من طرائق وسبل الحصول على المعرفة بوصفها معارف نسبية

¹ حسن شحاتة، تعليمنا يصنع المستقبل، في: علم الاجتماع المعرفي، المرجع السابق، ص 194.

² المرجع نفسه، ص 196.

وليست مطلقة ولا مقدسة ومتغيرة بالتغيرات الحادثة في مجال العلم نفسه ومناهجه ونتائجه. وإذا كان مفهوم التعليم سيتغير من الحفظ والتلقين إلى الإبداع والمغايرة، فإن دور المعلم سيتغير أيضاً من حامل المعرفة إلى المرشد والموجه والقائم على تدريب المتعلم على طرق الحصول على المعرفة والسعي إليها¹.

وفي معظم بلدان آسيا، بات العلم والتكنولوجيا يشكلان جزءاً لا يتجزأ من المنهج المدرسي حتى نهاية المرحلة الثانوية إلى حد أن بعض مؤسسات التعليم العام أصبحت تدير مصانع ومزارع ومشروعات اجتماعية تولد بدورها موارد إضافية، وأصبح تدريس العلوم داخل المدرسة، مرتبطاً على نحو أوثق بالحياة اليومية وبالتكنولوجيا الجديدة والمشكلات التي تطرح على المجتمع².

مع التجدد المستمر والمتسارع في إنتاج المعلومات والمعارف يظهر منها الجديد الذي يدحض التقليدي، وبالتالي يحدث ما يسمى بتقادم المعرفة فأصبح للمعلومة تاريخ صلاحية مثلها مثل أي منتج أو سلعة، ويتناقص امتداد فترة الصلاحية مع زيادة سرعة إنتاج المعلومات الحديثة، وبالتالي لم تعد المعرفة التي تزود بها أجيالها في المؤسسات التعليمية صالحة للاستخدام والتطبيق لفترة زمنية طويلة، كما لم تعد الفترة الزمنية التي يقضيها الفرد في التعليم النظامي - مهما طالت - كافية للإلمام بالمستجدات أو لإعداده لمواجهة احتمالات المستقبل التي يصعب التنبؤ بها في ظل التغيرات السريعة التي نعيشها.

المعدل الزمني لنمو المعلومات والمعارف وتطورها أسرع بكثير من المعدل الزمني الذي تتطلبه عملية تطوير مناهج التعليم. فبالرغم من التطوير المستمر في المناهج فإنها لا تواكب كل أو معظم ما يستجد من معلومات، ومعارف، ونظريات علمية³.

وبالرغم من هذا فنظامنا التعليمي لا يفرز أفراداً لديهم القدرة على التفكير التعاوني الجماعي، أو لديهم مهارات العمل في مجموعات لإنجاز مهام معينة. فعمليات التعليم داخل

¹ شبل بدران، التعليم وتحدي الثورة المعرفية، في: بحوث في علم الاجتماع المعرفي، المرجع السابق، ص 275.

² المرجع نفسه، ص 281.

³ محمد أمين المفتي، دور المؤسسات التعليمية في مجتمع المعرفة، في: بحوث في علم الاجتماع المعرفي، المرجع نفسه، ص 321.

المؤسسات التعليمية جمعية وليست جماعية يتعلم فيه الفرد دون أن يتفاعل مع بقية أقرانه كما ينبغي. ويحل ما يواجهه من مشكلات ويجيب عن الأسئلة داخل حجرة الدراسة أو في الواجبات المنزلية مستقلاً عن أقرانه، أي أن نظام التعليم وممارسات المعلم تعود المتعلم على الفردية في التفكير وليس التعاونية والجماعية في أعمال العقل الجماعي.

إذن يمكن القول إن التحديات في هذه الحالة هي:

1- احتياج نوعية المشكلات حالياً إلى نوعية جديدة من التفكير وهو التفكير التعاوني، وبالرغم من الحاجة الماسة إلى تنمية هذه النوعية من التفكير، فإن مؤسساتنا التعليمية تخرج أفراداً غير قادرين على ممارسة هذه النوعية من التفكير.

2- يحتاج إنجاز الأعمال والمهام حالياً إلى عمل تعاوني جماعي في فريق، ولا تركز معظم المؤسسات التعليمية على تنمية مهارات العمل التعاوني الجماعي.

3- بالرغم من أن استشراف المستقبل لتحديد احتمالاته لمواجهتها قبل أن تحدث مشكلة أو أزمة، أمر يوفر كثيراً من المعاناة التي نتكبدها حين تطرأ علينا مشكلة أو تفاجئنا أزمة، فإن مناهجنا لا تهتم غالباً بالأساليب والطرق العلمية لاستشراف المستقبل وتحديد احتمالاته¹.

وفي ضوء ما تقدم فإن المجتمعات النامية - بوجه خاص - بحاجة ماسة إلى إعادة النظر في منظومة التعليم بجميع مراحل ومستوياته، وفي علاقته بالمجتمع والحياة عامة. ويأتي في مقدمة ما يتطلبه ذلك إعادة صياغة بيئة التعلم والتفاعلات السائدة داخل المؤسسات التعليمية بما يتيح للمتعلم استيعاب سبل التعامل مع المعرفة والحصول عليها من مصادرها الأصلية ومن ثم القدرة على تميطها وتصنيفها ومعالجتها لتيسير الاستفادة منها وتطبيق نتائجها. وفي ذلك فإن المقولة الكلاسيكية القائلة بأن المعرفة غاية في ذاتها أضحت

¹ محمد أمين المفتي، المرجع السابق، ص 329.

غير ذات معنى، وإنما تقاس أهمية المعرفة وقيمتها بمقدار وظيفتها ومدى إسهامها في تحسين صورة الحياة للأفراد والمجتمعات¹.

يتسم العصر الذي نعيش فيه بتزايد الاعتماد على المعلومات بصورة أو بأخرى، ويطلق عليه البعض "عصر المعلوماتية" والمعلوماتية بما تتيحه من تبادل المعارف والخبرات وتفاعلها سوف تجعل الاكتشافات العلمية والابتكارات التكنولوجية متزايدة في هذا العصر، وسوف يكون التغيير تغيراً أسياً مما يجعل الفجوة بين من يبدع ومن لا يستطيع أن يبدع في اتساع مستمر.

وفي الواقع، نحن مقبلون على "مجتمع بلا أوراق" يعتمد على أنظمة آلية للمعلومات، حيث أصبح في متناول الإنسان الموسوعات والمعاجم والأدلة والفهارس مخزونة آلياً².

وما يجب التنويه به في إطار العصر الذي نعيشه هو ضرورة تنمية التفكير لمواجهة التحديات المستقبلية فمن خلال استعراض الرهانات والمستجدات يتضح لنا أنّ الحياة في القرن الحادي والعشرين أضحت أكثر تعقيداً أضعاف ما كانت عليه في الماضي القريب، ولن يكتب التوفيق في هذا القرن إلا لمن يستطيع أن يستوعب التغيرات التكنولوجية والمعلوماتية المذهلة، ويتمكن من ناحية أخرى من تحقيق نوع من التوازن بين معاصرة العولمة، والحفاظ على أصالة الهوية القومية التي تعتمد على تفجير طاقات الإبداع والابتكار والتميّز، واستخدام القدرات العقلية النافذة.

وباعتبار العقل البشري هو قوام الثورة العلمية والتكنولوجية الحديثة، بات من اللازم أن يكون الاستثمار الرئيس هو مجال التعليم وتطوير المهارات البشرية وتنمية الكوادر والقدرات التي يستطيع بها الفرد التعامل مع مخرجات هذه الثورة والتكيف مع نتائجها.

¹ عبد الفتاح أحمد حجاج، التربية والمعرفة في عصر المعلومات، في: بحوث في علم الاجتماع المعرفي، المرجع السابق، ص 341.

² فوزي الشربيني وعفت الطناوي، إستراتيجيات ما وراء المعرفة، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، المنصورة، 2006، ص 13.

وبالنظر إلى حقيقة المناهج المستخدمة في مدارسنا يتأكد لدينا أنّ التركيز ما يزال منصبا على تلقين المعلومات، وأنّ المعرفة أصبحت تدرس كغاية في ذاتها، وعلى نحو غير وظيفي، واعتمد تدريسها وتقويمها إلى حد كبير على الحفظ.

والمعرفة في ذاتها هدف يستحق التقدير، ولكنه ليس كافيا، فنحن نسعى للمعرفة بغرض استخدامها والاستفادة منها وإعطائها معنى، فاستخدام المعرفة لفهم القضايا تجعلها أكثر ارتباطا بالتعليم. والتعليم الكفاء ليس مجرد فهم مادة معينة والقدرة على استرجاعها أو القيام ببعض الإجراءات المتضمنة فيها، ولكنه يشمل توسيع الخبرة وامتدادها وتمحيصها، وهذا لا يتم تلقائيا بل لا بد من بذل الجهد لتحقيقه لأنه يتطلب تفكيراً ودافعية لا تتوفر في أسلوب اكتساب المعلومات، ولكنه يتم عن طريق القيام بالعمليات العقلية والأنشطة التي تستثير التفكير للاستغلال الأمثل للمعلومات واستثمارها وتحويلها إلى مشاريع وتطبيقات عملية¹.

ولتحقيق ذلك ينبغي تغيير طريقة تفكير التلميذ منذ المراحل الأولى من عمره، حتى ينشأ جيل جديد قادر على أن يتعلم كيف يبحث بنفسه عن المعلومة ويفتتح بها ويستفيد منها في حياته اليومية.

واستخدام أساليب التعليم والتعلم التي تسهم في تنمية وإطلاق طاقات الإبداع عند المتعلم والخروج به من ثقافة تلقي المعلومات إلى ثقافة بناء المعلومات، ومعالجتها، وتحويلها إلى معرفة تتمثل في اكتشاف علاقات، وظواهر بما يمكنه من الانتقال من مرحلة المعرفة إلى مرحلة ما وراء المعرفة، والمتمثلة في التأمل في المعرفة والتعمق في فهمها وتفسيرها، واستكشاف أبعادها الظاهرة والاستدلال على أبعادها المستترة من خلال منظومة حيّة من البحث.

ومن المحاور الأساسية في المنظومات التربوية المعاصرة تعليم التلاميذ كيف يفكرون، وذلك عن طريق تنمية قدرتهم على كيفية التفكير في التفكير وكيفية معالجة المعلومات للاستفادة منها في مواقف الحياة المختلفة، حتى تنمو لديهم القدرة على الانتقاء والتجديد

¹ فوزي الشربيني، المرجع السابق، ص25.

والابتكار وممارسة مهارات التفكير وعملياته في مجالات الحياة المختلفة، وتنمو قدرتهم على التعلم الذاتي وكيفية البحث عن المعرفة من مصادرها المتنوعة، حتى يمكنهم مواجهة هذا الطوفان المعرفي الهائل المدعم تكنولوجيا¹.

¹ فوزي الشربيني، المرجع السابق، ص28.

المبحث الرابع: المعرفة والثقافة

إن التناول السوسولوجي لحقل الثقافة يؤكد تفاعل عناصر ثلاثة داخل الممارسة الثقافية وهي أنماط الإنتاج الفكري باعتبارها المواد الخام، والبناء الاجتماعي الذي يمثل الإطار الذي تصدر عنه هذه المادة، ثم الحاملون لهذه المواد باعتبارهم صاهرين ومحولين لها في أشكال متجاذبة أو متنافرة حسب علاقتهم بالبناء الاجتماعي¹.

حسب "لوفي ستروس" يمكن اعتبار الثقافة كالاتي:

أولاً: مجموع أنساق رمزية تنصدرها اللغة وقواعد التزاوج والعلاقات الاقتصادية والفن والعلم والدين.

ثانياً: من طبيعة الإنسان أن يحيا في المجتمع ولكن تنظيم الحياة يخضع للثقافة ويقضي بناء قواعد.

ثالثاً: كل ثقافة هي صيرورة دائمة من البناء والهدم وإعادة البناء².

تمكّن الثقافة الإنسان لا من التأقلم مع محيطه فحسب، وإنما من تأقلم المحيط معه أيضاً ومع حاجاته ومشاريعه، أي أن الثقافة، بتعبير آخر، تجعل تحويل الطبيعة ممكناً.

يرى "لينتون" أنه من أجل تحقيق فهم علمي للثقافة من اللازم أخذ تنوع الأوضاع ضمن المجتمع الواحد بنظر الاعتبار، إذ ليس بمستطاع أي فرد أن يؤلف في ذاته مجموع الثقافة التي إليها ينتمي. ما من فرد يمتلك معرفة كاملة بثقافته. إنه لا يعرف من ثقافته إلا ما يكون له ضرورياً، حتى يمتثل لما تمليه مختلف أوضاعه (الخاصة بجنسه وعمره وظروفه الاجتماعية الخ...) وحتى يضطلع بالأدوار الاجتماعية التي تتجر عنها. إن وجود أوضاع

¹ محمد علي عيسى، "الثقافة بين إشكالية التجانس والتمایز"، دراسات عربية، العدد 4، فبراير 1984، ص39.

² دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007.

مختلفة يؤدي، إذا، إلى هذه التعديلات الدالة، إلى هذا الحد أو ذاك، على الشخصية الأساسية الواحدة التي تمثلها "شخصيات الأوضاع"¹.

اجتهد "سابير" في بلورة نظرية للعلاقات بين الثقافة واللغة ترى أنه ليس على الباحث أن يعتبر اللسان موضوعاً مفضلاً للأنثروبولوجيا فحسب، بل أن يدرس الثقافة بوصفها لغة. وعلى عكس التصورات الماهوية للثقافة كان "سابير" يحددها على أنها مجموع معان تصاغ في التفاعلات الفردية. الثقافة، بالنسبة إليه، هي أساساً نسق اتصال².

تبدو الثقافة عبارة عن عالم عقلي، أخلاقي، رمزي، مشترك بين أعداد من الناس وبفضل هذا العالم ومن خلاله يستطيع هؤلاء أن يتصلوا فيما بينهم ويقروا بالروابط التي تشد بعضهم إلى بعض، وبالقيود أو المصالح المشتركة، وبالاختلاف أو التعارض فيما بينهم، ويشعروا أنهم أعضاء في كيان واحد يتجاوزهم ويشملهم جميعاً والذي نسميه جماعة أو مجتمع³.

نستطيع تعريف الثقافة، كذلك، بأنها مجموع (من العناصر)، له علاقة بطرق التفكير والشعور والسلوك، وهذه الطرق صيغت في قواعد واضحة نوعاً ما والتي - كون جمع من الأشخاص قد اكتسبها وتعلمها وشارك فيها - تستخدم بصورة موضوعية ورمزية في آن معاً، من أجل تكوين هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصة ومميزة.

إنها تتطوي على ميزة تشديدها على أن النماذج والقيم والرموز التي تكوّن الثقافة، تضم المعارف والفكر وتتسع على حد سواء لكل صيغ التعبير عن العواطف ولكل قواعد (السلوك)، هذه القواعد التي تنظم الأفعال الملاحظة موضوعياً⁴.

¹ دنيس كوش، المرجع السابق، ص 69.

² المرجع نفسه، ص 75.

³ غي روشيه، مدخل إلى علم الاجتماع (الفعل الاجتماعي)، تر: مصطفى قندلشي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،

1983. ص 144.

⁴ المرجع نفسه، ص 137.

لنبدأ أولاً بالطريقة التي نسميها موضوعية، ذلك لأن طرق التفكير والشعور والسلوك التي يشترك فيها الأشخاص، تقيم بينهم روابط يحس بها كل واحد منهم على أنها فعلاً واقعية. إن هذا الجامع المشترك إنما هو بالنسبة لكل واحد من الأشخاص ولجميعهم واقع كذلك.

لكن والأكثر من ذلك، فإن الثقافة تقيم، بطريقة رمزية أيضاً، هذه الوحدة النسبية للجماعة وتعطيها خاصيتها المميزة، وذلك من اعتبارين: أولاً إن الطرق الجماعية في التفكير والشعور والسلوك هي، بالنسبة إلى عدد كبير من هذه الطرق، رموز للاتصال والمشاركة أو على أقل تعديل، رموز تجعل المشاركة ممكنة.

هذه الطرق الجماعية في التفكير والشعور والسلوك تكون مثقلة برمزية المشاركة بصورة خاصة. فاحترام النماذج يرمز إلى الانتساب إلى قيم ما، وهذا الانتساب يرمز بدوره إلى الانتماء إلى جماعة معينة... وكذلك المعنى الرمزي للتصرفات هو الذي يسمح أيضاً لأعضاء الجماعة ولغيرهم، بأن يرسموا الحدود غير المادية التي تفصل بين الأعضاء وغير الأعضاء، بين المواطنين والأجانب¹.

عندما نتطرق في حديثنا اليومي إلى كلمة "الثقافة" فإن تفكيرنا غالباً ما يتجه إلى المستويات الإبداعية في الفكر الإنساني مثل الفنون، والأدب والموسيقى والرسم. غير أن علماء الاجتماع يستخدمون هذا المصطلح ليعني هذه الجوانب بالإضافة إلى أبعاد أخرى أوسع منها. فالثقافة تعني أسلوب الحياة الذي ينتهجه أعضاء مجتمع ما أو جماعات داخل المجتمع. وهي تشمل على هذا الأساس أسلوب ارتداء الملابس، وتقاليده الزواج، وأنماط الحياة العائلية، وأشكال العمل، والاحتفالات الدينية، بالإضافة إلى وسائل الترفيه والترفيه عن النفس.

لا يمكن أن توجد ثقافات من دون مجتمع، كما أن المجتمعات، بالمنطق نفسه، لا يمكن أن توجد من دون ثقافات. فالثقافة وحدها هي التي تحولنا إلى بشر وترتقي بنا إلى

¹ أنتوني غدنز، المرجع السابق، ص79.

المستوى الإنساني. وبغير الثقافة لن تكون لنا لغة نعبر بها عن أنفسنا، ولا إحساس بالوعي الذاتي، كما أن قدرتنا على التفكير والتحليل ستكون محدودة وشبه معطلة¹.

تعني الثقافة في نظر علماء الاجتماع جوانب الحياة الإنسانية التي يكتسبها الإنسان بالتعلم لا بالوراثة. ويشترك أعضاء المجتمع بعناصر الثقافة تلك التي تتيح لهم مجالات التعاون والتواصل. وتمثل هذه العناصر السياق الذي يعيش فيه أفراد المجتمع. وتتألف ثقافة المجتمع من جوانب مضمرة غير عيانية مثل: المعتقدات، والآراء، والقيم التي تشكل المضمون الجوهرى للثقافة، ومن جوانب عيانية ملموسة مثل الأشياء أو النقانة التي تجسد هذا المضمون².

حينما ندرس الثقافة فهذا يعني الاهتمام بالكيفية التي يضيفي بها الأفراد معاني معينة على المواقف والأحداث والموضوعات والعلاقات، وباختصار على حياتهم. ومن ثم استكشاف مختلف الشاشات الإدراكية، والتي من خلالها يقوم الناس بتفسير أو فهم عالمهم إلى جانب العلاقات الاجتماعية، التي تجعل رؤى معينة للواقع تبدو أكثر أو أقل مصداقية.

يمكن القول استناداً إلى ما سبق ذكره أنّ هناك اتجاهين في تعريفات الثقافة يتنافسان على التفوق، أحدهما ينظر للثقافة على أنها تتكون من القيم والمعتقدات والمعايير والتفسيرات العقلية والرموز والإيديولوجيات، وما شاكلها من المنتجات العقلية، أما الاتجاه الآخر فيرى الثقافة على أنها تشير إلى النمط الكلي لحياة شعب ما، والعلاقات الشخصية بين أفرادها وكذلك توجهاتهم³.

قد تكون الثقافة -في تحديدها النظري الأولي- مرادفة في المعنى لمفهوم المعرفة، فيقال إن ثقافة مجتمع أو أمة أو طبقة أو جماعة اجتماعية، هي طريقتها في معرفة الأشياء وبناء إدراك حولها. ولا شك في أن الاشتراك في المعنى بين الثقافة والمعرفة مرده إلى أن كليهما يحمل معنى الوعي، وهو تمثل الشيء وإدراكه، أي تكوين صور ذهنية عنه تؤسس

¹ أنتوني غدنز، المرجع السابق، ص 82.

² ميكائيل ثومبسون، المرجع السابق، ص 29.

³ المرجع نفسه، ص 31.

نوعاً من الفهم له، والقدرة على تنظيم وترتيب العلاقة بين عناصره بشكل ينزاح فيه الغموض، فيبدو أقرب ما يكون إلى الشيء "الواضح"¹.

لا شك أن الثقافة لا تفهم إلا باعتبارها مظهراً للوعي الذي يستوعب الإنسان من خلاله، فرداً وجماعة، العالم ويفهمه ويجعله شفافاً أي قابلاً للتمثل في الذهن، ولا تفهم أيضاً إلا باعتبارها استجابة لواقع موضوعي، قائم خارج الذهن يفرض نفسه بصرف النظر عن الفكرة أو الصورة التي يصنعها له الوعي. بيد أن هذا الوعي وذاك الواقع لا يخلقان ثقافة إلا عبر المجتمع والجماعة، باعتبارهما صيرورة تاريخية.

فالثقافة هي إذن جملة الأنماط (القيم والقواعد والأعراف والتقاليد والخطط... الخ) التي تبذل وتنظم لدى جماعة ما حقل الدلالات (العقلية والروحية والحسية) وتحدد بالتالي لدى هذه الجماعة أسلوب استخدامها لإمكاناتها (البشرية والمادية) ونوعية استهلاكها لبيئتها. ويكون نجاح الثقافة وتطورها بقدر فاعليتها في تحقيق الاستخدام الأمثل لإمكاناتها (أي الجماعة) وهو ينعكس في قدرتها على التحكم بنفسها أي بصراعاتها الذاتية وبيئتها الخارجية، وفي تمكنها من السيطرة على مصيرها².

ولهذا فإن التجربة العقلية لجماعة ما لا تنحصر في التجربة العلمية أو الأخلاقية أو الفنية، ولكن تتجاوزها جميعاً وتصب في حقل أوسع وتعيد بناء هذا الحقل في كل مرة يمر فيها المجتمع بتجربة حضارية جديدة، ورغم تميز هذه النظم المعرفية والأخلاقية والفنية، فإنها تبقى مرتبطة بنسخ واحد هو الثقافة التي تنتمي إليها. ومن هنا فإن غنى الثقافة وقدرتها على التكيف مع الأوضاع الجديدة الطارئة مرتبطتان بتنوع مصادرها الأساسية وثروتها من الدلالات القائمة والمخزونة أي من تراثها الماضي والراهن³.

تبين أركيولوجية الثقافة أن زمنية المنظومة المعرفية ليست متطابقة بالضرورة مع زمنية المنظومة المعيارية أو الرمزية. وأن قيم هذه المنظومات يمكن أن تتطور بشكل متباين

¹ عبد الإله بلقزيز، في البدء كانت الثقافة، نحو وعى عربي متجدد بالمسألة الثقافية، دار توبقال، دار البيضاء، 1998، ص 41.

² برهان غليون، اغتيال العقل، موفم للنشر، الجزائر، 1990، ص 88.

³ المرجع نفسه، ص 90.

وتتنمي بالتالي إلى حقب اجتماعية وثقافية مختلفة. فقد تجتمع المفاهيم العلمية الوضعية مع مثل عليا تقليدية أو مع قيم فنية "بدائية" وهذا التباين هو من صميم التجربة الثقافية والحضارية لكل جماعة، وهو مصدر التوتر الخلاق الذي يحرك العقل ويدفعه إلى الإبداع¹.

عندما نقول أن الثقافة ليست مجرد النتاج الفكري ولا النظريات أو الأفكار المتداولة فنحن نريد أن نؤكد على السيرورات العميقة التي تنشأ الثقافة بها ومن خلالها، وهي سيرورات رمزية ومعيارية وعقلية تتجاوز النشاط العقلي الهادف وتفيض عن النشاط العقلي المنظم.

إن الثقافة تشكل ضمن النسق الاجتماعي العام نسقاً فرعياً متميزاً ومستقلاً يتفاعل مع بقية الأنساق الفرعية الأخرى ويتطور معها وبها، ويقوم، في إطار إعادة إنتاج الاجتماع البشري كاجتماع مدني، بوظائف خاصة، أهمها الابتكار الذي يشكل عاملاً أساسياً من عوامل التجديد الاجتماعي، والاتصال الذي تقوم عليه الوحدة العميقة للجماعة².

وليست الثقافة في الحقيقة إلا المجتمع نفسه وقد أصبح مظهراً للوعي أو وعياً. وهذا الوعي هو في الوقت ذاته وعي للذات، بقدر ما هو وعي لأجزائها ومظاهرها المختلفة السياسية والاقتصادية. فالدولة قبل أن تكون قمعاً وإكراهاً هي مفاهيم وتصورات والصناعة قبل أن تكون استغلالاً أو استثماراً للعمل والجهد هي أيضاً نظرية وعلوم وقيم فكرية واجتماعية³.

وللثقافة ثلاث وظائف أساسية معرفية ومعيارية ورمزية وهي تمثل منظومات.

فالمنظومة المعرفية تحدد مكانة العلم وسبل الوصول إلى المعارف اليقينية وإنتاجها وتقود من ثم إلى ترتيب معين للمفاهيم والدلالات يعكس أولويات هذا الإنتاج وشروطه العامة الروحية أيضاً. لذلك نادراً ما تستقل نظرية التحصيل العلمي عن الرؤية الفلسفية للكون، وعن

¹ برهان غليون، المرجع السابق، ص92.

² المرجع نفسه، ص.ص 94،95.

³ المرجع نفسه، ص96.

ميتافيزيقا معلنة أو ضمنية تحدد مضمون العقل والعقلانية. ودلالاتهما وتضع المسلمات الأولى أو البديهيات التي لا برهان عليها لعمل العقل.

إن العقل لا يتكون من ماهية صلبة واحدة وأحادية، بل هو مكوّن من بنيات مختلفة علمية، إيدولوجية وفنية، أو معرفية ومعيارية ورمزية متفاوتة في مقاصدها ووظائفها وطريقة عملها وزمنيتها.

تعيّن المنظومة الأخلاقية معنى الخير والشر، وتخلق شعوراً أخلاقياً أو ضميراً يقوم لدى كل فرد بتنظيم المعايير المقبولة لسلوكه من ذاته. وتحدد هذه المنظومة مختلف المفاهيم التي تدخل في نطاق التمييز بين المحرم والمباح ودرجاتهما من مفضل ومستحسن ومطلوب ومكروه وواجب وفرض وسنة وممنوع ومسموح... الخ وهي المفاهيم التي تعبّر عن تطور هذه المنظومة ونسوجها.

وتحدد المنظومة الرمزية معنى الجميل والقبيح. أي معنى الممتع والمنفر، وجملة المعايير التي تساهم في إحداث المتعة الفنية أو تقضي عليها. وهذه المعايير ليست فطرية ولا موروثية ولكنها مكتسبة ومقصودة في كل نظام ثقافي وهي تتغير بتغيّر القيم الأساسية والاكتشافات العقلية التي تنظم النظام ككل.

بتحديدها لهذه الوظائف تقوم الثقافة بتكوين العقل أي جملة الطرائق والمعايير التي تحكم رؤية الإنسان للواقع وتنظيمها، وتحدد كيفية استيعابها لهذا الواقع.

وخلق "ملكة" عقلية لدى كل فرد من أفراد الجماعة هو في الواقع الأساس الأعمق لضمان توحيدها وتنظيمها، وهو شرط التواصل، ليس مشاركة جميع الناس أو اشتراكهم في أفكار واحدة، وإنما خضوع تفكيرهم إلى طرائق ومعايير مشتركة أساسية، مما لا ينفي أيضاً الاختلاف في الرأي والإنفراد بالأفكار¹.

¹ برهان غليون، المرجع السابق، ص.ص 97،98.

وكل نظام ثقافي لا بد أن يعيد النظر في سبل نقل المعرفة وتحصيلها وميادين انتشارها وتوزيعها، فيؤكد على ميادين بحث أو فن ويهمل أخرى. ويشجع على نوع من النشاط الذهني ويحد من نشاط آخر أو يمنعه¹.

لن يكتمل حديثنا عن الثقافة إذا لم نربطها بظاهرة العولمة فمن غير اللائق أن نقدم أفكاراً في فراغ دون ربطها بتحولات العصر وبالمخاضات العالمية المتجددة باستمرار.

يتلازم معنى "العولمة" في مضمار الإنتاج والتبادل: المادي والرمزي، مع معنى الانتقال من المجال الوطني إلى المجال الكوني، في جوف المفهوم تعيين مكاني جغرافي (الفضاء العالمي برمته)؛ غير أنه ينطوي على تعيين زمني أيضاً: حقبة ما بعد الدولة الوطنية: الدولة أنجبها العصر الحديث إطاراً كيانياً لصناعة أهم وقائع التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي².

وليست العولمة مجرد آلية من آليات التطور "الثقافي" للنظام الرأسمالي، بل إنها أيضاً وبالدرجة الأولى دعوة إلى تبني نموذج معين، وبعبارة أخرى، فالعولمة إلى جانب أنها تعكس مظهراً أساسياً من مظاهر التطور الحضاري الذي يشهده عصرنا هي إيديولوجيا تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته.

لم يثر في الواقع مبحث عالمي من الجدل والصراع مثلما أثاره مبحث "العولمة" ذلك أن العولمة ما تزال شأنها شأن سمات عالمنا كلها قلقة بل متعددة المعاني ولا نغلو إذا قلنا أنها بهذا المعنى قد تكون أفضل حظوظ الإنسان وقد تكون أسوأها.

في وسعنا تعريف ثقافة العولمة بالقول إنها ليست الثقافة المكتوبة أو قل إن الكتابة ليست من أدواتها الوظيفية ووسائل انتشارها فالثابت بالرصد والمعينة أن العولمة الثقافية تجري وتتوسع في مناخ من التراجع الحاد للثقافة المكتوبة على صعيد الإنتاج والتبادل لا ينتمي هذا التجافي إلى المصادفة التاريخية بل هو يعبر عن طبيعة العولمة الثقافية ومنطق

¹ برهان غليون، المرجع السابق، ص100.

² عبد الإله بلقزيز، العولمة والهوية الثقافية، في: العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998

اشتغالها: ثقافة العولمة هي ثقافة ما بعد المكتوب. الثقافة التي يؤرخ ميلادها لاحتضار الثقافة المكتوبة، وليست ثقافة ما بعد المكتوب تلك سوى ثقافة الصورة.

ما يعرف عن العولمة كذلك أنها " إرادة للهيمنة، وبالتالي قمع وإقصاء للخصوصي أما العالمية، فهي طموح إلى الارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي: العولمة احتواء للعالم، والعالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني¹.

نشدان العالمية في المجال الثقافي، كما في غيره من المجالات، طموح مشروع ورغبة في الأخذ والعطاء في التعارف والحوار والتلاقح، إنها طريق الأنا للتعامل مع "الآخر" بوصفه "أنا ثانية"، طريقها إلى جعل الإيثار يحل محل الأثرة.

أما العولمة فهي طموح، بل إرادة لاختراق "الآخر" وسلبه خصوصيته، وبالتالي نفيه من "العالم"... العالمية إغناء للهوية الثقافية، أما العولمة فهي اختراق لها وتمييع.

وسيلة السيطرة على الإدراك في زمن الاختراق الثقافي هي الصورة السمعية البصرية التي تسعى إلى "تسطيح الوعي" إلى جعله يرتبط بما يجري على السطح من صور ومشاهد ذات طابع إعلامي إشهاري مثير للإدراك مستفز للانفعال حاجب للعقل.

وما يزيد الأمور تعقيداً هو أن الصناعات الثقافية اليوم تحظى باهتمام كبير لما تتميز به من قدرة عالية على بلورة الرأي وتشكيل العقل. ويدور الحديث في الوقت الراهن عن إمبراطوريات عملاقة في صناعة الثقافة ذات قدرة خارقة في التأثير على الثقافة في أبعادها الأخلاقية والفلسفية.

¹ محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، عشر أطروحات، في العرب والعولمة، ص301

المبحث الخامس: المعرفة والإيديولوجيا

انحدر إلينا مفهوم الإيديولوجيا من اللغة الاصطلاحية للفلسفة، وعلى وجه التحديد من الفلسفة الفرنسية لأواخر القرن الثامن عشر، وكان المفهوم يعني بالضبط "علم الأفكار" وهو المستقى من جزئي اللفظة (إيديو = أفكار + لوجيا = علم) .

أول من استخدم هذا المصطلح هو الفيلسوف الفرنسي "دي تراسي"، وقد استعان في ذلك بأطروحات أستاذه "كوندياك"، هذا الأخير أرجع كل محتويات الوعي إلى الإحساسات ورفض وجود الأفكار الفطرية، لذا فقد أراد الكشف عن مصدر الأفكار في الحس الطبيعي. وتقوم وظيفة علم الأفكار في نظر "دي تراسي" على إرجاع الأفكار المركبة إلى أفكار بسيطة وهذه بدورها إلى الإحساسات الحسية المباشرة.

اتهم "نابليون" هؤلاء الإيديولوجيين المسالمين اتهامات كثيرة، واعتبرهم خطراً على النظام الاجتماعي وهو بذلك أول من أعطى بعداً قدحياً للإيديولوجيا.

نعود إلى "كوندياك" الذي قال : " لم يعرف أحد أكثر من فرانسيس بيكون أساس أغلاطنا، إنه رأى أن الأفكار وهي من عمل الذهن، شيدت على غير نظام وبالتالي لكي نتقدم في البحث لا بد من هدمها وإعادة بنائها"¹.

نعثر لدى ماركس بشكل مشتت على بذور نظرية حول الإيديولوجيا يختلط فيها المنظور النشوئي (الأصل الاجتماعي للأفكار) بالمنظور البنيوي (الإيديولوجيا باعتبارها بنية صغرى ضمن البنية الفوقية) وبالمنظور التعريفي الماهوي (الإيديولوجيا كأفكار وتمثلات معكوسة للواقع)².

في الحقيقة، لا نستطيع أن نبلور المقاربة الماركسية على أساس المؤلفات الأولى لماركس، ففي هذه المؤلفات نلمس تتاولاً غير ناضج لمفهوم الإيديولوجيا وذلك لعدة أسباب؛ نركز في هذا الإطار على سببين أساسيين وهما:

¹ نقلا عن: عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، ص23.

² محمد سبيلا، الإيديولوجيا: نحو نظرة متكاملة، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992، ص40.

أولاً: الظرف التاريخي الخاص الذي كانت تمر به ألمانيا آنذاك وحالة البؤس الواقعي والتأخر التاريخي الساحق الذي كان يميزها، خاصة، قياساً بفرنسا وإنجلترا، هذا الواقع استعاض عنه الألمان بتضخم نظري هائل كان عملياً هروباً من مواجهة واقع التأخر. هذا التضخم النظري ترافق مع انعدام في الفاعلية مما أثار اشمئزاز "ماركس".

ثانياً: وقوع ماركس في تلك الفترة تحت سيطرة مادية "فيورباغ" التي كانت فقيرة عملياً من أي منظور جدلي.

يقول "ماركس": "إن الأخلاق والدين والميتافيزيقا، وكل البقية الباقية من الإيديولوجيا وكذلك أشكال الوعي التي تقابلها، تفقد في الحال كل مظهر من مظاهر الاستقلال الذاتي، فهي لا تملك تاريخاً، وليس لها أي تطور، إن الأمر على النقيض من ذلك، فالبشر إذ يطورون إنتاجهم المادي وعلاقاتهم المادية هم الذين يحولون فكرهم ومنتجات فكرهم على السواء مع هذا الواقع الذي هو خاصيتهم، فليس الوعي هو الذي يحدد الوجود، بل الوجود هو الذي يحدد الوعي"¹.

نجد بالإضافة إلى هذا القانون الأساسي الذي انطلق منه "ماركس" بعدين أساسيين في تصوره للإيديولوجيا:

البعد الأول: يرتبط بالجانب المعرفي بحيث يؤكد أن الإيديولوجيا ووعي زائف. إذ يقول: "اصطنع البشر باستمرار حتى الوقت الحاضر تصورات خاطئة عن أنفسهم وعن ماهيتهم وعما يجب أن يكونه"².

يضيف "البشر هم منتجو تصوراتهم وأفكارهم لكن البشر الواقعيون والفاعلون، كما هم مشروطون بتطور معين لقواهم الإنتاجية والعلاقات التي تقابلها، بما في ذلك الأشكال الأوسع التي يمكن لهذه العلاقات أن تتخذها... وإذا كان البشر وجميع علاقاتهم يبديون لنا

¹ كارل ماركس وفريدريك انجلز، الإيديولوجيا الألمانية، تر: فؤاد أيوب، دار دمشق، سوريا، 1968، ص31.

² المرجع نفسه، ص19.

في الإيديولوجيا بكاملها موضوعين رأساً على عقب كما في غرفة مظلمة، فإن هذه الظاهرة تتجم عن عمليات تطور حياتهم التاريخية¹.

البعد الثاني: يرتبط بجانب عملي هو المصالح الطبقيّة، "أفكار الطبقة السائدة هي في كل عصر الأفكار السائدة أيضاً... إن الطبقة التي تتحكم بوسائل الإنتاج المادي تملك في الوقت ذاته الإشراف على وسائل الإنتاج الفكري. بحيث أن أفكار أولئك الذين يفكرون إلى وسائل الإنتاج الذهني تخضع من جراء ذلك لهذه الطبقة السائدة².

أكد ماركس في عدة مناسبات أن الصراع الطبقي هو محرك التاريخ، مع هذا التأكيد لم تعد الإيديولوجيا واقعة غير مفهومة بل اكتسبت أساساً واقعياً، فانقسام المجتمع إلى طبقات متناحرة يحتم على كل طبقة، أن تفرز تصورها الخاص للكون والمجتمع والتاريخ.

تستطيع الإيديولوجيا أن تتسرب إلى الواقع الحي، رغم بعدها عنه وشكلها الصوري ورغم أنها جزئية إذا قيست بالواقع الإنساني الكلي فتقدم بالتالي نظرة خاصة للعالم والحياة وإلى حد ما، صورة عن البراكسيس، هي بأن واحد صورة وهمية وفعالة خيالية وواقعية.

ورغم أن كل إيديولوجيا تتطور على أساس علاقات وأوجه نشاط اجتماعية مادية محددة في خدمة مصالح مادية محددة. لكن يظل صحيحاً مع هذا أن الإيديولوجيا ينبغي أن تشبع دائماً احتياجات فكرية معينة، وأن هذه الاحتياجات تطرح باستمرار وتشبع في مجرى التطور الإيديولوجي.

هذا يعني اعترافاً للإيديولوجيا بهامش من الاستقلال النسبي والفعالية، فهي ليست مجرد انعكاس محض للوضع الاقتصادي بل تمارس تأثيراً ارتجاعياً على العلة صحيح أنّها رد فعل لكنها تعود وتشكل في الوقت ذاته فعلاً.

¹ كارل ماركس، الإيديولوجيا الألمانية، المرجع السابق، ص 30.

² المرجع نفسه، ص 31.

يميز كارل مانهايم بين نوعين من الإيديولوجيا:

* نوع خاص ومحدد وجزئي يتمثل في الموقف الشكي الذي نقفه من تصورات خصمنا وهو نفسي محض يرتبط تحليله بعلم النفس.

وهو بالضبط محاولة واعية بدرجة أو بأخرى لإخفاء الطبيعة الحقيقية لوضعية ما إذ أن كشف حقيقتها لا يتماشى مع مصلحة المعني بالأمر، والمغالطة هنا تتراوح بين الكذب عن وعي إلى التشويه غير المقصود، من المحاولة المخططة لمخادعة الآخرين إلى الانخداع الذاتي.

* نوع كلي وشامل وعام يشير إلى تفكير حقبة أو جماعة أو طبقة، وينصب الاهتمام على خصائص ومكونات البنية الكلية للعقل في هذه الفترة أو عند هذه الجماعة¹.

الذي دفع الشخص المقابل إلى الكذب أو التزييف أو التحيز، في الإيديولوجيا الجزئية هو هذه المصلحة أو تلك، بينما في الإيديولوجيا الكلية فلا بد من تشخيص مجموعة كبيرة من المصالح والفوائد التي تجنى من وراء نظم معينة في التفكير والاعتقاد، وحتى هذا غير كاف لإثبات العلاقة السببية بين الفكر والواقع كل الذي نستطيع أن نقوله في الإيديولوجيا الكلية هو أن هناك ترابطاً وتجانساً بين الفكر والواقع.

إذا كانت الإيديولوجيا تعبيراً عن التنافر بين الفكر والواقع فهناك حالات من التفكير لا تكفي بالتنافر مع الواقع، بل تحاول أن تتخطاه فتتحول إلى سلوك وإلى عمل يؤدي أو يهدف إلى تدمير (كلي أو جزئي) لنظام الأشياء السائد.

هذه الحالات من التفكير يسميها مانهايم "الطوباوية"، فالفرق بين حالات التفكير الطوباوية وحالات التفكير الإيديولوجية هي أننا في الأولى نصبو إلى أشياء ليست موجودة في الوضع القائم، ولكننا لا نكتفي بذلك بل نعمل على تحقيقها ولو أدى ذلك إلى تغيير أو

¹ Karl Mannheim : Idéologie et utopie, trad : Pauline Rollet, rivière et Cie, Paris, 1956. PP 42-

تعديل نظام الأشياء¹. بينما في الثانية فإن آراءنا وفكرنا بالرغم من تنافرهما مع الواقع القائم فإن ذلك لا يمنعنا من أن نساهم في الحفاظ على نظام الأشياء الراهن بل ونبرره كذلك.

الطوباوية عند مانهايم ليست مثالية، بل حالة من حالات التفكير تحاول من خلال الفعل والعمل المضاد أن تقرب الواقع التاريخي إلى مفاهيمها الخاصة، أو أن تغير مجراه كلياً ولذلك من الممكن أن تتحول طوباوية اليوم إلى حقيقة الغد.

لكن "مانهايم" كان مدركاً أن التفريق بين الإيديولوجيا والطوباوية مسألة غاية في الصعوبة وسبب هذه الصعوبة مرجعه إلى أن العنصر الإيديولوجي والعنصر الطوباوي في الفكر الإنساني لا يتولدان منفصلين عن بعضهما البعض في العملية التاريخية، وكثيراً ما تكون طوباويات الطبقات الصاعدة مشحونة ومشبعة بالعناصر الإيديولوجية، والمقياس الحقيقي للتفريق بين هذين العنصرين هو درجة تحقق الطوباوية في التاريخ وتحولها إلى إيديولوجيا بعد وقوع الحدث.

إن كل منظومة من الأفكار تتضمن بعداً طوباوياً وبعداً إيديولوجياً، وذلك حسب الظروف، فقد كانت الليبرالية في القرن الثامن عشر طوباوية بينما أصبحت في القرن التاسع عشر إيديولوجيا أو كما عبر عن ذلك "ماكس شيلر" بصيغة أخرى فإن الطبقات العليا ميالة نحو اعتبارات الوجود بينما تميل الطبقات الدنيا نحو اعتبارات الصيرورة².

يستخدم "مانهايم" مصطلح المنظورية ويعني به أن كل فئة اجتماعية ترى المجتمع من موقع خاص بها تحدد مصالحتها، فترى الأحداث طبقاً لمنظورها الخاص، إن النسبية في نظره تحن إلى الحقيقة المطلقة فيما المنظورية تقبل دون تحفظ كون الحقيقة المطلقة خارج متناول الإنسان، فلا تتأسف على ضياع ما لم يكن لها.

يستعمل "لوي ألتوسير" مفهوم الإيديولوجيات العملية: "وهي عبارة عن تشكيلات معقدة من تركيبات لمقولات، وتصورات وصور وسلوك وسير ومواقف وحركات يعمل هذا الكل

¹ خلدون النقيب، "الإيديولوجيا والطوباوية وعلم اجتماع المعرفة"، الفكر العربي المعاصر، العدد 16، 1981، ص 27.

² محمد سبيلا، الإيديولوجيا، المرجع السابق، ص 45.

ك معايير عملية تتحكم في أخذ الناس لمواقف ملموسة تجاه المواضيع الحقيقية والمشاكل الفعلية لحياتهم الاجتماعية ولتاريخهم¹.

والجديد في البحث حول الإيديولوجيا هو اكتشاف قوامها المادي والمؤسسي، بمعنى أنها ليست فقط مجموعة أفكار أو قيم أو تمثلات أو رموز، بل إن كل هذه الأشكال التعبيرية تتشخص في مؤسسات تتولاها بالإعداد والتعهد وتتولى أمر تشذيبها وتوزيعها على نظام اجتماعي واسع.

تبدأ الإيديولوجيا في نظر "التوسير" عندما يتحول الفرد الملموس إلى ذات تتوهم أنها مستقلة حرة متحركة في الحركة التاريخية ولا غنى عن أجهزة تنشر باستمرار ذلك الشعور بالتركيز على قيم الحرية والاستقلال والذاتية والفردانية. " وتلك الأجهزة هي الكنيسة والمدرسة ووسائل الإعلام... الخ"².

إن الإيديولوجيا هي الأداة الاجتماعية التي تخاطب بها الجماعة أفرادها وتتاديهم كذوات، أي تسند لهم اسماً وصفات وهوية وأدواراً وهذا المنطلق الدلالي يركّز على دور الإيديولوجيا في تشكيل الذات البشرية.

" فالإيديولوجية منغرسه ومنغرسه في أعماق الذات، وكأنها جزء من لعبة الذات مع نفسها فأواصر علاقتها بالذات، أعمق من مستوى الوعي والاستخدام الإرادي الواعي والماكر"³.

بل هي مشتبكة بالطبقات العميقة للذات وشرط فعالية المعتقد الإيديولوجي وقدرته التواصلية والتبليغية تتوقف على مدى التصديق به والاعتقاد القوي والتلقائي به.

يقول "لوي ألتوسير" في صيغة جميلة مؤداها أنه لكي تنتقل البرجوازية أسطورتها الإيديولوجية إلى غيرها فإن عليها أن تكون هي أول من يؤمن بها وأولى ضحاياها.

¹ لوي ألتوسير، الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية، تر: رضا الزواري، النجاح الجديدة، دار البيضاء، 1989، ص42.

² Louis Althusser: Position, Editions sociales, Paris, 1976, P84

³ محمد سبيلا، المرجع السابق، ص.ص 79،80.

تدريس العلوم نفسها تتضمن تكوين ثقافي مماثل رغم أنه يكون في شكل أقل وضوحاً وأكثر حدفاً، لكن الطريقة التي بها تدرس هذه العلوم نفسها تتضمن علاقة إيديولوجية معينة مع وجود هذه العلوم ومضمونها، لا يمكن تدريس معرفة خاصة لا تكون في نفس الوقت معرفة/عمل وبالتالي معرفة/كيف يكون سلوكنا اتجاه هذه المعرفة واتجاه وظيفتها النظرية والاجتماعية المعتمدة على فكرة معينة حول مكان العلم في المجتمع وحول دور المثقفين والمختصين في المعرفة العلمية¹.

يتصور "ألتوسير" العلم بأنه انعكاس حركة الموضوع في الذهن، يتميز عن الإيديولوجيا بمنعه تأثير الذات في عملية الانعكاس... اكتشف "غليله" الفيزياء عندما حرر الطبيعة من القوى الباطنية التي كان العقل الخرافي يظن أنها تعمل فيها والتي كانت في الواقع إسقاطات لرغبات الإنسان، وأسس "ماركس" علم التاريخ عندما كشف أن التاريخ حركة موضوعية تتجاوز الإرادة البشرية الظرفية وأبدع "فرويد" علم النفس عندما تعرّف على أن الوجدان تيار موضوعي مستقل عن وعي الفرد. يتأسس العلم إذن كلما انتفى تأثير الذات. الصفة العلمية هي نفي الذاتية والذاتية هي أصل النظرة الإيديولوجية.

يقول ألتوسير: " لا تعكس الإيديولوجيا العلاقات الواقعية التي تحكم حياة الأفراد بل علاقة الأفراد الوهمية بتلك العلاقات الواقعية"².

¹ لوي ألتوسير، المرجع السابق، ص.ص 61،62.

² Louis Althusser, Op.cit. . P101 :

الباب الثاني

تجليات علم اجتماع المعرفة في فكر

بيار بورديو

الفصل الأول

سوسيولوجيا بيار بورديو

تمهيد

يصعب الإلمام بسوسيولوجيا "بيار بورديو"، لأنها متنوعة ومتشعبة ومتشابكة فقد لمسنا في فكره عمق نظري نسجه انطلاقاً من تشبعه معرفياً من مدارس علمية كثيرة لدينا على وجه الخصوص البنيوية والظاهرية، وقد اعتمد في انجازاته الفكرية وبحوثه الميدانية على مقاربات ومفاهيم رواد علم الاجتماع الأوائل مثل "كارل ماركس" و"إميل دوركايم" و"ماكس فيبر".

وما أبهرنا ونحن نقرأ كتابات "بيار بورديو" هو قدرته الفائقة على استدعاء نظريات مختلفة محاولاً التوفيق بينها، دون تكلف ولا تصنع، وإنتاج رؤية إبداعية تستنتق الواقع وتكشف خباياه، وما شدنا ونحن نتصفح ما خطّه هو تمكنه من الفلسفة الغربية برمتها، وهذا يبرز جلياً التكوين الذي تلقاه طيلة مساره الدراسي عموماً والجامعي خصوصاً.

يعتقد الكثير من المهتمين بالسوسيولوجيا الغربية أن تفوق صاحب كتاب "الورثة" يكمن في تعدد الميادين التي بحث فيها: الثقافة، والتربية، والتاريخ، والدولة، والأدب، والاقتصاد والإعلام، والفلسفة؛ ويتجلى هذا النبوغ كذلك في كثرة الأوساط التي درسها بداية بأرجاء فلاحية في منطقة القبائل الواقعة بالجزائر، مروراً بالجامعة الفرنسية منقياً عن الأصول الاجتماعية لطلابها والتنافس الشديد بين أكاديميها، وعبوراً لصالونات الأدب والفن والخياطة الرفيعة، وصولاً إلى غياهب الإعلام وأسس الدولة ومكامن الليبرالية المتوحشة وأسرار النقابات العمالية، دون أن ننسى البحث الذي أنجزه عن بيئته الريفية الأصلية في جبال البيرينيه.

وما تميّز به "بورديو" عن معاصريه هو الانسجام الكبير الذي اتصفت به النظرية السوسيولوجية التي اقترحها، وذلك استناداً إلى مفاهيم محورية شكّلت النواة المركزية لفكره

والتي باستخدامها نستطيع ولوج عوالم اجتماعية مختلفة. ولدينا بالتحديد مفهوم «التطبع» «L'habitus»، «الرأسمال الثقافي» «Le capital culturel» وأخيراً «الحقل الاجتماعي» «Le champ social».

لا يفوتنا في هذا الإطار التتويه بأن العديد من الدراسات التي أنجزها "بيار بورديو" لم تكن بمفرده بل شاركه فيها علماء اجتماع آخرين، لا يقلون عنه علماً ولا قيمة، ومنهم "عبد المالك صياد" و"باسرون" «J. C Passeron»، و"داريل" «A. Darbel» و"شامبورديون" «J.C Chamboredon».

المبحث الأول: علم الاجتماع عند بورديو

مارس "بيار بورديو" البحث الميداني في أكثر من عشرين وسطاً وبيئة: فمن بيئة الفلاحين القبائليين في الجزائر إلى بيئته الأصلية الريفية في جبال البيرينييه إلى الأوساط "الحضارية الراقية" في باريس (وسط الأزياء العالية والموضة) مروراً بأوساط نقابات العمال وأرباب العمل والطلاب ونظام التعليم.

وقد كان بورديو غزير الإنتاج، وهو مؤلف لأكثر من 35 كتاباً و400 مقالة ظهرت في العديد من اللغات¹.

إن العمل الواسع الذي أنتجه "بورديو" على امتداد ثلاثة عقود، قد أثبت نفسه بصفته واحداً من أشد المتون إبداعاً وخصوبة في النظرية والبحث المتعلقين بعلم الاجتماع لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. فبعد طور من الاختمار الطويل، تنامي تأثير هذا العمل بسرعة وامتدّ على نحو متتابع سواء عبر الميادين المعرفية: الأنثروبولوجيا وعلم اجتماع التربية إلى التاريخ، اللسانيات، علم السياسة، علم الجمال والدراسات الأدبية، أو عبر بلدان أوروبا الغربية والشرقية، البلدان الاسكندنافية، أمريكا اللاتينية، آسيا والولايات المتحدة.

يمثل عمل "بورديو" الموسوعي تحدياً مضاعفاً للتقسيمات الحالية التي يعرفها علم الاجتماع ولأنماط التفكير الرائجة فيه. ويتجلى هذا التحدي في كون ذلك العمل لا يحترم على الإطلاق، الحدود القائمة بين الميادين المعرفية، وفي التنوع المدهش لمجالات البحث المتخصصة التي يعبرها، وأيضاً في قدرته على حشد قائمة واسعة من أساليب العمل

¹ جون سكوت، خمسون عاماً اجتماعياً أساسياً، المنظرون المعاصرون، تر: محمود محمد حلمي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2009، ص110.

السوسيولوجي، من الوصف ذي النزوع التفصيلي إلى الاستدلالات النظرية والفلسفية الأشد تجريداً، مروراً بال نماذج الإحصائية¹.

كان أحد أهدافه دراسة الظواهر الرمزية ضمن منظور مادي وهذا ليس أمراً سهلاً، ذلك أنّ الأشياء الثقافية مصنوعة أو مبنية تاريخياً ضد الاقتصاد والسياسة.

على من يودّ قراءة "بيار بورديو" أن يبقى متيقظاً، حذراً ومتأهباً وفي حال استنفار ذهني، وأن يتأمل الفاصلة ملياً، لكثرة الأفكار التي يعرضها أو تلك التي يستعرضها، والتي تستدعي كل منها شرحاً، يستدعي شرحاً آخر، ناهيك بما يعج به نصّه من جمل اعتراضية وبين قوسين، وذكر لهذا المفكر أو ذاك الباحث، لكن في النهاية، وبعد أن يغرس نقطة الوقف، ينظر القارئ وقد أخذته الجهد كل مأخذ فيرى بنيانا صلباً مترصداً، لا يخلو من بعض الغرابة، وغير مألوف في الخطاب الثقافي السائد².

ينتمي "بورديو" إلى الجيل الذي أتى لكي يحدث القطيعة مع الوجودية السارتيرية أو الفينومينولوجيا الوجودية على الطريقة السارتيرية ويتحول إلى الإبستمولوجيا وفلسفة المصطلح والعلوم الإنسانية. وكان رائد هذا الاتجاه في فرنسا شخص غير معروف من قبل الجمهور العام هو: "جورج كانغيلم"، أستاذ فلسفة العلوم وخصوصاً العلوم الطبيعية. في الواقع، لكي نفهم "عقلية" هذا الجيل المسيطر على الساحة الثقافية الفرنسية فإنه يلزم أن نأخذ بعين الاعتبار وجود تيارين عريضين كانا قد سيطرا على الساحة طيلة أربعين سنة.

1 . التيار الوجودي: ويمثله "سارتر" و"مارلوبونتي". كان هذا التيار مهووساً بالبحث عن المعنى، معنى الظواهر والوجود، وكان منغمساً في السياسة من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه. كانت تلك هي الفترة التي ازدهرت فيها فلسفة الذات والحرية والالتزام والثورة.

¹ بيار بورديو: أسئلة علم الاجتماع، في علم الاجتماع الانعكاسي، تر: عبد الجليل الكور، دار توبقال، الدار البيضاء، 1997، ص7.

² سلمان قعفراني في: بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص7.

2 . التيار الإبستمولوجي: الذي يمثله في فرنسا "غاستون باشلار" و"أليكسندر كويري" وخليفتهما "جورج كانغيلم". وقد ركز هؤلاء على أهمية المصطلح والمفهوم والعقلانية وفلسفة العلوم: أي ما يسمى بشكل عام بالمنهجية الإبستمولوجية.

كان هذا التيار يبدو، ظاهرياً، بعيداً عن السياسة وهمومها بالمعنى المباشر للكلمة ولكنه في الواقع كان أكثر تأثيراً على المدى البعيد. وهو الذي انتصر في النهاية وأثار موجة العلوم الإنسانية التي نشهدها اليوم.

كان "بورديو"، كـ "ميشال فوكو"، قد أحس بالحاجة للانخراط في المنهجية الإبستمولوجية واعتناق "الروح العلمية الجديدة" بشكل كامل، وذلك بعد أن سقط في نظره الخطاب الفلسفي العمومي والتقليدي السائد في السربون. لقد "انتهت" الفلسفة ولا بد من أن يحل محلها شيء آخر هو: العلوم الإنسانية¹.

ثمّة قراءة ممكنة لـ"بيار بورديو" لعلّ المسلك المناسب هو أن نفكر به، فيه، مثلما دعا هو إلى ذلك السوسيولوجيين في معرض حديثه عن مقومات الكتابة العلمية. وليس يضمن ذلك انتقاءً بين غتّ وسمين، وكثيراً ما درج الدارسون على ذلك، أو تقريباً لهتات أو انتصاراً لأفكار².

نشير في السياق نفسه إلى انشغال "بيار بورديو" باختراق المعايير المؤسساتية وخصوصاً مؤسسة الجامعة، كان يشعر نحوها بالكراهة ويرى أنها مبنية على الخداع والغش ... هكذا كانت تبدو له السربون في خمسينيات القرن الماضي.

¹ هشام صالح، "بورديو: بين كارل ماركس و ماكس فيبر"، الفكر العربي المعاصر، العدد 37، كانون الأول 1985، كانون الثاني 1986، ص 65.

² ماهر تريمش في: بيار بورديو وجان كلود باسرون، إعادة الإنتاج: في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ص 7.

كان "بورديو" منظراً اجتماعياً رئيساً، وباحثاً تجريبياً ذا قدرة فائقة على مزج النظرية الاجتماعية المجردة والتقصي التجريبي النقدي. وصنف عمله الأكثر شهرة، التمييز، سادس أهم عمل سوسيولوجي في القرن العشرين، وفقاً لدراسة مسحية قامت بها الجمعية السوسيولوجية العالمية، أما عمله منطبق الممارسة فاحتل المرتبة الأربعين. كما احتل كتابه إعادة الإنتاج المرتبة 48. ولم يحتل من المفكرين الفرنسيين، بجانب بورديو، مرتبة متقدمة سوى "إميل دوركايم" و"ميشال فوكو"¹.

صرّح "بورديو" أنه بفضل عالم الاجتماع يستطيع أعضاء المجتمع أن يعرفوا معرفة أفضل ما يعيشونه من أحوال وما يقومون به من أعمال، ولكن هذه المهمة هي أبعد المهمات التي يرغب في إسنادها إلى عالم الاجتماع أولئك الذين يتواطئون مع الجهالة والإنكار ورفض المعرفة، والذين هم على استعداد لأن يعترفوا بالقيمة العلمية لكل أشكال الخطب التي لا تتحدث عن الميدان الاجتماعي أو التي تتحدث عنه دون أن تفعل².

استخدم "بورديو" منهجية مادية، لكنها ليست مادية سلبية أو ميكانيكية وإنما هي مادية ناشطة فاعلة. عاتب المفكرين "الماديين" لأنهم تركوا الساحة خالية للمثاليين يصلون فيها ويجولون، في حين راحوا هم يغلقون عقولهم ويستسلمون لنظرية الانعكاس والعقائدية الضيقة. إنه يرى أن ذلك هو الذي جمّد نظرية المعرفة في الماركسية وأفقرها كثيراً.

وعالم الاجتماع، في نظره، ليست له مهمة مسخر لها ولا غاية انتدب من أجلها اللهم إلا تلك التي يفرضها عليه منطق بحثه. وأولئك الذين يدفعهم التطاول لأن يشعروا بأن من حقهم، أو من واجبهم، أن يتكلموا دفاعاً عن الشعب، أي إصلاحه ولكن أيضاً الكلام في محله وباسمه، حتى ولو أرادوا، أن يستنكروا النزعات العنصرية ويفضحوا النزعة الشعبوية عند من يتكلمون عن الشعب، فهم يتكلمون، في الواقع، دفاعاً عن أنفسهم، أو على الأقل

¹ جون سكوت، المرجع السابق، ص 111.

² هاشم صالح، بورديو بين كارل ماركس وماكس فيبر، المرجع السابق، ص 67.

يتكلمون عن أنفسهم، ساعين في أحسن الظروف إلى التخفيف من حدة الألم الذي تولده القطيعة الاجتماعية بأن يجعلوا من أنفسهم شعباً على مستوى الخيال¹.

رأى "بورديو" أن مهمة علم الاجتماع تتمثل في إظهار البنيات الأشد خفاء الخاصة بمختلف الحقول الاجتماعية التي تكوّن العالم الاجتماعي، وكذا في توضيح الآليات التي تنزع إلى ضمان إعادة إنتاج تلك البنيات أو تحويلها. إذ يتميز العالم الاجتماعي بأن البنيات التي تكوّنه تعيش، إن جاز التعبير، حياة مزدوجة. فهي توجد مرتين: مرة في "موضوعية من الطراز الأوّل" يقدمها توزيع الثروات المادية ووسائل امتلاك الخيرات والقيم النادرة على المستوى الاجتماعي، ومرة أخرى في "موضوعية من الطراز الثاني" على شكل أخاطيط ذهنية وجسدية تشتغل بوصفها قالباً رمزياً للنشاطات العملية، أي لسلوكات الفاعلين الاجتماعيين لأفكارهم، مشاعرهم وأحكامهم.

وتعتبر الوقائع الاجتماعية أيضاً مواضيع للمعرفة في الواقع نفسه، لأن الأعوان الاجتماعيين يعطون دلالة للعالم الذي يصنعهم. يتعين إذن بالضرورة على كل علم بالمجتمع أن يقوم بقراءة مزدوجة، وبأدق عبارة، يجب عليه أن يضبط لعب المناظير التحليلية المزدوجة البؤرة التي تجمع بين المزايا المعرفية لكل من تينك القراءتين مع تجنب مساوئهما معا².

السوسيولوجيا علم يتميز بالصعوبة الخاصة التي تحول بينه وبين أن يصير علماً مثل العلوم الأخرى. ومرد ذلك أن رفض المعرفة وتوهم معرفة فطرية يتواجدان فيه جنباً إلى جنب بدل أن يتعارضا، سواء عند الباحثين أو عند المطبقين له. ووحده الموقف الانتقادي الدقيق يستطيع أن يقضي على اليقينيّات التي تنتسب إلى الخطاب العلمي عبر المسابقات التي تسكن اللغة والقوالب الجاهزة الكامنة في الخطاب اليومي المتداول حول المسائل

¹ بيير بورديو، الرمز والسلطة، تر: عبد السلام بنعيد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ص17،

² بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع: في علم الاجتماع الانعكاسي، المرجع السابق، ص11.

الاجتماعية أي، بتعبير وجيز، عبر ضباب الكلمات التي تفصل الباحث على الدوام عن الميدان الاجتماعي. إن اللغة عموماً تعبر عن الأشياء أسهل مما تعبر عن العلاقات¹.

وإن تجاهل الأسس الفعلية للفروق وأسباب استمرارها هو ما يجعل العالم الاجتماعي لا يُدرك كميدان للصراع والمنافسة بين جماعات تتعارض مصالحها وإنما "كنظام اجتماعي". كل اعتراف هو تجاهل: وكل نوع من أنواع السلطة خاصة تلك التي تمارس من غير أن يكون علينا ممارستها، تلك التي ندعوها سلطة طبيعية، والتي تسكن اللغة وأنماط السلوك وأسلوب العيش وحتى الأشياء كالصولجان أو التاج واللوحات والأثاث العتيق والسيارات، كل نوع من أنواع السلطة يستند إلى شكل من أشكال الاعتقاد الأصلي أكثر عمقاً وتجذراً مما نفهمه عادة من هذا الاسم. كل عالم اجتماعي هو عالم من النوايا المسبقة: فالأدوار والرهانات التي يقدمها، والترانبات والأفضليات التي يفرضها، أي مجموع الشروط الضمنية للانتماء، كما يبدو ذا قيمة في أعين من يمارسونه وما يبدو ذا قيمة في أعين من يصبون إليه، كل هذا يستند، في نهاية الأمر، إلى التلاؤم المباشر بين بنيات العالم الاجتماعي ومقولات الإدراك... إن إدراك العالم الاجتماعي كعالم طبيعي لا يحتاج إلى دليل. والنزعة الموضوعية التي تزد العلاقات الاجتماعية إلى الحقيقة الموضوعية لعلاقات القوى تنسى أن هذه الحقيقة يمكن أن تكبت وتنسى بفعل سوء الطوية الجماعي والإدراك المفتتن الذي يحولها إلى علاقات هيمنة مشروعة أو إلى سيادة ومجد².

يعلن "بورديو" أن الأولوية للعلاقات، على خلاف كل أشكال الأحادية المنهجية التي تدّعي إثبات الأولوية الوجودية للبنية أو للفاعل، للنسق أو للممثل، للجماعي أو للفردى، فمثل هذه الخيارات الثنائية تعكس، حسب "بورديو"، تصوراً للواقع الاجتماعي هو في حقيقته تصور خاص بالحس المشترك، تصور يتعين على علم الاجتماع أن يتخلص منه. ويمكن

بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص 20.¹

² بيير بورديو، "الرأسمال الرمزي والطبقات الاجتماعية"، الفكر العربي المعاصر، تر: عبد السلام بنعبد العالي العدد 41، 1986، ص 49.

هذا التصور في اللغة التي نستعملها والتي أقيمت لكي تعبر عن الأشياء لا عن العلاقات، وعن الحالات وليس السيرورات. وهذا الميل الطبيعي للغة إلى العناية بالجوهر على حساب العلاقات يجد دعماً له في التنافس الدائم الذي يصادفه علماء الاجتماع من المتخصصين الآخرين في تقديم العالم الاجتماعي، وخصوصاً من الساسة والإعلاميين الذين يرتبطون بذلك الفكر العادي¹.

إن فلسفة الفعل لدى "بورديو" فلسفة أحادية من حيث إنها ترفض وضع حدود تامة تفصل بين الخارجي والداخلي، بين الواعي واللاواعي، بين الجسدي والخطابي. إنها تسعى إلى إدراك القصدية بغير قصد وإلى الإمساك بتحكم الأعوان السابق على الفكر وتحت الوعي في عالمهم الاجتماعي، وهو تحكم يكتسبه هؤلاء الأعوان بفعل انغماسهم الدائم في خضم العالم الاجتماعي الذي يحدد الممارسة الإنسانية الخالصة².

فالعلاقة بين العون الاجتماعي والعالم ليست علاقة بين ذات (أو وعي) وموضوع، بل هي علاقة "تواطؤ وجودي". أو علاقة "امتلاك" متبادل بين التطبع بصفته مبدأ للإدراك والتقويم مكوّناً اجتماعياً، والعالم الذي يحدده³.

يترتب على تصور "بورديو" العلائقي وغير الديكارتي لموضوعه أن علم الاجتماع ينبغي أن يكون علماً اجتماعياً كلياً. إذ يلزمه أن يبني "وقائع اجتماعية كلية"، قادرة على أن تقيم من جديد الوحدة الأساسية المميزة للممارسة الإنسانية بعيداً عن الحدود المشوهة التي تفصل بين الميادين المعرفية والمجالات التجريبية، وبين تقنيات الملاحظة والتحليل. وهذا ما يجعل "بورديو" يعارض التخصيص العلمي السابق لأوانه وما يستلزم من "عمل التفتيت"⁴.

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص17،

² المرجع نفسه، ص21.

³ المرجع نفسه، ص22.

⁴ المرجع نفسه، ص24.

يحذر "بورديو" من الوقوع في فخ النزعة المنهجية أو فخ النزعة النظرية، أما النزعة المنهجية، فيمكن تعريفها بأنها نزوع نحو فصل التفكير في المنهج عن استعماله الفعلي في العمل العلمي، ونحو الاهتمام بالمنهج لذاته. ويرى "بورديو" في "علم المنهج"، متصوّر كتنحصر مفصول عن غيره، شكلاً من النزعة الأكاديمية التي تعمل، بفصلها المنهج عن الموضوع، على اختزال مشكلة بناء الموضوع في التحكم التقني في المؤشرات والملاحظات التجريبية. إذ التبجيل المنهجي أن علم المنهج ليس بمُعَلِّم العالم أو الوصي عليه وإنما هو دائماً تلميذ له فإنه يضطر نفسه لأن تلبس المواضيع المبنية مسبقاً زينة العلم وبوشك أن ينتهي إلى قصر في النظر العلمي. وبالفعل، فإنه من الممكن أن يتحول إلى فن من أجل الفن، أو أسوأ من هذا، إلى نوع من التبعية المنهجية يؤدي إلى تحديد متكلف للمواضيع بواسطة تقنيات التحليل الموجودة وامتون المعطيات المتوفرة.

وما ينتقده "بورديو" ليس الاصطناع للأدوات المنهجية، بل الإفراط في إحكامها من غير تدبر لملء الفراغ المترتب عن غياب الرؤية النظرية. إذ يؤكد علانية أنه يطرح بشكل مطلق كل إقصاء متعصب لهذا المنهج في البحث أو ذلك يؤدي بعدد من الباحثين إلى اعتناق نوع من الأحادية أو الاستبداد المنهجي.

إن اقتناع "بورديو" بأن عملية تنظيم جمع المعطيات، أو على وجه الدقة إنتاجها، وتحققها عملياً أمران متداخلان على نحو حميمي في عملية البناء النظري للموضوع إلى درجة لا تسمح باختزالها في مهام تقنية متروكة لمقاولين في البناء تم الاتفاق معهم بالمناسبة، إن هذا الاقتناع هو الذي جعله يرفض التراتب المنطق عليه في المهام كما تكوّنه سلسلة كبيرة من التعارضات المتماثلة التي يدعم بعضها البعض، تعارضات بين الأعلى والأدنى، العمل الفكري والعمل اليدوي، العالم المبدع والتقني المكلف بتطبيق الإجراءات الرتيبة¹.

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص26.

ومع ذلك، فإن التعددية المنهجية التي ينادي بها "بورديو" ويمارسها لا تؤول إلى فكرة " لا شيء يسير على ما يرام" التي تؤمن بها الفوضوية المعرفية لدى "فايرابند"، بل تقتضي أن يكون جدول المناهج المستعملة ملائماً للمشكلة المعالجة وأن يكون موضوعاً للتفكير في الوقت نفسه الذي يستعمل من أجل حل مسألة خاصة. لذا لا يمكن أن تفصل عملية بناء الموضوع عن الأدوات التي تستعمل في بناء الموضوع وعن نقدها.

كما يرد "بورديو" الاعتبار إلى البعد العملي في الممارسة من حيث هي نشاط منتج للمعرفة. وتشهد أعماله بشكل كبير على أنه لا يعارض العمل النظري، وإنما يعارض العمل النظري الذي يتم لذاته، أو إقامة النظرية كمجال خطابي منفصل، منغلق ولا يحيل إلا على ذاته، " أي كلمات بصدد كلمات".

إن "بورديو" لا علاقة له بالنظرية التفاخرية المتحررة من كل صلة بالوقائع والإكراهات العملية المرتبطة بالعمل التجريبي... والتعامل الإجرائي مع المفاهيم لا يفسح المجال لممارسة نوع من الانتقائية المفهومية دون ضابط، ما دام مؤطراً ومنظماً بالمسلمات النظرية والمشكلات التجريبية.

وقد عارض بشدة النزعة النظرية في علم الاجتماع وكذا النزعة التجريبية فهو يرفض هذا الفصل ويعتبره مصدر الأزمة الإستمولوجية في علم الاجتماع.

والصرامة العلمية التي تميّز بها أدت به إلى تقديم شروط منهجية من الضروري على عالم الاجتماع أن يلتزم بها، منها أن يقوم الباحث بتفحص منهجي لمقولات الفكر اللامفكر فيها التي تحدد ما يمكن التفكير فيه وتحتم مسبقاً ما يفكر فيه. وأن يخضع الموقع الذي يشغله الملاحظ للتحليل النقدي نفسه الذي أخضع له الموضوع المبني.

يرى "بورديو" أن مهمة عالم الاجتماع تتمثل في نزع الصفة الطبيعية والصفة الجبرية عن العالم الاجتماعي، أي في تدمير الأساطير التي تستر ممارسة السلطة وتخلد السيطرة.

لكن تعرية العالم هذه ليست موجهة إلى إقصاء الآخرين وإلى إثارة الشعور بالذنب لديهم، بل على العكس من ذلك، تتمثل مهمة علم اجتماع في جعله السلوكيات "ضرورية" وفي اقتلعه لها من الاعتبارية دون أن يبررها وذلك بإعادة بناء مجال الإكراهات الذي يحدد تلك السلوكيات.

في الواقع إن "بورديو" يعيب على الفلاسفة (التوسير، شاتليه، دريدا، الخ...) أنهم نظروا من موقع عال يتعالى على الواقع ويتجاوز الآخرين. بل أكثر من ذلك: إنهم "سرقوا" أعمال الباحثين المنخرطين على أرض الواقع في دراسات ميدانية عملية وسبغوا على نتائجهم هيئة فلسفية تعميمية دون أن يذكروا مصدرها أو يتعبوا في التوصل إليها¹.

لن نعطي لما للعقل العلمي من نشاط جدلي، القدر الذي يستحقه، إلا إذا ذيلنا "الدراسة التحليلية للذهن العلمي" بتحليل الشروط الاجتماعية التي تحكم إنتاج الأبحاث الاجتماعية: يمكن لعالم الاجتماع أن يجد أداة ممتازة من أدوات التتبع المنهجي في علم اجتماع المعرفة، أي أن يجد وسائل لتكثيف وتدقيق معرفة الخطأ والشروط التي تجعله محتملاً أو أحياناً لا مفر منه².

لا يمكننا أن نواجه هذا الإغواء المتجدد دوماً لتحويل قواعد المنهج إلى وصفات خاصة بالمطبخ العلمي، إلا بتدريب مستمر لليقظة المنهجية للإبستمولوجية يحول، حين يخضع استخدام التقنيات والمفاهيم لاستجاب حول شروط وحدود مصداقيتها، دون تطبيق سهل وآلي لوسائل مجربة، بصورة مسبقة. أي بتدريب يعلمنا أن كل عملية، مهما كانت روتينية، لا بد أن يعاد التفكير فيها من حيث ذاتها أو من حيث تعلّقها بحالة خاصة.

¹ هاشم صالح، بورديو بين كارل ماركس وماكس فيبر، المرجع السابق، ص 66.

² بيار بورديو وآخرون، حرفة عالم الاجتماع، الطبعة الأولى، دار الحقيقة، بيروت، 1993، ص 8.

فالذين يجعلون من الهم المنهجي وسواساً، هم أشبه بذاك المريض الذي يصفه "فرويد" Freud، وهو يقضي وقته في تنظيف نظاراته دون أن ينظر بها أبداً¹.

إن لليقظة المنهجية والإبستمولوجية أهمية خاصة في ميدان علوم الإنسان، حيث الفصل بين الرأي العام الشائع والخطاب العلمي أصعب من أي مكان آخر. مستسلماً بسهولة للرأي القائل بأن الانشغال بالإصلاح السياسي والأخلاقي، غالباً ما قاد علماء الاجتماع في القرن التاسع عشر إلى الابتعاد عن الحياد العلمي، أو القائل بأن علم اجتماع القرن العشرين يبقى على الرغم من تخليه عن طموحات الفلسفة الاجتماعية، بمعزل عن أمراض إيديولوجية من نوع آخر، يتغافل البعض عن الإقرار، بما لهذا الإقرار من نتائج، بأن الألفة التي تربط الإنسان بمداره الاجتماعي، تشكل العائق المنهجي الأول أمام عالم الاجتماع، كونها تنتج أوهاماً في المفاهيم والنظم وشروطاً كافية لإعطاء هذه الأوهام مصداقية ما.

تبقى مجمل تقنيات القطع، النقد المنطقي للمفردات، التجربة الإحصائية التي تخضع البديهيات المضللة، الاعتراض الحاسم والمنهجي الموجه ضد معطيات الظاهر، عاجزة تماماً، طالما أن السوسيولوجية العفوية، لم تتلقَّ ضربة مباشرة في صميم فلسفة معرفة الفعل الاجتماعي والإنساني التي تستند إليها. لا يستطيع علم الاجتماع أن يتشكل كعلم بالفعل، منقطع عن الرأي الشائع إلا بشرط أن تقابل ادعاءات السوسيولوجيا العفوية بمقاومة منظمة، تنبثق عن نظرية في المعرفة الاجتماعية تواجه من مبادئها، نقطة بنقطة، افتراءات فلسفة الاجتماع البديهية الأولى².

يقع علماء الاجتماع الذين يبنون إشكالياتهم العلمية بكل بساطة من ألفاظ تستعار من المفردات المتداولة، تحت وطأة اللغة التي تزودهم بموضوعاتهم ولو ظنوا أنهم لا يخضعون

¹ بيير بورديو، حرفة عالم الاجتماع، المرجع السابق، ص10.

² المرجع نفسه، ص21.

إلا لما هو معطى. ولا تعتبر التقسيمات التي ترسمها اللغة الشائعة البناءات المسبقة الوحيدة التي تبقى غير واعية وغير قابلة للتحكم، وهي بناءات قد تندس في متن خطاب علم الاجتماع، من هنا فإنّ تقنية القطيعة التي تتمثل في النقد المنطقي للمعرفة الاجتماعية الشائعة تجد أداة لا بديل لها، في علم تشخيص أمراض اللغة المألوفة، الذي رسم لنا "ويتجنستين" « Wittgenstein » في كتاباته خطوطه الأولى¹.

والواقع أن عالم الاجتماع عندما يتبنى مواضيع الحس المشترك والفكر العامي، أو التفكير الشائع بهذه المواضيع، يفقد أسس مواجهة البدهة الشائعة التي تقول بأن لكل امرء أن يتكلم بشأن كل ما هو إنساني أو أن يحكم على أي خطاب يتناول هذا الإنساني حتى لو كان خطاباً علمياً... تتواطأ تحليلات "عالم الاجتماع" كلياً، مع ثرثرة الحياة اليومية، أو عندما لا يتبقى شيء يفصل بين خطاب المحلل وما يطله من كلام، سوى ما يرسمه "المزدوجان" من حدود هشة.

إن لغة علم الاجتماع التي تلجأ دائماً، حتى في صيغها الأشد إحصائياً، إلى المفردات الشائعة المألوفة بعد أن تضبط دلالاتها وتدقق في معانيها والتي تصبح تبعاً لذلك لغة ملتبسة تخرج عن إطار المختصين، تصبح قابلة للاستخدامات المخادعة².

ولكن لما كانت الحدود في إطار علم الاجتماع بين المعارف الشائعة والعلم أشد غموضاً وتردداً مما عليه في علوم أخرى تأخذ ضرورة القطيعة الإبيستيمولوجية في هذا الإطار، أهمية خاصة. ولئن كان الخطأ لا ينفك عن الشروط الاجتماعية التي تجعله وارداً أو ربما مقضياً، فإن الإيمان الساذج بالتبشير المنهجي، هو فقط ما يجعل البعض يتغاضى عن طرح السؤال حول الشروط الاجتماعية التي توفر إمكانية أو ضرورة الانقطاع عن

¹ بيير بورديو، حرفة عالم الاجتماع، المرجع السابق، ص 29.

² المرجع نفسه ، ص.ص 32، 33.

المعرفة الاجتماعية العفوية والإيديولوجية. والتي تجعل التنبه المنهجي بعداً مؤسسياً في متناول جماعة علماء الاجتماع¹.

القضية الأساسية والمحورية التي عرضها "بورديو" طيلة العمل العلمي الكبير الذي أنجزه والإنتاج الفكري المتميز الذي أبدعه، والتي طوّرها ورددتها وصاغها وحرص على تنميتها وصقلها في خضم خمسة وعشرين كتاباً ألفه، هي قضية لا وجود لأفكار خالصة². فكل الآراء تجد لها جذورا في تربة الواقع الاجتماعي، وكل المعارف الإنسانية، بشتى أشكالها ومختلف أنماطها، تتصهر في بوتقة تاريخية معينة وضمن انتماء حضاري محدد، فلا تولد المبادئ العلمية ولا المسلمات العقلية بمعزل عن سياق اجتماعي يؤطرها، ورهان سياسي أو اقتصادي أو ثقافي يستثيرها.

ومن الدروس الإستيمولوجية التي استقينها من علم الاجتماع المعرفة كما تصوره "بورديو" لدينا المحاولة الدؤوبة لإيقاظ الوعي العلمي في الذوات العارفة، وذلك بإرشادهم لضرورة إدراك مسألة أن موضوع البحث السوسيولوجي ليس مرادفاً للمواضيع التي يقترحها ويهتم بها القائمون على تسيير المشكلات الاجتماعية³. فالبحوث التي من المناسب أن ينجزها عالم الاجتماع لا يجب أن تفرض عليه من قبل المؤسسات الحكومية أو الجمعيات المدنية، ولا يجب أن تتبع من أحاسيس الأفراد أو أن تتحاز لبديهيات الحس المشترك.

من الضروري في نظر "بيار بورديو" إجراء قطيعة مع النزعة الاقتصادية التي تختزل الحقل الاجتماعي، الذي يمتاز بتعدد أبعاده، وتقليصه ليتماثل مع الحقل الاقتصادي،

¹ ابيير بورديو، حرفة عالم الاجتماع، المرجع السابق، ص 87.

² Jean-François Dortier, « les idées pures n'existent pas », sciences humaines, Auxerre, France, 2008, P 3 ;

³ Pierre Lannoy, « Enseignements Bourdieusiens et vocation sociologique », Hommage à Pierre Bourdieu, Revue de l'institut de sociologie, Université libre de Bruxelles, 1-4, 2002.

أي حصره في علاقات الإنتاج الاقتصادي... قطيعة مع الموضوعاتية، التي تتجاهل الصراعات الرمزية في مختلف الحقول الاجتماعية التي تمثل أمكنة تتجسد فيها مختلف الرهانات التي تتعلق بتمثلات الأفراد والجماعات للعالم الاجتماعي وخاصة مسألة التراتبية في إطار كل حقل وبين مختلف الحقول. فالخلل الأساسي في نظرة الماركسية للطبقات الاجتماعية، هو تحديدها للمواقع الاجتماعية انطلاقاً من المواقع التي تعينها علاقات الإنتاج الاقتصادي. وهي تتجاهل المواقع المحتملة في الحقول الاجتماعية، التي تتحدد استناداً إلى علاقات الإنتاج الثقافي، ونفس الشيء يقال عن مختلف التفاوتات والتباينات التي تهيك الحقل الاجتماعي، فلا يجب حصرها في التفاوتات والتباينات بين المالكين وغير المالكين لوسائل الإنتاج الاقتصادي، فالماركسية تتصور عالم اجتماعي ذو بعد واحد¹.

يقترح "بورديو" مستويين من التحليل، المستوى الأول موضوعي والمستوى الثاني ذاتي، من جهة البنى الموضوعية التي يكتشفها عالم الاجتماع بمعزل عن التمثلات الذاتية للأعوان الاجتماعيين، فالبنى الموضوعية تشكل أساس التمثلات الذاتية وهي تمثل الإكراهات البنائية التي تسيطر على التفاعلات، ولكن من جهة أخرى من الأنسب أخذ هذه التمثلات بعين الاعتبار لإدراك الصراعات اليومية، الفردية والجماعية، التي تسعى لتغيير هذه البنى أو الحفاظ عليها².

ككل معرفة علمية، يملك علم الاجتماع نظرياته وتصوراتهِ ومناهجهِ: أطر البحث، الأدوات والإجراءات التي تكوّن البنية المنطقية للمعرفة السوسيولوجية، ولكي تصير هكذا، فإن هذه الأخيرة ينبغي أن تتضمن أيضاً بعداً تجريبياً هو ثمرة المواجهة بين أطروحات نظرية، وبين مدونة معطيات تتعلق بالحقل الاجتماعي المدروس. على أن "بورديو" الذي يقتفي في هذا

¹Pierre Bourdieu, « Espace social et genèse des classes », actes de recherche en sciences sociales, n°52-53, 1984, P.P 3,9 In Patrice Bounewitz, Premières leçons sur la sociologie de Pierre Bourdieu, 2^{ème} édition, PUF, Paris, P14.

² Philippe Corcuff, les nouvelles sociologies, 2^{ème} édition, Armand Colin, Paris, 2007, P27.

خطوات "دوركاييم" و"باشلار"، كل واحد في ميدانه الخاص، فإنه بلح على "الحذر الإبستمولوجي" الذي يجب الإبقاء عليه حيال باعة الوقائع (الوقائع لا تعرب عن نفسها كما يقول "بونكاري" « Poincaré »)، و"المعارف العفوية" للمقولات المشتركة وبالأخص في حالة علوم الإنسان التي هي على علاقة بـ "موضوع ناطق"¹.

قدم "لويس بينتو" « louis pinto » تقييم شامل للفكر السوسيولوجي لدى "بيير بورديو" وهو كالاتي: " رغم أن علم الاجتماع عند "بيير بورديو" يستدعي النقاش والنقد، إلا أن أي قراءة تحليلية من اللازم أن تسمو إلى مقام الجهد الذي بذله صاحب كتاب "حب الفن" طوال مسيرته العلمية، خاصة إذا علمنا بكثرة الميادين التي بحث فيها، وتتنوع المواضيع التي تناولها بالدراسة، انطلاقاً من البيت القبائلي مروراً بتكوّن الدولة ووصولاً إلى الحقل الاقتصادي، دون أن ننسى أنه كتب عن الهيمنة الذكورية وعن النسق التربوي وعن الأدب وعن الخياطة الرفيعة وتحدث عن فلسفة "هيدغر" وعن أنماط الحياة.

نشير بالإضافة إلى ما سبق ذكره، إلى أنّ القضايا التي عالجه "بورديو" اهتم بها متخصصون من عدة فروع معرفية علماء الاجتماع، الأنثروبولوجيون، الفلاسفة، المؤرخون، علماء اللغة، وقد ترجمت كتبه إلى عدة لغات، وأكثر من ذلك فإن أعمال "بورديو" ألهمت تلامذته للقيام ببحوث رائدة وصارمة.²

كل هذا يجبرنا أن نمتاز بالدقة والحزم والروية والتركيز ونحن ندرس المعالم المحورية لمختلف الكتابات والدراسات والاستقصاءات التي قام بها "بورديو".

ولسبر أغوار الأفكار الواردة أعلاه نقدم بعض المبادئ المعرفية التي اقترحها "بورديو" لتطوير علم الاجتماع كحقل أكاديمي تعرض إلى أزمة اعتراف وأزمة شرعية علمية، نجمل هذه المبادئ في ما يلي:

¹ ستيفان شوفالي وكريستيان شوفيري، المرجع السابق، ص23.

² Louis pinto, Pierre Bourdieu et la théorie du monde social, le point, Paris, 2002, P11.

أولاً: أصالة المعرفة السوسيولوجية لدى "بورديو" تتمثل في عدم انضمامه إلى تيار نظري تقليدي، بل أسس لنظرية سوسيولوجية جديدة اعتمدت مبدئياً على إنجاز قراءات نقدية لمختلف المقاربات المقترحة والوصول إلى رؤية مغايرة تتجاوز التناقضات والمفارقات في هذه النظرية أو تلك.

ثانياً: قدّم "بورديو" انطلاقة جديدة لعلم الاجتماع بعد الأزمة التي عرفها، وهذا بعد القيام بمجهودات جبارة إما على مستوى كثافة البحوث الميدانية التي أنجزها في مختلف الأوساط الاجتماعية، أو على مستوى نظري صاغ فيه مفاهيم جديدة تماشت مع الحقبة الزمنية التي عاصرها. وأكثر من ذلك فقد عمل في الميدان لإعادة الاعتبار لعلم الاجتماع وإعطائه مصداقية علمية من خلال القيام بمبادرات جريئة لإنشاء مجلات متخصصة ودار نشر ملتزمة وكذا التأثير في علماء اجتماع أوروبا وأمريكا وآسيا.

ثالثاً: أسهم "بورديو" في التقريب بين علم الاجتماع والتاريخ، فقد حث علماء الاجتماع على إدماج التاريخ في مقارباتهم، وقد اعتبر التضاد بين الماضي والحاضر كحكم اعتباطي وتعسفي. فالتاريخ مسجل في الأجساد على شكل تطبع (هابيتوس)، ويتمظهر في هيينتين، هيئة موضوعية في الآلات، في الحركات في الكتب وفي النظريات؛ وفي هيئة مدمجة تتمثل في الاستعدادات. ويدعو المؤرخين لتبني منظور إنشائي (توليدي).

رابعاً: في بداية نشاطه العلمي ابتعد "بورديو" عن أي التزام فكر نضالي كما فعل سارتر، ففي اعتقاده على عالم الاجتماع أن يتفادى القيام بدور النبي، ولا يعتقد أنه وجد لإيجاد الحلول لكل المشاكل الاجتماعية، فلا يجب أن يخضع عالم الاجتماع للضغوطات الخارجية والمواضيع المفروضة، كالانحراف، والإدمان، والرسوب المدرسي، والصراعات داخل المؤسسات الخ.

إذا فرضت على عالم الاجتماع مواضيع البحث، فمن الممكن أن يقع في فخ إنتاج دراسات تضعه في صف المتخصص في المشاكل الاجتماعية ومن ثم يؤدي دور يدخل

ضمن رهانات الصراعات السياسية. فعلى عالم الاجتماع أن لا يدخل حلبة الصراعات السياسية والنزاعات الإيديولوجية، فيتقاضي قبول الانضمام إلى استراتيجيات السيطرة المباشرة أو غير المباشرة.

خامسا: رغم الملاحظات السابقة إلا أن "بورديو" يؤكد على اعتبار أساسي مفاده أنّ علم الاجتماع يمارس بشكل غير مباشر وظيفية سياسية بحيث يتحدد هدفه المحوري في محاولة الكشف عن أي نمط من أنماط السلطة وعن أي صيغة من صيغ الهيمنة وعن أي صورة من صور الاستغلال.

المبحث الثاني: بنية الاستعدادات المكتسبة (التطبّع)

تتشكل بنية الاستعدادات المكتسبة " عبر ما يتراكم في الزمن من الخطاطات التي يوظفها الأفراد، إما فردياً أو جماعياً عن وعي أو غير وعي، لإدراك واقعهم والتعامل مع ظروف وجودهم وفق ما تقتضيه مواقعهم في المجال الاجتماعي"¹.

وبنية الاستعدادات المكتسبة- أو التطبّع - نسق من الاستعدادات الدائمة مستبطنة من طرف الأفراد بفعل الشروط الموضوعية للوجود، تؤدي دور المبادئ اللاواعية الموجهة للفعل، للإدراك وللتفكير.

وبنية الاستعدادات المكتسبة (L'habitus) هي في نفس الوقت شبكة قراءة على أساسها ندرك ونحكم على الواقع وكذلك هي منتجة ممارساتنا. هذان العنصران هما وجهان لعملة واحدة.

والتطبّع هو نتاج المواقع الاجتماعية للأفراد وكذا مساراتهم الحياتية. والانتماءات الاجتماعية تهيكل المكتسبات، هذه الأخيرة تتمظهر في الأفكار، في الكلمات وفي الأفعال.

إن فبنية الاستعدادات المكتسبة هي نسق من الخطاطات تمكّن الأفراد من إدراك مواقعهم في الواقع الاجتماعي من جهة، وتمكنهم من بناء تمثلاتهم من جهة ثانية. والواقع أن تمثلات الأعوان الاجتماعيين تختلف من شخص إلى آخر، تبعاً لموقع العون. والتطبّع لا يندرج فيه إحساس الفرد بمكانه الخاص فقط ولكن يندرج فيه إحساسه بأماكن الآخرين أيضاً.

بنيات الاستعدادات المكتسبة "انساقا من الاستعدادات الدائمة، بنيات مبنية مهياً لأن تشتغل كبنيات بانية، أي باعتبارها مبدأً مولداً بانياً للممارسات والتمثلات التي يمكن أن تكون موضوعياً "مقولة" و"منتظمة" من دون أن نفترض مسبقاً أي قصد واعٍ بأهداف معينة، وأي تحكم فوري في العمليات الضرورية لبلوغها، كما يمكنها أن تكون . لذلك كله . منظمة على

¹ أحمد صبور، المعرفة والسلطة في المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1995، ص36.

شاكلة أوركسترا أو جوقة، من دون أن تكون نتاجاً لفعل تنظيمي لأي رئيس جوقة. وحتى في الحال التي تبدو فيها الأفعال كما لو كانت محددة بالمستقبل، أي بأهداف صريحة لمشروع أو مخطط، تم بشكل صريح، تلك الأفعال التي ينتجها التطبّع بوصفه مبدأً مولداً لاستراتيجيات، ويسمح بمواجهة أوضاع مفاجئة ومتجددة باستمرار، فإن تلك الأفعال تكون محددة بواسطة التوقع الضمني لنتائجها وعواقبها، أي بواسطة الشروط الماضية لإنتاج مبدأ إنتاجها، بكيفية تتجه بها دوماً نحو إعادة إنتاج البنيات الموضوعية التي هي في نهاية التحليل نتاجاً لها¹.

ومن خصائص التطبّع أنه قدرة خلاقة تمكّن العون الاجتماعي الذي يواجهه ما لا حصر له من الأوضاع الموضوعية أو المتموضعة، من أن يبتكر انطلاقاً من مبادئ قليلة أيضاً من الأفعال والتمثلات والمعاني التي لا يمكن الرجوع بها كلها، بأي حال من الأحوال، وبشكل آلي إلى تلك الأوضاع الأصلية وقد اتخذت في هذه الحال شكل مثيرات سواء منها الأوضاع الأصلية (التاريخية) التي تكوّن في إطارها ذلك التطبّع في جسد العون الاجتماعي خلال تجارب الماضي (ومنذ تجارب الطفولة الأولى)، أو أوضاع الحاضر وتحديات المستقبل التي يواجهها في حياته الاجتماعية كل يوم².

إن إحدى وظائف مفهوم التطبّع هي بيان وحدة الأسلوب الذي يوحد ما بين الممارسات والملكيات لعون اجتماعي مفرد أو لفئة من الأعوان الاجتماعيين. فالتطبّع هو ذلك المبدأ المولد والموحد الذي يترجم الخصائص الباطنية والعلائقية لوضع ما إلى أسلوب في العيش موحد، أي مجموعة موحدة من اختيارات الأشخاص والممتلكات والممارسات.

بنية الاستعدادات المكتسبة هي مبادئ مولدة للممارسات المميّزة والمميّزة. ما يأكله العامل وخصوصاً طريقة أكله، الرياضة التي يمارسها وطريقة ممارسته لها، آراؤه السياسية

¹ عبد السلام حيمر، في سوسيولوجيا الخطاب، من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2008، ص. ص 398، 399.

² المرجع نفسه، ص. ص 397، 398.

وطريقته في التعبير عنها، تختلف بصورة منهجية عن الإستهلاكات والممارسات الخاصة بأرباب العمل في المجال الصناعي . لكنها أيضاً تخطيطات تصنيفية ومبادئ للنظر والتقسيم وللأذواق تتسم بالاختلاف. إنها تميز بين ما هو حسن وما هو سيئ، بين ما متميز وما هو مبتذل... الخ.، لكن لا تظل هذه المبادئ دائماً هي هي. فعلى سبيل المثال إن سلوكاً ما أو ملكية ما قد تعتبر من ملامح الامتياز لفرد ما، وإدعاء للثاني، واستعراض للثالث¹.

لكن الجوهر هو أن الفروق في الممارسات والممتلكات والآراء، عندما ينظر إليها من خلال هذه المقولات الاجتماعية للإدراك وهذه المبادئ في النظر والتقسيم، تصبح فروقاً رمزية وتشكل لغة حقيقية. إن الفروق المرتبطة بالأوضاع المختلفة أي الممتلكات والممارسات وبالذات أساليب الممارسة، تعمل في كل مجتمع على غرار الفروق المكونة للنظم الرمزية، مثل مجموعة الأصوات في لغة ما، أو مجموع الملامح المميزة والفجوات التفاضلية المكونة لنسق أسطوري معين، أي كعلامات مميزة².

يرى "بورديو" أنه يمكن أن نموضع ظاهرياً مجموعة من الأفراد في خانة واحدة لكن هؤلاء، قد يوضعون أنفسهم في خانات أخرى وفق تقويماتهم الخاصة وإدراكهم الخاص وأهدافهم ونشاطهم في المجتمع وموقعهم فيه وتمثلهم ذلك الموقع.

نقدم في هذا السياق سؤالاً يتمثل في: هل يكون لكل الأعوان الاجتماعيين المنتمين إلى فئة معينة أو النابعين منها، بنية الاستعدادات المكتسبة نفسها أم أن بنية الاستعدادات المكتسبة تحمل خصوصيات فردية؟

حسب "بورديو"، هناك اختلاف موضوعي بين الاستعدادات المكتسبة الجماعية وبنية الاستعدادات الفردية، وهو اختلاف خاص بكل موقف، إذ لا يمكن، في المقام الأول أن

¹ بيير بورديو، أسباب عملية: إعادة النظر بالفلسفة، تر: أنور مغيث، دار الأزمنة الحديثة، بيروت، 1998، ص31.

² المرجع نفسه، ص.ص 31، 32.

يكون لكل الأعوان الاجتماعيين المنتمين إلى الفئة الواحدة، التجربة نفسها أو أن يكونوا عاشوا التجربة وخبروها بالطريقة والترتيب نفسهما.

ومع هذا التحفظ يضيف "بورديو" أنه يمكن للأعوان الاجتماعيين المنتمين إلى الفئة الواحدة أن يعيشوا تجارب متماثلة وأن يواجهوا مواقف متشابهة، حيث يكون التعبير عن الخصوصية داخل الفئة وفي إطار مسارها.

يُميّز "بورديو" بين نوعين من الاستعدادات المكتسبة:

أ . الاستعدادات المكتسبة أولياً: وهي المكتسبة ضمن المؤسسة العائلية وهي الأكثر استمراراً وتأثيراً على الاستعدادات المكتسبة الأخرى.

ب . الاستعدادات المكتسبة ثانوياً: وهي الاستعدادات المكتسبة في المؤسسة التعليمية ووظيفتها هي مواصلة الاستعدادات الأولية بالإضافة إلى الاستعدادات المكتسبة حديثاً، فإن هذه الأخيرة تتحكم في البنية الأولى مما يجعل من "التطبّع" بنية داخلية تعرف عملية إعادة هيكلة مستمرة.

تحدث "بورديو" عن بنية الاستعدادات المكتسبة لكل طبقة، ومن ثم تصبح هذه البنية مفسرة لتتووع وعدم تجانس الممارسات الاجتماعية، بحكم أن هذه البنية تعيد إنتاج البنية الطبقيّة للمجتمع.

وقد اقتنع بعدم كون الأفراد مجرد انعكاسات للبنى الموضوعية ولا عناصر تتمتع بحرية وقدرة على إتباع سير اجتماعية تخضع لحسابات دقيقة.

لفهم المعطيات السابقة من الضروري، أن تضم كل نظرية حول العالم الاجتماعي التمثل الذي يحمله الأفراد عن العالم الاجتماعي، وبصورة أدق، يجب أن تأخذ بعين الاعتبار العمل الرمزي الذي هو من صنع الفئات، إذ عبر هذا العمل أو هذه الصياغة اللامتناهية

للمتمثل يحاول الأفراد فرض نظرتهم لهذا العالم وفرض نظرتهم إلى موقعهم فيه وأيضا يحاولون منه تحديد هويتهم الاجتماعية.

وتعني كلمة الاستعداد أو النزوع أو الميل أو القدرة الذاتية على تمثّل العالم واستبطان بنياته، تمثلاً ذهنياً ، جسدياً في الآن ذاته، ليست مجرد قدرة فطرية لدى البشر، بل هي قدرة تنشأ وتبنى اجتماعياً وثقافياً فيهم، تبنى في أجسادهم بواسطة التنشئة الاجتماعية (بواسطة التربية والتكوين والتلقين والعنف الرمزي) في إطار صراع تاريخي لا نهاية له، رهانه سعيهم الدائم إلى المحافظة على مواقعهم ومكانتهم الاجتماعية، أو إلى تغييرها بتغيير نسبة ما يملكون من الموارد والرساميل أو المحافظة عليها¹.

بفضل هذه الهندسة الاجتماعية للجسد، يعتاد الجسد على أن يحس ويفكر ويفعل في الآخرين والعالم وفق هذه الطريقة دون تلك، بوصفه في آن معا نتاجاً بينيه ويصنعه، ولا يكف أبداً عن المساهمة في صنعه والفعل فيه، إنه فعل مفتوح.. فعل بان.. فعل في إطار الإنجاز².

بيد أن تلك المبادئ والخطاطات التي يتمثلها الأفراد والجماعات تمثلاً جسدياً في نظر "بورديو" . والتي تتولّد منها الأفكار والخطابات والمواقف والاختيارات العملية، فتوحدها في أسلوب حياة يميز سلوك الناس ويطلع شخصياتهم وأذواقهم بطابع خاص مميز ينسجم مع مزاجهم الذاتي ومع مكاناتهم ومواقعهم الاجتماعية أيضاً.

فالإنسان قبل كل شيء جسد اجتماعي ثقافي تاريخي نكي، مفكر، منتج للخبرات المادية والرمزية معاً، ولمختلف السلوكات، على أساس نسق يتكون من مبادئ وخطاطات تفكير وإحساس وفعل مستمدة من المجتمع الذي نشأ فيه وروّض وربي منذ الطفولة، تتلاءم

¹ عبد السلام حيمر، المرجع السابق، ص379.

² المرجع نفسه، ص380.

معه كما تتلاءم مع الطبقة التي ينتمي إليها إذا كان ذلك المجتمع يعرف تمايزاً اجتماعياً، ومع الجنس، والعمر أو الجيل أو المهنة والوظيفة... الخ.

تحيل كلمة تطبّع، في نهاية التحليل، إلى ما يكسبه الفرد ويمتلكه من موارد مادية ومهارات وقدرات معنوية رمزية تحدد كينونته وشكل وجوده.

تفيد كلمة تطبّع، كذلك، إلى "ما اكتسبناه، لكنه المكتسب الذي تجسّد بصورة دائمة. وبهذا المعنى يشير مفهوم التطبّع إلى الزمن والتاريخ وقد أصبح جسداً، أي إلى هذه العلاقة الجدلية الدائمة بين تاريخ الفرد، وتاريخ الجماعة التي يندرج في وجودها وجوده الفردي، وفي تاريخها تاريخه الشخصي المتميّز¹.

إن الأعوان الاجتماعيين ليسوا نفوساً تشتغل بطريقة آلية بحيث يمكننا تفسير أفعالهم بمجرد اكتشاف المؤثرات التي أنتجتها على شكل استجابة، بل هم أفراد بيولوجيون تكوّنت في أبدانهم بنيات ذهنية هي نفسها البنيات الموضوعية (الاجتماعية والثقافية والتاريخية) وقد تمثلتها تلك الأبدان تمثلاً رمزياً منذ الطفولة الأولى وخلال مجرى تاريخهم الفردي والجماعي بفعل التنشئة الاجتماعية، وبفعل ما ترسب من تجاربهم في تفاعلات الحياة من مبادئ تجد تعبيراتها أحياناً في الأمثال والحكم المأثورة، تلك البنيات الذهنية التي توجه ممارساتهم الخطابية واللاخطابية، وأذواقهم في الفن والأكل والملبس واختيار نوع المدرسة وأنواع الرياضة والمسكن ومختلف أنواع الممتلكات، وكيفيتهم في الحديث والمشى والوقوف...

لا يعود نحت مفهوم "التطبّع" بالكامل إلى الاستيعاب النظري من طرف "بورديو" لجينياولوجيا الحقل السوسيولوجي والفلسفي، لمفاهيمه وإشكالاته وموضوعاته وتياراته المختلفة، بل يعود أيضاً إلى الأسئلة التي طرحها عليه بحوثه الميدانية منذ تلك التي أنجزها عن فلاح جزائر الستينات من القرن الماضي إلى غاية البحوث المهمة التي أنجزها في حياته في نهاية ذلك القرن، لعل أهمها بحثه الشهير: بؤس العالم.

¹ عبد السلام حيمر، المرجع السابق، 392.

فقد طرح بحثه عن فلاحي الجزائر، الذين اضطروا إلى ترك أرضهم للانتقال قصد العيش والعمل في المدينة، ظاهرة عدم التلاؤم بين البنيات الذهنية (الإدراكية والمعرفية والقيمية) لأولئك الفلاحين، والبنيات الاجتماعية الموضوعية لجزائر الستينات التي كانت تعيش مرحلة انتقالية من مجتمع تقليدي إلى مجتمع رأسمالي كولونيالي.

لاحظ "بورديو" أن هؤلاء الفلاحين الذين أصبحوا بروليتاريين في المدن، يعانون عجزاً مأسوياً عن إيجاد نوع من التلاؤم بين بنياتهم الذهنية (التي ليست إلا ترجمة وصياغة رمزية متمثلة جسدياً للبنيات الاجتماعية التقليدية الفلاحية بمقوماتها المعروفة: منطق الشرف المعادي للحساب وعقلنة المبادلات الاقتصادية/ ومبدأ عدم قسمة الأرض والممتلكات)، وما يصدر عن تلك البنيات الذهنية الذاتية من توقعات وانتظارات وأمان وأنماط سلوك من جهة، وبنيات الواقع الاجتماعي الرأسمالي الكولونيالي القائمة على أساس المنطق الرأسمالي، منطق الربح والخسارة، والحساب والعقلنة والموضوعية في التبادلات الاقتصادية والاجتماعية، وما تتيحه من فرص موضوعية لاحتمال تحقيق تلك التوقعات والآمال من جهة أخرى. وإذا كان هذا العجز عن تكييف تلك البنيات الذهنية التي تطبع عليها هؤلاء الفلاحون في الماضي، والتي تعبر عن الحضور الوزن لهذا الماضي في توجيه سلوكياتهم حتى بعد أن أصبحوا بروليتاريين أو شبه بروليتاريين في حاضر المدينة، قد عبر عن نفسه، في حال الفلاحين الجزائريين المبلترين ، في وعيهم الحاد بالعجز عن التحكم في حاضرهم، وفي عدم القدرة على التبصر بما يمكن أن يأتي به المستقبل، وبالتشاؤم منه¹.

¹ عبد السلام حيمر، المرجع السابق، ص. ص 395، 396.

المبحث الثالث: الحقْل الاجتماعي

يرشّح "بيار بورديو" خطابه السوسيولوجي على أنه يجسّد قطيعة مع القراءات الوظيفية والبنوية الكسيحة للمجتمع. ذلك أنه ينكر على نفسه قراءة المجتمع على أنه كل موحد، يتحقق فيه التجانس.

تتضم هذه القطيعة في مفهوم "الحقل" باعتباره فضاءً مستقلاً نسبياً، تدور فيه رهانات خاصة ويتصارع فيه أعوان اجتماعيون بغية احتكار التلاعب الشرعي للسلع الرمزية وقنوات إنتاجها.

يقطّع "بورديو" المجتمع حقولاً هي فضاءات تختلف في بنياتها وفاعليها ورهاناتها إذ هناك "قوانين عامة للحقول، فحقول جدّ مختلفة مثل حقل السياسة وحقل الفلسفة وحقل الدين لها قوانين اشتغال قارة... يتحدد الحقل من جملة محدداته بتعريف الرهانات والمصالح الخاصة التي يستحيل إيعازها إلى رهانات ومصالح خاصة بحقول أخرى، ولا يمكن إدراكها من قبل من لم يكن مهيكلاً لدخول هذا الحقل. ثم إنّ مفهوم الحقل يحمل طاقة إجرائية تمكنه من تفهم الظواهر الاجتماعية في سياق نشوئها وسيورتها دون أن نكون مضطرين إلى إسقاط كلية المجتمع في ضبابيتها وعموميتها على حقول تتميز بخاصيات اشتغال يستحيل ردها إلى المجتمع أو إلى حقول أخرى، بل يصبح موقف كهذا معاينة جافة لظواهر اجتماعية هي من جنس الميكرو، أو الماكروسوسيولوجيا، وتتعرّف عليها فتصادرها من سياقها التاريخي والاجتماعي¹.

"إذا ما أدركنا كل عالم من هذه العوالم الجزئية وفكرنا فيه كحقل، فإننا سنمكّن أنفسنا من وسيلة الدخول في أدق تفاصيل تلك الحقول في تفردنا التاريخي، على غرار أدق المؤرخين وأكثرهم رهافة، عاملين في أن على بنائها وإنشائها بحيث نرى فيها حالة خاصة

¹ ماهر تريمش، "بيار بورديو: فضاء اللعبة، الحقل المشهد، السلع الرمزية تراكم الامتياز"، كتابات معاصرة، بيروت، العدد 36. آذار 1999. ص 27.

من الممكن، على حد تعبير "باشلار"، أو شكلاً من بين أشكال أخرى لبنية من العلاقات. ثم إن مفهوم الحقل يسمح للسوسيولوجيا بفتح رحاب جديدة فيها يبرهن على جدارتها وأحقيتها بمعالجة ظواهر اجتماعية مداسة تحت وطأة الإرث الوظيفي، واستباحة مجالات كانت في وقت قريب حكراً على قطاعات إبتيمية (الاقتصاد) أو فلسفية (الدين) أو فنية (الأدب، الفن...) تغدّت في طمأنينة مخفية عن السؤال السوسيولوجي الجارح الكفيل بتعيرية ما كان ملثماً من سلطات ورهانات¹.

كما يدافع "بورديو" عن مفهوم الحقل من حيث إنه ينهل مبرراته من صلب تنظيره للعلاقات الاجتماعية إذ هو مفهوم بار لخطابه حول السلطة. فحين توطن هذه الأخيرة وتنزل من عليائها لتسكن المعيش الاجتماعي وتتسلل داخل العلاقات الاجتماعية فتكون "جوهرها".

إن الحقل كنسق هو تقابل لقوى أشخاص ومؤسسات يهدف إلى احتكار السلطة إذ هي موضوع رغبة ومحرك تغيير، بؤرة للصراع ترتق حولها استراتيجيات متنوعة: "أما بنية الحقل فهي حالة علاقة قوة بين الأعوان والمؤسسات المنخرطين في الصراع، أو إذا رغبتنا هي حالة توزيع لرأسمال متميز متراكم خلال صراعات سالفة موجهة لاستراتيجيات لاحقة. وبنية الحقل نتاج علاقات صراع، فالعلاقات الاجتماعية المهيكلة لها هي علاقات قوى مختلة التوازن بين متنفذين ومُسوذين يحاول كل من موقعه إما تثبيتها أو تثويرها: الطبيعة الصراعية التي للعلاقات الاجتماعية الباغية احتكار رؤوس الأموال الخصوصية داخل الحقل ومن ثمة ممارسة السلطة الشرعية، تتحدد في أفقها مواقع وأمكنة تُهيكل الحقل وتُبنئُهُ فتتأسس في أفقه العلاقات الاجتماعية حتى لكأنها تضحى ذات البنية رهان الصراع لقلب هذه البنيئة والعاكسة لميزان قوى معيّن. فالتوترات والسجلات التي يشهدها فضاء الحقل هي ذلك الناموس الذي يفسر اشتغاله ومبدأ بنيته ويمكنها من الاستقرار والديمومة. فيها توزع

¹ ماهر تريمش، المرجع السابق، ص28.

الأدوار وتورث الأمكنة حتى أنها تغير الأشخاص وتبدل وتستبدل الرهانات غير الرهانات. والمواقع صلدة لا تتغير تتخطى التوترات وتتعالى عن يسكنها ويستوطنها¹.

تبدو الحقول في بعدها التزامني فضاءات مهيكلة لمواقع (أو مراكز) ترتبها خصوصياتها بمواقعها في هذه الفضاءات التي تكسبها استقلالية عن خصائص محتليها... وبنية العلاقات التي تشكل فضاء المجال هي التي تتحكم في الصورة التي يمكن لعلاقات التفاعل الظاهرية أن تتخذها، بل وفي محتوى الخبرة التي يمكن أن تكون لدى الأعضاء بصددتها.

والقدر الذي يسديه "بورديو" للبنية لا يجعله يطمس الدينامية التي تكتسح وتعمّر أرجاءها. فالبنية الاجتماعية ليست ساكنة ولا كلاً هلامياً متكلساً، إنها نتاج تاريخ وترجمان لاشتغاله: "مبدأ الحركة الدائبة الذي يعطي للحقل حركته لا يمثل في أي محرك أول لا يتحرك بل في التوترات التي تتولد في البنية التي تكوّن الحقل... فتسعى إلى إعادة إنتاج هذه البنية. إنه يكمن في مجموع الأفعال وردود الأفعال التي تصدر عن الأعضاء الذين لا يملكون إلا أن يتصارعوا للحفاظ على وضعيتهم داخل الحقل أو تحسين تلك الوضعية. هذا إن لم يقض بعضهم على الآخر ويقصيه من الحقل، وبهذا فهم يساهمون في فرض الضغوطات على الأعضاء الآخرين، تلك الضغوطات التي تنشأ عن التصارع بينهم والتي هي غالباً ما لا يحتمل. بهذا الصراع يكتب الحقل تاريخه الذي ضمنه يقرأ، إذ هو لا يقترضه من فضاءات أخرى ولا يستلهمه من مصادر لاهوتية أو شخصية فآليات اشتغال الحقل هي التي تكتب التاريخ. إنه تاريخ مسطرّ بجغرافية الحقل حيث تدار الصراعات من أجل فرض شرعية التراتب الاجتماعي. صراع بين أعوان لفرض نمط الرؤية الشرعية للعالم والمجتمع ومن ثمة لإدارته.

¹ ماهر تريمش، المرجع السابق، ص28.

ما يوجد في العالم الاجتماعي إنما هو علاقات، وليس تفاعلات أو صلات ذاتية بين فاعلين، بل علاقات موضوعية توجد في استقلال عن الضمائر والإرادات الفردية.

وبصيغة تحليلية، فإن حقلاً ما يمكن أن يحدد بصفته شبكة أو تشكيلاً من العلاقات الموضوعية بين أوضاع، وهذه الأوضاع محددة موضوعياً في وجودها وفي التحديدات التي تفرضها على المحتلين لها، سواء أكانوا أفراداً أم مؤسسات بواسطة موقعهم الحالي والمحتمل في بنية توزيع مختلف ضروب السلطة (أو الرأسمال) التي يتطلب امتلاكها بلوغ الأرباح الخاصة التي هي موضوع اللعب في الحقل؛ وفي الوقت نفسه، بواسطة علاقتهم الموضوعية بالأوضاع الأخرى (سيطرة، تبعية، تطابق، الخ).

وفي المجتمعات الشديدة التمايز، فإن العالم الاجتماعي مكوّن من مجموع تلك الكوينات الاجتماعية المستقلة نسبياً، أي من فضاءات من العلاقات الموضوعية تعدّ محلاً لمنطق وضرورة خاصين وغير قابلين للاختزال في ذينك اللذين يحكمان الحقول الأخرى. إذ على سبيل المثال، فإن الحقل الفني، الحقل الديني أو الحقل الاقتصادي حقول يخضع كل منها لمنطق مختلف: فالحقل الاقتصادي برز تاريخياً، بوصفه مجالاً حيث أن "الأعمال هي الأعمال" كما يقال، وبالتالي فإن العلاقات الودية للقرابة، الصداقة أو الود (المودة، كما يقول أرسطو) مستبعدة مبدئياً؛ وعلى العكس من ذلك، فقد تكون الحقل الفني برفض أو بكره قانون الريح المادي¹.

وفي كل لحظة، فإن حالة علاقات القوى بين اللاعبين هي التي تحدد بنية الحقل: إذ يمكن أن يتخيّل أن كل لاعب أمامه أكوام من القطع بألوان مختلفة، مقابلة لمختلف أنواع الرأسمال التي يمتلكها، بحيث إن قوته النسبية في اللعب، وضعه في فضاء اللعب، وأيضاً خطته في اللعب، أي ما يسمى "طريقته في اللعب" الضربات التي يقوم بها والتي تعدّ، بهذا

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، ص 65.

القدر أو ذاك، مخاطرة، حذرة، مناهضة أو محافظة كل هذا يخضع في آن واحد للحجم الكلي للقطع التي لديه ولبنية أكوام القطع، أي للحجم العام لرأسماله ولبنية هذا الرأسمال¹.

مسألة حدود الحقل مسألة صعبة جدا، وليست كذلك إلا بفعل أنها مطروحة دائما في الحقل ذاته وبالتالي لا تقبل أية إجابة قبلية. إنَّ المشاركين في حقل ما، مثلا المقاولات الاقتصادية، كبار الخياطين أو الروائيين، يعملون باستمرار للتمايز مع خصومهم الأقربين، وذلك من أجل الحد من المنافسة وإقامة احتكار على قطاع فرعي خاص من الحقل. وجهودهم من أجل فرض معيار معين للكفاءة والانتماء يمكن لها أن تحظى بالنجاح بنسبة تزيد أو تنقص، وذلك حسب الظرفية. هكذا، فإن حدود الحقل لا يمكن أن تحدد إلا بواسطة تقص تجريبي. إنها لا تتخذ إلا في النادر شكل حدود قانونية، (مثلا، بعدد محدود)، حتى ولو كانت الحقول تحتوي دائما على حواجز بالمدخل، مضمرة أو ممأسسة².

ويمكن مبدأ حركية حقل ما في شكل بنيته، في المسافة، الفواصل واللاتناظرات بين مختلف القوى الخاصة التي تتواجه فيه. والقوى الفاعلة في الحقل التي ينتقيها المحلل لهذا السبب كما لو كانت وجبهة، بما أنها تنتج أهم الفروق، هي التي تحدد الرأسمال الخاص. ورأسمال ما لا يوجد ولا يشتغل إلا في العلاقة بحقل: إنه يمنح سلطة على الحقل، على الوسائل المجسدة أو المتقصة من الإنتاج أو من إعادة الإنتاج التي يكون توزيعها بنية الحقل ذاتها وعلى الانتظمات والقواعد التي تحدد الاشتغال العادي للحقل ومن ثم على الأرباح المحصّلة في الحقل³.

ومن حيث إنه حقل للقوى الحالية والمحتملة، فإن الحقل هو أيضا حقل للنزاعات من أجل الاحتفاظ بتشكّل تلك القوى أو تحويله. فضلا عن ذلك، فإن الحقل من حيث إنه بنية من العلاقات الموضوعية بين أوضاع للقوة، يسند ويوجّه الخطط التي بها يبحث المحتلون

¹ المرجع نفسه، ص 67.

² المرجع نفسه، ص.ص 67، 68.

³ بيار بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص. ص 68، 69.

لنتلك الأوضاع، بشكل فردي أو جماعي، ليحموا أو ليحسّنوا وضعهم وليفرضوا مبدأ التراتب الأنسب لنتائجهم الخاصة. وبعبارة أخرى، فإن خطط الفاعلين تخضع لوضعهم وسط الحقل، أي في توزيع الرأسمال الخاص، كما تخضع لإدراكهم الحقل، أي وجهة نظرهم إلى الحقل، من حيث هي نظرة متخذة انطلاقاً من نقطة في الحقل.

ولا جَرَم أنه في شروط تاريخية معينة، هي التي يجب أن تُدرس بكيفية تجريبية، يمكن لحقل أن يأخذ في الاشتغال بصفته جهازاً. إذ عندما يوفق المسيطر في أن يسحق ويبطل مقاومة وردود المقهور، أي حينما تتم الحركات حصراً من الأعلى نحو الأسفل، فإن مفاعيل السيطرة تكون بحيث إن النزاع والجدل اللذين يكوّنان الحقل يميلان نحو الاختفاء. إنه ليس هناك تاريخ إلا طالما كان الناس يتمردون، يقاومون ويتفاعلون. والمؤسسات الكليانية: الملاجئ، السجون المعتقلات، أو الأنظمة الاستبدادية، محاولات بمقدار كاف من أجل وضع حد للتاريخ. هكذا، تمثل الأجهزة حالة نهائية للحقول، أي شيء يمكن أن يعتبر حالة مرضية لها. لكنها نهاية لا يتم في الواقع الوصول إليها أبداً، حتى في الأنظمة الأشد قمعاً، التي تسمى "كليانية"¹.

إنّ الحقل هو محل علاقات القوة، ونزاعات تسعى إلى أن تحوله، وبالتالي، فهو محل تغير دائم. والتماسك الذي يمكن أن يلاحظ في حالة معينة للحقل وتوجهه الظاهر نحو وظيفة وحيدة (مثلاً، في حالة المدارس الكبرى بفرنسا، إعادة إنتاج بنية حقل السلطة) هما نتاج الصراع والتنافس وليس نتاج نوع من النمو الذاتي المحايد للبنية².

إنّ تحليلاً يعتمد صيغة الحقل يقتضي ثلاث لحظات ضرورية ومقتزنة فيما بينها. أولاً، يجب أن يتم تحليل وضع الحقل بالنسبة إلى حقل السلطة. وفي حالة الفنانين والكتّاب، يكتشف المرء أن الحقل الأدبي متضمن في حقل السلطة، حيث يشغل وضعاً تمارس عليه السيطرة (أو بلغة غير مطابقة كثيراً: الفنانون والكتّاب، أو المثقفون بشكل أعم، هم الشق

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص.ص 69، 70.

² المرجع نفسه، ص.ص 70، 71.

المسيطر عليه من الطبقة المسيطرة). وثانياً، يجب أن تقام البنية الموضوعية للعلاقات بين الأوضاع المحتلة من طرف الأعوان أو المؤسسات الذين يتنافسون في ذلك الحقل. وثالثاً، يلزم أن تحلل مختلف أشكال التطبع لدى الأعوان، أي مختلف أنساق الاستعدادات التي اكتسبوها، وهم يتقصدون نمطاً معيناً من الشروط الاجتماعية والاقتصادية والتي تجد، في مسار محدد داخل الحقل المعني، فرصة أكثر أو أقل ملائمة لأن تتحقق.

يُستعمل مفهوم الحقل في هذا المقام لكي يذكر بأن الموضوع الحقيقي لعلم اجتماع بالأعمال الثقافية ليس هو الفرد أو "المؤلف"، حتى ولو أنه لا يمكن أن يبني حقل إلا انطلاقاً من الأفراد، بما أن المعلومات الضرورية للتحليل الإحصائي مرتبطة عموماً بأفراد أو بمؤسسات.

فالحقل هو الذي يجب أن يكون في مركز عمليات البحث. ولا يقتضي هذا أن الأفراد إنما هم "أوهام" خالصة أو أنهم لا يوجدون: إذ أنهم يوجدون بما هم أعوان، وليس من حيث إنهم أفراد بيولوجيون، أو من حيث إنهم ممثلون أو ذوات؛ وهؤلاء الأعوان مكثرون اجتماعياً على أنهم نشيطون ومتصرفون في الحقل من حيث إنهم يمتلكون الخصائص الضرورية لكي يكونوا أعوان فيه، أي لكي ينتجوا فيه مفاعيل¹.

فلكي يُبنى الحقل، لا بد من أن تعين أشكال الرأسمال الخاص التي ستكون ناجعة فيه، ولكي تبني هذه الأشكال من الرأسمال الخاص، يجب أن يعرف المنطق الخاص للحقل، إنه ذهاب وإياب غير متوقف، في سيرورة البحث التي تعد طويلة وصعبة.

وأن يقال إن بنية الحقل محددة ببنية توزيع الأنواع الخاصة من الرأسمال التي تكون نشيطة فيه، فهو أن يقال إنه لما تكون معرفتي بأشكال الرأسمال مطابقة، فإنني أستطيع أن أميز كل ما يطلب تمييزه.

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص. 72-74.

وآخر نقطة في هذا المجال هي أن الأعوان الاجتماعيين ليسوا "جزئيات" مجتذبة ومدفوعة على نحو آلي بقوة خارجية. إنهم بالأحرى حَمَلَةٌ رأسمال، وتبعاً لمسارهم وللوضع الذي يحتلونه في الحقل بمقتضى تمتعهم بالرأسمال (حجماً وبنية)، فإن لهم ميلاً طبيعياً إلى أن يتجهوا بحيوية، إما نحو المحافظة على توزيع الرأسمال وإما نحو مناهضة هذا التوزيع. طبعاً، إن الأمور ليست بالغة السهولة، ولكن يرى "بورديو" أن هذه قضية عامة جداً، تصدق على الفضاء الاجتماعي في مجموعه، على الرغم من أنها لا تقتضي أن كل ممتلكي رأسمال زهيد هم بالضرورة ثوريون وأن كل ممتلكي رأسمال عظيم هم تلقائياً محافظون¹.

كل مشروع "بورديو" العلمي مستوحى في واقع الأمر من الاعتقاد بأنه لا يمكن فهم المنطق العميق للعالم الاجتماعي إلا بالغوص في خصوصية واقع تجريبي معين، محدد تاريخياً في الزمان والمكان، لبنائه "كحالة خاصة للممكن"، حسب تعبير "غاستون باشلار"، أي كواحدة من الحالات في عالم محدود من التشكلات الممكنة. يعني ذلك عملياً أن تحليلاً للحقل الاجتماعي كالذي يقترحه مستنداً إلى حالة فرنسا في السبعينيات هو من قبل التاريخ المقارن الذي يطبق على الحاضر أو من قبل الأنثروبولوجيا المقارنة التي ترتبط بمناخ ثقافي خاص جاعلة هدفها الإمساك بالثابت والبنية في ثنايا المتغير الذي تتم ملاحظته².

إن الحقل الاجتماعي مبني بطريقة، بحيث يكون الأعوان الاجتماعيون أو الجماعات موزعين فيه باعتبار وضعهم في التوزيعات الإحصائية حسب مبدأى التفرقة: الرأسمال الاقتصادي والرأسمال الثقافي اللذان هما بلا شك أكثر تأثيراً في البلدان الصناعية كالولايات المتحدة أو اليابان أو فرنسا³.

إن عملية بناء الحقل الاجتماعي، هذا الواقع غير المرئي الذي لا نستطيع أن نعرضه ولا أن نلمسه بالأصابع، والذي ينظم الممارسات وتصورات الأفراد، تعني في الوقت نفسه

¹ بيبير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص.ص 74، 75.

² بيبير بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص. 23.

³ المرجع نفسه، ص. 29.

إتاحة إمكانية بناء طبقات نظرية متجانسة قدر الإمكان من وجهة نظر العاملين المحددين الأساسيين للممارسات وكل ما يتبعها من خواص¹.

بناء على ما قيل، إذا كان العالم الاجتماعي بتقسيماته هو شيء يقوم الأعوان الاجتماعيون بصنعه، ببنائه، فردياً وأساساً جماعياً، بالتعاون والصراع، فإنه يبقى أن هذه البناءات لا تتم في الفراغ الاجتماعي كما يعتقد بعض اختصاصي المنهج الإثنولوجي: الوضع المشغول في الحقل الاجتماعي أي في بنية توزيع الأنواع المختلفة للرأسمال التي هي في الوقت نفسه أسلحة، تتحكم في تمثلات هذا الوضع وفي أخذ المواقف في الصراعات التي تسعى للحفاظ عليه أو لتعديله².

يشملني الفضاء الاجتماعي كنقطة ولكن هذه النقطة هي وجهة نظر، أي مبدأ رؤية تتم انطلاقاً من نقطة محددة في الحقل الاجتماعي، من منظور محدد في شكله ومضمونه بوضع موضوعي يتم انطلاقاً منه الحقل الاجتماعي هو الواقع الأول والأخير. بما أنه مازال يتحكم في تمثلات يمكن أن يكونها الأعوان الاجتماعيون.

لبناء الحقل الاجتماعي في حالة فرنسا، كان ينبغي وكفي الأخذ في الحسبان الأنواع المختلفة للرأسمال التي يحدد توزيعها بنية الحقل الاجتماعي... فالحقل الاجتماعي ينتظم حسب ثلاثة أبعاد رئيسية: في البعد الأول يتوزع الأعوان الاجتماعيون حسب ما يحوزون من الرأسمال الشامل بمختلف أنواعه، وفي الثاني حسب بنية الرأسمال هذا أي حسب الوزن النسبي للرأسمال الثقافي والرأسمال الاقتصادي في جملة حيازتهم؛ وفي الثالث حسب التطور الزمني لحجم رأسمالهم وبنيته³.

¹ بيبير بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص 33.

² المرجع نفسه، ص 37.

³ المرجع نفسه، ص 41.

ما نسعى لتأكيدِه في هذا المقام، هو أنّ الحقل فضاء اجتماعي محدد مكوّن من أعوان اجتماعيين يحتلون مواقع معينة مرتبطة بحجم وبنية رأسمال كاف وفعال في الحقل الملاحظ، فالحقل قبل كل شيء هو نسق من المواقع، إستراتيجيات الأعوان مشروطة ببنية استعداداتهم المكتسبة، ويتناسب مع الميكانيزمات القاعدية للتنافس والهيمنة. ولكن إستراتيجيات إعادة الإنتاج تتغلب في كل حقل اجتماعي. يفسر ذلك استمرارية وديمومة البنيات الاجتماعية¹.

كل حقل يحوي قواعد لعب ورهانات خاصة، يتعذر إسقاطها على قواعد لعب ورهانات حقول أخرى. ولكل حقل اجتماعي مصالح اجتماعية خاصة به لا يجب أن تختزل إلى مصالح اقتصادية، والمصلحة المادية ما هي إلا شكل من أشكال المصالح الغالبة في الحقل الاقتصادي.

يؤدي الحقل الاجتماعي وظائف اجتماعية خارجية، خاصة إعطاء الشرعية للنظام الاجتماعي الكلي، بفعل أنه يخضع لمنطقه الخاص. وهذا لا ينفي وجود الصراع بين المسيطرين والمسيطر عليهم، فالأوائل يعملون على المحافظة على تفوقهم وتمييزهم والآخرين يسعون إلى تقليص الفجوة بينهم وبين الطبقة المحظوظة أو المهيمنة.

الحقل في نظرية الإنشاء الذاتي مغلق، حدود هويته تكمن في مرجعية ذاتية إلى سيروراته الداخلية، يستعيز عن المحيط في ما يفيد خطوطه الدالة على عملياته لكي ينتجها من ذاته. ولكن دون أن يفيد هذا القول طبيعة مع المحيط باعتباره محدداً للبقاء. فالحقل ذاتي الإنشاء مستقل عن المحيط ولا يعدمه، هو مفتوح عليه لكونه مكتفياً ذاتياً في إنتاجه ومن ثمة بقائه.

تصير العلاقة بالمحيط هاهنا ثانوية في تحديد هوية الحقل، ففي مثل هذا الاشتغال ذاتي التنظيم لا يقدر الحقل على ضمان اشتغاله وإعادة إنتاجه إلا من خلال عودة دائمة

¹ بيار بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص52.

إلى الذات لضمان إنتاج كامل عناصره وبناءه وسيروراته وحدوده ووحدته وإعادة إنتاجها وذلك عبر عمليات دائريّة.

المبحث الرابع: الرأسمال الثقافي

يستعمل "بورديو" مفهوم الرأسمال كأداة نظرية يقارب بها ويدرك من خلالها ذلك الصنف من الملكية الذي يكون رهن تصرف الفرد أو الجماعة. وعلى الرغم من أن هذا المفهوم ارتبط أصلاً بميدان الاقتصاد، إلا أن "بورديو" استعمله ووظفه في سياقات أخرى ليدل به على ما يمتلكه ويراكمه الأفراد من رساميل رمزية واجتماعية وتعليمية وثقافية ولغوية.

يتجسد مصطلح الرأسمال في الأملاك أو الخيرات المعترف بها اجتماعياً والتي تتراكم عن طريق إجراءات الاستثمار وتنتقل من خلال الميراث. تمكن صاحبه من الاستفادة من الامتيازات والحظوة والتموقع اللائق داخل النسق التراتبي للمجتمع.

والرأسمال بوصفه قوة اجتماعية تمكن مالكيها من قدر من التأثير في علاقاته بالآخرين، ومن مكانة اجتماعية معينة في الفضاء الاجتماعي، تتناسب علواً وانخفاضاً مع القدر الذي يمتلكه منها. فالرأسمال بهذا المعنى هو المبدأ الذي يبنى الفضاء الاجتماعي على أساسه، على شكل مواقع متميزة مختلفة في تراتبيتها وفي المسافات الفاصلة في ما بينها يتوزع عليها الناس - بحسب نسبة امتلاكهم له توزيعاً يكون منهم أصنافاً وفئات وطبقات اجتماعية متميزة تمايز مواقعها في الفوق أو التحت أو الوسط أو اليمين أو اليسار¹.

ولا يمكن اعتبار الرأسمال، فقط، كطاقة اجتماعية أي كمورد اجتماعية موضوعية مادية منقولة، تورث وتتمى وتراكم في مجرى الزمن والتاريخ، وتمنح مالكيها سلطة ونفوذاً تتفاوت بتفاوت ما يمتلكونه منها، بل علاوة على ذلك كله موارد ذاتية وعلاقات رمزية

¹ عبد السلام حيمر، المرجع السابق، ص 368.

(قدرات واستعدادات لتقسيم العالم وإدراكه وتقييمه والفعل فيه بهدف تغييره أو المحافظة عليه)، تتمثلها أجساد الناس¹.

فرأسمال ما أو نوع معين من الرأسمال، هو ما يعدّ ذا فاعلية في حقل محدد، في آن واحد من حيث هو سلاح ومن حيث إنه رهان للنزاع، مما يتيح لممتلكه أن يمارس سلطة أو تأثيراً وبالتالي، أن يوجد في حقل معين، بدلا من أن يكون مجرد "كّم لا يعتد به"²

الرأسمال هو كل قوة اجتماعية قادرة على إنتاج متاع نادر وريح مميز، إنه عتاد حرب، حينئذ لا يجوز اختزاله في معناه الاقتصادي بكونه امتلاك وسائل مادية فذلك رسم لونه باهت، لأدوات متعددة سواء كانت موضوعة في أشياء مادية أو نسق قدرات أو حالة في أشكال ممأسسة. ويشترط استثمار الرساميل توفر فضاء: سوق، فيه يتنافس اللاعبون لتحقيق مصالح محددة ويتراهنون ابتغاء أرباح مميزة³.

وإذا كان "بورديو" يرى أن الرأسمال بهذا المعنى هو مبدأ بناء الفضاء الاجتماعي بوصفه نظاماً من المواقع الاجتماعية المتميزة، كيفما كانت الصيغة التاريخية الخاصة التي يبدو عليها هذا الفضاء هنا وهناك، وفي هذا العصر أو ذاك فإن ضروبه وأشكاله تتفاوت تأثيراً بحسب الأوجه التاريخية الملموسة التي يتخذها الفضاء الاجتماعي هنا وهناك: ففي الوقت الذي يبدو فيه الرأسمال الرمزي (الديني مثلا) من بين الأشكال الأخرى للرأسمال، المبدأ الأكثر تأثيراً، بل المبدأ الباني للفضاء الاجتماعي في المجتمعات التقليدية، المبدأ الذي يحدد توزيع الأفراد والجماعات فيه إلى أصناف اجتماعية متميزة، وفي الوقت الذي يبدو فيه الرأسمال السياسي هو الرأسمال الباني للفضاءات الاجتماعية من طراز سوفيتي أو ما يشابهه من طرازات تؤدي فيها الدولة والانتماء إلى الحزب الحاكم دوراً حاسماً في تصنيف الأعوان

¹ عبد السلام حيمر، المرجع السابق، ص. ص 374، 375.

² بيبير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص 66.

³ ماهر تريمش، "بيار بورديو، الحقل المشهد، السلع الرمزية، تراكم الامتياز"، كتابات معاصرة، العدد 36، آذار 1999، ص 31.

وتوزيعهم على المواقع التفاضلية المختلفة على شكل طبقات متميزة، أي في توزيع الأفراد في الفضاء الاجتماعي إلى طبقات وأصناف، فإننا نجد في مجتمعات رأسمالية متطورة كالولايات المتحدة وفرنسا واليابان على سبيل المثال، أن الرأسمال الاقتصادي والرأسمال الثقافي يشكّلان المبدأ الأكثر فاعلية وتأثيراً في بناء الفضاء الاجتماعي باعتباره نظاماً من المواقع المتميزة التي يتم توزيع الأفراد فيها إحصائياً إلى أصناف وطبقات وفق:

(1) - الحجم الإجمالي لرأسمالهم بكل أنواعه وأشكاله (الاقتصادي والثقافي).

(2) - بنية رأسمالهم، أي الوزن النسبي لكل أشكال الرأسمال الذي بحوزتهم (ثقافياً كان أو اقتصادياً) في مجموع تراثهم (أي في الحجم الإجمالي للرأسمال الذي يمتلكونه).

(3) - تطور حجم و بنية رأسمالهم في مجرى الزمن والتاريخ.

وكلما كان الأعوان الاجتماعيون يشتركون في أكبر كميات من الخصائص والسمات (اشتراكاً يجعلهم يبدون كصنف اجتماعي وطبقة متجانسة موضوعياً في شروط وجودهم وطرز عيشهم، بل حتى في علاقتهم بأجسادهم من حيث طريقة المشي، وطريقة الكلام والحديث...) كانوا متقاربين في ما يمتلكونه من رأسمال اقتصادي وثقافي. أما عندما يقل اشتراكهم وتجانسهم، فإن تباعدهم في ما يمتلكونه منهما يكون كبيراً¹.

والرأسمال الاقتصادي يتشكل من مختلف عوامل الإنتاج (الأراضي، المصانع، العمل) ومجموع الخيرات الاقتصادية: الدخل، الأملاك، ثروات مادية.

أما الرأسمال الاجتماعي فيتكون من مجمل العلاقات الاجتماعية التي بحوزة الفرد أو الجماعة، امتلاك الرأسمال الاجتماعي يتطلب إنشاء علاقات وروابط اجتماعية والحفاظ عليها. أي عمل اجتماعي كالدعوات المنتظمة والمستمرة وممارسة النشاطات والهوايات جماعياً.

¹ عبد السلام حيمر، المرجع السابق، ص.ص 369، 370.

إن كل رأسمال، مهما كانت الصورة التي يتخذها، يمارس عنفاً رمزياً بمجرد أن يعترف به، أي أن يتجاهل في حقيقته كرأسمال ويُفرض كسيادة تستدعي الاعتراف¹.

لا يستعمل "بيار بورديو" المفهوم الأنثروبولوجي للثقافة إلا قليلاً، سواء تعلق الأمر بالمجتمعات المسماة "تقليدية"، شأن المجتمع القبائلي مثلاً الذي كرس أعمالاً عديدة له، أو بالمجتمعات المصنّعة. تأخذ كلمة "ثقافة" في كتاباته، عامة، معنى أكثر ضيقاً وكلاسيكية وتحيل على "الآثار الثقافية"، أي على الإنتاجات الرمزية المثمنة اجتماعياً والتي تكون في مجال الفنون والآداب. وإذا كان "بورديو" يُعتبر واحداً من الممثلين الرئيسيين لعلم اجتماع الثقافة (الذي يتبنى المقصد الضيق للمصطلح) فلأنه تعلق بتوضيح الآليات الاجتماعية التي منها ينبع الإبداع الفني وتلك التي تفسّر مختلف أنماط استهلاك الثقافة (في معناها الضيق)، بحسب الجماعات البشرية، باعتبار تعلق الممارسات الثقافية الشديد بالتنفيذ الاجتماعي، بحسب تحاليه².

وما يهمننا في هذا الإطار هو الرأسمال الثقافي الذي يتمثل في مجمل المؤهلات الفكرية، المنتجة من طرف النظام التعليمي أو منقولة من العائلة. والثقافة ليست امتيازاً طبيعياً ولكن يجب وكفي أن يمتلك الفرد وسائل الاقتراب من الشيء الثقافي لكي يمتلك هذه الثقافة.

يتجلى الرأسمال الثقافي في ثلاثة مظاهر رئيسية:

أولاً) - مظهر ذاتي (مدمج): يتخذ شكل تنظيم دائم من المؤهلات والمعارف والمهارات الفكرية واللغوية.

ثانياً) - مظهر موضوعي (مشياً): يتمثل في الأشياء المرتبطة بالثقافة (كالكتب والرسومات الفنية و الآلات الموسيقية).

¹ بيير بورديو، الرأسمال الرمزي والطبقات الاجتماعية، المرجع السابق، ص 49.

² دونيس كوش، المرجع السابق، ص 142.

ثالثاً) - مظهر مؤسساتي: يبدو في الألقاب والشهادات العلمية التي تعطي هذا الصنف من الرأسمال أصالة ينفرد بها¹.

تتفاوت فرص تذوق المنتج الثقافي من شريحة اجتماعية إلى أخرى، طبقاً لارتباط "حب الفن" بشبكة من المتغيرات خاصة تلك المتعلقة بالمستوى التعليمي، وبالموقع المحتل في السلم الطبقي الاجتماعي².

من المفروض أن المتحف يجمع الأذواق ويقرب المسافة بين الطبقات الاجتماعية. يتضح في الواقع ومن منظور موضوعي أنه يوسع التفاوت الاجتماعي بين الأفراد وبين الطبقات. وهو عكس ما يتوقعه الرأي الشائع - أو الحس العام - من المتحف فهو يبدو ظاهرياً مفتوح للجميع، ويخفي في حقيقته أنه مفتوح أمام نخبة من الناس³.

¹ Pierre Bourdieu, « les trois états du capital culturel », actes de recherches en sciences sociales, n°30, 1979 PP 3-6.

² فريدريك معتوق، المعرفة، المجتمع والتاريخ، منشورات جروس برس، الطبعة الأولى، طرابلس، لبنان، 1991، ص97.

³ Pierre Bourdieu et A. Darbel, L'amour de l'art, Minuit, Paris, 1974, P148

الفصل الثاني

علم اجتماع المدرسة

تمهيد

يعتبر "بيار بورديو" من بين أشهر العلماء الذين أنجزوا بحثاً قيّماً عن المدرسة بطريقة علمية محكمة حققت قطيعة إبستمولوجية مع الأفكار الجاهزة والأحكام المسبقة والحس المشترك، فقد انتقد التبريرات الإيديولوجية للتفوق الدراسي التي ترجع تفسير نتائج المسار التعليمي إلى نبوغ فطري للأفراد وذكاء خَلقي للطلبة والتلاميذ.

ما نرمي إليه انطلاقاً من معطيات هذا الفصل هو إبراز تأثير الرأسمال الثقافي في نجاح التلاميذ والطلبة في تحصيلهم العلمي والمعرفي، وأنّ الرأسمال الثقافي يرثه الأبناء عن الآباء وإنه يتحدد بالانتماء الطبقي، فالطبقات المحظوظة التي تحتل مواقع سامية في المجتمع تستثمر في قدرات أعضائها وفي طاقاتهم الإدراكية ومقدراتهم اللغوية، لإعادة إنتاج تفوقهم والحفاظ على الفوارق الاجتماعية التي تميّزها عن الطبقات الأخرى.

اقترح "بورديو" ما يسمى بالأولوية البيداغوجية للمناطق المحرومة من الرأسمال الثقافي، وإنّ إهمال الاختلاف في الأصول الاجتماعية لن يحقق تحسناً في أداء المدرسة، فلن يعقل أن نعامل التلاميذ والطلبة بنفس الأسلوب دون الأخذ بعين الاعتبار أن أبناء الأسر التي تنتمي إلى الطبقات العليا يرثون أبجديات الثقافة التي تتلخص في القراءة والكتابة والرياضيات، وطرق السلوك داخل أقسام الدراسة.

المبحث الأول: دور المدرسة في إعادة إنتاج التفاوت الاجتماعي

يتميز العالم الاجتماعي بالتفاوت واللامساواة بين الطبقات، والمدرسة لا تعمل على التخفيف أو التقليل من هذه الفوارق الاجتماعية بل تعطيها شرعية ومصداقية، حيث تحوّل الأحكام الاجتماعية إلى أحكام مدرسية، فبطريقة لا واعية تخفي العوامل الحقيقية للنجاح أو الفشل المدرسي فبدل أن تفسّر بالأصول الاجتماعية للمتمدرسين تفسّر بالفوارق الفردية والتباينات الفطرية¹.

وقد نشأت المدرسة في المجتمع البشري الذي عرف تقسيم العمل وتشكل الدولة لتكون رديفاً للأسرة في الوقت الذي استحال فيه على الأسرة تلقين النشء مختلف المعارف الثقافية، وهي تؤدي دورها هذا المنوط بها حسب هيمنة الدولة، والطبقة السائدة.

إن النظام التربوي في المجتمعات ذات التفاوت الطبقي كما يرى "بورديو" يعتبر أحد الآليات الأساسية الفعالة في ترسيخ النمط الاجتماعي السائد في تلك المجتمعات، وهذا يبدو جلياً من خلال بنية الفرصة النسبية المتاحة لأبناء الطبقات المختلفة لدخول النظام التعليمي في مراحلها المختلفة، هذا من جهة ومن جهة أخرى ثمة مظهر آخر لهذا العنف الممارس من طرف القوى السائدة وهو في تنوع المدارس في المجتمع الواحد واختلاف مستوياتها باختلاف الأصول الطبقيّة للتلاميذ الداخلين إليها، فأبناء الطبقات العليا هم الذين يحتلون المدارس ذات النوعية الرفيعة، وعلى ذلك فالتنوع في المدارس واختلاف مستوياتها إنما يعكس صور هذا التفاوت الطبقي ويجسد بشكل واضح أحد أهم مظاهر العنف الثقافي في المجتمعات الحديثة.

لاحظ "بورديو" عند دراسته للحقل المدرسي تعسفاً رمزياً تشرعه القوانين والتقاليد المدرسية التي تشتمل في مكوناتها الظاهرة على عدالة مصدرها تكافؤ الفرص وخضوع

¹ Patrick Champagne, *la sociologie, les essentiels* Milan, Toulouse, France, 2002, P35

الجميع للقانون. وعليه فالسلطة المدرسية تتسلم في واقع الأمر تفويضاً من الطبقات المهيمنة لفرض التعسف الثقافي، فعن طريق هذا التفويض يتم تمرير العنف الرمزي بلطف¹.

إذن، تعمل المدرسة على إنتاج وإعادة إنتاج المجتمع الذي يتميّز بالتباين الطبقي، وهذا انطلاقاً من أوليات خفية رمزية تضمن إعادة توليد التقسيم الطبقي والتفاوت الاجتماعي².

كرس 'بورديو' و'باسرون' حياتهما الفكرية في معترك الكشف عن ملابسات الدور المدرسي في عملية إعادة إنتاج المجتمع، فعملاً على فضح الممارسات التربوية الطباقية في المدرسة والكشف عن آلياتها ورمزياتها وإسقاطاتها وخفاياها. وقد لا نجافي الحقيقة إذا قلنا إن عبقرية الرجلين قد تجلت في هذا المفهوم الذي يشكل البوتقة الفكرية لمختلف أعمالهما الإبداعية³.

تقوم المدرسة عبر فعاليات تربوية متعددة بإقصاء أبناء الفئات والطبقات المهمشة في المجتمع، من جهة، وتعمل من جهة ثانية على اصطفاء أبناء الطبقات البرجوازية بوصفهم نخبة وصفوة علمية وثقافية وفكرية.

وقف 'بورديو' على الدوام ضد النظام التعليمي القائم على تلقين المعلومات ونقد بشدة المدارس ومناهجها. وحسب رأيه يجب أن تكتفي الدولة بتعليم التعليم وتدريب الناس على تحصيل المعرفة. فالرجل يرفض الأدلجة ولا يقبل أية شبهة للتأثير السياسي في التعليم⁴.

إن معرفة طبيعة الواقع الاجتماعي والتعرّف على ما فيه من وقائع موضوعية ورؤى ذاتية، يعنى الوقوف على محور الصراع الطبقي فيه... وهذا الصراع لا يدور من أجل

¹ أكرم حجازي، "البنوية التركيبية: فلسفة بيير بورديو"، مجلة علوم إنسانية، العدد 20، ماي 2008، ص5.

² على وطفة، إعادة الإنتاج: في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، إضافات، الكويت، العدد، الخامس، شتاء 2009، ص177

³ المرجع نفسه، ص178.

⁴ إبراهيم بلوح، نظرية العنف الرمزي عند بيير بورديو، إشراف الأستاذ العطوي عبد الرحيم، أفكار مغربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ديسمبر 2009.

السيطرة فحسب، وإنما يدور أيضاً، وأساساً، من أجل إخفاء تلك السيطرة وطمس معالمها. والجانب المتصلّ بهذا الإخفاء هو الذي حدا بـ "بورديو" إلى الأخذ في تحديده لطبيعة موازين الصراع بين الطبقات لا بعنصر القوة فحسب، وإنما بعنصر المعنى أيضاً. فالصراع الطبقي هو صراع محكوم من جهة بموازين ماديّة ذات بعد اقتصادي (من خلال الرأسمال المادي). وهو محكوم من جهة أخرى بموازين معنوية تضمن شرعية سلطة الغالب وهيمنته الثقافية. ففكرة المعنى تحيل إذن على وجود بعد رمزي يضيف على السيطرة الطبقيّة شرعية تجعلها نافذة المفعول لدى الجميع، على تباين المواقع والمصالح الطبقيّة¹.

ولما كانت الطبقات المهيمنة تفرض على الطبقات الأخرى بناها الخاصة الضامنة لإعادة إنتاج هيمنتها، فإنّ عملية الفرض هذه تغدو جزءاً لا يتجزأ من العلاقات بين الطبقات. فواقع الصراع الاجتماعي هنا لم يعد واقع صراع الطبقات فحسب، وإنما صار أيضاً واقع إعادة إنتاج تلك الطبقات كيفما كانت.

وثمة بين نسق أشكال الانتظام الموضوعية داخل موقع طبقي ما من جهة، ونسق السلوك والتصرّف في بعده الذاتي من جهة أخرى، واسطة هي التطبّع الذي يعتبره "بورديو" نقطة التقاطع التي تلتقي فيها الحتميات، والاحتمالات، والآمال المعيشة، والمستقبل الموضوعي، والمشروع الذاتي. ومن هنا فإنّ التطبّع الطبقي، من حيث هو نسق من السلوك والتصرّف في مستوى الجسد، والذهن، والوجدان يغدو رسوماً لا واعية مسيرة للفكر والإدراك والفعل معاً لدى كل الطبقات، وإن توهمّ الناس قدرة على الجدة وابتكار حلول متحررة من المنظومة السائدة، وذلك لأنّ التطبّع ذاته متولّد عن الشروط التي حدّتها أشكال الانتظام الطبقي تلك².

وفي هذا السياق يرى "بورديو" و"باسرون" أن المجتمع ينتج ويعيد إنتاج بنيته الطبقيّة عبر المدرسة والأنظمة التعليمية القائمة. فالطبقة التي تسود وتهيمن توظف التعليم في خدمة

¹ صالح حاجي، أعلام البيداغوجيا، دار سيريس، تونس، 2000، ص94.

² المرجع نفسه، ص97.

مصالحها الطبقية، وهي من أجل تحقيق هذه الغاية تلجأ إلى العنف الرمزي والمناهج الخفية في إعادة إنتاج المجتمع على نحو طبقي.

فالمدرسة أداة في يد الطبقة البرجوازية لإعادة إنتاج ثقافتها الخاصة وتحويلها إلى المتعلمين على أنها الثقافة الوحيدة المشروعة.

وهكذا تبدأ عملية الإقصاء التربوي لأبناء الطبقات غير المحظوظة بطريقة تبدو لهم عفوية وطبيعية ومشروعة. وتترك الطبقات الكادحة موقعها في السلم الاجتماعي طوعاً وتتخلى عنه لصالح الطبقات المسيطرة في المجتمع.

وكان من الطبيعي أن يبدأ الباحثون في إطار الاتجاه النقدي الجديد توجيه نقد عنيف لأصحاب الاتجاه الوظيفي وفكرة التعليم كآلية لتحقيق المساواة والحراك الاجتماعي، ونادوا بأن المدارس ليست مواقع بريئة لنقل الثقافة أو أماكن لتلقين القيم الاجتماعية التي يتفق عليها المجتمع، كما لا يمكن النظر إليها على أنها آلية التكافؤ العظيمة التي تعمل كنقطة انطلاق لتحقيق فكرة الجدارة والحراك الاجتماعي. المدرسة على النقيض من ذلك، حسب أصحاب الاتجاه النقدي الجديد، تحافظ بطريقة مباشرة على الأوضاع الاجتماعية القائمة والراهنة للنظام الرأسمالي وتعيد إنتاجه ومن ثم تؤدي دوراً أساسياً، بل سياسياً، في ترسيخ وتدعيم التفاوت الطبقي الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية¹.

وقد ذهب "بورديو" و"باسرون" إلى أن الثقافة تمثل الوسيط الرئيسي الذي يتم به ومن خلاله عملية إعادة إنتاج بنية التفاوت الطبقي في المجتمعات المعاصرة، فالأنساق الرمزية الثقافية هي الآليات الأساسية الفاعلة، في عملية إعادة إنتاج علاقات القوى والنفوذ السائدة بين جماعات أو طبقات المجتمع.

¹ أحمد جميل حمودي، "بيير بورديو: الوريث الراحل للمدرسة النقدية -الراديكالية-"، الحوار المتمدن، العدد 2480، 29-10-2008، ص1.

والطبقات الاجتماعية المحظوظة تبقى امتيازاتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والرمزية للأجيال اللاحقة، على الرغم من أن مجتمع ما بعد الصناعة المعاصر يفخر بمساواة الفرص والحراك الاجتماعي الجلي، المتحقق من خلال التعليم.

عمل "بورديو" الاجتماعي سيطر عليه تحليل آليات إعادة إنتاج الهرميات الاجتماعية. في معارضة التحليلات الماركسية، انتقد الأسبقية المعطاة للعوامل الاقتصادية، وأكد أن قدرة الأعوان الاجتماعيين لفرض، وبشكل نشيط، منتجاتهم الثقافية والأنظمة الرمزية يؤديان دوراً أساسياً في إعادة إنتاج البنى الاجتماعية المهيمنة. والذي يدعى عنفاً رمزياً وهو القدرة على ضمان استبدال النظام الاجتماعي لاستمرارية شرعية البنى الاجتماعية.

ولتقديم فهم أفضل لمقاربة بورديو للنظام التعليمي من الضروري قبل ذلك التعرف على مقاربات أخرى والتي نلخصها فيما يلي:

- **الاتجاه البنيوي الوظيفي:** تتمثل، حسب هذا المنظور، وظيفة المدرسة في التنشئة الاجتماعية للفرد وتأهيله مهنيًا لتسهيل تكيفه واندماجه في المجتمع. (إميل دوركايم وتالكوت بارسونز).

- **الاتجاه الماركسي:** ينظر إلى المنظومة التعليمية كجزء من البنية الفوقية، وأن التعليم يعيد إنتاج العلاقات الاقتصادية والاجتماعية السائدة في المجتمع، من خلال إعادة إنتاج المهارات اللازمة لكفاءة العمل، ثم نقل الإيديولوجية المسيطرة وإضفاء الشرعية عليها (التوسير).

- **الاتجاه المنهجي الفردي:** يخرج من إطار الجدل السوسيولوجي الشمولي حول صلة المدرسة بالمجتمع إلى مجال سوسيولوجي جزئي من خلال تركيزه على الاختيارات والاستراتيجيات الفردية، فالمسار التربوي لدى هذا الاتجاه يتحدد بقرارات التلاميذ والعائلات

المبنية على عقلانية اقتصادية تتلخص في حساب الفارق بين الأرباح والتكاليف (ريمون بودون).

- **الاتجاه البنيوي التكويني:** يعتبر النظام التعليمي كحقل يتشكل من أعوان اجتماعيين (أساتذة، بيداغوجيون، ممتدرسون،...)، ينخرطون في تفاعل، يعبر عن علاقات القوة في تشكيلة اجتماعية معينة، ويساهم من خلال مفعوله الخاص في حفاظ الطبقات السائدة على وضعية سيطرتها.

يقول "بيير دوندرين" إن أحد الأبعاد الهامة لنظرية الفعل البيداغوجي عند "بورديو" و"باسرون"، إن لم تكن محورها الأساسي، هو أن هذا الفعل لا يتحقق إلا إذا تمكن من إخفاء علاقات القوة التي تضمها وتحتويها، وإن السمة التحكمية لهذا الفعل يجب أن تظل متخفية، وإن الفعل البيداغوجي يجب أن يقدم لابساً لباساً شرعيةً.

بيد أن علاقات القوة هذه تعود إلى التاريخ الثقافي للفرد، والذي يحدد موقعه ضمن الجماعة المتمدرسة، لا إلى الموهبة والجدارة كما يتداول داخل الخطاب التربوي.

والمدرسة كحقل اجتماعي يعني لدى "بورديو"، ليس مجرد تمثّل ذاتي أو بناء نظري للعالم، بل له وجود موضوعي في الواقع، تعكسه حقيقة المؤسسات التي تعبر عنه، وكذلك الممارسات والمصالح المشتركة، ويتميز الحقل بالخصائص التالية:

كل حقل في سيرورة تشكله التاريخي، يمر بمراحل طويلة وبطيئة، وصراعات متعددة تستهدف الحصول على الاستقلال الذاتي، إنه عويلم صغير من العالم المجتمعي، يشتغل بطريقة مستقلة نسبياً، له قوانينه وقواعد لعبه الخاص.

يتميز الحقل بوجود نوعين من الصراع، الأول داخلي بين عملائه، في تنافسهم على الشرعية وعلى امتلاك الحق في تمثيل الحقل والتعبير عنه واحتكار المنافع التي يدرها، وأيضاً التنافس بين قدماء الحقل (الآباء المؤسسون)، والوافدون الجدد (المحدثون)، والثاني هو

صراع بين الحقل وباقي الحقول المنافسة داخل الفضاء الاجتماعي. الحقل إذن بنية لها تاريخاً.

ومن الأفكار العلمية التي عمل "بورديو" على إبرازها طيلة مساره الفكري، لدينا فكرة مفصلية تتلخص في إثبات تهافت الخطابات التربوية الرسمية، والتي تتمحور في المسلمات الآتية:

- تلقن المؤسسة التعليمية الأفراد جملة من المعارف والمهارات اللغوية والفكرية والسلوكية.

- كل الأفراد لهم الحظوظ نفسها في التعليم.

- لكل فرد الحرية في اختيار الشعبة التي تتلاءم مع مواهبه ومؤهلاته.

- يثمن كل فرد له القدرة والاستحقاق والجدارة على مجهوده بشهادة الاستحقاق بعد الاختبارات.

يترتب عن ذلك مسلمة أساسية مفادها أن المؤسسة التعليمية ديمقراطية ولا تقصي إلا من يقصي نفسه. ولما كانت المسلمة منطلق تخميني يتقبله الباحث مؤقتاً في انتظار تفنيده أو تدعيمه، من خلال دراسة ميدانية أو تاريخية، انطلق "بورديو" من معطيات إحصائية وملاحظات ميدانية لإبراز تهافت هذه المسلمة.

المبحث الثاني: نقد إيديولوجية الموهبة

يرفض "بورديو" تعليل النجاح في الدراسة بمسألة الموهبة أو الذكاء الفردي والإحصائيات في نظره توضح أن التفوق في الدراسة والحصول على الشهادات يرجع إلى الأصول الاجتماعية للتلاميذ : 4% فقط من التلاميذ الذين ينحدرون من أسر يحترفن أعمال بسيطة يلتحقون بالجامعة، و 59% من التلاميذ الذين ينحدرون من أسر يمارسن مهن حرة ينضمون إلى الجامعة كذلك، و 72% من التلاميذ الذين ينحدرون من أسر مقاولين صناعيين يدخلون الجامعة¹. هذا معناه أن التلاميذ الذين ينتمون إلى الطبقات المحظوظة لديهم فرص أكبر للنجاح على خلاف التلاميذ المنتمين إلى الطبقات غير المحظوظة حيث تقلص كثيرا فرص نجاحهم المدرسي.

لتبيان كل ما سبق نورد مثالا توضيحيا لذلك قدمه "بورديو" كالتالي:

"لكي نعطي نظرة شاملة لطريقة عمل آليات إعادة الإنتاج التعليمي يمكننا، مبدئياً، أن نستحضر الصورة التي استخدمها عالم الفيزياء ماكسويل لكي يسهل فهم كيفية تعليق فاعلية القانون الثاني للترموديناميكا: يتخيل ماكسويل شيطاناً يقف بين الجزئيات التي في حالة حركة وهي ساخنة بدرجة ما، أي سريعة بدرجة ما. عندما تمر الجزئيات أمامه يقوم بعملية فرز، فيرسل الجزئيات الأسرع في وعاء ترتفع درجة حرارته ويرسل الجزئيات الأبطأ في وعاء آخر تتخفض درجة حرارته، وبذلك يحتفظ بالفارق وبالنظام الذي كان سينعدم لو تم الأمر بصورة أخرى. تتصرف المؤسسة التعليمية بطريقة شيطان ماكسويل نفسها: فهو يحفظ النظام الموجود مسبقاً أي بالهوية التي تفصل بين التلاميذ الحاصلين على كميات غير متكافئة من رأس المال الثقافي رغم هدر الطاقة اللازمة لإجراء الفرز. وبشكل أكثر تحديداً، يقوم النظام التعليمي، عبر سلسلة من عمليات الفرز، بالفصل بين الحائزين على رأس مال ثقافي

¹ Patrick Champagne, op.cit , P41.

موروث، والمحرومين منه، لأن الفروق في الاستعدادات وثيقة الارتباط بالفروق الاجتماعية حسب نوع رأس المال الموروث، تتجه المؤسسة التعليمية إلى الاحتفاظ بالفوارق الاجتماعية الموجودة¹.

يفسّر "بورديو" كل هذا بتأكيدِه على أن النجاح الدراسي لا يرجع إلى القدرات الفطرية للتلاميذ ولا إلى مؤهلاتهم الفردية بل إلى الخلفية الاجتماعية لأسرهم، ففي رأيه تعتبر الإحصائيات الدعم الموضوعي لأي عمل علمي. فلكي نتجاوز الخطاب العامي والسوسيولوجيا العفوية من اللازم تقديم رؤية عامة عن الظاهرة المدروسة بدل الوقوع في فخ الحالات الخاصة التي لا تعبر عن حقيقة الواقع بل عن أفراد معزولين، فمن العبث الفكري القول أنني عرفت تلميذا منحدرًا من عائلة بسيطة نجح في دراسته، فهذا المعطى لا يعبر عن الواقع بشموليته بل يبقى في حدود المفرد.

وما يهمننا في هذا الإطار هو نقد "بورديو" لإيديولوجية الموهبة التي يخفي بها القائمون على النظام التربوي حقيقة الفوارق بين التلاميذ التي ترجع إلى محددات اجتماعية، فالتلاميذ المنحدرين من أصول اجتماعية متواضعة كما قلنا سابقًا فرصهم في النجاح قليلة جدًا، بغض النظر عن قدراتهم ومؤهلاتهم وذكائهم وانضباطهم واجتهادهم.

إذا أردنا تقديم المنظور السوسيولوجي إزاء ظاهرة النجاح الدراسي لقلنا أنها تتحدد بالرأسمال الثقافي الذي بحوزة أسر التلاميذ، فإذا كان الوالدان يملكان مؤهلات علمية وقدرات معرفية وشهادات مدرسية وأشياء مرتبطة بالثقافة كالكتب واللوحات الفنية الأصلية، سيوفر كل هذا جوًّا ثقافيًا محفزًا وسياقًا تربويًا ثريًا، يساعدان التلاميذ على اندماجهم في الوسط الدراسي.

¹ بيار بورديو ، أسباب عملية، المرجع السابق، ص 49.

وحسب "بيار بورديو" إن الثقافة المدرسية ماهي في الواقع إلا ثقافة الطبقة السائدة ولهذا فأطفال الأسر المحظوظة يجدون سهولة للتأقلم مع مضامين البرامج التعليمية فقد تعلموا منذ نعومة أظافرهم طريقة الكلام الصائبة التي تشجع عليها المدرسة فهم يرثون رأسماً لغوياً يوافق إلى حد بعيد الثقافة المدرسية.

أما التلاميذ الذين ينحدرون من أسر شعبية متواضعة فإنهم يواجهون صعوبات جمة للتكيف مع الثقافة المدرسية والبرامج التعليمية الموافقة لها، فكأنهم يخضعون إلى عملية مثاقفة أي الانضواء تحت ثقافة أجنبية مفروضة، فطريقتهم الخاصة في الجلوس والوقوف والتحدث والتعبير تختلف كل الاختلاف عما تفرضه المدرسة.

و"الامتحانات والمسابقات تبرر عقلانية لا تضع العقلانية هدفا لها وتقدم الألقاب التي تصادق على نتيحتها شهادات الكفاءة الاجتماعية كضمانات على الكفاءة الفنية، مقترية في ذلك من ألقاب الأرستقراطية. من الآن فصاعداً يعتمد النجاح الاجتماعي، في جميع البلاد الصناعية مثل فرنسا والولايات المتحدة واليابان، بصورة وثيقة على عملية ترشيح مبدئية (فرض اسم، في العادة يكون اسم مؤسسة تعليمية، جامعة توداي أو هارفارد أو مدرسة البوليتكنيك) تكرر تعليمياً الفارق الاجتماعي الموجود"¹.

هكذا تسعى المؤسسة، حتى وهي لا تكلّ عن إعلان انحيازها إلى مبدأ الاستحقاق الفردي على حساب امتيازات المولد والوراثة. إلى تأسيس نبالة دولة حقيقية بواسطة الربط الخفي بين الكفاءة المدرسية والإرث الثقافي، بحيث تكون سلطة تلك النبالة ومشروعيتها مضمونتين باللقب المدرسي. ومن هنا الارتباط الوثيق الذي يشهد عليه التاريخ بين المؤسسة المدرسية وتشكل نبالة الدولة.

بهذا التضافر إذا بين استراتيجيات الأسر والعائلات التي تسعى إلى إعادة إنتاج مواقعها الاجتماعية وتحسينها جيلاً بعد جيل من جهة، وبين آليات اشتغال النظام التعليمي

¹ بيير بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص51.

والتربوي من جهة أخرى، يذهب الرأسمال إلى الرأسمال، وتتزع البنية الاجتماعية نحو الاستقرار والخلود.

المبحث الثالث: الفعل البيداغوجي والرأسمال الثقافي

وما يعمق الأفكار الواردة أعلاه، اعتبار الثقافة السائدة، التي تعيد إنتاجها المدرسة وتقيم على أساسها النبوغ والتفوق والتميز، هي الثقافة الأصلية الوحيدة والكونية، أي الشرعية والمانحة للشرعية في نفس الوقت.

إنّ الأسطورة الديكارتية، حسب "بورديو"، التي تقول بعقل فطري، أي بثقافة طبيعية أو بطبيعة مثقفة وجودها سابق لوجود التربية، إن كانت وهماً استردادياً مسجلاً بالضرورة في التربية باعتبارها فرضاً اعتبارياً قادراً على فرض نسيان الاعتباط، ليست إلا حلاً سحرياً آخر لدائرة السلطان البيداغوجي¹.

وباعتبار الفعل البيداغوجي مبني على تلقين مستمر ينتج تطبع دائم وقابل للنقل، ويدمج في المتلقين الشرعيين نسق خطاطات إدراك وتفكير وتقدير وممارسة، فإنه يسهم في إنتاج وإعادة إنتاج الاندماج الفكري والاندماج الأخلاقي للجماعات أو للطبقة التي باسمها يُمارَس.

والتربية، بصفها أداة رئيسية للاستمرارية التاريخية والتي تعتبر سيرورة، تتم من خلالها عبر الزمن إعادة إنتاج الاعتباط الثقافي بوساطة إنتاج التطبع المنتج لممارسات مطابقة للاعتباط الثقافي، هي من منزلة الثقافة نظير توريث الرأسمال الجيني من منزلة البيولوجيا².

ولو أخذنا الصيغة التربوية لهذه الدورة الثقافية للرأسمال الثقافي لأمكن القول إن أبناء المهمشين يعانون فاقة وسطهم الاجتماعي ثقافياً، وهم يأتون إلى المدرسة محمّلين بزاد ثقافي مباين لحدود وبنية الثقافة المدرسية، ويجدون أنفسهم مكرهين على احتقار ثقافتهم واحتقار ذواتهم معها، أما أبناء البرجوازية فإنهم يأتون إلى المدرسة وفي جعبتهم ثقافة مجانية

¹ بيير بورديو، إعادة الإنتاج، المرجع السابق، ص142.

² المرجع نفسه، ص.ص 136، 137.

لتقافتها، إن لم تكن أكثر رقياً وأهمية، وعندما يدخلون حلبة السباق المدرسي يكون النجاح حليفهم، بينما يكون الفشل المدرسي من نصيب أبناء المهمشين.

وهذا يعني أن طفل الفئة البرجوازية يعيش استمرارية وتكاملاً بين ثقافة فئته وثقافة مدرسته؛ مما يسهل عليه عملية التوافق، إن لم يكن مسبقاً متوافقاً، ومن ثمة يصبح وريثاً للنظام المدرسي. أما طفل الطبقة الدنيا، فهو يعيش قطيعة وتناقضاً بين ثقافة فئته وثقافة مدرسته؛ مما يجعل هذه الأخيرة غريبة وبعيدة عنه. ولكي يتوافق دراسياً معها، عليه أن يتخلص من رواسب ثقافته، وأن يتعلم طرقاً جديدة في اللغة والتفكير.

إن تجربة الإخفاق أو التعثر الدراسي، يقوم الأساتذة أو الطلبة بإسنادها إلى الماضي القريب للشخص والموهبة التي يملكها، إن التعثر أو النجاح حسب "بورديو"، لا يتوقف على الموهبة أو على الفرد ذاته، وإنما هو نتاج توجيهات مبكرة لوسطه العائلي¹.

ذلك أن الطلبة المحظوظين اجتماعياً يرثون من أوساطهم معارف ومهارات وأذواق، تنعكس على التحصيل الدراسي. ويتجلى الامتياز الثقافي، في شكل ألفة مع الأعمال الثقافية، كالتردد المنتظم على المسرح والمتحف والمهرجان، ويتجلى كذلك من خلال الإطلاع على الأعمال المعاصرة (روايات، مجلات...)، ومن ثم فالطلبة لهم معارف أكثر شمولية وغنى كلما كانت أصولهم الاجتماعية أكثر ارتقاء، غير أن هذه العوامل الاجتماعية المحددة للفوارق الثقافية تتوارى داخل الفصل الدراسي، إذ أن "البرجوازي الصغير والمجدد باستطاعته أن يعادل الامتياز الذي تمنحه الثقافة العالمية، لأبناء الطبقات العليا، إلا أن القيم المختلفة التي توجه سلوكات متماثلة يمكنها أن تتكشف بطريقة غير مباشرة، من خلال الفوارق الدقيقة". هكذا "أبناء الفلاحين أو الإطارات المتوسطة، وأبناء العمال أو الإطارات العليا يمكنهم أن يبدو معرفة متكافئة عن المسرح الكلاسيكي دون أن تكون لهم نفس الثقافة في هذا الميدان لأنه ليس لهم نفس الماضي الثقافي، فتوحد المعارف لا يعبر بالضرورة عن

¹ حساين المأمون، بيير بورديو: "نحو سوسيولوجيا الكشف عن الهيمنة"، الحقل التربوي نموذجاً، دليل الكاتب، نوفمبر 2013، ص5.

نفس المواقف ولا يستخدم القيم نفسها: فعندما يلاحظ عند البعض قدرة قاصرة على الانضباط والتعلم المدرسي يتجلى لدى البعض الآخر قلة الخضوع لهذه الأوامر المدرسية، فالأمر يتعلق بامتلاك هؤلاء لثقافة يملكونها من وسطهم العائلي، (...) من متجليات هذا الامتياز الثقافي الأكثر إثارة للاندھاش ذلك المرح التهكمي واللياقة المتصنعة، أو الثقة النظامية التي هي من فعل طلبة ينحدرون من الطبقات العليا، حيث تشكل طرقهم هذه علامة على الانتماء إلى النخبة". وبالتالي فإن هذا الامتياز الثقافي، الذي ورثه هؤلاء في شكل إرث ثقافي، ينقل بطريقة خفية، غير مباشرة، وفي غياب أي مجهود منهجي، وكذلك كل فعل ظاهري، إنه تقريباً في الأوساط الأكثر تنقيفاً، حيث تقل الحاجة للوعظ على التفاني الثقافي وتقديم المساعدة بعزم وتدريب على الممارسة الثقافية، في مقابل الوسط البرجوازي الصغير حيث لا ينقل الآباء لأبنائهم شيئاً آخر سوى الإرادة الثقافية الخيرة، فالطبقات المثقفة، تهيئ حوافز جد متعددة ومقنعة، وذلك بغية تفعيل الانخراط في الثقافة بواسطة نمط خفي من الإقناع ومنه فالمدرسة تبقى "السبيل الأوحده والوحيد لولوج الثقافة (العالم الثقافي)، وهذا في كل المستويات الدراسية، وبالتالي فالمدرسة هي الطريق الملكي لدمقرطة الثقافة (...)"، فالطلبة يختلفون بمجموع الاستعدادات والمعارف القبلية التي تعود إلى وسطهم الاجتماعي، فهم إذن ليسوا متساويين في اكتساب الثقافة العالمية إلا صورياً، وللتدليل على ذلك يضيف بورديو أن "كل تعليم، ولا سيما تعليم الثقافة (حتى العلمية منها) تفترض مسبقاً وضمنياً، شيئاً من المعارف والمهارات ولا سيما آداب الكلام والتي تكوّن تراث الطبقات المثقفة".

وتأسيساً عليه، فإن سهولة استدخال الثقافة التي تنقلها المدرسة تزداد كلما ارتقينا في سلم الانتماء الاجتماعي، وهكذا فإن قاعدة النجاح المدرسي تتسع عند الطلبة الذين ينحدرون من طبقات متوسطة وتزداد عند الطلبة الذين ينحدرون من طبقات مثقفة، ومنه فالأستاذ الذي يقوم بتقييم عمل التلميذ المتألق، أو الموهوب، والتلميذ المجد، لا يحكم في الغالب سوى على علاقة بالثقافة، تتعهد كلا منهم منذ ولادته، "والحال أن ثقافة النخبة إذا كانت تقترب من ثقافة المدرسة فإن ابنا ينحدر من وسط بورجوازي صغير (فما أدراك بمن ينحدر من وسط عمالي أو فلاح) لا يمكنه الاكتساب إلا بالكد، ما يتلقاه ابن طبقة مثقفة، اللياقة، الذوق،

الفكر، باختصار فهذه المهارات وآداب السلوك، هي طبيعياً تنتمي إلى طبقة معينة لأنها ثقافة هذه الطبقة، فبالنسبة للبعض اكتساب ثقافة النخبة هو امتحان عسير، وبالنسبة للبعض الآخر إرث يضم السهولة والتساهل في الآن نفسه".

تقوم المؤسسة التعليمية بتطبيع سلوكات الأفراد عبر سلطة الفعل البيداغوجي وفق الميكانيزمات التداولية التالية:

- الثقافة نسق من الرموز والقيم والدلالات وأنماط السلوك.

- قناة: أي مؤسسة تعمل على ترسيخ هذه الثقافة في وعي الفرد وتشكل الأسرة والمدرسة أهم هذه المؤسسات.

- مرسل: أي فاعل مؤهل يملك آليات تفكيك الرموز والتلقين.

- متلقي: أي مستقبل يعمل على استدخال هذه الثقافة وترجمتها على مستوى السلوك والمؤسسات وبالتالي إعادة إنتاجها من جديد.

- علاقة: تواصل بين المرسل والمرسل إليه. فما هي مميزات أطراف التواصل؟

المرسل : متكلم يملك سلطة الكلام انطلاقاً من مؤسسة تخول له مشروعية الكلام، أي يتكلم بلسان الثقافة المشروعة التي يضعها بيداغوجيون، "يتطلب النشاط التربوي، عملاً تربوياً، هو عمل ترسيخي لا بد من أن يدوم بما يكفي لإحداث تأهيل يتصل بالدوام، أي لإنتاج تطبع تربوي من خلال استبطان المبادئ التي ترسي تعسفاً تربوياً قادراً على الاستمرار بعد أن يتوقف النشاط التربوي، تبعاً لذلك على إدامة مبادئ التعسف المستبطن في سياقات الممارسة التربوية"، اعتماداً على عملية تواصل بيداغوجي، مشروطة بآليات عمل محددة يعيش ضمنها الفاعل /الأستاذ وضعية التعالي والانغلاق التي يوفرها له فضاء المدرسة كالمسافة اللفظية مثلاً، يقول كل من "بورديو" و"باسرون": "الأستاذ يظل بعيداً عن طلبته

ويحيط نفسه بـ"يقال" العامة والمخيفة، محكوم عليه بأن يعيش المونولوج المسرحي والاستعراض الجاهز.

الرسالة: مجموعة دلالات ورموز أي نسق رمزي، يتجسد في الأدوات التربوية التي تضعها المؤسسة، علينا أن لا نعتبر الأدوات التربوية التي يضعها بتصريف عملائه (كتب، تفسيرات، كتاب المعلم، برامج، تعليمات تربوية...) كمجرد عناصر مساعدة على الترسخ فقط، بل كأدوات ضبط لتدعيم أرثوذكسية العمل المدرسي في مواجهة الهرطقات الفردية وتهدف هذه الأدوات إلى ترميز وتنميط الرسالة المدرسية وتنسيقها.

المرسل إليه: متلقي يستدخل هذه المعطيات، وما دام الأفراد يختلفون من حيث انتماءاتهم الاجتماعية فسيختلف بالضرورة تطبعهم، أي الأخطيط الإدراكية والفكرية والتقييمية والعملية في استساغة هذه الرموز وفك آلياتها والتي يمثل المرسل مالكا لها وضامناً لفهمها بحكم رأسماله المعرفي¹.

يرى "بورديو" أن فعل التعلم هو وسيلة في خدمة هدف خارج عنه، وهذا يعني أن الفعل الحاضر لا يأخذ معناه إلا بإحالاته إلى المستقبل، هذا الحاضر لا يهيئه إلا إذا حضر لنفي ذاته، يتبع هذا أن السيرورة التي تتحدد باعتبارها مؤقتة وانتقالية لا تستطيع أن تحافظ على جدتها إلا استناداً إلى الشرط المهني الذي تحضر له، أي الحاضر هنا ليس له وجود إلا بالوكالة وبالأسبقية².

¹ حساين المأمون، المرجع السابق، ص6

² Pierre Bourdieu et Jean Claude Passeron , les héritiers : les étudiants et la culture, Minuit, Paris, 1964, P84 .

المبحث الرابع: إيديولوجية الاستحقاق والعنف الرمزي

ما أكده "بورديو" هو أنّ إهمال القائمين على المدارس، للجذور الاجتماعية والمرجعيات الطبقية للتلاميذ، يمثل إغفالا لأساسيات العملية التعليمية التي يصفها في هذه الحالة ببيداغوجية غياب البيداغوجية¹، فأى عملية بيداغوجية تتجاهل الخلفيات الاجتماعية المتباينة لتلاميذها فهي بيداغوجية فاشلة لا تأخذ بعين الاعتبار الفوارق الثقافية بين التلاميذ، ومن ثم تقصي التلاميذ الذين ينحدرون من أصول اجتماعية متواضعة.

وفرض ثقافة الطبقة المهيمنة على أطفال الطبقات المهيمَن عليها، يعتبر عنفا رمزيا يمارس على تلاميذ الأسر غير المحظوظة، لأنه يفرض الاعتراف بالفوارق الفردية التي هي في الحقيقة فوارق اجتماعية، ومن ثم تحقيق سيطرة على مستوى التمثلات.

وبهذا الصدد يقول بورديو : "إنّ كل سلطة عنف رمزي، أي كل سلطة تظال فرض دلالات وتظال فرضها على أنها شرعية أن توارى علاقات القوة التي هي منها مقام الأسس لقوتها، إنما تزيد إلى علاقات القوة تلك، قوتها الرمزية"².

يمثل المعلمون أعوانا اجتماعيين يتواطئون بشكل غير واع مع استراتيجيات النسق المدرسي، فيحولون أحكاماً اجتماعية إلى أحكام مدرسية. فالتلاميذ الذين ينحدرون من أصول اجتماعية بسيطة وغير محظوظة، سيتحولون إلى تلاميذ ضعفاء و"أغبياء"، والتلاميذ الذين ينحدرون من أصول اجتماعية مرموقة ومحظوظة يتحولون إلى تلاميذ نجباء و"أذكاء".

وفي نظر "بورديو" إن كل فعل بيداغوجي إنما هو، موضوعياً، عنف رمزي على اعتبار أنه فرض، بواسطة سلطة اعتبارية، لاعتباط ثقافي.

¹ Patrice Bonnewitz, Pierre Bourdieu, Ellipses, France, 2002, P22.

² بيير بورديو، إعادة الإنتاج، المرجع السابق، ص102.

وأكثر من ذلك إن الفعل البيداغوجي الذي تستند سلطته الاعتبارية إلى فرض اعتبار ثقافي في آخر المطاف على علاقات القوة بين الزمر أو الطبقات المكونة للتشكيلة الاجتماعية حيث يتحقق، إنما يسهم، حين يعيد إنتاج الاعتبار الثقافي الذي يلقنه، في إعادة إنتاج علاقات القوة، علاقات تؤسس سلطتها على الفرض الاعتباري.

ولأن كل فعل بيداغوجي قيد الممارسة يتهاياً بطبيعته على سلطان بيداغوجي، فإن المتلقين مهياون منذ الوهلة الأولى للاعتراف بشرعية الإخبارية المرسلّة وبسلطان المرسلين البيداغوجيين، إذن هم مهياون لتقبّل الرسالة واستبطانها.

ولهذه الأسباب مجتمعة يمارس على أبناء الطبقات المحرومة إقصاء مزدوج: يتمثل الأوّل في الرسوب المدرسي، والثاني يتجسد في تقبّل هذا الإقصاء وكأنه طبيعي يرجع إلى الإعاقة الفكرية والمحدودية في الذكاء.

إنّ الرأي الذي يقول بفعل بيداغوجي "حر ثقافياً" يفلت من التعسف سواء في محتوى ما يفرضه أو في أسلوب فرضه، يلزم جهلاً بحقيقة الفعل البيداغوجي الموضوعية، أي يمارس عنفا رمزياً ليتناسى على أنه كذلك.

لا يفوتنا في هذا السياق الإشارة إلى معطى سوسيولوجي مفاده أن البرامج الدراسية والمناهج التعليمية وطرق التقويم وأسس الانتقاء هي مسألة فرض أنموذج ثقافي على آخر ورؤية للوجود على أخرى. فلا يجب أن نتصور أن المنظومة التربوية تسيّر بشكل تلقائي محايد، بل إنها تخضع لصراع قوى وتدعيم هيمنة وتثبيت إدراك.

وما أثار انتباهنا هو اعتبار "بورديو" أن التحكم في لغة الرياضيات لديه تفسير اجتماعي، فأبناء الطبقة العليا (المحظوظة) يتقنون أكثر من غيرهم هذه المادة الدراسية، لأنّ اللغة اليومية المستعملة في أوساط الأسر الراقية هي لغة تجريدية رمزية وهي لغة قريبة من الرياضيات كمادة تعليمية.

فما نريد التأكيد عليه بهذا الشأن هو أن التفوق المدرسي يرجع في الأساس إلى طبيعة الرأسمال الثقافي الذي ورثه التلاميذ عن أسرهم، فأبناء الطبقة المحظوظة يرثون النجاح وسهولة النجاح¹ فهم يأتون إلى المدرسة حاملين لاستعدادات ومكتسبات تشجعها المنظومات المدرسية، أما أبناء الطبقة غير المحظوظة فيدخلون إلى المدرسة وكأنهم دخلوا إلى وسط غريب عنهم، وعن رصيدهم المعرفي الضئيل وقدراتهم الفكرية المتواضعة، مقارنة بما هو مفروض من طرف المدرسة.

فالحقل المدرسي في سيره واشتغاله يهمل هذا المعطى ولا يوليه أهمية، لأن وظيفته في إعادة إنتاج التفاوتات الاجتماعية تجبره بطريقة غير واعية على طمس هذا المعطى الموضوعي وتدليسه، واستبداله بمعطى آخر وهو الاستحقاق. فالمتفوق في الدراسة يستحق ذلك لأنه ذكي وبارع ونجيب ومجتهد، وهذا في الواقع يمثل إيديولوجية تخفي السيورة الحقيقية للنظام التربوي، فبدل إعطاء المحددات الاجتماعية دورها في تفسير فشل البعض ونجاح البعض الآخر، يرجعون ذلك إلى فوارق فردية ومواهب فطرية، وهذا لتحقيق هيمنة إيديولوجية واستبدال حقيقة اجتماعية بحقيقة طبيعية.

ينتقد "بورديو" النظريات الكلاسيكية للتربية، التي تصف نسق التربية على أنه مجموع أواليات مؤسسية أو أواليات عرفية، بها يجد توريث الثقافة بين الأجيال نفسه مؤمناً تلك الثقافة التي ورثت عن الماضي، فإنها تنزع إلى فصل إعادة الإنتاج الثقافي عن وظيفتها التي تقضي بإعادة الإنتاج الاجتماعي، أي تنزع إلى تجاهل أثر العلاقات الرمزية في إعادة إنتاج علاقات القوة.

لقد شكّل مفهوم العنف الرمزي مدخلاً منهجياً للكشف عن الملابس الخفية للفعل الثقافي التربوي، ومن تحديد دور المؤسسات التربوية في هندسة العقلية وبناء السلوكيات الإنسانية، وفقاً لصيغ تربوية وسياسية بالغة الأهمية والدلالة. فالعنف الرمزي هو السلطة

¹Pierre Bourdieu et Jean Claude Passeron, La reproduction, Minuit, Paris, 1970, P56.

الخفية التي تفعل فعلها في توجيه السلوك الإنساني نحو مواطن الرضوخ والإذعان والقبول الثقافي لكل معطيات ودلالات الحياة الفكرية والثقافية للسلطة السائدة في دائرة العلاقات الطبقيّة القائمة في المجتمع.

فالعنف الرمزي يرتدي حلة سلطة معنوية خفية تفرض نظاماً من الأفكار والدلالات والمعاني والعلامات بوصفها مشروعة، وفي كل الأحوال فإن هذه السلطة تعمل على إخفاء علاقات القوة الكامنة في أصل هذه السلطة أو في تكوينات العنف الرمزي عينه.

يأخذ العنف الرمزي صورة سلطة قادرة على فرض نظام من الدلالات والمعاني بوصفها مشروعة، وذلك عبر عملية إخفاء علاقات النفوذ والقوة التي توجد في أصل هذه القوة ذاته.

وأن هذا العنف يأخذ طابعاً رمزياً اعتبارياً. وهذه الاعتبارية ناجمة عن دور هذا العنف في تعزيز اللامساواة الاجتماعية، وتأسيس الفوارق الطبقيّة، وإضفاء طابع الشرعية على معطياتها من أجل تمجيد طبقة اجتماعية بعينها، لما تمتلكه هذه الطبقة من نفوذ وقوة وقدرة اقتصادية وثقافية.

ويتجلى العنف الرمزي في أكثر صورهِ الإستلابية في أوضاع التقييم المدرسي، ولا سيما الامتحانات، حيث يوضع القوي والضعيف في حلبة صراع واحدة، وهكذا نجد أبناء الأميين والفقراء في صراع مميت مع أبناء المثقفين والأغنياء وذلك في غرف الامتحانات وقاعاتها. وهكذا نجد عبر السنوات المشهد الواحد نفسه لأطفال معدمين ثقافياً يقادون إلى مذبح الامتحانات بهدوء، وذلك من أجل إقناعهم وبصورة خفية رمزية أنهم غير قادرين على الحياة وأنهم لا يساوون شيئاً في معرض الحياة الفكرية والثقافية. وهكذا وتحت مقاصل هذه الامتحانات تتحدد قيمتهم الإنسانية والاجتماعية عبر لحظات، وكلمات ترتسم على صفحات امتحانية صفاء.

ولأن العقوبات الجسدية أصبحت ممنوعة منذ عقود من الزمن في أغلب البلدان. فإن المؤسسات المدرسية بدأت تعول اليوم، وبصورة تدريجية، على العقاب الرمزي مثل الازدراء والتهميش والتبخيس والإهمال والتهمك والسخرية، حتى إن هذه التقييمات تدون في البطاقة الفصلية للطالب.

ينظر "بورديو" للغة بأنها ليست مجرد طريقة للاتصال، لكن أيضاً كآلية للسيطرة. إن استخدامات اللغة مصممة بواسطة موقعها العلائقي في الحقول أو الفضاء الاجتماعي. الاستخدامات المختلفة للغة تميل إلى تكرار المواقع الخاصة لكل مشارك. التفاعلات اللغوية، هكذا، تميل إلى إعادة إنتاج البنيات الموضوعية للحقل الاجتماعي.

وما يعمق الرؤى المقدمة سابقاً، هو اعتبار اللغة مهماز الفعل التربوي وهي الأداة الفاعلة في تشكيل العنف الرمزي ومنه التأثير في تشكيل العقول البازغة تشكيلاً طبقياً. فالأساطير واللغات والفنون والعلوم تشكل أدوات رمزية لبناء المعرفة، وبالتالي فإن المنظومات الرمزية باعتبارها أدوات للمعرفة تفرض نفسها كسلطة، وهي بالتالي تشكل سلطة بناء الواقع على نحو رمزي.

يحتوي الفضاء الاجتماعي سوقاً لغوية متعددة، فهناك لغة القانون، الطب، المدرسة خاضعة لمعايير وقواعد محددة، وبالمقابل هناك لغة متحررة من هذه المعايير والقواعد مثل لغة السجون أو عصابات المهمشين، ومن ثم فاللغة مرتبطة بمحيطها الخارجي الذي يمدّها بالفاعلية والإجرائية.

"إن أي أداء للكلام سيكون عرضة للفشل إذا لم يكن صادراً عن شخص يملك سلطة الكلام".

وضمن هذا السياق ففعالية اللغة تتطلب طقوساً لإنتاج خطاب معين، ومن أهمها:

- إقامة العلاقة بين الخطاب وصفات من يليه وسمات المؤسسة التي تسند إليه أمر الإلقاء.
- أن يصدر الخطاب عن الشخص الذي عرف واعترف له بكفاءة الإلقاء (الأستاذ، الشاعر، القس..).
- إلقاء الخطاب في مقام المتلقي المشروع.
- أن يخضع الخطاب لقواعد النحو والصرف.

إن مفعولية الهيمنة تزداد كلما ازداد الجهل بآلياتها الرمزية والخفية، فتستمد قوتها من اختلافها وتواربها، ومن ثم تظل حقيقتها غائبة، هنا تتحدد الوظيفة الأساسية لعلم الاجتماع، كعلم يرفع النقاب عن حقيقة الهيمنة السائدة داخل المجتمع (الحقول الاجتماعية) وتعرية أسسها الخفية واللينه التي تجعل من المهيمن عليهم يتقبلونها باقتناع ورضا، وبالتالي فالسوسيولوجيا تفصح الانخداع الذي يراه الجميع ويشجع عليه، فيشكل في كل مجتمع، أساساً لأكثر القيم قداسة، ودعامة للوجود الاجتماعي بكامله، وهي تعلمنا بأن المجتمع يخدع نفسه على الدوام.

هناك من يعترض على ما سبق بتأكيده على وجود حقيقة من يجري وراء الفن من أجل الفن، والثقافة من أجل الثقافة، أي لا يبحثون على المنفعة (المادية، والاجتماعية، والسياسية...)، ولا وراء الربح الاقتصادي التجاري الذي يضمه الإنتاج الموسع من أجل سوق واسعة لقراء (ومستهلكين) (يقدرون بالآلاف، وبالملايين أحياناً، قراء لا يؤهلهم تطبعهم الفني والثقافي إلا لتلقي المبتذل والسهل والاعتيادي ومن الخطابات والأعمال شكلاً ومضموناً)، بل يجرون فقط وراء منفعة لا نفعية، معنوية ورمزية (كالشهرة والاحترام والنفوذ...)، يضمها الإنتاج الضيق من أجل سوق ضيقة لقراء متخصصين مزودين بتطبع

فني وثقافي يشتركون فيه مع المنتجين، يؤهلهم تطبعهم لتلقي المُحكّم والراقي والاستثنائي من الخطابات والأعمال شكلاً ومضموناً¹.

إن أمقت ما كان بورديو يمقته، أشباه العلماء: الصحافيون، السياسيون، المقاولون. إذا دخلوا حقل الفكر جعلوا أعزته أراذله، وأرذله أعزة مفكره. لكن أتى لنا والسقم بعضه، بل قل كثيره، جَوّاني أن يظل المتقف مثقفاً؟

ما يمثّنه "بورديو" في تعريفه للنسق التعليمي، هو المنطق الداخلي والذي هو بمثابة قانون اشتغاله بما هو إفراز لعلاقات القوى المختلّة داخله يسطر بها هويته النسقية. ولكنه يمثّل أيضاً حدوداً للنسق يباعد بين نسق وآخر. به يُعرّف ويعرف من في النسق ذواتهم لكونهم "اجتمعوا" على رهان محدّد وأنتجوا لأجله ضرباً من النشاط والسلوك محدّدة، ينعدم وجودها في حقول أخرى.

يقول "بورديو" في ذلك متحدّثاً عن العوامل المرئية الاقتصادية والديموغرافية والسياسية والتي تطرح على النسق المدرسي مسائل خارجية عن منطقها "أنها لا تستطيع له تأثيراً إلا طبقاً لمنطقه.

من الواضح أنه يمكن توفير وصول أبناء أكثر العائلات حرماناً اقتصادياً وثقافياً إلى مختلف مستويات التعليم الثانوي، وعلى الأخص إلى المراحل العليا، دون إجراء أي تعديل عميق للقيمة الاقتصادية والرمزية للشهادات الممنوحة؛ لكن من الواضح أيضاً أن المسؤولين المباشرين عن ظاهرة تجريد الشهادات من قيمتها بنتيجة التزايد الكبير في عدد الشهادات وفي عدد الحائزين عليها، أي الوافدين الجدد، هم الضحية الأولى لتلك الظاهرة. فالتلاميذ أو الطلاب من أبناء أكثر الأسر حرماناً على المستوى الثقافي لم يعد أمامهم اليوم، على الأرجح، في نهاية الدراسة الثانوية، التي غالباً ما يكون ثمنها تضحيات شديدة الوطأة، إلا الحصول على لقب علمي غير ذي قيمة، وأمّا إذا فشلوا وهذا هو القدر المرجّح لهم، فهم

¹ عبد السلام حيمر، المرجع السابق، ص453.

رهن عملية نبذ أشد إيلاماً وأكثر شمولية مما كان عليه وضعهم في الماضي. أشدّ إيلاماً لأنهم جربوا "حظهم" ولأن المؤسسة المدرسية أصبحت هي التي تحدد تحديداً شبه كامل الهوية الاجتماعية؛ وأكثر شمولية، لأن العدد الأكبر المتزايد باستمرار لفرص التوظيف في سوق العمل أصبح مخصصاً بحكم القانون، ومعطى بحكم الواقع، إلى الحائزين على الشهادات، وهم في تزايد مستمر (وهذا ما يفسر كيف أن الفشل المدرسي أصبح يعاش أكثر فأكثر ككارثة أو مصيبة، حتى في الأوساط الشعبية). وهكذا، أصبحت المؤسسة المدرسية في نظر الأولياء والتلاميذ أنفسهم، خدعة مضلّة، ومنبع شعور هائل بخيبة جماعية، فتلك الأرض الموعودة، شأنها شأن الأفق، تبتعد كلما أمعنت في السير باتجاهها¹.

كما أن التفريع الرسمي (إلى أقسام) وشبه الرسمي (إلى مدارس أو صفوف مدرسية متفاوتة المستوى خصوصاً من خلال اللغات الحيّة) كان من أثاره أيضاً المساهمة في بعث مبدأ، يتم إخفاؤه بعناية استثنائية، ألا وهو مبدأ التمييز والتفرقة: فالتلاميذ الذين ولدوا في بيئة متميّزة وتلقوا من أسرهم الحس السليم في تحديد "النیشان" الذي يسددون عليه، مع الأمثلة والنصائح الكفيلة بدعم هذا الحس السليم في حال التردد والحيرة، هم مؤهلون لاستثمار معارفهم في اللحظة المناسبة والمكان المناسب، أي في الأقسام الأفضل، والمدارس الأفضل، والاختصاصات الأفضل، الخ، وعلى العكس منهم، فالتلاميذ من أبناء أكثر الأسر حرماناً، وعلى الأخصّ أبناء المهاجرين، غالباً ما يتركون كلياً لأنفسهم منذ نهاية المرحلة الابتدائية، وهم مجبرون على الاستسلام لأوامر المؤسسة المدرسية أو المصادفة كي يبحثوا عن دريهم في عالم يزداد تعقيداً يوماً بعد يوم، وقدّره بالتالي أن يوظفوا، في غير وقته، وفي غير مكانه، رأسمالهم الثقافي، الذي هو في نهاية المطاف، منخفض جداً.

إنها إحدى الآليات التي تجعل، بالإضافة إلى منطوق نقل الرأسمال المعرفي، أرقى المؤسسات المدرسية، وعلى الأخص تلك التي تقود إلى المواقع العليا في السلطة الاقتصادية والسياسية، ما تزال موقوفة حصراً على فئة محددة كما كانت في الماضي. لقد انفتح النظام

¹ بيير بورديو وآخرون، بؤس العالم، الجزء الثالث، تر: رندا بعث، دار كنعان، ص.ص 16، 17.

التعليمي على الجميع، ولكنه رغم ذلك ظل مقصوراً بكل دقة على قلة قليلة، فنجح نجاحاً بهلوانياً في الجمع بين مظاهر "التوسّع الديمقراطي" وبين حقيقة إعادة تكريس ما هو قائم، وهذا أمر يتم تحقيقه بأعلى درجة من درجات المواربة والتخفي، أي بتأثير متصاعد للتبرير الاجتماعي¹.

¹ بيير بورديو، بؤس العالم، الجزء الثالث، المرجع السابق، ص19.

الفصل الثالث

علم اجتماع المعرفة والحقول الاجتماعية

تمهيد

اهتم "بورديو" بدراسة حقول اجتماعية مختلفة، وقد ركزنا في بحثنا هذا على أربعة حقول أساسية تخدم الموضوع الذي اقترحنه، وهي الحقل الثقافي، والحقل السياسي، والحقل الإعلامي، والحقل العلمي.

فما لمسناه ونحن نتصفح إبداعات "بيار بورديو" هو تركيزه المستمر على فكرة أن الهيمنة الاجتماعية تتطلب السيطرة على العقول والأذهان، فتحكم الطبقات العليا يتجسد في فرض رؤيتها للوجود على أنها الرؤية الوحيدة الحاملة للشرعية وللمصادقية.

وكما قلنا سابقاً، إن الحقل فضاء مستقل نسبياً، يتصارع فيه أعوان اجتماعيون لكسب رهانات خاصة انطلاقاً من منافسة شرسة في لعبة منظمة ومقتنة تتطلب التوفر على رساميل معينة تستخدم للحصول على خيارات مادية ورمزية.

وما حاولنا الإمام به بهذا الشأن هو ربط نظرة "بورديو" عن الحقول الاجتماعية، المذكورة آنفاً، بموضوع الدراسة وهو علم اجتماع المعرفة لديه، فما تأكد لدينا هو أن المعرفة بشتى أنواعها تتخلل كل المجالات الاجتماعية باعتبارها تمثل الجوانب الذاتية للحياة الاجتماعية ونواحي الوعي المشوّه نسبياً ضمن البنى المجتمع.

المبحث الأول: الحقل الإعلامي

مما لا شك فيه أن التلفزة صارت تؤدي دوراً أساسياً ومهماً في حياتنا من خلال المتابعة اليومية لما يبث من برامج وأخبار ومشاهدات مرغوب فيها وأخرى غير مرغوب فيها، وما لبث وأن أطلق البعض على هذا الجهاز "بالضيف الإجباري".

وإننا لا نبالغ إذا قلنا أن التلفزة تسهم بشكل أساسي، بشكل مباشر وغير مباشر في تربية الأولاد وإعدادهم. وعلى هذا الصعيد نشير إلى سلسلة من الآليات التي تثبت أن التلفزة تمارس نوعاً من "العنف الرمزي" المفسد والمؤذي¹.

يعتقد "بورديو" أنّ للتلفزيون مخاطر كبيرة وتأثيرات سلبية تجتاح دوائر الإنتاج الثقافي المختلفة: الفن والأدب والعلم والفلسفة والقانون، وأخطاره ليست صغيرة بالنسبة إلى الحياة السياسية والديمقراطية. ويشير من خلال أمثلة عديدة شخصية وسياسية إلى الطريقة التي يعالج بها التلفزيون بعض الحوادث أو المشكلات، وكيف يخفي من خلال نظرتة الضيقة أو الوطنية إلى السياسة بعداً إيديولوجياً وكيف يستغل المشاعر والعواطف والأحاسيس. وينظر بعدم الرضى إلى الظروف أو الوضع الذي يجد فيه الكاتب نفسه أمام كاميرا التلفزيون، لجهة ضرورة القيام باختراعات أو لجهة العدول عن تقديم البراهين والتوضيحات وعن استخدام الوثائق والإحصائيات، أو لجهة الوقت القصير المحدد للمداخلات، وينطلق من فكرة أنه (أي التلفزيون) حالياً أداة للقمع الرمزي.

وأبرز مظاهر هذا العنف أن التلفزيون يملأ أوقات الناس بالأشياء غير الهامة وغير الضرورية، وهو يستهلك زمنهم في قول أشياء تافهة تخفي في الحقيقة بالقدر نفسه الأشياء الثمينة، وبهذا المعنى فإن التلفزيون يسهم في تدمير الوعي حينما ينشر وعياً زائفاً أو يحجب المعلومات عبر لعبة "المنع بواسطة العرض"².

1 إبراهيم بلوح، المرجع السابق، ص 8.

2 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

تبدو الأشياء أقل وضوحاً في التلفزيون أثناء عرضها وهنا وجه من وجوه التناقض: أشياء يتم إخفاءها عن طريق عرضها أو "بواسطة عرض شيء آخر غير الذي يجب عرضه" والطريف هنا أن الصورة التي يقدمها التلفزيون ويقوم بتضخيمها ويمنحها صفات درامية وتراجيدية، إنما يفعل ذلك باستخدام كلمات كبيرة فالكلمات المعتادة لا تثير دهشة أحد وبهذا تهيمن الكلمات على الصورة فالصورة لا تعني شيئاً دون التفسير الذي يتم قراءته.

ينطلق "بورديو" من فكرة أن التلفزيون يشكل رهنأ أداة للقمع الرمزي (نظراً للمستوى الثقافي أو المعرفي المتدني للمشاهدين الذين يميلون إلى تصديق ما يعرض عليهم عامة). وهو يأمل في أن يتحول التلفزيون إلى أداة للديمقراطية المباشرة لو تم رفع المستوى العلمي للمشاهدين وتقوية استقلالية التلفزيون عبر إدراك العوامل التي تعمل على ضرب تلك الاستقلالية. والعوامل غير المرئية التي تُمارس الرقابة، من خلالها تجعل من التلفزيون أداة عظيمة لتثبيت النظام الرمزي (تواطؤ المتلقين والذين يمارسونه). وهكذا يغدو التلفزيون أداة لخلق الحقيقة وللتحكيم الاجتماعي والسياسي، وليس، كما يدعي، أداة لتسجيل الواقع. وهو ليس ملائماً للتعبير عن الفكر أو الرأي؛ إذ يمنح أهمية للتفكير السريع وللغذاء الثقافي السريع المقترن بأفكار مسبقة. وحول هذا الموضوع يقدم "بورديو" أفكاراً للتحديد وللتحقق منها، بوصفها أموراً معقدة جداً لا يمكن معرفتها إلا من خلال عمل إمبيريقى مهم، ارتكازاً على ملاحظات من الواقع¹.

وأن تكون صحافياً وتقرأ كتاب "بيار بورديو"، "عن التلفزيون"، فهذا يعني أنك أدخلت نفسك طوعاً في محاكمة قاسية، وخصوصاً أنك ستشعر مع كل اتهام يطلق عليك، بأنها محاكمة عادلة. إذ أنه ليس قائماً على بحث علمي تحليلي بل "وصف فظ"، كما يعبر "بورديو"، لواقع العمل الصحافي وكواليس التلفزيون وعلاقات الصحافيين بعضهم ببعض، وبمختلف القوى الاجتماعية².

¹ إبراهيم بلوح، المرجع السابق، ص 8.

² مهى زراقت، بيار بورديو: عن سلطان التلفزيون وعنفه الرمزي، الأخبار، عدد الثلاثاء 23 كانون الثاني، 2007، ص 1.

وتتعلق الرؤية السوسولوجية للصحافيين من تصنيفهم وفق ميولهم الملازمة لمهنتهم ورؤيتهم للعالم وتكوينهم أو تشكيلهم الاجتماعي أو الثقافي أو التربوي أو التاريخي واستعداداتهم ومنطق المهنة ومصالحهم وافتراساتهم المسبقة وفئات التصنيف والتقدير وتوقعاتهم اللاواعية. وفي الحقيقة، فالبنى غير المرئية هذه هي التي تنظم ما هو مرئي.

ينتقد "بورديو" الحقل الصحافي من الداخل والخارج : بدءاً من طريقة الحصول على الخبر ومعالجته، مروراً بالنشرة الإخبارية التلفزيونية التي يصفها بـ "منتج غريب" يناسب الجميع، وصولاً إلى البرامج الحوارية "التمثيلية" التي تستضيف أشخاصاً لا علاقة لهم غالباً بالموضوع المطروح للنقاش، ولا يتساوون في معلوماتهم. "عندما تكتب صحيفة معينة عن كتاب، ستجد صحيفة ثانية نفسها مجبرة على عرض الكتاب ذاته، حتى لو كان سخيلاً. كذلك الأمر لدى الكتابة عن معرض فني أو مسرحية".

يقدم "بيار بورديو" هذا المثل البسيط ليبرهن تشابه وسائل الإعلام في مضمونها على الرغم من تعدد الظاهرة. هذا التشابه سببه دورة الخبر حول نفسه؛ ينشر في جريدة، فيتلقفه صحافي في مؤسسة إعلامية ثانية، ويتابعه مضيفاً إليه تفصيلاً صغيراً قد لا تكون له أهمية. وهو يفعل ذلك من دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن خبر آخر¹.

ومرد ذلك في نظر "بورديو" إلى "المنافسة" بين الصحافيين. منافسة تعزز حالة الطوارئ، وتجعلهم يأتون بخبر خاطئ أو يقدمونه بطريقة تسبب ذعراً: "أتمنى أن يسمع الصحافيون ما يقولونه، هم الذين يرمون كلماتهم بكل خفة، من دون أن يكون لديهم أدنى فكرة عن خطورة ما يقولونه، والمسؤوليات التي يجب عليهم تحملها... كلماتهم تثير الخوف والهواجس، وتؤدي في معظم الأحيان إلى تشكيل صور خاطئة عن الحقيقة".

إنّ إن الصحافيين مهما كانت وسيلة الإعلام التي يعملون بها، يقرأ بعضهم لبعض، ويستمتع بعضهم لبعض، وينظر بعضهم لبعض. فاستعراض الصحافة بالنسبة لهم ضرورة

¹ مهي زراقة، المرجع السابق، ص1.

مهنية. لأنها تدلهم على الموضوعات التي ينبغي معالجتها لأن الآخرين يتكلمون عنها، ويمكن أن تقدم لهم أفكاراً لتحقيق صحفي، أو تسمح لهم على الأقل بتحديد مواقعهم والنظر من زوايا مبتكرة للتمييز عن المنافسين¹.

بيد أن وسائل الإعلام تفعل فعلها في اللحظة الراهنة، وتصنع بصورة جماعية تصورا اجتماعياً يدوم حتى وإن كان بعيداً عن الواقع، على الرغم من التكديزات أو التصحيحات البعدية، لأنه لا يؤدي في أكثر الأحيان إلا إلى تعزيز التفسيرات العفوية، ويستثير الأحكام المسبقة أولاً جانحاً بهذا إلى مضاعفتها. ويجب، علاوة على هذا، أن نضع في حسابنا الهيمنة التي يمارسها التلفزيون بشكل قوي داخل المجال الصحفي نفسه، لأن انتشاره الواسع. لاسيما فيما يتعلق بالجرائد المصورة. يمنحه وزناً هاماً وخاصة في تكوين التصور المسيطر للأحداث. وتؤدي الأخبار "موضوعة في صور" من جهة أخرى إلى أثر تضخيمي من شأنه أن يثير انفعالات جماعية بصورة مباشرة جداً. كما تمارس الصور أخيراً عملاً إيضاحياً قوياً جداً أكثر من الخطاب دون شك. إذ أنها تبدو مشيرة إلى واقع لا ريب فيه على الرغم من أنها نتاج عمل اختيار وإنشاء صريحين بقدر يقل أو يكثر. ومع أنّ التلفزيون يتزود بالكثير من الصحافة المكتوبة أو من نفس مصادرها (برقيات الوكالات أساساً) إلا أن له منطق عمل وقيود ترمي بثقل قوي على صنع الأحداث. وهو يؤثر في المشاهد العادي. لكنه يؤثر أيضاً على وسائل الإعلام الأخرى. وهكذا فلا يمكن لإعلامي الصحافة المكتوبة اليوم تجاهل ما كان (في الصفحة الأولى) لجريدة الثامنة المصورة بالأمس².

إن ما يسمى "حدثاً" ليس في النهاية إلا نتيجة تعبئة - قد تكون عفوية أو بعمل تحريض - تقوم بها وسائل الإعلام حول شيء، تتفق على اعتباره كذلك لوقت ما، أما عندما يكون الناس الهامشيون أو المنكودو الحظ هم الذين يجذبون اهتمام الصحافة، فإن تأثيرات الضجيج الإعلامي ستكون بعيدة عما يمكن أن تنتظره هذه الفئات الاجتماعية، لأن

¹ بيير بورديو، يؤس العالم، الجزء الأول، الطبعة الأولى، تر: محمد صبح، دار كنعان، دمشق، 2001، ص94.

² المرجع نفسه، ص95.

الصحفيين يملكون في هذه الحالة سلطة تأليف جد هامة. وبهذا يكاد الحدث يفلت تماماً من هؤلاء الناس¹.

إن المقهورين هم أقل الناس قدرة على التحكم بتصوراتهم لأنفسهم. ولا يمكن أن يكون مشهد حياتهم اليومية بالنسبة للصحفيين إلا تافهاً وعتيم الأهمية. ولأنهم يعانون الفقر الثقافي، تراهم عاجزين أيضاً عن التعبير عن أنفسهم من خلال الصيغ التي تقتضيها وسائل الإعلام الكبرى، كما يصرح مسؤول سياسي يظن نفسه معبراً عن رأي المحترفين في التلفزيون قائلاً: "لا ينبغي لكل من يأتي لبرنامج تلفزيوني أن يروى أحواله النفسية أو يعطي رأيه، بل يجب أن يتعلم التعبير بجلاء"².

على الرغم من أن الصحفيين يرفضون ويدينون الممارسات الأكثر بعثاً على الريبة في مهنتهم، ويعترفون طواعية بوجود تحريف لا مناص منه حتى في معالجة تطمح بأن تكون نزيهة للأخبار، فهم يرون مع كل هذه الصعوبات والانحرافات أن لا شيء أسوأ من السكوت³.

وتكون التوترات قوية جداً بين أولئك الذين يدافعون عن قيم الاستقلالية والحرية إزاء التجارة والطلب والرؤساء المسؤولين، الخ، وأولئك الذين يخضعون للضرورة. ويكون التوتر أيضاً بين ما تتطلبه المهنة والآمال التي يتلقاها الناس في مدارس الصحافة والكليات. ولكن الفروقات تخفي تشابهات كبيرة لجهة تمركز المعلومات أو الخضوع معاً لضغط السوق أو قسره. ويبدو مقياس السوق واضحاً حين تحدّد شهرة المحطة التلفزيونية أو الصحيفة بالنسبة إلى عدد المستمعين أو المشاهدين أو عدد القراء أو نسبة المبيعات، وحين يعترف بالسوق كمصدر شرعي للشرعية.

¹ بيير بورديو، بؤس العالم، الجزء الأول، المرجع السابق، ص98.

² المرجع نفسه، ص100.

³ المرجع نفسه، ص106.

وهذا القياس أصبح الحكم النهائي للصحافي، وهو موجود في كل العقول حالياً وفي مكاتب التحرير ودور النشر، الخ. وفي أي مكان، أصبحنا نفكر من خلال الريح التجاري. ولكن الريح التجاري هو موضع شبهة لأن الإنتاجات الثقافية مثل الرياضيات والشعر والأدب والفلسفة أنتجت تاريخياً بشكل مخالف لمعادلة عدد المستمعين أو للمنطق التجاري.

التشابه رغم التعددية، تعزيز حالة الطوارئ وبث الأخبار الخاطئة، ليست إلا نقطة في بحر الانتقادات التي يعرضها "بورديو"، وهي انتقادات قائمة على ملاحظات تفصيلية ليوميّات العمل الصحافي وآلياته. يعرضها معترفاً بأنها تحتاج إلى بحث علمي يثبت ما يخلص إليه: التلفزيون وعدد كبير من الصحافيين، هم "معادون للثقافة"، ويمارسون "عنفاً رمزياً" على المشاهدين.

فالرجل يرى أن العمل التلفزيوني مبني على السرعة، لذلك ليس هو المكان المفضل للتفكير، من هنا، يتم اللجوء في المقابلات المتلفزة إلى "مفكرين سريعين" يحملون أفكاراً مسبقة عن الموضوع المطروح، "ولا خوف من مشكلة في التلقي لأنّ هذه الأفكار المسبقة يعرفها الجمهور الذي يحصل على وجبة أكل خفيف ثقافية".

ويبني "بورديو" نظريته على تجربة شخصية استطاع خلالها اكتشاف عمل المقدم غير المثقف: "شاركت أكثر من مرة في مقابلات، أعدت خلال طرح السؤال على نفسي، حتى أتمكن من مقارنة الموضوع الذي يرغب المذيع في مناقشته. كنت أكرر للمقدم "سؤالك مهم بالتأكيد، لكنني أعتقد أنه في هذه الحالة هناك ما هو أهم منه"... وهو يكرّر شكواه من الصحافيين غير المثقفين الذين يذهبون لتغطية خبر معين، فيفاجأون برؤية أشياء غير مفاجئة أو العكس. فهم يسقطون رؤيتهم الخاصة على الحدث، علماً بأن علماء الاجتماع أنفسهم لا يستطيعون ادعاء ما يدعيه هؤلاء: "إن واحدة من أكبر المشاكل التي تعترض علماء الاجتماع، هي تجنبهم السقوط في أحد هذين الوهمين في معرض تحليلهم لظاهرة معينة: القول بأنها الأولى من نوعها، أو أنها تتكرر دائماً". وهذا ما يردده الصحافيون على الدوام "وهنا يكمن خطرهم، فهم غير مثقفين، ولا تعني لهم الظواهر الاجتماعية الحقيقية

شيئاً". لكنهم رغم ذلك يمارسون تأثيراً كبيراً وسلطة مطلقة على مختلف الحقول الاجتماعية: السياسية والقضائية والنقابية وأحياناً على من هم أرفع مستوى منهم وذلك بسبب احتكارهم لآليات إنتاج المعلومة ونشرها أو إضفاء الشرعية على الضيوف الذين يحظون بإطلالة متلفزة.

غير أن الصحافي ليس وحده المسؤول بل "الحقل الصحافي" بكامله. ويرفض "بورديو" أي محاولة لتحليل سلوك صحافي معين أو وسيلة إعلامية محددة، بعيداً عن زملائهما، "لا يمكن أن نفهم ما الذي يحدث في TF1 بمجرد أن شركة BOUYGUES هي من يملكها. هذا سبب لكنه ليس وحيداً، يجب أن نأخذ في الاعتبار مجموعة العلاقات الموضوعية التي تؤسس الحقل الصحافي بكامله".

حين انتقد "بورديو" التلفزيون، كان يتحدث ضمن سلسلة محاضرات متلفزة نظمها آنذاك "كوليج دو فرانس". أي أنه استعمل بدوره شاشة التلفزيون، لكن ضمن شروط تناسبه لجهة اختيار الموضوع، وامتلاك الوقت الكافي لمناقشته. ولأنه بدأ محاضراته بالتأكيد على أن امتلاك المواطن للمعلومة هو الذي يتيح له ممارسة حقوقه الديمقراطية، فقد طالب بمحاربة مقياس نسبة إقبال المشاهدين الذي يعزز ثقافة "الأكل الخفيف". كما عبّر عن أمله بأن تنشأ، داخل زمرة الصحافيين، علاقات تساعد على التخفيف من التأثير السلبي للأدوات التي يملكونها. وقدّم مثلاً: "في قضية خطف الأطفال (التي يتهم فيها المهاجرون غالباً بشكل أوتوماتيكي) يمكننا أن نتخيل، أو نحلم، أن يتفق الصحافيون على عدم استضافة زعماء سياسيين معروفين بمواقفهم المسبقة ضد الأجانب".

ومن المشاكل الكبرى التي يطرحها التلفزيون هي العلاقة بين التفكير والسرعة، هل يمكن التفكير أثناء اللهاث بسرعة؟ وهكذا حصل التلفزيون على مفكرين (على السريع)،

عندما أعطى مجال الحديث لمفكرين أجبرهم أن يفكروا بسرعة متزايدة. مفكرون يفكرون بأسرع من ظلهم"¹.

مشكلة السرعة حولت العلاقة بين التلفزيون والصحافة إلى علاقة انتقافية، الغلبة فيها حتماً للتلفزيون كونه الأوسع والأسرع انتشاراً. ففيها تعمل الصحافة بتأن زمني يستهلك على الأقل 24 ساعة بين تحضير المواد للنشر والطباعة، تدور عجلة البث التلفزيوني كالمطحنة في عملية محو وتسجيل يومي للذاكرة. فكل نشرة أخبار تمحو ما سبقها لتسجل أحداثاً جديدة، تتطلب مجموعة من البرامج المواكبة تحليلاً وتفسيراً. وتحت ضغط الوقت، لا مناص من اللجوء إلى الصحافة، سواء من جانب الاستعانة بالأفكار، أو في اختيار الأشخاص المناسبين لتحليل ما وراء الأخبار. فلا يمكن لأي معد برامج أن يبدأ يوم العمل من دون الإطلاع وبشكل آلي على عناوين الصحف والمقالات المكتوبة.

يتعرض "بورديو" لمسألة تقديم البرامج ويذكر سلسلة من عمليات الرقابة على مستوى مقدّم البرامج، مثل التدخلات القسرية وطرح الموضوع والإشكالية واحترام قاعدة اللعبة وتنظيم الكلام وتوزيع الإشارات (نقول أحياناً من خلال النظرات والسكوت والإشارات والحركات وحركات العيون أكثر مما نقول من خلال الكلام نفسه) واللغة اللاواعية والطريقة في طرح الأسئلة والقول وتوزيع وقت الكلام والطريقة المستخدمة في الضغط على المتحاورين، والمقاطعة في الكلام وكيفية اختيار الأشخاص والمحادثات التحضيرية مع المشاركين ولعبة اللغة والقواعد غير المرئية (بعض الأمور تقال والبعض الآخر لا يقال) وتنظيم المواجهات، الخ.

إنّ الموضوع الذي يعالجه "بيار بورديو" في إطار الحقل الإعلامي يتعلق في مستواه المباشر بتحليل بنية وآليات أحد منتجات هذه التكنولوجيا الحديثة التي تعرف بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، لكن الموضوع غير المباشر (لكنه رئيس وأساس) هو علاقة الإيديولوجيا بهذه التكنولوجيا. إذا كان من الممكن اعتبار أن العلم محايد، فإن استخدامات

أبراهيم بلوح، المرجع السابق، ص 9.¹

العلم وتطبيقاته أي التكنولوجيا ليست محايدة. فيما يتعلق بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فإن التوظيف والمضمون الإيديولوجي لهذه التكنولوجيا يجد أوضح مثال له في الدور الذي يؤديه التلفزيون الذي لا يقتصر على التأثير المباشر على المشاهدين ولكن هذا التأثير يمتد كما يوضح "بورديو" إلى مجالات الإنتاج الثقافي الأخرى وهو ما ينبّه إلى خطورته بشكل خاص. لقد كثر الحديث عن "نهاية الإيديولوجيات" و"نهاية التاريخ" كما تم الترويج لنظرية "صموئيل هنتنجتون" المعروفة "بصدام الحضارات" الخ. ولكن الشيء المثير للدهشة والتعجب أن هذه المقولات التي روج لها كثيراً في أوساط المثقفين ووسائل الإعلام خصوصاً بعد انهيار جدار برلين والتحول السريع والعنيفة التي شهدتها دول شرق أوروبا، مروراً بحرب الخليج الأولى ثم أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تلاها من حرب واحتلال لأفغانستان والعراق، هي في حد ذاتها تعبير عن إيديولوجيا تدعي السيادة والانتصار على الإيديولوجيات الأخرى. إيديولوجيا تعبّر عن نزعات عنصرية فاشية جديدة تمثل تهديداً حقيقياً للإنجازات الرائعة التي حققها الفكر الإنساني عبر مسيرته الطويلة¹.

ينتقد "بورديو" بشدة بعض الفلاسفة أو الكتاب الذين يطّرون فرحاً إذا ما وجهت إليهم دعوات من أجل الظهور على الشاشة الصغيرة أو الذين يودّون عرض أنفسهم أو نرجسيتهم. ويشير إلى الرقابة السياسية المفروضة على التلفزيون (شروط الاتصال أو تحديد الوقت أو ما يمكن قوله)، أو على المدعوبين والصحافيين أيضاً؛ والرقابة الذاتية الممارسة بشكل واع أو لاواع، ويدعو علم الاجتماع إلى مهمة الكشف عن الميكانيزمات غير المرئية التي تُمارس من خلالها الرقابة على المستويات كافة والتي تجعل من التلفزيون أداة عظيمة لتثبيت النظام الرمزي (تواطؤ المتلقين والذين يمارسونه). فالناس بشكل عام لا يقرؤون ويتركون أنفسهم للتلفزيون كمصدر وحيد للمعلومات، مما يجعله أداة تحتكر التأثير فعلياً بالنسبة إلى تشكّل عقول جزء مهم من المواطنين.

¹ إبراهيم بلوح، المرجع السابق، ص10.

ويتحدث "بورديو" عن الهيمنة الرمزية للتلفزيون الأمريكي وعن البنية السابقة للتلفزيون، أي في الخمسينات (أفلام وثائقية، حوارات ثقافية... الخ)، والبنية في التسعينيات (استغلال الأذواق وخداعها لبلوغ أكبر عدد من المستمعين المشاهدين بتقديم مواد خام، أجزاء من الحياة، وعروضات من التجارب المعاشة من غير أحجة ترضي شكلا من التلذذ في النظر إلى مشهد غرامي، الخ).

والفلاسفة الذين يتحدثون من على الشاشة الصغيرة، تتم دعوتهم على عجل وذلك لإعطاء معنى لما ليس له معنى ولما هو نادر وعرضي بهدف إثارة سخط أو نقمة أو مشاعر وأحاسيس وعواطف وتحركات، كالبحث في خطف الأطفال والفضائح الخاصة والحجاب في المدرسة، الخ. ويشير المؤلف إلى الدور السلبي الذي يقوم به التلفزيون حالياً لإفقاد الإنتاج الثقافي خصوصيته (المحطة التلفزيونية الخاصة تخضع لمتطلبات المستمعين)، وإلى خصوصية الحقل الصحافي من حيث تعلّقه بالقوى الخارجية أكثر من حقول الإنتاج الثقافي الأخرى كالأدب والقانون والعلم... إذ يتعلق مباشرة بالطلب ويخضع لقسر السوق (أو القسر التجاري الذي يشكل تأثيراً بنوياً موضوعياً غير مرئي وليس له علاقة مع ما يرى مباشرة).

ويعتبر "بورديو" أن الحقل الصحافي، نظراً إلى هيمنة المنطق التجاري عليه أكثر فأكثر، يفرض قسره على الحقول الأخرى. فضغط الصحافيين يُدرك من خلال ادعائهم بأنهم يتحدثون باسم "الانفعال الشعبي" أو "الرأي العام". ويبرز هذا الضغط من خلال اللجوء إلى التحكيم والديمقراطية لحسم مسائل ثقافية وعلمية متنوعة.

يمكن لعلماء الاجتماع حسب "بورديو" أن يقدّموا للصحافيين المتتورين والنقديين أدوات المعرفة والفهم والفعل تسمح لهم بالعمل على التحكم بالقوى الاقتصادية والاجتماعية التي تؤثر فيهم وبالتحالف مع الباحثين، إذ كانوا ينظرون إليهم كأعداء..

والثابت أن وسائل الإعلام تشكل منذ الآن جزءاً متمماً للواقع، أو أنها، إذا أردنا نتج تأثيرات واقعية بخلق رؤية إعلامية للواقع، تسهم في خلق الواقع الذي تدعي وصفه.

فالمصائب ولا سيما المطالب عليها أن تعبر عن نفسها إعلامياً حتى تأمل في وجود علني، وتتخذ بنظر الاعتبار، إن بصورة أو بأخرى من السلطة العمومية. إن منطق العلاقات التي استتب بين السياسيين والصحفيين والمتخصصين في الرأي العام قد فرض نفسه لدرجة يصعب معها سياسياً الحركة خارج وسائل الإعلام أو بالأحرى ضدها. لذلك كانت السلطة السياسية مهتمة دائماً بالصحافة. عن طريق السعي إلى السيطرة على ما يسمى (الوقائع)، إذا لم تسهم بمساعدة ملحقها الصحفيين على خلق هذه الوقائع بنفسها. فالمسؤولون السياسيون لا يحبون أن تفاجئهم الأحداث أو تتجاوزهم، ويسهرون على أن لا يفرض الآخرون عليهم في حالة الاستعجال وتحت الضغط تعيين المشكلات الاجتماعية الراهنة ومعالجتها¹.

¹ بيير بورديو، بؤس العالم، الجزء الأول، المرجع السابق، ص109.

المبحث الثاني: الحقل الثقافي

يعتبر "بورديو" أحد أبرز علماء اجتماع الذين استطاعوا مقارنة موضوع المثقفين مقارنة سوسيولوجية موضوعية تعيّن أحوالهم الاجتماعية، وتوضّح مصدر أفكارهم وعلاقتها بالواقع الاجتماعي وتحدد استراتيجياتهم ورهاناتهم، كما تسير أغوار مغالطاتهم وصراعاتهم.

وقد هدّم قلعة حصينة ظل المثقفون يتسترون وراء أسوارها وهي قلعة "تخبويتهم"، وكونهم أهل فكر ومعرفة يجعلهم بعيدين عن كل تحليل نقدي وبمناى عن كل دراسة موضوعية¹.

يعمل "بورديو" على "الفضح السوسيولوجي" للمثقفين، وهو فضح ارتبط ارتباطاً عضوياً بموضوعة ممارسات المثقفين وخطاباتهم، كجزء من الممارسة الاجتماعية الموضوعية، موضوعة سوسيولوجية لم تعتمد العنف الخطابى إزاءهم، ولم تسلك مسلك التجريح أو هدم البيت الداخلي بنزعة سادية، استعلائية أو نزعة مازوشية تدميرية للذات².

ويعتبر أن العالم الاجتماعى حالياً هو مكان للصراع يهدف إلى إنتاج وفرض "مثقفين جدد"، أو إلى تعريف جديد للمثقف ودوره السياسى، وتعريف جديد للفلسفة والفيلسوف، ذلك المثقف المنخرط فى نقاشات غامضة من الفلسفة السياسية دون تقنية، ومن العلم الاجتماعى المحال إلى علوم سياسية وإلى شرح أو تعليق دون تيقّظ، وإلى استطلاعات تجارية دون منهج أو طريقة³.

ويدافع عن إمكانية المثقف النقدى وضرورته، لأنه لا توجد ديمقراطية حقيقية دون سلطة نقدية مضادة. وينتقد "المثقفين غير المسؤولين" و"المثقفين المتعددي الموضوعات والأشكال"... ويتمنى على الكتاب والفنانين والفلاسفة والعلماء أن يتمكنوا من إسماع صوتهم

¹ Pierre Bourdieu, *Questions de sociologie*, Cérès Production, Tunisie, 1993, P62.

² عادل بلعمري، "بيير بورديو والفضح السوسيولوجي للمثقفين"، *الحوار المتمدن*، العدد 2993، 2010.01.31، ص1

³ علي سالم: "بيير بورديو: نار مضادة"، *كتابات معاصرة*، عدد 36، المجلد التاسع، 1999، ص17.

مباشرة في كل ميادين الحياة العامة حيث هم مؤهلون. ويعتقد بأن العالم سيربح كثيراً إذا انتقل منطق الحياة الفكرية، منطق الحجة والرفض، إلى الحياة العامة. فمنطق السياسة حالياً، منطق الإدانة والقدح وطرح الشعارات وتزوير فكر العدو، هو الذي ينتشر غالباً في الحياة الفكرية. وسيكون الأمر جيداً إذا تمكن "المبدعون" من القيام بوظيفة الخدمة العامة والسلام العام.

يدعو إلى نقد بعض الكلمات (مثل: "القرية الكونية"، "العولمة"...) التي تحمل فلسفة معينة أو رؤية للعالم تولد خضوعاً وقدرية؛ وإلى محاربة تأثيرات السلطة. ويحدّد هدف الباحثين بأنه ليس فقط بالعمل على إبداع أو إيجاد أجوبة، وإنما بإبداع طريقة في إبداع الأجوبة...

الميكروكوزوم الاجتماعي الذي تنتج في إطاره الأعمال الثقافية (الحقل الأدبي، الحقل الفني، الحقل العلمي ... الخ) هو فضاء لعلاقات موضوعية بين مواقع (موقع الفنان المنبوذ وموقع الآخر المتوج...، ولا يمكن فهم ما يجري داخله إلا إذا موضعنا كل فاعل أو كل مؤسسة داخل علاقاته/علاقاتها مع كل الفاعلين أو المؤسسات الأخرى، إذ ضمن الأفق الخاص لعلاقات القوة المتميّزة هذه وللصراعات الهادفة إلى المحافظة أو إلى التغيير، تنشأ استراتيجيات المنتجين: شكل الفن الذي يدافعون عنه، والتحالفات التي ينسجون والمدارس التي يؤسسون، كل ذلك من خلال المصالح الخاصة التي تتحدد ضمن تلك العلاقات.

ذلك هو الحقل، وتلك هي عوالمه الذرية التي يشتغل كل منها بنفس منطق اشتغال الحقل ككل. فالسيرورة التي تفضي إلى الأعمال الفكرية هي نتاج الصراع بين الفاعلين الذين لهم مصلحة في المحافظة أي في الروتين والروتينية، أو الذين يسعون إلى قلب الوضع القائم، والذي يتخذ في الغالب شكل العودة إلى منابع ونقاء الأصول، والنقد المارق، كل ذلك في علاقة مع مواقع الأفراد ضمن الحقل. فأن يفرض في السوق (سوق الخيارات الرمزية) في لحظة معينة، منتج جديد ونسق أذواق جديد، معناه الدفع للانزلاق إلى الماضي بمجموع المنتجين والمنتوجات وأنساق الذوق المرتبة تبعا لعلاقة درجة الشرعية.

يقول "بورديو": "إنّ إحدى المشكلات الأساسية التي تعترض قيام علم اجتماع للوسط الفكري تكمن في أن المثقفين هم "علماء اجتماع عفويون" مثل جميع الفاعلين الاجتماعيين، ولكنهم ذوو موهبة بشكل خاص لكي يوضعوا الآخرين. فكونهم محترفين في الخطاب والتفسير، يمنحهم مع ذلك استعداداً خاصاً لأن يعطوا لعلم الاجتماع العفوي الذي لديهم، أي لنظرتهم المغرصة إلى العالم الاجتماعي مظاهر العلم"¹.

ويعتقد أنّ عمى المثقفين عن القوى الاجتماعية التي تحكم الحقل الثقافي وفي الآن نفسه ممارستهم، هو ما يفسر أن جماعة المثقفين تساهم غالباً، بشكل جمعي وعلى أنحاء تقدمية تماماً، في إدامة النظام القائم. فهو يعي تماماً أنّ مثل ذلك الحكم قاس بعض الشيء وصادم لأنه ينافي صورتهم هم أنفسهم التي اصطنعوها بما هم مثقفون : إنهم يحبذون أن يفكروا في أنفسهم كأنهم محررون أو تقدميون (أو على الأقل بصفته محايدين، غير ملتزمين، بالخصوص في الولايات المتحدة)².

يرى "بورديو" أنّ الجهل بالآليات الجمعية المتعلقة بالإلحاق السياسي والخلقي، والمبالغة في تقدير حرية المثقفين أديا في أغلب الأحيان بالمثقفين الأشد تقدمية بإخلاص (مثل سارتر) لأن يبقوا متواطئين مع القوى التي كانوا يظنون أنهم يحاربونها، وهذا على الرغم من إكراهات الحتمية الفكرية، ذلك أن تلك المبالغة في التقدير كانت تشجعهم على الالتزام بأشكال النزاع التي كانت غير واقعية، ساذجة، وإن شئت "مراهقة"³.

وقد اقترح "بورديو"، لتفادي هذا الوهم المعرفي الصادر عن المثقفين، مقارنة إبستمولوجية تتمثل في التفكير الانعكاسي، هذا الأخير ليس نوعاً من الفن من أجل الفن. إذ أن علم اجتماع صارم يستطيع أن يحرر المثقفين من أوهامهم، وابتداء من كونهم يتوهمون

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص 40.

² المرجع نفسه، ص 145.

³ المرجع نفسه، ص.ص 146، 165.

أنه ليس لديهم وهم، وبالخصوص بشأن ذواتهم ، ويستطيع على الأقل أن يسهم في أن يصعب عليهم كل مساهمة مستكينة ولا واعية في السيطرة الرمزية¹.

ينبغي في واقع الأمر تطبيق التفكير العلائقي على المجال الاجتماعي للمنتجين: العالم الاجتماعي المصغر الذي تنتج فيه الأعمال الثقافية، الحقل الأدبي، الحقل الفني، الحقل العلمي الخ. هو مجال علاقات موضوعية بين أوضاع، مثلاً وضع الفنان المعترف به ووضع الفنان المنبوذ على سبيل المثال، ولا يمكننا فهم ما يحدث إلا إذا حددنا كل فاعل أو كل مؤسسة في علاقاتها الموضوعية مع الآخرين. يتم، في داخل هذا الأفق الخاص لعلاقات القوى النوعية وفي الصراعات التي تستهدف الحفاظ عليها أو تغييرها، الإحاطة باستراتيجيات المنتجين وشكل الفن الذي يدافعون عنه، والأحلاف التي يعقدونها والمدارس التي يؤسسونها وذلك عبر المصالح الخاصة التي تنحصر بها².

إنّ تحليل الأعمال الثقافية يتخذ موضوعاً بإقامة الصلة بين بنيتين متماثلين، بنية الأعمال (أي النوع وأيضاً الشكل، والأسلوب والموضوع...الخ) وبنية الحقل الأدبي؛ أو الفني، أو العلمي أو القانوني، الخ. كحقل للقوى الذي لا ينفصم عن حقل الصراعات. فمحرك تغيير الأعمال الثقافية، (لغة وفناً وأدباً وعلماً، الخ.) يكمن في الصراعات التي تهدف إلى حفظ أو تغيير ميزان القوى الموجود في حقل الإنتاج تؤدي بدهاءة إلى حفظ أو تغيير بنية حقل الأشكال التي هي أدوات ورهانات هذه الصراعات.

تعتمد إستراتيجية الفاعلين والمؤسسات الملترزمة في الصراعات الأدبية أي اتخاذ المواقف (سواء كانت خاصة متعلقة بالأسلوب على سبيل المثال، أو غير خاصة، سياسية أو أخلاقية، الخ.) على الوضع الذي يحتلونه في بنية الحقل، أي في توزيع رأسمال رمزي خاص، سواء شرّعته الهيئات أم لا (اعتراف داخلي أو شهرة خارجية) والذي بواسطة استعداداتهم المكونة لتطبّعهم (وهي المستقلة نسبياً عن مواقعهم)، يجبرهم إما على المحافظة

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص147.

² بيير بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص80.

أو تغيير بنية هذا التوزيع، أي على العمل على ديمومة قواعد اللعبة الموجودة أو على قلبها. ولكن هذه الإستراتيجيات من خلال موضوعات الصراع بين السائدين والراغبين في التغيير، ومن خلال المسائل التي يتصادمون من أجلها، تعتمد أيضا على وضع الإشكالية الشرعية، أي مجال الممكنات الموروثة من الصراعات السابقة الذي يهدف إلى تحديد مجال اتخاذ المواقف الممكنة ويوجه كذلك البحث عن حلول وبالتالي يوجه تطور الإنتاج¹.

إن العلاقة القائمة بين المواقع واتخاذ المواقف، لا تتضمن، أي حتمية تلقائية : يبني كل منتج أو كاتب أو فنان أو عالم مشروع الإبداع الخاص اعتبارا من إدراك الممكنات المتاحة التي تؤمنها له أصناف الإدراك والتخمين المطبوعة في تطبعه عبر خط سير محدد، وانطلاقا أيضا من النزوع إلى قبول الإمكانيات أو رفضها أو تلك التي توحى بها إليه مصالحه المرتبطة بوضعه في اللعبة.

لكي نلخص نظرية معقدة ببعض العبارات، نقول مع "بورديو" إن كل مؤلف، باعتباره يشغل وضعا في مجال، أي في حقل قوى (لا يمكن اختزاله إلى مجرد تجميع لنقاط مادية) وهو أيضا حقل صراعات يهدف إلى حفظ أو تغيير حقل القوى، لا يوجد ولا يستمر بالعيش إلا تحت عبء الإلزامات الهيكلية للحقل (العلاقات الموضوعية التي تنشأ بين الأنواع مثلاً) كما أنه أيضا يؤكد على الفارق التفاضلي، الذي يكون موقعه ووجهة نظره، مفهومة على أنها نظرة مأخوذة من وجهة ما، باتخاذ مواقف جمالية ممكنة، أنيا أو مستقبليا، في مجال الممكنات (و متخذاً بذلك موقفاً بشأن المواقع الأخرى). هكذا يتموضع ولا يمكن ألا يميز نفسه، وهذا يتم حتى خارج أي بحث عن التمييز: بدخوله في اللعبة فإنه يقبل ضمناً الأعباء والإمكانات الكامنة في اللعبة، التي تقدم إليه وإلى كل من يفهمون قواعد اللعبة "كأشياء ينبغي عملها" أو أشكال ينبغي خلقها أو طرق ينبغي اختراقها باختصار كممكنات مزودة "بزعم في الوجود" كبير نسبياً.

¹ بيار بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص ص 84، 83.

إن التوتر بين الأوضاع الذي يكون بنية الحقل هو أيضاً الذي يحدد تغييره من خلال الصراعات من أجل مستهدفات هي نفسها منتجة بواسطة الصراعات؛ لكن مهما كانت درجة استقلال الحقل، فإن نتيجة الصراعات لا تكون مستقلة عن العوامل الخارجية¹.

إن ما يصنع تاريخ الحقل هو الصراع بين المتحكمين والطامعين، بين حملة المنصب أو اللقب (كتاب، فلاسفة، علماء، إلخ.) ومبارزيهم: فدخلوا الكتاب والمدارس والأعمال في مرحلة الشيخوخة هو نتاج صراع بين أولئك الذين مضى عليهم الزمن وبين الذين يكافحون في سبيل الاستمرار وهؤلاء الذين لا يستطيعون بدورهم أن يدخلوا لدائرة الضوء دون أن يطردوا للماضي كل الذين لديهم مصلحة في تأييد الحاضر ووقف عجلة التاريخ².

خلال إضرابات شتاء 1995 التي هزت فرنسا، كان "بيار بورديو" حاضراً بقوة في حلقات العمال والعاطلين عن العمل محاولاً من خلال ذلك فهم التطورات الجديدة التي حدثت في المجتمع الفرنسي وأيضاً إدانة الليبرالية الجديدة التي كانت قد سيطرت سيطرة شبه كلية على العالم بأسره. وفي أحد الحوارات التي أجريت معه في تلك الفترة، قال "بيار بورديو" مدافعاً عن موقفه: "إن ما أَدافع عنه هو إمكانية وضرورة وجود المثقف النقدي. ليس هناك ديمقراطية حقيقية من دون سلطة نقدية تواجهها. والمثقف هو في رأبي هذه السلطة النقدية.

لا بد لكي يكون المثقف ملتزماً التزاماً جاداً وحقيقياً أن تكون ثقافته ملتزمة هي أيضاً، وهذه الثقافة لا تكتسب إلا في العمل الثقافي والعلمي الراضخ لقواعد المجموعة العلمية.

ولكن ما هو الدور الذي يمكن أن يلعبه المثقف في الحركة الاجتماعية المذكورة، قال "بيار بورديو": "أولا نحن لا نطلب من المثقف أن يعطي دروساً مثلما يفعل بعض المثقفين العفويين الذين عند عجزهم عن فرض سلطتهم في الأسواق العلمية هم يذهبون ليلعبوا دور المثقفين لدى من هم ليسوا مثقفين زاعمين في نفس الوقت بأن لا وجود للمثقف.

¹ بيار بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص. ص 83-85.

² المرجع نفسه، ص 89.

إن الباحث في نظر "بورديو" ليس رسولاً ولا قائداً فكرياً، عليه أن يكتشف لنفسه دوراً جديداً جد صعب وهو أن يتعلم كيف يسمع وكيف يبحث وكيف يكتشف. وعليه أن يساعد المنظمات الاجتماعية والنقابية على مواجهة السياسة الليبرالية الجديدة.

إن دوره كعالم اجتماع نقدي هياها للدور العام، ومن هنا أخذت أجهزة الإعلام تسلط الضوء عليه والعديد من كتبه أصبحت أكثر شعبية. إن إحدى الاختلافات الرئيسية بين دور عالم الاجتماع والمثقف العام قدرة الأخير على تكوين العلاقة القوية مع المصادر الإعلامية خارج العالم الأكاديمي. ومن هنا نحتاج لبحث شروط تحول المثقف الأكاديمي إلى مثقف عام. "بورديو" لم يعرض نفسه لكي يكون مثقفاً عاماً. لكن عمله كعالم اجتماع والمناخ السياسي السائد هما اللذان دفعاه إلى هذا الموقع العام.

بهذا التفويض تمنح الكونية للمثقف إمكان تغشية حقيقته الاجتماعية والتاريخية حين ينير ما حوله ولا ينار، وفي ذلك إضعاف لموقف المثقف وتقزيم لدوره الحقيقي، ذلك أنه يمتاز بخاصيتين: الأولى نفوذ خاص يمنحه عالم فكري مستقل عن السلطات (دينية، إعلامية، سياسية، اقتصادية). والثانية توظيف هذا النفوذ الخاص في الصراعات السياسية. وليس بين الخاصيتين تناقض أو تنافر. فما يدعو إلى القبول بإمكان تعايش الفكري والسياسي أنه إذا كان المشروع الفكري لـ "بورديو" تعرية أواليات الهيمنة وهو ما يمنح إمكانات "الهيمنة على الهيمنة".

وكخلاصة عامة، يمكن القول أن "بورديو" عرّف المثقف انطلاقاً من الحقل المحدد الذي يعمل فيه، ويطلب منه النزاهة العلمية، والعمل على امتلاك الحرية التي تؤمن له شروط إنتاج المعرفي، وبداهة فإن الأخذ بمفهوم الحرية، في مجال محدد، يتضمن بالضرورة مواجهة ما يجمع الحرية داخل هذا المجال وخارجه، طالما أن حرية البحث العلمي علاقة اجتماعية، لا تنفصل عن النظام المدرسي والمؤسسات العلمية، ولا عن قوانين الدولة التي تحدّد عمل هذه المؤسسات.

وواقع الأمر أنّ وظيفة "المتقف" عند "بورديو" لا تخلو من الالتباس، فهو يرى المتقف شخصاً يصدع بالحقيقة، حال الأديب "زولا" « Zola »، الذي طالب بالعدل والحرية والمساواة، وهو، في الوقت ذاته، يربط المتقف بدوره في الإنتاج العلمي الذي يكشف عن آلية السيطرة والإخضاع.

والواضح في هذا المسافة الملتبسة بين المتقف، من حيث هو شخص يمارس النقد ويطالب بإصلاح اجتماعي، وعالم الاجتماع، الذي يدرس القضايا الاجتماعية ويقدم لها بعض الحلول. يأخذ عالم الاجتماع، في علاقته بالمتقف، مكان الأولوية، لأنّه هو الذي يوضّح للمتقف عمله ويفسّر له الممارسات التي تجعل منه مثقفاً. ذلك أنّ المتقف لا يستطيع القيام بدوره إلا إذا امتلك كفاءة علمية ضرورية¹.

¹ فيصل درّاج، "سارتر وبورديو وأحلام المتقفين: هل المعرفة سلطة؟"، الدستور، الجمعة 13 يوليو 2007، ص2.

المبحث الثالث: الحقل السياسي

قدّم "بورديو" دعماً فكرياً كبيراً لحركة الإضرابات الكبرى التي شهدتها فرنسا في نوفمبر من عام 1995 ضد سياسات حكومة جوبييه التي أسفرت عن سحب الحكومة للقرارات الاقتصادية التي كانت تستهدف مزيداً من الضغط على الطبقات والشرائح الاجتماعية من العمال والموظفين وفئات الطبقة الوسطى بشكل عام. بعد نجاح حركة الإضرابات في إلغاء القرارات واستقالة حكومة جوبييه. طور بورديو من رؤيته لهذا التزاوج بين دور الفكر الملتزم بقضايا الإنسان وبين الممارسة النقدية في مواجهة الموجة الصاعدة للليبرالية الجديدة فأنشأ شبكة من الجمعيات والمنظمات الاجتماعية والثقافية التي احتلت مواقع قوية على خارطة العمل السياسي/الاجتماعي والفكري في المجتمع الفرنسي من بين ذلك « Raison d'Agir »¹.

مما لا شك فيه أن المواجهات الإيديولوجية التي كانت سائدة طوال فترة الحرب الباردة قد انتهت بصورتها القديمة، أي المواجهة المباشرة، وسيادة الخطاب الإيديولوجي الجلي. لكن التحوّل الجديد الذي طرأ خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن المنصرم وحتى الآن هو انفراد ما يمكن أن نسميه بالإيديولوجيا الناعمة بموقع الصدارة في وسائل الإعلام المختلفة. " الإيديولوجيا الناعمة" تتمثل في تلك الجرعات اليومية بل اللحظية التي تبثها وسائل الإعلام.

هذه الجرعات تتغلغل وتنساب إلى عقول المشاهدين والقراء والمستمعين ومستخدمي الوسائط المتعددة والإنترنت، بهدوء وبلا ضجيج على عكس ما كان يتم في السابق. إن المجال مفتوح الآن لعمل دراسات على التوظيف والمضمون الإيديولوجي لكل هذه الوسائل والأدوات.

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، الطبعة الأولى، دار كنعان، دمشق، 2004، ص8.

لا يعكس الحقل السياسي في نظر "بورديو" حقيقة الحقل الاجتماعي أو العلاقات ما بين الأفراد أو ما بين الجماعات بقدر ما يعكس مصالح خاصة. وهو يبدو كحقل مستقل، في حين أنه يخضع لتقنيات ولتراتيبات ولقواعد داخلية. وهو لا يُفهم كمسرح إلا إذا أدركنا حقيقة العلاقة بين الحزب والطبقة كعلاقة رمزية بين ممثلين وأوضاع ممثلة، أي إلا إذا أدركنا أن الممثلين لا يعكسون حقيقة الأوضاع الممثلة¹.

إن التشديد من قبل الممثلين على فكرة تمثيل مصالح موكلهم يخفي ما يسعون إليه فعلاً من تأمين مصالح خاصة بهم بدرجة أولى. وهم من أجل تحقيق هذا الهدف مضطرون لإرضاء مصالح خاصة بموكلهم. ويحاول الممثلون أن يعطوا لصراعاتهم صفة طبقية أو اجتماعية. وذلك بهدف إخفاء المصالح المحددة التي يتصارعون من أجلها، هذه المصالح التي يدركونها بوضوح من خلال المواقع أو المراكز المختلفة داخل الحقل السياسي. وهكذا، فالإخلاص الموجب لمصالح الموكلين ليس سوى وهم يحاول به الممثلون تغطية مصالحهم. فيتناسون عمداً الإشارة، من خلال عملية التمثيل، إلى مصالحهم الخاصة. ويتفانون وينذرون حياتهم وجهدهم وعرقهم من أجل خدمة الغير وتأمين مصالحهم².

يؤكد "بورديو" أنّ العيش من السياسة مشروط بالعمل من أجل السياسة (كنشاط أساسي دائم). بمعنى أنه لن يتمكن المحترفون من العيش من السياسة ما لم يكونوا مؤهلين للعب أدوار تسمح بتحقيق مصالحهم (تحت صفة مصالح طبقات وفئات معينة) وبإشباع بسيط لمصالح موكلهم، أو ما لم يعملوا على تحديد مصالح والسعي إلى إشباعها. وهكذا، ففي العلاقة بين المحترفين، ضمن إطار التنافس، تُعرّف مصالح خاصة، وبالتالي، فئات محدّدة من المندوبين والموكلين. ويصل "بورديو" إلى أن العلاقة بين المحترفين (أصحاب اللغة السياسية) وزبائنهم (المجربين من هذه اللغة) هي علاقة غير مباشرة لناحية أن المنتوجات السياسية لا تتحدّد من خلال علاقة المحترفين مع موكلهم، وإنما من خلال علاقتهم مع منافسيهم ضمن الحقل السياسي. فمصالحهم بالدرجة الأولى، ثم تأتي مصلحة الآخرين.

¹ علي سالم، بيار بورديو: "عمل التقويض والتشيؤ"، كتابات معاصرة، العدد 27، المجلد السابع، ص38.

² المرجع نفسه، ص38.

يمكن القول بأن تشكل الأفراد في جماعة، أو كقوة على المسرح السياسي والذي لن يكون دون تنازل لصالح مندوبين أو لصالح ناطق باسمهم، هو ما يشكّل تناقضاً في مفهوم السياسي بالنسبة إلى المهيمّن عليهم. إذ كيف، من ناحية يشكّلون قوة أو سلطة (من خلال عملية التمثيل هذه، أو من خلال منحهم قوة إلى المندوبين)، ومن ناحية ثانية، يخضعون لسلطة الذين أعطوهم السلطة؟¹.

ويرى "بورديو" أنه لا يمكن فهم الأحزاب السياسية إلا على أساس علاقتها بالأحزاب المنافسة لها، لأن المنتجين (منتجي الأحاديث السياسية)، كما يقول، لا ينتجون من خلال العودة إلى جماهيرهم، وإنما من خلال العودة إلى منافسيهم.. وهم ينتجون تبعاً للوضع الذي يحتلونه في مجال ما من المنافسة. وهكذا، ففي ظل المنافسة بينها، من أجل احتكار حق تمثيل المواطنين أو من أجل السلطة، تصيغ الأحزاب استراتيجياتها ومواقفها وممارساتها وأفكارها ونظرياتها، لا بالعودة إلى الجماهير، وإنما بالعودة إلى ما توجهه المنافسة من مصالح. ويتبين أنه من خلال المنافسة يمكن فهم الأحزاب أو تحديد خصائصها.

ومحترفو السياسة على أنواعهم (نظراً لمؤهلاتهم والرأسمال الثقافي والمدرسي والاقتصادي والسياسي الذي هو بحوزتهم)، يعتبرون أنفسهم الأشخاص المخولين بالتحدث باسم الجماهير، فيحتكرون حق تمثيلهم والتحدث باسمهم ويستغلون ضعفهم وعدم أهليتهم، وبالتالي سكوتهم، ويستغلون كذلك القوة التي تنتج من اعتقادهم وإيمانهم بمواقفهم ونظرياتهم، هذه المواقف والنظريات التي يعطونها صفة شرعية. ويضيف "بورديو" أنّ المفاهيم والنظريات والمواقف لدى المحترفين أو ممثلي الجماهير أو الناطقين باسمهم، لا تحمل قوة بذاتها، إذ لا تُقاس من خلال ما تحمله من أفكار علمية أو من منطق عقلي أو من قدرة على الإقناع. فهي بكل وضوح لها طابع إيديولوجي. فقوتها سياسية تنتج من قوة أو حركة من يؤمن بها وبعدم طرحها للتساؤل. وهؤلاء المحترفون أو الممثلون يعرفون كيف يُظهرون هذه القوة أو

¹ علي سالم، بيار بورديو: عمل التقويض والتشيؤ، المرجع السابق، ص42.

كيف يستفدون منها، بحيث يفوزون عن طريقها في الانتخابات أو يعملون على إعادة تجميعها من أجل استغلالها في مناسبة أخرى.

والدولة في نظر "بيار بورديو" هي حصيلة مسار تركيز أنواع مختلفة من الرأسمال، رأسمال القوة البدنية أو أدوات القمع (جيش، شرطة) رأسمال اقتصادي رأسمال ثقافي أو بالأحرى معلوماتي Informationnel، رأسمال رمزي، تركيزا يشكل بحد ذاته الدولة كحائز على نوع من ما وراء الرأسمال méta-capital معطياً سلطة على أنواع الرأسمال الأخرى وعلى من يحوزونها. إن تركيز أنواع الرأسمال المختلفة يقود بالفعل إلى انبثاق رأسمال خاص، دَوْلِي Etatique تماماً يسمح للدولة بممارسة سلطة على الحقول المختلفة وعلى الأنواع الخاصة من الرأسمال، وبالأخص على معدل التبادل بينها، وبالتالي على علاقات القوى بين حائزيهم. يترتب على ذلك أن بناء الدولة يتم في الوقت نفسه مع بناء حقل السلطة منظوراً إليه كأرض الملعب الذي يتصارع في داخله حائزو الرأسمال (بأنواعه المختلفة) تحديداً من أجل السلطة على الدولة أي على الرأسمال الدولي الذي يعطي سلطة على مختلف أنواع الرأسمال وعلى إعادة إنتاجها (من خلال المؤسسة التعليمية بالأخص)¹.

يرى "بورديو" أنّ الدولة الأوروبية المعاصرة عامة والفرنسية منها خاصة عبارة عن قوى اجتماعية وسياسية متناقضة. فمن ناحية، نجد "العمال الاجتماعيين": المساعدات الاجتماعية، المربين، الموظفين العاميين والمأمورين القضائيين والأساتذة والمدرّسين (ما يسمى باليد اليسرى للدولة). ونجد من ناحية أخرى تكنوقراطي وزارة المالية والمصارف العامة أو الخاصة والدواوين الوزارية (اليد اليمنى للدولة). ويظهر هذا التناقض أو هذا الصراع، حسب رأيه، من خلال عدد من الحركات الاجتماعية التي تعبّر عن تمرد فئة النبلاء الدنيا ضد فئة النبلاء العليا.

يثبت التاريخ أن العلوم الاجتماعية لا تستطيع أن تنمي استقلالها تجاه الضغط الاجتماعي والذي هو الشرط الأساسي لتقدمها باتجاه العلمية، إلا إذا استندت إلى الدولة :

¹ بيبير بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص.ص 126، 127.

وبفعلها ذلك تخاطر بفقدان استقلالها تجاه الدولة، إلا إذا كانت مجهزة لأن تستخدم ضد الدولة درجة الحرية (النسبية) التي تضمنها لها الدولة¹.

إذا كان للدولة القدرة، على ممارسة العنف الرمزي فذلك لأنها تتجسد موضوعياً في شكل بنى وآليات خاصة وفي الوقت نفسه في "الذاتية" أو، إذا أردنا في الأدمغة، في بنى عقلية تخطيطات إدراك وفكر. وباعتبار أنها حصيلة مسار يؤسسها في كل البنى الاجتماعية والبنى العقلية المتكيفة مع تلك البنى، وهذا التأسيس المؤسس يؤدي إلى نسيان أنها تابعة من سلسلة طويلة من عمليات التأسيس وتقدم نفسها في كل مظاهر ما هو طبيعي².

في مجتمعاتنا، تسهم الدولة بنصيب حاسم في إنتاج وفي إعادة إنتاج أدوات بناء الواقع الاجتماعي. وباعتبارها بنية تنظيمية وهيئة منظمة للممارسات، تمارس بشكل دائم فعلاً مشكلاً لاستعدادات مستمرة، من خلال كل الإجبارات والضوابط الجسدية والعقلية التي تفرضها بالنمط نفسه على مجمل الفاعلين. علاوة على ذلك تفرض وتكرس كل مبادئ التصنيف الأساسية، حسب الجنس، حسب السن، حسب "الكفاءة"، الخ، وهي سبب للفاعلية الرمزية، ولكل طقوس تأسيس العائلة على سبيل المثال، وأيضاً لكل الطقوس التي تُزاول من خلال أداء النظام المدرسي كمكان للتكريس تتأسس فيه بين المصطفين والمستبعدين فروق مستمرة، وفي الغالب نهائية على شاکلة الفروق التي يؤسسها طقس حفلات تدرّيع الأرسقراطية.

يتزافق بناء الدولة مع بناء نوع من تعالٍ تاريخي عام، مائل في كل "رعاياها". تقييم الدولة وترسّخ من خلال الإطار الذي تفرضه على الممارسات أشكالاً ومقولات للإدراك وللتفكير مشتركة وأطراً اجتماعية للإدراك أو الفهم أو الذاكرة، وبنى عقلية وصيغ الدولة للتصنيف. وبهذا تخلق شروط نوع من التنظيم المباشر للتطبّع الاجتماعي، تنظيمياً هو نفسه

¹ بيير بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص124.

² المرجع نفسه، ص124.

تأسيساً لنوع من الإجماع حول هذه الجملة من البدايات المشتركة التي تكوّن الحس المشترك¹.

ويعتقد بأن أحد الأسباب الرئيسة للألم الاجتماعي أو ليأس الناس هو أن الدولة سحبت نفسها، أو هي في إطار سحب نفسها، من عدد من قطاعات الحياة الاجتماعية المسؤولة عنها مثل: السكن العام، التلفزيون والراديو العامّين، المدرسة الرسمية، المستشفيات العامة، الخ.

يتساءل "بورديو" كيف لا يمكن التشكيك بدولة الوفاء لمصالح المحرومين أو الأكثر حرماناً عندما لا نرى فقط الفساد أو خيانة الخدمة العامة وكل أشكال الاختلاس؟ ويتحدث عن منافع رمزية؛ فالتلفزيون أدى، كما الرشوة، إلى انحطاط (أو فساد) الفضائل أو الأخلاق المدنية. ولديه شعور بأن المواطن حالياً يشعر بأنه مرفوض أو خارج الدولة، ويرفض الدولة ويصفها كقوة غريبة. ويعزو سكوت السياسيين إلى الاحتراف السياسي والشروط المطلوبة من أولئك الذين يرغبون بالنجاح في الأحزاب وإلى التغيّر في تعريف النشاط السياسي مع وصول أشخاص تعلّموا في مدارس (العلوم السياسية).

ويقول بأن السياسيين أسيروا اقتصادوية ضيقة، وأن اليأس المادي والأخلاقي هو النتيجة الوحيدة الأكيدة للسياسة الحقيقية المقرّة اقتصادياً (جنوح، جريمة، إدمان كحول، حوادث طرق، الخ..).

ويتحدث كذلك عن تجاوزات السلطة التي تتسلح أو تستند إلى العقل، فيكشف عن زيف هذا العقل من خلال مؤشرات عديدة. فالعقلنة العلمية، عقلنة النماذج الرياضية التي تلهم سياسة صندوق النقد الدولي أو البنك العالمي، أو عقلنة الشركات المتعددة الجنسية التي تفرض تقاليد القانون الأمريكي على الكوكب بأسره، أو عقلنة نظريات الفعل العقلي، الخ؛ هي تعبير عن غطرسة غريبة تؤدي إلى التصرف وكأن بعض الأشخاص يملكون حق

¹ بيير بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص 147.

احتكار العقل، وينصبون أنفسهم حراساً للعالم ومحتكرين للعنف الشرعي وقادرين على وضع قوة السلاح في خدمة العدالة الشاملة. والقسر الاقتصادي يُغلف نفسه بحجج قانونية. وتتغذى الإمبريالية بشرعية المراجع الدولية، وتحاول أن تثير أو تبرّر، وسط الشعوب العربية أو الأمريكية أو الإفريقية، عصياناً كبيراً ضد العقل الذي لا يمكن فصله عن تجاوزات السلطة التي تتسلح أو تستند إلى العقل (الاقتصادي، العلمي أو غيره). وهذه "اللاعقلانيات" هي جزئياً نتيجة عقلانيتنا الغربية الإمبريالية الغازية المحتملة السيئة، المحدودة، الدفاعية، المنكفئة والقمعية حسب الأمكنة والأزمنة. ويختم قوله بأن الدفاع عن العقل يعني محاربة أولئك الذين يُخفون تحت مظهر العقل تجاوزات السلطة، أو الذين يستخدمون أسلحة العقل لإرساء أو تبرير إمبراطورية تعسفية.

وفي السياق نفسه يمكن التأكيد أنّ "بورديو" يحث على مقاومة الفكر الليبرالي الجديد أو الفكر التكنولوجي الذي يعمل على هدم الحضارة المرتبطة بوجود الخدمة العامة، حضارة المساواة في الحقوق، حقوق التربية والصحة والثقافة والبحث والفن وفوق هذا كله العمل؛ وعلى افتراض هوة بين "الفهم العقلاني للعالم" و"الرغبة العميقة للناس"، أو تعارض بين الرؤية البعيدة المدى لـ "النخبة" والغرائز القصيرة المدى للشعب وممثليه.

يعتقد "بورديو" أنّ الفكر الرجعي يأخذ مع نبيل الدولة شكلاً جديداً، هذه الأخيرة تستمد القناعة بشرعيتها من الصفة المدرسية (الألقاب والشهادات)، ومن العلم الاقتصادي تحديداً: فبالنسبة إلى الحكام الجدد هؤلاء الذين يستمدون سلطتهم من القانون الإلهي، ليس العقل والحدثة فقط إلى جانبهم وإنما الحركة والتغيير والوزراء و"الخبراء"؛ في حين يروجون بالممارسة والاستغناء أن "اللاعقل" والقديم والثبات والمحافظة والنقابات والمتقنين النقيدين إلى جانب الشعب. ويخلص إلى أن ما هو على المحك حالياً هو مواجهة الديمقراطية للتكنولوجية. فيجب الانتهاء من تسلط "الخبراء" من نوع البنك الدولي أو صندوق النقد الدولي اللذين يفرضان من دون نقاش أحكام "الأسواق النقدية" ولا يريدان المفاوضة، وإنما "الشرح": يجب القطع مع المعتقد الجديد أو الحتمية التاريخية التي يعلمها منظرو الليبرالية؛ كما يجب

إبداع أشكال جديدة من العمل السياسي الجماعي القادر على أن يأخذ في الاعتبار الضرورات الاقتصادية تحديداً، وإنما لمحاربتها، وعند اللزوم لإبطال مفعولها.

وقد أكد "بورديو" في عدة مناسبات أنه يفكر بمسألة توحيد الحقل الاقتصادي العالمي والتأثيرات الاقتصادية والاجتماعية للتقسيم العالمي الجديد للعمل، أو بمسألة القوانين التسلطية للأسواق النقدية التي باسمها ضحّي بالمبادرات السياسية، وبمسألة وظائف التربية والثقافة في الاقتصاديات حيث الرأسمال الإعلامي أصبح إحدى القوى المنتجة المحددة... ويعلن عن تضامن حقيقي مع أولئك الذين يحاربون من أجل تغيير المجتمع: ففي اعتقاده لا يمكن محاربة التكنوقراطية الوطنية أو العالمية بشكل فعال إلا على أرضها المميزة، أرض العلم، الاقتصادي تحديداً، وبمواجهة المعرفة المجردة والمشوهة بمعرفة أكثر احتراماً.

ويعتبر أن الليبرالية الجديدة أو الثورة المحافظة هذه هي من نوع جديد، إذ تنتسب إلى التقدم والعقل والعلم (الاقتصادي تحديداً) لتبرير الإصلاح وتُرجع الفكر والفعل التقدميين إلى ما هو قديم، وتسمح بتحويل الانتظامات الحقيقية للعالم الاقتصادي المتروك لمنطقه، قانون السوق أو قانون الأقوى، إلى قواعد مثالية؛ وتؤيد وتبجل هيمنة ما نسميه الأسواق النقدية أو العودة إلى نوع من الرأسمالية الجذرية أو قانون الريح الأقصى؛ وتترين بكل علامات الحداثة فتعبّر عن العالم الاقتصادي والاجتماعي من خلال معادلات، وتتسلح بالرياضيات.

وما يعمق المشكل أكثر هو تهديم القواعد الاقتصادية والاجتماعية للمكتسبات الثقافية، والتهديد المتزايد لاستقلالية عوالم الإنتاج الثقافي، وهيمنة "التجارة" و"التجاري" في الأدب والنشر والفن والسينما والعلوم الاجتماعية، وهيمنة البلدان الأكثر غنى وتحكمها بقواعد اللعبة، وتقليص استقلالية الأسواق المالية الوطنية. ويطرح للتساؤل الرؤية الاقتصادية التي تفرد كل شيء، الإنتاج كما العدالة أو الصحة، والأسعار كما الأرباح، والتي تنسى بأن الفعالية، التي تعطيها تعريفاً ضيقاً ومجرداً بمماثلتها ضمناً بالمرود المالي، تتعلق بأهداف نقيسها بها... وهكذا فالعنف الذي تمارسه الأسواق النقدية يسدّد تحت شكل ترك العمل وعدم

الثبات أو الاستقرار، وتحت شكل انتحار وجنوح وجريمة ومخدرات وإدمان كحول وأمور يومية صغيرة أو كبيرة تتسم بالعنف على المدى البعيد إلى حد ما. ويحدّد مهمة المنقذين النقديين والنقابات والجمعيات بالوقوف ضد ذبول الدولة.

ويشرح قوة الإيديولوجيا الليبرالية الجديدة بأنها تركز على الداروينية الاجتماعية الجديدة: ف "الأفضل والمتألق"، كما يقال في "هارفارد"، هو الذي ينتصر (بيكر الذي نال جائزة نوبل للاقتصاد توسع بالقول بأن الداروينية هي الاستعداد للحساب العقلاني وينسبه إلى الفاعلين الاقتصاديين). ف وراء الرؤية العالمية لأهمية المهيمين، توجد فلسفة المقدرّة والذين يملكون عملاً، وهذا ما يوجب بأن أولئك الذين ليس لديهم عمل هم غير قادرين أو غير مؤهلين. وسلطة نبلاء الدولة تعود إلى التربية وإلى الذكاء، كهبة من السماء. غير أننا نعرف أن الذكاء يورّع من قبل المجتمع وأن عدم المساواة في الذكاء يعود إلى عدم المساواة الاجتماعية. وإيديولوجيا المقدرّة تأتي لتبرر تعارضاً يشبه قليلاً تعارض الأسياد والعبيد.

يؤكد "بورديو" بأنّ الوقتية أو عدم الثبات أصبح الآن عاماً في القطاع الخاص كما في القطاع العام. وله تأثيرات مرئية لدى العاطلين عن العمل: تدمير الوجود المسلوب من بناء الزمنية، وتدهور العلاقة مع العالم والزمن والمجال. ويجعل المستقبل غير مؤكد، ويمنع أي توقع عقلائي وأي اعتقاد أو أمل بالمستقبل. وهو موجود في كل العقول، باستثناء الاقتصاديين الليبراليين الذين يستفيدون من نوع من الحماية. وعدم الأمان الموضوعي يؤسس لعدم أمان ذاتي معمّم يصيب حالياً قلب الاقتصاد النامي ومجمل العمال وأولئك الذين لم يصيبهم بعد.

وهذا النوع من "العقلية الجماعية" هو في أساس الإحباط وعدم التحرك الذي نلاحظه في البلدان النامية. ويبين كيف يؤثر عدم الثبات في الفئات الاجتماعية البروليتاريا الرثة التي لا تملك حداً من رؤية الحاضر، البروليتاريا التي توصف بأنها شديدة الحذر والمحافظة أحياناً؛ وكيف يؤدي إلى المنافسة من أجل العمل تهدم كل قيم التضامن والإنسانية. ويؤثر عدم الثبات بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويعتقد بأنه نتيجة إرادة سياسية

وليس نتيجة قدرة اقتصادية متماثلة مع "العولمة"، فالمشروع "المرن" يستغل وضع عدم الأمان ويبحث عن تخفيض تكاليفه، ولكن يعمل في الوقت نفسه على تعريض العامل للخطر بإفقاده عمله.

ويتحدث "بورديو" عن المنافسة بين العمال التي تخطت الإطار الوطني إلى الإطار العالمي مع المشاريع المتعددة الجنسية. ويُفسر عدم الثبات بنمط من الهيمنة من نوع جديد يرتكز على إنشاء حالة معممة ودائمة من عدم الأمان تهدف إلى إجبار العمال على الخضوع وقبول الاستغلال. ويشبه نمط الهيمنة هذا بالرأسمالية الوحشية أو كما سماها البعض بالاستغلال المرن: استغلال عقلائي لعدم الأمان يستخدم المنافسة بين العمال ليكسر المقاومة ويحصل على الطاعة والخضوع من خلال ميكانيزمات تبدو طبيعية ولكن لها تبريرها الخاص.

فالخطاب الليبرالي الجديد هو "خطاب قوي" ليس من السهل محاربتة، لأنه على علاقة بميزان القوى أو بالقوى المهيمنة في العلاقات الاقتصادية ويعطيه قوة رمزية. ويهدف هذا الخطاب المتحول إلى برنامج سياسي للفعل (وباسم البرنامج العلمي للمعرفة) إلى خلق شروط تحقيق "النظرية".

ويشكك "بورديو" في إمكانية أن يكون العالم الاقتصادي نظاماً صافياً كاملاً، وفي أن تشكل الليبرالية الجديدة، من خلال النظرية الاقتصادية التي تعلن عنها، وصفاً علمياً للواقع.

ويعتبر هذه النظرية عبارة عن وهم رياضي وتستند إلى تجريد هائل بوضع الشروط الاقتصادية والاجتماعية بين مزدوجتين. يرى "بورديو" أن الخطأ الأساسي يكمن في خرافة "النظرية الصافية" التي ينجم عنها كل النقص الخاص بالعلم الاقتصادي والعناد القديري المتعلق بالتعارض التعسفي بين المنطق الاقتصادي المرتكز على المنافسة الحاملة للفعالية والمنطق الاجتماعي الخاضع لقاعدة العدالة.

يوافق "بورديو" "ماكس فيبر" حين يرجع قوة الخطاب أو الفكرة إلى الناس المؤمنين أو المعتقدين بها، وليس إلى منطق الفكرة نفسها، ولكن يختلف معه حين يعتبر اعتقاد الناس غير واع وليس كما يعتقد "فيبر"، اعتقاداً واعياً.

ويرى أن للفئات المهيمن عليها مصلحة في الوعي والعلم، لأنه من خلالهما تتمكن من كشف حقيقة الهيمنة والسلطة والمعتقدات المهيمنة. ونتيجة إدراكها طبيعة الواقع والتناقضات الموجودة فيه، يصبح بإمكانها أن تتشكل في جماعات وأن تحافظ على وجودها وأن تعمل من أجل أن تفرض ميزاناً للقوى يتناسب مع وضعها الجديد. فالوعي شرط أساسي لعملية انتقال الجماعة من حالتها التي تتصف بعدم المقدرة على تحديد الخصائص التي تميّزها، إلى حالتها الثانية التي يدرك فيها الأفراد ما يميّزها عن غيرها من الجماعات. فهذا الوعي مرتبط بعملية التساؤل بخصوص النظام الفكري والاجتماعي للفئات المهيمنة، هذه العملية التي تُعتبر ضرورية للخروج من هذا النظام الذي يخضع له الأفراد لأنهم يعترفون ويعتقدون به.

ويستقر النظام الرمزي على فرض بني معرفية على مجمل الفاعلين، بني تدين بجزء من قوامها وتعاونها لكونها، على الأقل في الظاهر، منسجمة ومنهجية وكونها موضوعياً متوافقة مع البنى الموضوعية للعالم الاجتماعي. هذا الاتفاق المباشر والضمني الذي يؤسس علاقة الخضوع العقائدي التي تربطها، بكل ما للاوعي من روابط، بالأمر الواقع.¹

¹ بيير بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص 147.

المبحث الرابع: الحقل العلمي

يعتقد "بورديو" أنّ الخطر الرئيسي الذي يمس العلوم الاجتماعية في الغالب هو الانقسام المتنامي بين النظرية والبحث التجريبي الذي نستطيع أن نلاحظه في كل مكان والذي يغذي النمو المتوازي للإفساد المنهجي والتأمل النظري. هكذا، يرى أنّ التمييز بين النظرية والبحث التجريبي هو الذي يجب وضعه على محك المساءلة، لكن عملياً، وليس بلاغياً. وإذا كان على العلوم الاجتماعية في فرنسا أن تصير الوعي العلمي المخالف للعلوم الاجتماعية الأمريكية، أو العكس، فإنّ عليها إذن أن تتجح في تجاوز ذلك الفصل مستعملة شكلاً جديداً من الممارسة العلمية المؤسسة في الوقت نفسه على منطلقات نظرية منسجمة وصرامة تجريبية محكمة.

وما يعيق ما اقترح سابقاً هو أنّ معظم البحوث التجريبية تواصل دون كلل أو ملل في صياغة أسئلة تستقيها من الحس المشترك والمعرفة العامة، وأكثر من ذلك فهي تعطي الأولوية لعلم المناهج باعتباره تخصصاً في ذاته، متأثراً من جمع للوصفات وللتعاليم التقنية التي من الضروري على كل متمرس في العلوم الاجتماعية أن يلتزم بها ويحترمها ليس من أجل أن يعرف الموضوع ولكن من أجل أن يُعرف بصفته مدركاً للموضوع.

بالإضافة إلى وجود شكل من النظريات الكبرى المنفصلة عن كل ممارسة ميدانية للبحوث العلمية، التي تغرق في العمومية والسطحية والأحكام المسبقة والأفكار الجاهزة.

لكن السوسيولوجيا آخر ما أنجبت العلوم، علم نقدي لذاتها عيناها، وللعلوم الأخرى، وهي أيضاً نقد لكل أشكال السلطة من ضمنها سلطة العلم، إن العلم أيّان يعمل على معرفة قوانين إنتاج العلم لا يمنح وسائل الهيمنة على الهيمنة¹.

اعتقد "بورديو" أنّ فضاء العلم مهدّد اليوم بتراجع رهيب. إنّ الاستقلالية التي كان العلم قد اكتسبها شيئاً فشيئاً في مواجهة السلطات الدينية والسياسية أو حتى الاقتصادية وجزئياً

¹ Pierre Bourdieu, *Questions de sociologie*, Op.cit. P47

على الأقل في مواجهة بيروقراطيات الدولة التي كانت تؤمن الشروط الدنيا لاستقلاله، إنّما أنهكت كثيراً. فالإولايات الاجتماعية التي تشكلت كلما تأكدت، مثل منطق المنافسة بين الأتراب، على شفا أن تُلقي نفسها في خدمة أغراض مفروضة من الخارج. فالخضوع للمصالح الاقتصادية وإجراءات الإعلام تهدّد بأن تتضافر مع الانتقادات الخارجية والإغتيابات الداخلية، بعض الهذيان "ما بعد الحداثيّة" آخر تجلياتها، كي تقوّض الثقة في العلم وبصورة خاصة في العلوم الاجتماعية. باختصار نقول إنّ العلم في خطر ومن ثمة تصير خطراً¹.

ولا يستطيع علم الاجتماع أن يتأسس إلا وهو يرفض الطلب الاجتماعي لوسائل الشرعة أو التسخير. إن عالم الاجتماع لا انتداب له، ولا مهمة، إلا تلك التي ينيطها بنفسه تبعاً لمنطق بحثه.

وتعزيز استقلالية الحقل العلمي في نظر "بورديو" يتأتى من التفكير والفعل الجماعيين في الشروط المؤسسية للتواصل العقلي. بناء وترسيخ آليات تنظيمية بمعارضة الاتجاهات نحو الانعزالية، وحتى نحو التوسع الهيمني، وكل أشكال السيطرة واللاتسامح العلميين وبتيسير تواصل أقوم وتقابل أوسع، يستطيع المتخصصون في العلوم الاجتماعية أن يسهموا بفعالية كبرى في تقدم علومهم.

ووحدها سياسة واقعية للعقل العلمي تستطيع أن تسهم في تحويل بنيات معينة للتواصل مساهمة بالآن نفسه في تغيير أنماط اشتغال المجالات التي ينتج فيها العلم واستعدادات الفاعلين الذين يتنافسون في تلك المجالات، وبالتالي المؤسسة التي تُسهم أكثر في تطّبعهم، وفي الجامعة.

¹ Pierre Bourdieu, Science de la science et réflexivité, Cours du Collège de France, 2000-2001,

إن البحوث العلمية التي تستمد شرعيتها المعرفية من النزعة الوضعية المبالغ فيها أو بالعكس تلك التي تبني مصداقيتها الأكاديمية بالاستناد إلى النظرية التأملية المجردة، لن تحقق أبداً أهدافها ومراميها في فهم الواقع وإدراك خفاياه، أو في تطوير مناهجها وطرق اشتغالها.

من بين الأشياء التي يتحدد بها الحقل، كالحقل العلمي مثلاً، هو كونه يعين الرهانات والمصالح النوعية التي لا يمكن اختزالها في الرهانات والمصالح الخاصة بحقول أخرى (إذ لا يمكن أن نجعل الفيلسوف يدخل في رهانات مع عالم الجغرافيا)، والتي لا يمكن أن يدركها أي شخص غير مكون تكويناً يؤهله للدخول إلى الحقل (فكل فئة من المصالح تقتضي عدم الاهتمام ببعض المصالح والاستثمارات الأخرى، مما يضيف عليها سمة العبث واللامعنى والتصعيد والترفع). إن اشتغال حقل معين مشروط بوجود رهانات وأشخاص يلعبون اللعبة، مزودين في ذلك بالهابتوس *habitus* الذي يقتضي المعرفة والاعتراف بالرهانات وبالقوانين الملازمة للعبة، الخ¹.

إن بنية الحقل حالة من حالات علاقة القوة بين الأعوان أو بين المؤسسات المتصارعة؛ وبعبارة أخرى، تعتبر بنية الحقل حالة من حالات توزيع الرأسمال النوعي الذي يوجه الاستراتيجيات اللاحقة بما أنه تراكم أثناء الصراعات السابقة. إن هذه البنية التي تولد الاستراتيجيات الهادفة إلى تغيير تلك البنية نفسها، تدخل نفسها دوماً في اللعبة: إذ يسعى الأعوان من خلال الدخول في الصراعات الدائرة داخل الحقل إلى احتكار العنف الرمزي (السلطة النوعية) الذي يميز الحقل المدروس، أو يسعون من خلال ذلك إلى قلبه. وقيمة الرأسمال تتحدد انطلاقاً من العلاقة التي يقيمها مع حقل معين، وبالتالي مع حدود هذا الحقل؛ ولا يمكن تحويل هذا الرأسمال إلى نوع آخر من الرساميل إلا في بعض الشروط².

¹ Pierre Bourdieu, Questions de sociologie, op. cit, P 113.

² Ibid, p114

يتسم الحقل بخاصية أخرى، لكنها غير مرئية بما فيه الكفاية: يشترك كل الأشخاص الموجودين في حقل معين في عدد معين من المصالح الأساسية، أي في كل ما يرتبط بوجود الحقل نفسه: وهذا هو مصدر التواطؤ الموضوعي المستتر الذي خلق كل أشكال التناحر. إذ ينسى الكثيرون الشيء الذي يظل مكبوتا في بدايته ويبقى في وضعية الرأي السائد (doxa)، وهو أن الصراع يفترض اتفاقا بين المتنافسين على ما يستحق أن يكون مدارا للصراع، أي اتفاقا حول ما يصنع الحقل نفسه، كاللعبة والرهانات وكل المقترحات التي يتم قبولها ضمنا بمجرد الدخول في اللعبة دون أن يكون الداخل على علم بها. فأولئك الذين يشتركون في الصراع يساهمون في إعادة إنتاج اللعبة بمساهماتهم الكلية إلى هذا الحد أو ذاك حسب الحقول في إنتاج الإيمان بقيمة الرهانات. ويتعين على الداخلين الجدد الاعتراف بقيمة اللعبة (فالانتقاء واختيار الأعضاء من الزملاء يمنح دوما أهمية كبرى لمؤشرات الانخراط في اللعبة ومؤشرات الاستثمار) والمعرفة العملية بمبادئ اشتغال اللعبة. يتخذ هؤلاء الداخلون الجدد إستراتيجية القلب، لكنهم يكتفون ببعض الحدود خوفا من الإقصاء. ولذلك فإن الثورات الجزئية التي تحدث باستمرار في الحقول لا تطرح موضع تساؤل قواعد اللعبة نفسها وبدايتها الأساسية، باعتبارها قاعدة المعتقدات النهائية التي تقوم عليها اللعبة كلها.

يرفض "بورديو" بشكل صارم الوقوع في فخ الثنائيات المتناقضة التي تسيطر على العلوم الاجتماعية كالتقطيع بين النظرية والبحث الميداني (أو علم المنهج) والتعارض بين مختلف الميادين المعرفية وتوزيع المؤلفين حسب التسميات النظرية (ماركسي، فيبري، دوركايمي، الخ) بدائل البنية أو الفعل (أو التاريخ)، تحليل جزئي (مصغر) أو تحليل شمولي (مكبر)، مناهج كيفية ومناهج كمية ومسألة الموضوعية والذاتية.

وما يغذي هذه الثنائيات المتناقضة في المجال الأكاديمي، والتي نجد أصلها في التعارضات الاجتماعية. هي علوم التربية (أو مناهج التربية). فالعائق الرئيسي لتقدم المعرفة، على الأقل في العلوم الاجتماعية، يتمثل في الأساتذة. فهؤلاء في حاجة من أجل أن يدرّسوا،

إلى تعارضات بسيطة. وعليه فإن الثنائيات أمر ميسر جداً: إن النقاشات الميتة والمدفونة (داخلي/خارجي واحد منها، وكيفي/كمي هو الآخر) لا توجد إلا لأن الأساتذة يحتاجون لذلك من أجل أن يعيشوا، ولأن ذلك يتيح لهم القيام بمخططات الدروس والعروض.

والحقل العلمي الأصيل والمتفرد في نظر "بورديو" هو ذلك الفضاء المعرفي الذي يتوافق فيه الباحثون حول مواطن الاختلاف والتنازع ويتفوقون حول الآليات والميكانيزمات التي يكونون فيها في مستوى المنافسة العلمية المشروعة والمواجهة الأكاديمية المفيدة¹.

والحقل العلمي المميّز والمتميّز في نظر "بورديو" هو ذلك المجال المستقل نسبياً، الذي يشتغل فيه العلماء بطريقة تنافسية يتخلون في المواجهات الدائرة بينهم عن كل الوسائل غير العلمية، بدءاً باستخدام النفوذ الأكاديمي للحصول على الاعتراف والتمكّن من سلطة الشرعية ومنح الشرعية. وأكثر من ذلك فالحقل العلمي الأصيل يتطلب المشاركة باستقلالية تامة في المناقشات ومعارضة من يجيد عن الصواب. ويبين تاريخ الفكر أن العلم المبني على التنافس والتعارض والمواجهة والذي يؤسس مجالاً للمناقشات الصارمة وللاختلافات العلمية الجريئة، يعد أفضل نمواً وتطوراً من علم يسوده إجماع مبني على مفاهيم مطاطة، وبرامج مبهمّة.

يكون حقل ما علمياً أكثر طالما كان قادراً على إرجاع دوافع لا تقبل التصريح إلى سلوكيات علمية بالضبط. إذ في حقل متبنين بشكل هش ومتميّز بمستوى أدنى من الاستقلال، فإن دوافع غير مشروعة تنتج خطأً غير مشروعة وبالتالي مجردة من كل قيمة علمية. وبالعكس، في حقل مستقل، مثل حقل الرياضيات اليوم، فإن المتخصص في الرياضيات الذي يريد أن "يقضي" على معارضيه يضطره منطق الحقل لإنتاج رياضيات من أجل أن يفعل ذلك، وإلا فإنه سيُقصى هو نفسه من الحقل. ووعي هذا يوجب علينا (حسب

¹ بيار بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص133.

"بورديو" أن نعمل من أجل تأسيس مدينة علمية فيها تُضطر المقاصد غير القابلة للتصريح إلى أن تتسامى في تعبير علمي. وهذه النظرة ليست طوباوية¹.

في حقل علمي وصل إلى أعلى درجة من الاستقلال (بما هو ليس حال علم الاجتماع)، فإن نزوات الرغبة في السيطرة العلمية لا يمكن لها أن تشبع إلا بشرط أن تخضع للرقابة الخاصة للحقل الذي يطالبها بأن تتخذ سبل العقل العلمي والحوار الحجاجي كما يحددها، أي أن تتسامى إلى رغبة في العلم لا يمكن لها أن تنتصر على خصومها إلا تبعاً لقاعدة اللعب، أي وهي تعارض حجة بحجة وبرهان ببرهان، وواقعة علمية بواقعة علمية أخرى، هذا هو التطبّع الذي يحول شهرة الاعتراف إلى اهتمام معرفي².

وفي نظر "بورديو" دائماً، إنّ الرغبة في السيطرة العلمية والنفوذ الأكاديمي يتحولان في الحقل العلمي الأصيل إلى رغبة في العلم. وقد قاوم بكل ما أوتي من قوة معرفية وتمكّن علمي الإجماع الهش الذي يعد في نظره، أسوأ الحالات العلمية الممكنة: إذ، إن لم يكن لدينا أي شيء، فلنكن للباحثين والدارسين على الأقل صراعات ومواجهات ونقاشات بوسائل لا تخرج عن إطار العلم.

إن وجود مجموع مشترك من وسائل التفكير الانعكاسي، متمكّن منها جماعياً ومستعملة كذلك جماعياً، سوف يكون وسيلة رائعة للاستقلال. ولكنها سوف لن تكون الوحيدة. إذ هناك أيضاً مشكلة التمويل، سياسة رشيدة لتدبير العلاقات مع ممولي تكاليف البحث (سواء تعلق الأمر بالحكومات، بهيئات، أو بأرباب عمل أحرار) سوف يلزمها أن تكون معدة مثلاً بالاعتماد على تفكير إبستمولوجي وفي الآن نفسه على حدس سياسي، ويمكن أن يوضع كمبدأ أنه لا يجب أن تقبل الإعانات أو العقود إلا بالنسبة إلى أبحاث سبق أن تم القيام بها وحول مشاكل سبق أن تمت بلورة إجابة عنها بشكل أولي. إننا هنا بإزاء واسطة ليحافظ على

¹ بيار بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص134.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الاستقلال، ليضمن أن أي طلب لا يمكن أن يفرض بشدة أو بسرية. وهذا يقتضي الاستباق، لأن ذلك يتطلب أن يفكر مسبقاً، كما يقتضي بدهاء أن نكون منظمين جماعياً على نحو يجعل مشروعاً ما يزود المشروع الذي يليه بالموارد، وهكذا تبعاً¹.

رأى "بورديو" مئات من مشاريع البحث معتبرة تماماً تلاقي موتاً مفاجئاً لأنها لا تدمج الشروط الاجتماعية لتمكين تجسيد برنامج متصور بشكل مجرد. وبالجملة لا بد من أن يتعلم المرء كيف يتفادى أن يكون موضوع لعب القوى الاجتماعية.

اعتقد "بورديو" أن العلم تاريخي بشكل أو بآخر دون أن يكون في الآن نفسه نسبياً أو قابلاً للاختزال في التاريخ. ذلك أن هناك شروطاً تاريخية لتكوّن وتقدم العقل في التاريخ... وهو لا يرى أن العقل يكمن في بنية الذهن الإنساني أو في اللغة، إنه يكمن، بالأحرى، في بعض أنماط الشروط التاريخية، في بعض البنيات الاجتماعية المحددة للحوار أو التواصل غير العنيف. وفي التاريخ ثمة ما يمكن أن يسمى سيرورة حضارة علمية، تُعطى شروطها التاريخية مع تأسيس حقول مستقلة نسبياً في داخلها ليست كل الضربات جائزة، وتوجد فيها انتظامات محايثة، مبادئ مضمرة للتضمن والإقصاء وحقوق للقبول لا تكف عن البروز. إنّ العقل العلمي يتحقق حينما لا يلبث أن يُسجّل ليس في المعايير الخلقية لعقل علمي أو القواعد التقنية لمنهجية علمية، بل في آليات اجتماعية ظاهرياً فوضوية، تحدد التنافس بين خطط متسلحة بوسائل للعمل وخطط للتفكير قادرة على ضبط استعمالاتها الخاصة وكذا في الاستعدادات الدائمة التي ينتجها ويقتضيها اشتغال هذا الحقل².

والحقل العلمي مثل الحقول الاجتماعية الأخرى وفي الوقت ذاته يُعد فريداً بهذا المعنى الذي يجعله قادراً على توليد نتائج (المعرفة الخالصة) تعلق على الشروط التاريخية المحددة لإنتاجها... وضد كل أشكال النزعة المتعالية يقترح "بورديو" تأريخاً جذرياً لحل

¹ بيار بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص138.

² المرجع نفسه، ص142.

الاستقلال بين العقل والتاريخ: يجب علينا أن نقبل أن العقل لا يتحقق في التاريخ إلا في المدى الذي يكون مسجلاً في الآليات الموضوعية المحددة لتنافس مضبوط، والقادرة على قسر الادعاءات المعنية بالاحتكار على التحول إلى إسهامات مُكرهة في الكلي.

إذا كانت ثمة حرية فكرية، فإنها ليست حرية فردية بل حرية يتم انتزاعها جماعياً من خلال البناء المؤقت والمحدد تاريخياً لفضاء من النقد والنقاش المضبوطين. إنه شيء لا يعترف به المثقفون إلا نادراً جداً؛ إنهم ينتظرون خلاصهم من تحرير فردي، وسط منطوق من الحكمة ومن الغزو التلقيني. إنهم ينسون في الغالب الأعم أنّ هناك سياسة للحرية الفكرية. وعلى أساس كل ما قيل، يمكن أن نرى بوضوح أن علماً تحريراً ليس ممكناً إلا إذا اجتمعت الشروط الاجتماعية والسياسية التي تجعله ممكناً. وهذا يتطلب، مثلاً، أن يتم فعل كل شيء لإنهاء مفاعيل السيطرة التي تشوه التنافس العلمي، كإقصاء بعض الذين يستحقون أن يدخلوا في اللعب (من خلال رفض طلبات مشروعة للمُنح أو إعانات البحث، أشكال فظيعة من الرقابة ولكنها تمارس يومياً). هناك صيغ أشد رقة، مثل الرقابة التي تمارسها اللبابة الأكاديمية مُضطّرة الأذهان الأشد تجديداً لأن تنفق جزءاً مهماً من وقتها في إعطاء حجج كاملة، في تطابق مع القوانين الوضعانية للحظة، عن كل واحدة من قضاياهم، مانعة إياهم هكذا من أن ينتجوا كمّاً من قضايا جديدة يمكن أن يُترك التصديق على صلاحيتها الكاملة لآخرين. وكما بين "بورديو" في الإنسان الأكاديمي، فإن السلطة الأكاديمية تمارس بالخصوص عبر ضبط الزمان¹.

ولن نستطيع أن نجعل العقل يتقدم إلا بشرط الدخول في الصراعات القائمة من أجل العقل وإدخال العقل في التاريخ، أي بشرط أن يمارس ما سماه "بورديو" بسياسة واقعية للعقل، مثلاً من خلال تدخلات لصالح إصلاح النظام الجامعي أو أعمال تسعى للدفاع عن

¹ بيار بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص 143.

إمكان نشر كتب ذات انتشار ضعيف، أو أيضاً صراعات ضد استعمال حجج شبه علمية في مشكلات متعلقة بالعنصرية¹.

أسئلة عديدة تُطرح اليوم في ميدان العلم: كيف يُنتج العلم؟ أو كيف تُنتج الأبحاث العلمية؟ ما هي الشروط الاجتماعية والاقتصادية المناسبة؟ ما هو دور الهيئات الإدارية؟ ما طبيعة الوضع داخل مؤسسات الأبحاث؟ ما أهمية الاستقلالية العلمية؟ كيف يتطور البحث العلمي أو التفكير العلمي؟ كيف تُستخدم نتائج الأبحاث؟ كيف يؤثر التفكير العلمي في السياسة؟ أو كيف تؤثر السياسة في البحث العلمي؟²

يرى "بورديو" أن الحقل العلمي يتميز بخصوصية محدّدة: منطوق خاص يتوافق مع تطور العقل وقوى في حالة تجاذب. ويعتبر أن أي علم من العلوم هو في حالة تنافس أو صراع مع العلوم الأخرى، ويدخل ضمن حقل معين مستقل نسبياً.

وحين يتحدث عن المؤسسات العلمية يتحدث عن شكل محدّد من التفكير الجماعي. غير أنه لا يكفي أن نجمع مجموعة من الأشخاص ليتولّد تفكير علمي. فمضاربات الخبراء مثلاً وتعليمات اللجان والهيئات قد تثير تساؤلاً، مما يتطلب ضرورة إخضاع التصورات الداخلية أو الخارجية، العلمية أو العفوية، لفحص نقدي جذري وتقديم أدوات للمعرفة ضرورية لبناء تصور حقيقي ومفيد للفعل.

يطرح "بورديو" سؤالاً مركزياً: هل من الممكن إنشاء علم للعلم أو علم اجتماع العلم قادر على وصف الاستخدامات الاجتماعية للعلم وتوجيهها؟ وللإجابة يذكر ببعض المفاهيم التي تشكّل شروطاً للتفكير المحصّن، ويشكل خاص مفهوم الحقل. وتوجد، برأيه حقول عديدة أو عوالم صغيرة مستقلة نسبياً، ويوجد تاريخ لأي حقل منها. ويشير إلى التعارض أو التناقض بين التفسيرات الداخلية والتفسيرات الخارجية في كل الميادين. ويدين هذه الثنائية

¹ المرجع نفسه، ص، ص 143، 144.

² علي سالم، "بيار بورديو: الحقل العلمي وفكرة البدائل"، كتابات معاصرة، العدد 37، المجلد العاشر، 1999، ص 27.

في التفسير: الاعتبار الذي ينطلق من صنمية النص المستقل (السيمولوجيا مثلاً)، والاعتبار الآخر الذي يُرجع النص إلى الظرف (الماركسية بشكل خاص) أو إلى العالم الاجتماعي أو الاقتصادي. فتوالد العلم ليس عزرياً (خارج تدخل العالم الاجتماعي) وليس نتيجة للخارج العام. أو بعبارات أخرى، لا يُفهم الإنتاج الثقافي بالعودة إلى محتوى النص، أو بالعودة إلى الإطار الاجتماعي مباشرة. ويقول بوجود عالم وسطي بين هذين القطبين يسميه الحقل الأدبي، الفني، القانوني أو العلمي، أي العالم الذي يشمل الأفراد والمؤسسات التي تنتج وتعيد إنتاج الفن أو الأدب أو العلم. وهذا العالم هو عالم اجتماعي خاص إلى حد ما. ويؤكد على أن فكرة الحقل هي للدلالة على هذا المجال المستقل نسبياً، هذا العالم الصغير الذي له قوانينه الخاصة. ويرى أن أحد الأسئلة المهمة التي تُطرح بخصوص الحقول (أو الحقول الصغيرة) العلمية هو بالتحديد درجة الاستقلالية التي تتمتع بها¹.

وهكذا، فأي حقل، الحقل العلمي مثلاً، هو حقل من القوى والصراعات للحفاظ على حقل القوى هذا أو لتحويله. وبنية العلاقات الموضوعية في الحقل العلمي (كما الأمر في الحقل الاقتصادي حيث الأعوان والشركات يحددون أو يخلقون المجال) هي التي توجه وجهات النظر والمداخلات العلمية وأمكنة النشر والأشخاص الذين نختارهم والموضوعات التي نهتم بها، الخ؛ أو هي التي تحدّد ما يقدر عليه الأعوان وما لا يقدر عليه. أو أن الوضع الذي يحتلونه في هذه البنية هو الذي يحدّد أو يوجه مواقفهم. وهذا يعني أنه لن نفهم ما يقوله أو يفعله فاعل منخرط في الحقل (اقتصادي، كاتب، فنان، الخ) إلا إذا رجعنا إلى الوضع الذي يحتله في هذا الحقل، بدل العودة إلى المكان أو الموقع المفترض أن يحتله في المجال الاجتماعي الكلي أو العودة إلى وضعه الطبقي وفق التقليد الماركسي. ويكون تأثير الأعوان (أفراداً أو مؤسسات) تبعاً لرأسمال محدّد يملكونه. ويزداد قسر بنية المجال على العون الاجتماعي بقدر ما يكون وزنه النسبي ضعيفاً.

¹ علي سالم، بيار بورديو: الحقل العلمي وفكرة البدائل، المرجع السابق، ص 27.

ويحدّد "بورديو" الرأسمال العلمي بنوع خاص من الرأسمال الرمزي (الذي يرتكز على فعل الاعتراف أو على الرصيد المعطى من قبل المتنافسين داخل الحقل العلمي). وهنا نذكر جوائز نوبل والجوائز الممنوحة على المستوى الوطني. ويرتكز الرأسمال العلمي على اعتراف بالمقدرة أو الأهلية يمدّه بالسلطة ويتيح له ليس تعريف قواعد اللعبة فقط وإنما انتظاماتها وقوانينها التي تُوزّع وفقها الأرباح بتحديد ما يجب الكتابة حوله... ويعتبر أن الأعوان الاجتماعيين ليسوا جزئيات سلبية، إذ يمكنهم مثلاً مقاومة أو مواجهة قوى الحقل من خلال استعداداتهم وتصوراتهم المكتسبة. ويعتقد أنّ الأشخاص البعيدين عن الحقل، الذين يملكون استعدادات وتصورات غير تلك الخاصة به، لا يتمتعون بموقع جيد فيه. ومهما يكن من أمر، فالحقل يبقى مكاناً للصراع.

والرؤية القداسية للعلم كدّبت من خلال ما نعرفه عن حقيقة البحث: الانتحال وسرقة الأفكار والنزاعات المتعلقة بالأفضلية. والعلماء مهتمون ولديهم رغبة بأن يكونوا من الأوائل والمتفوقين والأكثر تألقاً ويتحدث عن خصائص الحقل العلمي، في حالتها التبعية والاستقلالية. فبقدر ما يكون الحقل تابعاً، تكون المنافسة ناقصة ويُدخل الفاعلون قوى غير علمية في الصراعات العلمية. وبالعكس، بقدر ما يكون الحقل مستقلاً يكون قريباً من منافسة نقية ممتازة، وتكون الرقابة علمية وتستبعد تدخل قوى اجتماعية وضغوطات اجتماعية تأخذ شكل الضغوطات المنطقية. والانتصار يكون من خلال حجج وبراهين.

ويرى "بورديو" أنّ الوضع سيكون جيداً لو أن منطق المنافسة العلمية الذي يرتكز على قوة الحجج والبراهين لا يُجابه بقوى وضغوطات خارجية. وفي الواقع، فعالم العلم كالعالم الاقتصادي، يُظهر ميزاناً للقوى وظواهر تتعلق بتمركز الرأسمال والسلطة أو الاحتكار، وعلاقات اجتماعية من الهيمنة أو السيطرة على وسائل الإنتاج وإعادة الإنتاج الخاصة بالعالم. الصغير المعتبر. ودرجة استقلالية العلم تتعلق جزئياً بدرجة احتياجه للمصادر الاقتصادية وبدرجة حماية الحقل العلمي من التدخلات.

يُميّز "بورديو" بين نوعين من السلطة أو من الرأسمال العلمي داخل الحقل. من ناحية، سلطة زمنية (أو سياسية)، سلطة مؤسسة ومرتبطة باحتلال مواقع بارزة في المؤسسات العلمية، وتشمل إدارة مختبرات أو أقسام وهيئات ولجان، الخ، ولها سلطة على وسائل الإنتاج (عقود، اعتمادات، مراكز، الخ) وإعادة الإنتاج؛ ومن ناحية أخرى، سلطة نوعية، "هالة" شخصية مستقلة تقريباً عن الأولى وترتكز حصراً على الاعتراف بها من قبل الفاعلين وبشكل خاص من قبل "العلماء المتوارين" الموحدّين بواسطة علاقات من التقدير المتبادل¹.

وبعبارات أخرى، هناك رأسمال علمي "صاف" ورأسمال علمي مؤسّساتي. الأول، على الرغم من توافقه مع الصورة المثالية التي يريدها الحقل ويعطيها عن نفسه، هو أكثر عرضة للتساؤل والنقد، على الأقل في مرحلة التراكم الأولى، من الرأسمال العلمي المؤسّساتي.

والرأسمال العلمي "الصافي" يكتسب بشكل أساسي من خلال المساهمات المعترف بها في تقدّم العلم والاختراعات أو الاكتشافات؛ والرأسمال المؤسّساتي من خلال الاستراتيجيات السياسية (الخاصة) التي تتطلب وقتاً للمشاركة في هيئات ولجان ومؤتمرات وهمية إلى حدّ ما على المستوى العلمي، واحتفالات ولقاءات، الخ.

ويوجد اختلاف في أشكال نقل هذين النوعين من الرأسمال العلمي "الصافي" قليلاً ما يتموضع، وفيه شيء من الغموض ويبقى غير محدّد نسبياً، وفيه من الكاريزما (وفي الإدراك العادي، مرتبط بالشخص و"مواهبه" الشخصية)، وبهذه الصفة، من الصعب نقله عملياً (فالباحث الكبير يمكن أن ينقل الجزء الأكثر شكلية من مقدرته العلمية، ولكن من خلال عمل طويل وبطيء). وبالعكس، فالرأسمال العلمي المؤسّساتي له تقريباً قواعد النقل الخاصة بأي نوع من الرأسمال البيروقراطي: الحائزون على الرأسمال العلمي "الصافي" يتجهون نحو تحديد أنفسهم وفق المنطق الكاريزماتي.

¹ علي سالم، بيار بورديو: الحقل العلمي وفكرة البدائل، المرجع السابق، ص 29.

ينقل "بورديو" عن "تيري شين" Terry Shinn أن هذين النوعين من الرأسمال العلمي أو هذين الشكلين من السلطة قد يتعايشان داخل المختبر. فمن جهة، مدير المختبر الذي يجسّد بطريقة ما، من خلال حالة البحث وتآلفه مع اللجان والهيئات، "العلم الطبيعي" ويُنتج أعمالاً موجهة نحو التعميم، ومن جهة أخرى، الباحث ذو الاعتبار الذي يتفرد ببناء "نماذج تكاملية" ويقدم نوعاً من المخيلة العلمية¹.

ويعتقد بإمكانية تحول الرأسمال السياسي (الخاص) إلى سلطة علمية، بالنسبة إلى أولئك الذين يحتلون مواقع وسطية في التوزيعين (الهالة والسلطة) ... ويتحدث كيف أن السلطة العلمية، من خلال هيمنتها على المراجع وأدوات التقديس أو التكريس: أكاديميات، قواميس، جوائز (وطنية على الأقل)، وهيمنتها على مواقع في الجامعة وفي مؤسسات البحث، تنجح في التأثير (تأثير الهالة) بطريقة شبه كاريزماتية في الباحثين الجدد، تحديداً، الذين يعملون غالباً على إعطاء صفات علمية لأولئك التابعين لهم وتقديم المجاملات والولاءات. ويمكن للرصيد العلمي أن يؤمّن، على المدى البعيد، شكلاً من الرصيد السياسي.

ويعتبر أن الحقل سيكون أكثر فاعلية علمياً إذا كان الأكثر مكانة أو هالة هم الأكثر قوة، وأن الباحثين الذين بحوزتهم السلطة الزمنية ليسوا بالضرورة الأفضل من زاوية المعايير العلمية. وبيّن التأثيرات الناتجة عن ضعف الاستقلالية. إذ بقدر ما تكون استقلالية الحقل محدودة وغير كاملة، تكون الفروقات ملاحظة بين التراتيبات النوعية، وتتدخل السلطات الزمنية التي تتوب غالباً عن السلطات الخارجية في الصراعات الخاصة، من خلال السيطرة على المراكز والمساعدات المالية والعقود، الخ... وتتصف الحقول، برأيه، بغموض بنيوي (لأن استقلاليتها إزاء السلطات الخارجية كاملة، ولأنها مكان لنوعين من الهيمنة، الزمنية والنوعية): الصراعات الفكرية هي غالباً صراعات سلطة.

¹ علي سالم، بيار بورديو: الحقل العلمي وفكرة البدائل، المرجع السابق، ص 29.

ويعتبر أن المؤسسة العلمية لا تنطلق من حاجات وتوقعات هذه الفئة أو تلك وإنما تهدف للوصول إلى شكل من أشكال الشرعية ولزيادة القوة الرمزية في الصراعات الداخلية من المنافسة وذلك لاحتكار التعريف الشرعي للممارسة العلمية.

ويدين التحليلات النصفية التي تشجع على التهكم في الممارسة العلمية أو تعطي أسلحة للرؤية الإدارية للمؤسسة لناحية المراقبة والضغط، بدل أن تحت على التفكير النقدي البنائي وعلى التفهم.

ويعتبر الاتصال العقلاني شرطاً لتطور العقل الشمولي. ويدعو إلى الكفاح عملياً أو سياسياً من أجل إعطاء قوة للعقل، أو من أجل الدفاع عن الاستقلالية والشروط الاقتصادية والاجتماعية للاستقلالية. ويحذر من خطورة "تسييس" الحقل العلمي والصراعات التي تجري داخله، أو إدخال النماذج السياسية في الحقل العلمي (الذي مورس كثيراً في فرنسا): التسييس هو دائماً فعل المهيمين الزميين (المؤقتين) أو المهيمن عليهم، الأكثر ضعفاً وفق المعايير النوعية والذين لهم مصلحة في التبعية: فبالعمل على إدخال السلطات الخارجية في الصراعات الداخلية، يمنعون نمو التبادل أو التفاعل العقلاني.

ويدعو كذلك إلى خلق نوع من حركة مقاومة مدنية ضد الفرض المعمم للإشكاليات من قبل التلفزيون (الذي أصبح أحد أمكنة إنتاج الإشكاليات، وإنتاج الفلسفة والعلم والتصورات عن العلم، الخ)، وإلى خلق أمكنة لنقاش منظم وحر مصحوب باهتمامات مهنية ومقدرة مهنية واندفاعات مهنية وانتفاضات (معارضة مهنية عنيفة)، وذلك لمناقشة مسائل عملية، شخصية أو عامة وفق مصطلحات مهنية.

ولن يتحقق لنا الفهم الصحيح للحقل العلمي إلا إذا أدركنا أن العنف الرمزي يتخلل كل أشكال اللعب التي تخص هذا الفضاء الاجتماعي بكل رهاناته والأرباح التي يسعى أعضاؤه للفوز بها منها السلطة الرمزية والاعتراف الأكاديمي.

يعرف "بورديو" العنف الرمزي " بأنه عنف ناعم خفي هاديء، وهو خفي مجهول من قبل ممارسيه وضحاياه في آن واحد"، ويقول عنه في سياق آخر: "إنه عنف هادئ لا مرئي لا محسوس حتى بالنسبة إلى ضحاياه". ويتمثل في اشتراك الضحية وجلادها في التصورات والمسلّمات نفسها عن العالم. ويتجلى هذا العنف في ممارسات قيمية ووجدانية وأخلاقية وثقافية تعتمد الرموز كأدوات في السيطرة والهيمنة، مثل: اللغة، والصورة، والإشارات، والدلالات، والمعاني، وكثيراً ما يتجلى هذا العنف في ظلال ممارسة رمزية أخلاقية ضد ضحاياه¹.

والعنف الرمزي ينبثق عن سلطة رمزية، ويعبر في جوهر الأمر عن توجهاتها، وهذه السلطة تقوم على أسلوب التورية والتخفي، فهي سلطة لامرئية تنطلق من مبدأ تواطؤ أولئك الذين يابون الاعتراف بأنهم يخضعون لها. لهذا يكون تأثير السلطة الرمزية أعمق وأخطر من أي سلطة أخرى لأنها في جوهرها تستهدف البنية النفسية والذهنية لضحاياها، وبالتالي فهي - أي السلطة الرمزية تخطط لفرض أهدافها المرسومة وإنتاج الأدوات والآليات والمعايير المناسبة لإخضاع من تستهدفهم، وذلك لتثبيت وخلق واقع وضع إنساني مرغوب فيه ومخطط له، وتمارس هذه السلطة الرمزية فعاليتها بطريقة منظمة وبنائية متكاملة تحت غطاء التخفي والاختفاء، أي وراء أقنعة المألوف العادي وأنظمة التقاليد والمقولات والخطابات المنغرس في عقول الناس والثابوة في ضمائرهم.

ويمكن القول في هذا السياق أن العنف الرمزي هو نوع من العنف الثقافي الذي يؤدي وظائف اجتماعية كبرى، ويمكن تلمسه في وضعية الهيمنة التي يمارسها أصحاب النفوذ على أتباعهم بصورة مقنّعة وخادعة، إذ يقومون بفرض مرجعياتهم الأخلاقية والفكرية على الآخرين من أتباعهم، ويولدون لديهم إحساساً عميقاً بالدونية والعطالة والشعور بالنقص ويخضعونهم لنسق من المعايير والرموز التي تؤكد دونيتهم ووضعياتهم الثانوية عبر عمليات ومشاعر النقص والضعف والافتقار إلى الجدارة والموهبة والشرف والكرامة وضعف تقدير

¹ علي أسعد وطفة، "الطاقة الإستراتيجية للعنف الرمزي"، مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والإستراتيجية، لندن، الخميس 10.05.2012، ص2.

الذات. فالهيمنة الرمزية تمثل في جوهرها عملية تطبيع الآخر على الشعور بالدونية، وضعف الإحساس بالقيمة الذاتية، وازدراء الأنا ، كما تمثل في جوهرها عملية تمويه وتورية واختفاء ومواربة في تحقيق أهدافها وغاياتها السلطوية¹.

¹ المرجع نفسه، ص3.

الفصل الرابع

المعرفة والعنف الرمزي

تمهيد

يتجلى علم اجتماع المعرفة عند "بيار بورديو" في نقده المعرفة الفلسفية التي تدعي التسامي والخلود، مقارنة بالعلوم الاجتماعية، فما ينكره على الفلاسفة هو رفضهم الخضوع للمساءلة السوسيولوجية، التي ترجع الأفكار البشرية إلى محددات اجتماعية وعوامل تاريخية.

ومن المواضيع المحورية التي شكلت نواة علم اجتماع المعرفة عند "بورديو" لدينا الدراسة التي أنجزها عن الأكاديميين، فقد اثبت بالرصد والمعاينة أن الوسط الجامعي لا يخلو من الغش والخداع والمباهاة، فالتنافس بين أعضاء الحقل العلمي يستند في الغالب إلى استراتيجيات لا علمية أي لا شرعية، فهو يدعو إلى استخدام آليات عقلانية في العمل العلمي كالحوار المبني على الحجج والبراهين لا الاستخفاف والاستصغار.

انتقد "بورديو" الفكر الاقتصادي المعاصر باعتباره يدعي الدقة والصدق فيكفيه فخراً أنه يستخدم الرياضيات كسند علمي موضوعي. لكن في الواقع إن علم الاقتصاد يعمل على تبرير منطق الليبرالية المتوحشة التي ترتكز على اقتصاد السوق، الذي من مبادئه الحرية الفردية والمنافسة، وهو في الحقيقة يشجع على الاستغلال الفاحش وتعميم الفقر والجوع ونشر اللأمن في المستقبل بسبب تعميم الشغل القائم على عقود مؤقتة.

لا يفوتنا في هذا الإطار التنويه بالقراءة السوسيولوجية التي اقترحها "بورديو" لفهم الخطاب الإعلامي، فقد اعتبر التلفزيون مثلاً أداة للتلاعب بالعقول، ووسيلة لتشويه الثقافة والحط من الذوق الرفيع، فالتلفزيون يستجيب لمستلزمات اقتصادية وضروريات نسبة المشاهدة، ولا يهيمه العلم كمعرفة صارمة وولا يكثرث بالأدب الملتزم ولا بالفكر الجاد ولا بالفلسفة المبدعة.

وما لمسناه بصفة عامة هو الحس النقدي الذي يتمتع به فكر "بيار بورديو"، ورغم تنوع المواضيع المتناولة فإنه تعمق في إدراك العنف الرمزي، الذي تخفيه كل أشكال الهيمنة التي تمس حقل التمثلات الاجتماعية المحددة لرؤيتنا للعالم، والموجهة لممارساتنا والراسمة لأحكامنا ولتقييماتنا ولتصوراتنا.

المبحث الأول: العلوم الاجتماعية والفلسفة

إن المنزلة الاجتماعية للفلسفة تتطوي على فلسفة بكاملها، بحيث إن دراسة هذه المكانة وتحليلها (ذلك التحليل الذي يمكن أن ننعته بالتحليل السوسولوجي)، مع دراسة المظاهر الراسخة لأولئك الذين يحتلونهم لأنهم يستشعرون أنهم أهل لذلك المقام، ستكون، بفعل ذلك، دراسة فلسفية. وستثير الانتباه إلى كل ما تدين به الممارسة الفلسفية والخطاب الفلسفي للشروط الاجتماعية لوجودهما - سواء تعلق الأمر بالموضوعات المطروقة أو المحظورة - أو بكيفية طرقها وتناولها كأسلوب وكنغمة، وبكل جهاز المراجع النادرة والأمثلة السامية والمشاكل المثارة التي يتأكد عن طريقها معنى السموّ أو رفض الإسفاف، واتخاذ الأهمية أو اكتساب الحق في إصدار الحكم الحاسم والبت النهائي.

لقد كان "بورديو" في الحقيقة عالم اجتماع كبير وفيلسوفاً حقيقياً، ثم إنه عارف مرموق بالفلسفة حتى إنه ليغتاظ من النقاشات المغلوطة التي كانت تفرض عليه وتعرض الولوج إلى حقيقة فكره، وإلى الحوارات النقدية الجوهرية التي كان يمكن أن يثيرها.

لقد عرف "بورديو" كيف يستفيد من الفلسفات الكبرى للماضي (باسكال، وسبينوزا، وليبنتز، وكانط، وهيغل، وماركس، وكاسيرير، الخ.)، ومن التيارات الفلسفية التي دمغت سنوات تكوّن الظاهرية وفلسفة العلوم (هوسرل، وهيديغر، وسارتر، وميرلو بونتي، وباشلار، وكنغيلهم)، والذي كان واحداً من بين أوائل القراء الفرنسيين لها. إلا أنه ما فتئ يحافظ على علاقة موسومة بالحرية حيال هذه المشاريع النظرية، معتبراً التصورات الفلسفية أدوات في خدمة معرفة العالم الاجتماعي بالطريقة ذاتها. مثلاً، كأدوات علم الرياضيات. ولم يكن متردداً إذن ليستدعيها عند الحاجة، لاستعمال مصاد أو في سياق التحليلات السوسولوجية الواقعية التي تتكشف فيها قيمة استكشافية غير منتظرة¹.

¹ ستيفان شوفالبييه وكريستيان شوفيري، معجم بورديو، تر: الزهرة إبراهيم، الطبعة الأولى، دار الجزائر، الجزائر، 2013، ص 241.

يقول "بورديو" إنني احتاط كثيراً من التفلسف، من محاولة أن أفلسف عوض أن أقوم بالبحث، ولكنني أعتقد أن المقدمات المنطقية والاستدعاءات القبلية السوسيولوجية أساساً هي على مستوى رفيع جداً من المعرفة الفلسفية".

هذا غريب جداً لأنه ينبغي في الوقت نفسه معرفة فلسفية جد قوية، ويجب الحذر منها كثيراً. لقد ظل "بورديو" يحترس من التطبع الفلسفي الخاص به، وظل يبحث ليظل تابعاً للأنظمة التي يرهنها هذا التطبع عفويّاً في إدراك وتقدير العالم، بدءاً بذلك الذي يميز ويختار النظري ضداً عن التجريبي أو الكلي ضداً عن الخاص¹.

فعمل "بورديو" إذن، يرتبط بشكل عميق بالفلسفة، إن شبح التفلسف قد جعله ينبذ تأليف كتاب ذي رنات فلسفية واضحة مثل تأملات باسكالية، لكن طموح عمله قد كان دائماً سوسيولوجياً وأنثروبولوجياً (بمعنى الإدراك الفلسفي لما هو إنساني) ويجب، حسب رأيه، إجراء نقد للفهم الفلسفي... يجب تلقين الفلاسفة بأنهم ليسوا كائنات غير مخلوقة، ومن غير مكان لهم، وغير قابلين للتصنيف، بل إنهم، ككل الناس معروفين داخل الفضاء الذي يدعون معرفته... فالفيلسوف يتأثر فكره بالاستعدادات المرتبطة بموقعه الاجتماعي².

إن الفلسفة الاجتماعية التي تكمن في وظيفة الفيلسوف ووضعيته لا تكون أشد وضوحاً إلا في العلاقة التي يقيمها الفلاسفة مع التاريخ، متجاوزين الفروق التي تفصل العصور وتميّز المدارس. وتلك العلاقة لا تتجلى بشكل واضح إلا في الاستعمال الذي يوظفون به عادة فلسفات الماضي، أو في الحلول التي يقترحونها لحل المشاكل التي يطرحها الطابع التاريخي للفلسفات³.

فلسفة تاريخ الفلسفة، من حيث هي فلسفة خالدة لا تشكل مختلف تجسيدات التاريخية إلا عينات تفصل بينها اختلافات سطحية عرضية يكون على النظرة الفلسفية أن

¹ ستيفان شوفالييه، المرجع السابق، ص 242.

² Pierre Bourdieu, *Méditations Pascaliennes*, Edition du seuil, Paris, 1997.P38

³ بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص 32.

تتجاوزها للنفاذ إلى الجوهر، أي لحقيقة النص التي تعلق على التاريخ. إن هذه الفلسفة ليست إلا تبريراً للفرضيات الضمنية التي تتطوي عليها الممارسة التي يقوم بها عادة أستاذ الفلسفة كقارئ، أي ممارسة التعليق على النص¹.

إن القارئ الأستاذ يكون عليه أن يصلح بين كتاب متنوعين، يوفق بين مؤلفات ومذاهب مختلفة، بل متعارضة: فأن نتعلم كيف نجد كانط عند أفلاطون، وماركس عند سبينوزا أو هيدغر عند بارمنيد، معناه أن نعطي لأمر الثقافة شكل الاعتقاد المتن الذي يضمن التلاؤم بين الأضداد عندما يجعل "الثقافة الفلسفية" وقد توحدت في صورة فلسفة خالدة، فوق الفلسفات الفردية، وهو يوافق تمام الوفاق مجموع الاستعمالات المباشرة أو غير المباشرة التي توظف بها المدرسة إنتاجات الممارسة الفلسفية في الماضي².

ليس من شك في أن الافتتان الذي ما فتئت الفلسفة تبعثه يكمن فيما تخوله من شعور لدى أصحابها بالتحرك فوق الحوادث العارضة لتاريخ يطبعه الجواز، وحتى وإن هي اعترفت بالتاريخ وأدمجته في مفهومها، كما هو الأمر لدى هيجل، فإنه لا يكون إلا تاريخاً لنمو الماهية، حيث لا يكون الحدث إلا لحظة لحلول العقل، وحيث لا يكون لمنطق التعاقب المعقول أي وجه شبه مع رواية الوقائع كما يرويها مجرد السرد التجريبي، وبالأحرى مع نسيج العلاقات كما يقيمه التاريخ الاجتماعي للأفكار، ذلك التاريخ الذي يدمج تاريخ الفلسفة ضمن تاريخ مجال الإنتاج الثقافي، وعبره، ضمن التاريخ العام. وإن هذا الرفض للتاريخية كشيء مصطنع يصدر عن العقل ليس إلا قلباً للمطمح الدوغماتي الذي ينشد إقامة الحقيقة التاريخية دفعة واحدة عن طريق الاستنباط، أو عن طريق بناء المفاهيم وتركيبها على غرار ما يقوم به الرياضيون، وهذا هو مطمح الفلسفة بلا منازع، وهو أن يكشف، قبل كل تجربة، وقبلها، الأسس النظرية لكل معرفة تجريبية ممكنة والمبادئ المعقولة لكل علم وضعي³.

أثار "هيدغر" اهتمام "بورديو" بوصفه تجسيداَ نموذجياً لـ "الفيلسوف الخالص" وأراد أن يبين، في هذه الحالة التي تبدو أشد تعجيزاً لعلم اجتماع الأعمال الثقافية، أن منهج

¹ بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص33.

² المرجع نفسه، ص34.

³ المرجع نفسه، ص.ص 38،39.

التحليل الذي اقترحه" كان يمكن له ليس فقط أن يفسر الشروط السياسية لإنتاج العمل الإبداعي، ولكن أيضاً أن يقود نحو فهم أحسن للعمل نفسه، أي في تلك الحالة، إلى القصد المركزي للفلسفة الهيدغرية، وهو تناول التاريخانية من زاوية فلسفة الوجود.

وأهمية "هيدغر" باعتباره نموذج الفيلسوف "المحض" اللاتاريخي، الذي يرفض أن يربط الفكر بالمفكر، بسيرة حياته، بالشروط الاقتصادية والاجتماعية لزمانه، يضطرنا هذا إلى إعادة التفكير في العلاقة بين الفلسفة والسياسة. وهذا ما يوحي به العنوان الذي أعطاه "بورديو" لعمله: فلسفة الوجود سياسة والسياسة تصير فلسفة الوجود. يفترض إذن تحليل مناسب لخطاب "هيدغر" فرضاً مزدوجاً: فيلزم ذلك التحليل أن نزيح في آن واحد ادعاءات النص الفلسفي عن الاستقلال المطلق، والاختزال المباشر للنص في السياق الأعم لإنتاجه وتداوله¹.

هكذا، فإن "قضية هيدغر" كانت مناسبة لبيين "بورديو" أن النزعة الجمالية التي تميز الفلسفة متجذرة في نزوع أرستقراطي اجتماعي، هو نفسه مؤسس على احتقار للعلوم الإنسانية لم يجعل من أجل تيسير نظرة واقعية إلى العالم الاجتماعي. إنه ليس بالصدفة أن الفلاسفة الفرنسيون في الستينات، لم ينبذوا أبدا الامتيازات النخبوية المرتبطة بوضع الفيلسوف².

هذا الشعور بسمو الفلسفة الذي يخول لآخر الفلاسفة بأن يحس أن له الحق أن يرى إلى مختلف الدراسات التجريبية وإلى من يمارسونها، بنوع من التعالي والازدراء. هذا الشعور له ثمنه: فالقدرة على التأمين والإقرار التي ترتبط باحتلال موقع الهيمنة، هي ما يحول دون الإسفاف والنزول إلى حضيض المهام الفكرية البسيطة، وهي غالباً ما تقضي على هؤلاء المهيمين، الذين يخضعون لهيمنتهم، بأن يخلطوا السمو النظري بمجرد التلاعب اللفظي لفكر قلما تقلقه الأشياء.

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص110.

² المرجع نفسه، ص114.

نشير هنا إلى استغلال النفوذ الرمزي الذي يخوله الاستجاد بالسلطة التي ينطوي عليها لفظ الفلسفة ولقب الفيلسوف، واللجوء إلى استراتيجيات رمزية ترمي إلى محاكاة ما يترتب عن ممارسة الفلسفة عادة وما يرتبط بها كاتخاذ المواقف الجذرية أو القدرة على التنبؤ المرتبطة بالتلفظ بالعبارات الخطيرة حول المسائل الهامة.

تجمع فلسفات تاريخ الفلسفة بالرغم من اختلافها، على التأكيد بأن الخطاب الفلسفي لا يمكن أن يرد إلى مجرد التحديدات الاجتماعية. إذا كانت هناك مسألة تتشبث الفلسفة باستبعادها، فهي مسألة الشروط الاجتماعية لإمكانية الفلسفة والفيلسوف، والنتائج الفلسفية (كالحدود غير الظاهرة) التي تلزم عن هذه الشروط. هذا في حين أن نوعاً من النقد السوسيولوجي الحريص على إبراز الشروط النظرية والعملية للفكر الفلسفي، وهذا يعني المصالح التي تعمل الفلسفة على إعلائها والتي تخدمها الممارسة النظرية، ولكن أيضاً إبراز أطر الفكر التي ترسم للتجربة الفلسفية حدودها وبنيتها وتعطيها تعبيرها، إن هذا النقد السوسيولوجي هو القادر وحده على أن يعطي الفعالية لخلطة الفرضيات التي تنطوي عليها وظيفة الفيلسوف ووضعيته أي للتاريخ المزدوج، الجماعي والفردية، الذي تتولدان عنه¹.

إن التذكير بالشروط التي يتم فيها الفكر الفلسفي لا علاقة له بنبذ سجالي يستهدف إضفاء الطابع النسبي على كل المعارف وكل الأفكار. وبعيدا عن أن يقود إلى تدمير الفلسفة، فإن تحليلا سوسيولوجيا يعيد موضعها في حقل الإنتاج الثقافي وفي الفضاء الاجتماعي، يعد الوسيلة الوحيدة ليفهم فهماً تاماً الفلاسفة وتتابعهم وليحرر بالتالي الفلاسفة من اللامفكر فيه المسجل في إرثهم. إنه قد يعطيهم وسيلة للكشف عن كل ما تدين به وسائلهم الفكرية الأكثر شيوعاً (مفاهيم، مشكلات، تصنيفات) للشروط الاجتماعية المحددة (لإعادة) إنتاجهم، وللمحددات المسجلة في الفلسفة الاجتماعية المباطنة لوظيفة ولاشتغال المؤسسة الفلسفية، ومن إعادة الإمساك بالاجتماعي اللامفكر فيه الذي ينطوي عليه فكرهم².

¹ بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص 40.

² بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص. ص 116، 115.

إن اللامفكر فيه الذي ينطوي عليه كل إنتاج فلسفي هو قبل كل شيء، اسم الفيلسوف، هذا اللقب الشريف الذي يتضح فيه التدرج الاجتماعي للدراسات، والذي ينطوي، في بعض الفضاءات الاجتماعية، كفرنسا وألمانيا، على قدرة رمزية على الإرشاد إلى الطرق والتوجيه نحو العقائد، تلك القدرة التي تكون هائلة في بعض الأحيان والتي تظهر، في شكلها الخالص، عندما تمكّن من النفوذ أو القدرة على التضييل المشروع للذين لا يستمدان دعامتها من قوة مضمون العبارات الفلسفية ولا من قيم صدقها¹.

"وهكذا فإن عرضنا على الفلاسفة، متضلعين كانوا أم مبتدئين، التاريخ الاجتماعي للتراث الفلسفي، ذلك التاريخ الذي يملكهم ويسكنهم بمقدار ما يعتقدون أنهم يمتلكونه، سنكون قد أتحنا لهم فرصة تحليل نفساني حقيقي للفكر الفلسفي، ومكناهم من تملك فكرهم، وهذا ما كانوا ينشدونه على الدوام. مقابل ما يمكن أن نطلق عليه النزعة الفلسفية (انتقاماً مما يتهموننا به من نزعة سوسيولوجية) التي تصر على الاعتقاد بأننا نفلت من قبضة التاريخ إذا تجاهلناه، أعتقد أنه لا يمكن تحرير الفكر من وطأة تاريخه إلا شريطة معرفة تاريخ الفكر"².

إن الدراسة الموضوعية لشروط إنتاج منتجي الخطاب الفلسفي والمستهلكين له، وعلى الخصوص للشروط التي ينبغي أن تتوفر كي يتمتع هذا الخطاب بمشروعية فلسفية، إن هذه الدراسة ستتيح لنا الفرصة للقضاء على الاعتقاد الذي يعمل على تقبل اللامفكر فيه دون فحص، ذلك الاعتقاد الذي تحدده شروط اجتماعية³.

إن التفكير في الشروط الاجتماعية للفكر أمر ممكن، وهو سيعطي الإمكانية للفكر بأن يتحرر من الشروط التي تحدده. وهكذا فإن التذكير بالشروط التي يتم فيها التفكير الفلسفي، سواء تعلق الأمر بالتقاليد المدرسية أو انغلاق العلم الأكاديمي على ذاته، بأسواقه المصونة وزبائنه المطمئنين، أو، بشكل أوسع، بالابتعاد عن الضروريات والحاجات الملحة من كل نوع.

¹ بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص.ص 40،41.

² المرجع نفسه، ص.43.

³ المرجع نفسه، ص.44.

منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحددت الفلسفة الأوروبية على الدوام في تعارضها مع العلوم الاجتماعية، ضد علم النفس وعلم الاجتماع بالخصوص، ومن خلالهما، ضد كل شكل من الفكر يكون صراحة ومباشرة ملتفتا نحو الواقعات "المبتذلة" للعالم الاجتماعي. إن رفض الخروج عن المألوف بدراسة موضوعات يُفترض فيها أنها سفلى أو باستعمال مناهج "غير خالصة" وهي مناهج مستنكرة في كل زمان من طرف الفلاسفة على أنها "اختزالية"، "وضعانية" الخ، يسير في محاذاة رفض الانغماس في عرضية الأشياء التاريخية التي تدفع الفلاسفة الأشد قلقا على كرامتهم الوضعية للرجوع دائما (في الغالب من خلال السبل غير المتوقعة أكثر، كما هو حال هابرماس) إلى الفكر "الكلي" و"الأبدي" بشكل أشد تقليدية.

إن عددا مهما من الملامح الخاصة بالفلسفة الفرنسية منذ الستينات يمكن أن يفسر، كما بين "بورديو" في الإنسان الأكاديمي، بكون الجامعة والحقل الفكري سيطر عليهما لأول مرة متخصصون في العلوم الإنسانية (مثل ليفي-ستروس، دوميزل، برودل، الخ). والبقوة المركزية لكل مناقشات الفترة انسابت نحو اللسانيات التي جعل منها نموذج لكل العلوم الإنسانية وحتى لمحاولات فلسفية مثل محاولة "فوكو". وهذا في أصل ما سماه "بورديو" مفعول "العلم" لتعيين مجهود الفلاسفة من أجل استعارة مناهج ومظاهر العلمية من العلوم الاجتماعية من دون التخلي عن الوضع الممتاز لـ "المفكر الحر": يخطر ببالنا علم السيميائية الأدبية عند بارث، علم الخطاب مع فوكو، علم الكتابة الفلسفية مع دريدا ومحاولة الألتوسيريين لتقديم القراءة "العلمية" لنص ماركس بوصفها علما مكتفيا بذاته ومستقلاً¹.

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص.ص 115، 114.

المبحث الثاني: الإنسان الأكاديمي

إن تفاوت مواضيع البحث، من حيث الأهمية والاعتبار، هو من أكثر الإشكاليات وجاهة في علم اجتماع المعرفة. فمن بين مداخل الرقابة الاجتماعية في الحقل الأكاديمي هي هذه التفاوتات والتباينات في تقدير مواضيع البحوث والدراسات فمنها ما هو صالح وقابل للإنجاز والتجسيد، ومنها ما هو غير ذلك فتمنع من القبول وترفض كمواضيع علمية صالحة للإجراء. هذا المنع لا يمت في الغالب بصلة إلى عقلانية علمية بل إلى مبررات إيديولوجية وإدارية وحتى سياسية.

وما أثار انتباهنا في هذا الإطار هو تأكيد "بورديو" على وجود مواضيع بحث غير مشرفة من منظور اجتماعي، لكن فوائدها العلمية جمة وغزيرة، وما دراسته لآليات اشتغال حقل الموضة والخياطة الرفيعة وعلامات الملابس و"ماركاتهما" إلا دليل واضح على ما ذكرناه، حيث استقى من ذلك نتائج معرفية غدت رؤيته السوسيولوجية وأغنت رؤيته الإبستمولوجية.

ومن المقاصد الأساسية في دراسات "بورديو" لدينا مساهماته في فهم وتحليل المنتجات الثقافية وفي الوقت نفسه استشفاف الصنمية (الفيتيشية) والسحر. لكن هناك من يعارض هذه المقاربة من حيث أن موضوع السحر مثلا تتطلب دراسته تنفيذ البحث في المجتمعات البدائية. والإجابة تأتي من "مارسيل موس" « Marcel Mauss » الذي قدّم سؤالاً وجيهاً " ما يقابل السحر في مجتمعاتنا المعاصرة؟" في الحقيقة ووفق منظور "بورديو" إن الماركات العالمية للخياطة الرفيعة (كريستيان دور وبيير كردان) تضي سحراً وجاذبية وتميزاً ورونقاً تشبه إلى حد بعيد طقوس السحر في المجتمعات البدائية¹.

لتوضيح مغزى ما ذكرناه سابقاً، نقرر مع "بورديو" بأن لعلم الاجتماع عراقيل تصعب إنجازاته، تتبع غالبيتها من اعتبار أن القضايا التي يعالجها ويتناولها بالدراسة؛ يظن العامة والصحافيون ورجال السياسة أنهم يدركونها ويفهمون أسبابها وتأثيراتها، وفي الواقع إنهم دون

¹ Pierre Bourdieu, Questions de sociologie, op. cit, P197.

وعي منهم لا يريدون إدراكها ولا معرفتها على حقيقتها. لأن النسق الاجتماعي العام يعمل على إخفاءها وطمسها أو إظهارها بشكل مغاير لوجودها الحقيقي.

حتى أعوان الحقل الأكاديمي لا يخرجون من هذا الإطار، والجامعيون خاصة الأساتذة منهم يرفضون الاعتراف بخضوعهم لإكراهات نسق التعليم العالي وأكثر من ذلك يعتقدون أن كل تصرفاتهم وتمثلاتهم تصدر عن وعي كامل منهم وحرية تامة إزاء الحقل الذي ينشطون ضمنه.

بالنسبة لـ "بورديو" إن الحقل الأكاديمي لا يخرج عن القاعدة المعرفية التي تضعه في نفس طبيعة باقي الحقول الاجتماعية، حيث يشترط فيمن يريد ولوجه أن يعترف باللعبة وآثارها والإقرار بشكل غير واع بالحدود التي لا يجب تجاوزها وإلا تعرّض للإبعاد وللترحيل خارج مجال اللعبة. يستتبع ذلك أن المواجهة والتنافس لا ينتجان تغيير جوهري سيزيل آليات اللعبة ميكانيزماتها، بل يمكن أن يتحقق تحولاً جزئياً في بنية التراتبات الاجتماعية داخل النسق.

والحقل الأكاديمي ميدان صراع من أجل الظفر بالسيطرة والزعامة والرئاسة على المجال، فالأساتذة القدماء الذين يستحوذون على مزايا وخيرات بحكم امتلاكهم لرساميل ثقافية ورمزية أو حتى مؤسساتية سيبدلون قصارى جهدهم للحفاظ على امتيازاتهم وسلطتهم، وفي المقابل هناك من الأساتذة المسيطر عليهم والمنبوذين من ينفقون جهوداً معتبرة لتغيير هرم السلطة والنسق التراتبي.

إن علم الاجتماع طالما بقي في مستوى بالغ التجريد وصوري جداً، فإنه لن يفيد في شيء كبير. وعندما ينزل حتى يقارب تفاصيل الحياة الواقعية، فإنه يكون وسيلة يستطيع الناس أن يطبقوها هم أنفسهم لغايات شبه عيادية. فعلم الاجتماع يعطينا حظاً صغيراً لفهم اللعب الذي نلعبه ولنقلص من تمكن قوى الحقل الذي نتطور فيه، ومن تمكن القوى الاجتماعية المتقصة التي تنشط في دخیلتنا.

ومعظم الصعوبات التي يلاقيها علم الاجتماع تنتج من أن يراد دائماً له ألا يكون علماً مثل العلوم الأخرى. إذ ينتظر دائماً الشيء الكثير أو القليل من علم الاجتماع. يقول بورديو "لو قمت بلائحة لكل المواضيع التي يطلب مني بخصوصها الصحافيون مقابلات لدهشت: يتراوح ذلك بين تهديد الحرب النووية وطول التتورة « jupe » وحتى مشكلات كتطور أوروبا الشرقية، المفسدون في المظاهرات، العنصرية، وداء فقدان المناعة المكتسب. إن الناس ينيطون بعلم الاجتماع دوراً هو دور النبوة، القادر على أن يعطي مظهرياً إجابات متماسكة ومنسقة عن كل شؤون الوجود الاجتماعي. وهذه الوظيفة غير معقولة ولا طاقة لأحد بها؛ بل لا معنى لأن يكلف بها إنسان. ولكن في الوقت نفسه، يرفض لعالم الاجتماع ما يحق له أن يطالب به، أي القدرة على إعطاء إجابات دقيقة وقابلة لأن يتحقق منها، عن المسائل الذي هو في مستوى أن يبينها علمياً.

لا يقدر "بورديو" علماء الاجتماع الذين، وهم يلبسون معطف "النبى المؤيد من طرف الدولة" يكتفون بأن ينسقوا على نحو زائف إجابات علم الاجتماع العفوي على المسائل الوجودية التي تلتقي بها التجربة المشتركة بنظام مشتت. إنه يبين كيف يتعدون حدود كفاءتهم الخاصة، وفي الغالب، يخدمون مصالحهم باعتبارهم مثقفين بمبرر خدمة قضايا عمومية أو "كلية"، التي تبدو أنها أشياء أخرى غير المشكلات التي تلاقيها أطر الدولة.

وعندما يكون لدى مركز للبحث أو مجلة موقع احتكاري، فمن اللازم إنتاج منافسين أكفاء للقضاء على ذلك الاحتكار، ومن أجل رفع مستوى الباحثين في الحقل العلمي من الضروري الاستثمار في التكوين القاعدي للوصول إلى الكفاءة العلمية المطلوبة للانضمام إلى ذلك الحقل.

يرى "بورديو" أن المثقفين (أو بوجه أعم، منتجي الخيرات الرمزية، الفنانين، الكتاب، العلماء، الأساتذة، الصحافيين، الخ) يكونون "الشق المسود من الطبقة المسيطرة"؛ أو حسب أحدث صياغة - وفي نظره هي الأدق - يحتلون القطب المسود من حقل السلطة إنهم "مسيطرون، بصفتهم ممتلكين للسلطة وللامتيازات التي يمنحها امتلاك الرأسمال الثقافي وحتى، على الأقل بالنسبة إلى البعض منهم، امتلاك حجم من الرأسمال الثقافي كاف من

أجل ممارسة سلطة على الرأسمال الثقافي. "ولكنهم" مسيطر عليهم في علاقتهم مع ممتلكي السلطة السياسية والاقتصادية.

إن الجهل بالآليات الاجتماعية المتعلقة بالإلحاق السياسي والخطي، والمبالغة في تقدير حرية المتقنين أديا في أغلب الأحيان بالمتقنين الأشد تقدمية بإخلاص (مثل سارتر) لأن يبقوا متواطئين مع القوى التي كانوا يظنون أنهم يحاربونها، وهذا على الرغم من كل الجهود المبذولة من أجل محاولة الانفلات من إكراهات الحتمية الفكرية، ذلك أن تلك المبالغة في التقدير كانت تشجعهم على الالتزام بأشكال النزاع التي كانت غير واقعية، ساذجة، وإن شئت "مراهقة".

ويدعو إلى تخطي خيار "العلم الصافي" المحرر من أي ضرورة اجتماعية و"العلم المرتبط بالمنفعة" الخاضع لكل الطلبات السياسية والاقتصادية. إذ في الحقل العلمي يُمارس قسر مستقل نسبياً عن العالم الاجتماعي الكلي، ويُمارس من خلال منطق الحقل.

وأمام واقع مؤسسات البحث، يقدم "بورديو" بعض الاقتراحات المعيارية أو الإصلاحية، فيدعو إلى تخطي النزاعات الداخلية وتوحيد الجهود لتنمية ما يدل على خصوصيتها، وتخطي التناقض بين المستقلين والتابعين والأبحاث الأساسية والأبحاث التطبيقية (لأنه لا قيمة للبحث الأساسي دون تطبيق، وللبحث التطبيقي دون أساس)، وتنمية المنافسة وتمايز الوظائف والبنى التي تخدمها، وانخراط الأعوان الاجتماعيين المختلفين والمؤسسات في برنامج جماعي مشترك، ووضع برامج للبحث تجمع الإبداع والتجديد، ومساعدة الباحثين الجدد على التوفيق بين الطلبات الخارجية والمتطلبات الداخلية... وكل هذا التنظيم للصراع الجماعي هو من أجل الدفاع عن الاستقلالية بوجه المسؤولين الإداريين وحلفائهم¹.

ويشكك بمقدرة المراجع الإدارية على إنتاج تقييمات موضوعية للأبحاث (خاصة إذا ما نظرنا إلى تركيبة اللجان). فالمسألة هنا هي معرفة على ماذا يركز الشخص الذي يحكم، ومن سيحكم بخصوص شرعية المحكمين. وتعود مسألة الحكم الصحيح عملياً إلى مسألة

¹ Pierre Bourdieu, Homos Academicus, Minuit, Paris, 2002, P 30.

صوابية وعدالة واختيار المحكمين والمعايير المتوجب الحكم من خلالها. ويرى أن التفكير الجماعي، القادر على تحريك كل القوى الحية للمؤسسة (ويشكل خاص الباحثين الأكثر حيوية والأكثر تنوراً) وكل مصادر المؤسسة، يمكن أن يؤدي إلى نوع من التحوّل الجماعي الذي هو شرط للتحديث الحقيقي.

ويرى "بورديو" فرقا بين وضع المعلم (الذي يلقي محاضرات في الجامعة) ووضع الباحث، وكذلك بين التعليم (حيث النقل المقتن والنمطي للمعرفة) والبحث. ويعزو جمود الحقول العلمية جزئياً إلى أن الأشخاص الذين يعلمون هم مفصولون عن نشاط البحث. ويعتبر التعليم، في جانب منه، عامل جمود. فلدى المعلمين ميول لاواعية نحو الجمود. وحين لا يكونون مرتبطين بالبحث الحي، يكونون متضامنين مع الجمود، لأنهم قانونياً إلى جانب ذلك قليلاً.

وهو يرى أنه بإمكان الفنانين والكتّاب والعلماء المساهمة في تعريف الطلاب الاجتماعي لناحية البحث العلمي. ويدعو لمواجهة الخطر القائم من حيث أن جزءاً كبيراً من المسائل المسماة اجتماعية يحدّد من قبل الصحافيين والمحلّلين. ومن المهم، برأيه، أن نجلب إلى معرفة الناس جزءاً من مكتسبات البحث العلمي لكي يتمكنوا من حل المشكلات التي يفكّرون فيها حلاً إيجابياً.

ينتقد "بورديو" الطريقة التي تُنتج بها المسائل العلمية (إنتاج المسائل حالياً يعود إلى ما سماه أفلاطون بـ "تقنيي الرأي" أو بعلماء الرأي، أو إلى سابري الرأي والصحافيين والسياسيين). ويعتبر أن سلطة إنتاج الرأي موزعة بشكل غير متساو، وأن الناس لا يملكون أدوات إنتاج الرأي الشخصي؛ وأن هناك أناساً "تتحدث عنهم" لأنهم لا يتحدثون.

المبحث الثالث: علم الاقتصاد وتبرير الليبرالية المتوحشة

نسمع اليوم كلاما يقال في كل مكان، مفاده أن لا شيء يمكن أن يقف موقف المعارض للمنظور النيوليبرالي الذي نجح في أن يقدم نفسه كمنظور بديهي لا بديل له أو عنه. وإذا كان لهذا المنظور كل هذا الانتشار، فلأن هنالك مجهودا بكامله للغرس والترسيخ الرمزي ساهم فيه بفعالية كل من الصحافيين أو المواطنين العاديين، وخاصة وبنشاط، عدد معين من المثقفين¹.

إن عملية فرض هذه الأفكار التي ابتدأت منذ مدة طويلة لا زالت مستمرة إلى اليوم كما لو أن الأمر يتعلق بمعجزة، معاينات حول الوضعية الاقتصادية المبهرة للولايات المتحدة وإنجلترا. هذا الضرب من القطرة، قطرة الرمزي الذي تساهم فيه النشرات المكتوبة والمتلفزة بصورة كثيفة، بشكل لاشعوري في الجزء الأعظم منه لأن غالبية الناس الذين يكررون معطياته يقومون بذلك بشكل برئ - يحدث تأثيرات عميقة الغور، وهكذا، وفي نهاية المطاف تقدم الليبرالية الجديدة ذاتها تحت يافطة ما لا يمكن تحاشيه وما ليس منه بد .

يتم في هذا الإطار الاعتراف بأن النمو الأقصى، وإذن الإنتاجية والمنافسة، هما الحد النهائي والأوحد للنشاطات البشرية؛ الحد الذي لا يمكن عنده مقاومة القوى الاقتصادية، أو أيضا، وهو افتراض يؤسس كل افتراضات الاقتصاد، عنده يتم إحداث قطيعة راديكالية ما بين ما هو اقتصادي وما هو اجتماعي، هذا المتروك على الهامش والمتخلى عنه للسوسيولوجيين كشكل من أشكال البقايا والمهملات.

يتوجب فيما يبدو لـ "بورديو" أن ندافع عن أنفسنا ضد هذه الدوكسا بإخضاعها للتحليل ومحاولة فهم ميكانيزماتها التي أنتجت وفرضت بها. لكن ذلك لا يكفي ولو أنه في غاية الأهمية، إلا أنه يمكننا أن نقابلها بعدد معين من المعاينات الأمبريقية. في حالة فرنسا، شرعت الدولة في التخلي عن عدد معين من ميادين العمل الاجتماعي. النتيجة هي كم هائل

¹ Pierre Bourdieu, contre-feux : propos pour servir à la résistance contre l'invasion néo libération, Edition Liber /Raison d'Agir, Paris, 1998, P 34.

من الآلام من جميع الأصناف والألوان لم يمسس فقط الأشخاص الذين ألم بهم الفقر المدقع وحدهم.

إن سيرورة نكوص الدولة تجعلنا نرى أن مقاومة عقيدة وسياسة الليبراليين الجدد هي أقوى بكثير في البلدان التي كانت فيها التقاليد الدولتية أقوى وأعمق. إن الدولة في كل البلدان هي في جانب معين العلامة الواقعية للفتوحات الاجتماعية، إن وزارة الشغل هي على سبيل المثال فتح اجتماعي تحول إلى واقع، حتى إذا كانت في بعض الظروف والملابسات أيضا أداة قمع. والدولة توجد أيضا في أذهان العمال على صورة الحق الذاتي ("هذا حق"، "لا يمكن أن تعاملوني هكذا")، على صورة التشبث بـ "المكتسبات الاجتماعية"¹.. الخ.

إن الدولة في الحقيقة واقع ملتبس. ولكن يمكن الاكتفاء بالقول إنها أداة في خدمة المهيمين. ليست الدولة دون شك محايدة كليا، مستقلة كليا عن المهيمين، لكن لها استقلالاً ذاتياً هو من الكبر بقدر ما هو عريق، بقدر ما أنها أقوى وأنها سجلت مدونةً في بنياتها فتوحات اجتماعية أكثر أهمية. إنها فضاء الصراعات (على سبيل المثال ما بين وزارات المالية والوزارات المستهلكة المكلفة بالمشاكل الاجتماعية). ولمقاومة انحطاط الدولة؛ أي مقاومة نكوص الدولة وتراجعها صوب أن تصير دولة عقابية مكلفة بالقمع ومضحية رويدا رويدا بالوظائف الاجتماعية؛ التعليم، الصحة، المساعدة.. الخ، تستطيع الحركة الاجتماعية أن تجد دعماً من لدن المسؤولين عن الملفات الاجتماعية المكلفين بتقديم المساعدة للعاطلين لمدة طويلة، الذين يقلقون من التصدعات التي تلحق بالتماسك الاجتماعي ومن البطالة.. الخ، والذين يعترضون على رجال المال الذين لا يريدون الاعتراف إلا بإكراهات "الشمولية" ومكانة فرنسا في العالم.

لكن هذا ليس كل شيء؛ هناك أيضا تأثيرات السياسة النيوليبرالية التي يمكن لكل واحد منا أن يعاني منها. وهكذا، فإن عدداً معيناً من البحوث الإنجليزية أوضحت أن السياسة التاتشيرية تطلبت غياباً كبيراً للإحساس بالأمان وشعوراً بخطر محقق وكاسح، أولاً لدى العمال اليدويين، ولكن أيضاً في أوساط البورجوازية الصغيرة وبلا حظ نفس الشيء

¹ Pierre Bourdieu, contre-feux, op. cit, P35.

بالولايات المتحدة حيث نجد تعدد لمناصب الشغل المؤقتة والامتدنية الأجر (والتي تخفض بشكل مصطنع معدل البطالة). إن الطبقات الأمريكية الوسطى التي يجثم عليها التهديد بالتسريح المفاجئ تعرف انعداما رهيبا للأمان (وتجعلنا بذلك نكتشف أن المهم في منصب شغل ليس هو العمل والأجر فقط للذين يوفرهما وإنما الأمان والطمأنينة اللذين يضمنهما). إن نسبة العمال المؤقتين في كل البلدان تتعاضم بالمقارنة مع العمال المرسمين والدائمين. إن الهشاشة، أي جعل العمل هشاً ومرناً تؤدي إلى فقدان المزايا الضعيفة (الموصوفة غالباً بكونها امتيازات لـ "الفقراء") التي من شأنها أن تعوض الأجور الضعيفة؛ كالعامل الدائم وضمانات الصحة والتقاعد.

ليست الشمولية (العولمة) تحقيقاً للتجانس، وإنما هي على العكس من ذلك امتداد لنفوذ وسلطان عدد صغير من الأمم المهيمنة على مجموع المواقع المالية الوطنية. وينتج عن ذلك إعادة تحديد جزئية لتقسيم العمل الدولي يتحمل العمال الأوروبيون نتائجها، إلى جانب تحويل الرساميل والصناعات على سبيل المثال نحو البلدان ذات اليد العاملة الرخيصة. إن سوق رأس المال العالمي هذه تتحو نحو الإنقاص من الاستقلال الذاتي لأسواق الرأسمال الوطني، ونحو فرض الحظر بشكل خاص على التحكم من طرف الدول الوطنية في معدلات الصرف ونسب الفائدة التي يتم تحديدها أكثر فأكثر من قبل سلطة ممرضة في أيدي عدد قليل من البلدان. إن السلطات الوطنية معرضة لخطر هجمات المضاربة من قبل وكالات مزودة بأموال طائلة قادرة على إحداث إنقاص في قيمة العملة، وحكومات اليسار هي بدهاة مهددة بشكل خاص¹.

يجب على الصراعات النقدية لدى المثقفين والنفقات والجمعيات، في الحالة الراهنة، أن تتصدى كأولوية لذبول وتحلل الدولة؛ فالدول الوطنية ملغمة من الخارج من قبل القوى المالية، وهي ملغمة من الداخل من قبل أولئك الذين يجعلون من أنفسهم شركاء متواطئين مع هذه القوى المالية؛ أي رجال المال وكبار موظفي المالية... الخ.

إن قوة الإيديولوجية النيولبرالية تتمثل في كونها تستند إلى ضرب من ضروب الداروينية الاجتماعية الجديدة: فـ "أفضل الناس وأكثرهم نكاه" هم الذين ينتصرون كما يقال

¹ بيير بورديو، "أسطورة العولمة" والدولة الاجتماعية الأوروبية، تر: معروف، أكاديمية، ديسمبر، 2010، ص6.

بهارفارد. خلف النظرة ذات النزعة العالمية لأهمية المهيمنين هناك فلسفة للكفاءة حسبها يعتبر أن من يحكم هم أكثر الناس كفاءة، وهم الذين يحوزون عملا، وهو ما يلزم عنه أن أولئك الذين ليس لديهم عمل هم أناس غير أكفاء، فهناك الناجحون، وهناك الفاشلون.

إن إيديولوجيا الكفاءة صالحة تماما لتبرير تعارض يشبه قليلا تعارض السادة والعبيد: من جهة بمواطنين كاملي المواطنة، يتمتعون بكفاءات ومهام جد نادرة وباهظة الأجر، هم في مستوى اختيار مشغليهم وهم في مستوى الحصول على أكبر مدخول في سوق الشغل العالمي، ثم، ومن جهة أخرى، حشد من البشر منذور لمناصب شغل مؤقتة أو للبطالة¹.

إن دور الإيديولوجيا المهيمنة هو دور قائم اليوم عن طريق استخدام معين للرياضيات (وتلك مبالغة فيها إفراط، ولكنها طريقة لإثارة الانتباه لمسألة أن فعل العقلنة. أي مسألة تقديم أسباب لتبرير أشياء لا تقبل التبرير غالبا. وجد اليوم في علم الاقتصاد الرياضي أداة جد قوية). ومن الأهمية بمكان معارضة هذه الإيديولوجيا التي تلبس فكرا محافظا خالصا رداء العقل بأسباب وحجج وبراهين؛ أي بممارسة العمل العلمي. يستطيع علماء الاجتماع، ودون أن يمارسوا التشهير، القيام بتفكيك هذه الشبكات وبيان كيف أن دوران الأفكار هو مسنود بدوران السلطة؛ فهناك أشخاص يقترحون خدمات إيديولوجية مقابل مواقع في السلطة.

هل عالم الاقتصاد حقيقة، كما يريده الخطاب المهيمن، نظام خالص ومتسم بالكمال، مروج باقتدار تام لمنطق نتائجه المتوقعة وعاجل في كبث كل أشكال النقص والخصاصة عن طريق التدابير والعقوبات التي يفرضها سواء بطريقة أوتوماتيكية أو بشكل أكثر استثنائية، عن طريق ذراعه المسلحة المتمثلة في الـ FMI أو الـ OCDE والسياسات القاسية التي يفرضانها، والمتمثلة في تخفيض كلفة اليد العاملة والإنقاص من المصاريف العمومية وجعل الشغل مرنا؟.. ماذا لو لم يكن في الواقع إلا التطبيق العملي ليوتوبيا معينة؛ فالليبرالية الجديدة تحولت أيضا إلى برنامج سياسي، إلا أنها يوتوبيا توصلت إلى الاعتقاد، بمساعدة النظرية الاقتصادية التي تعلن عنها وتطالب بها، بأنها وصف علمي للواقع؟..

¹ بيير بورديو، أسطورة العولمة والدولة الاجتماعية الأوروبية، المرجع السابق، ص.ص 7-8.

التحرك نحو يوتوبيا ليبرالية جديدة لسوق خالصة وكاملة، والذي أضحي ممكنا بفعل سياسة التحرير المالي، وهو المخصص والموجه لحماية المقاولات الأجنبية واستثماراتها من الدول الوطنية المستهدفة لأن تضع موضع التساؤل كل البنيات الجماعية الكفيلة بوضع عائق أمام منطق السوق الخالصة. ولكون البرنامج الليبرالي الجديد يستمد قوته الاجتماعية من القوة السياسية والاقتصادية لأولئك الذين يعبر عن مصالحهم؛ مساهمين، فاعلين ماليين، صناعيين، رجال سياسة محافظين أو اجتماعيين ديمقراطيين متحولين إلى الاشتغال المطمئن لدعه يعمل؛ كبار موظفي المالية الأكثر تهالكا بنفس القدر لفرض سياسة مشيدة بثمن النتائج احتمالا، فإن هذا البرنامج ينحو شموليا أو كليا نحو تغليب القطيعة بين الاقتصاد والحقائق الاجتماعية، وكذلك نحو بناء نظام اقتصادي مطابق للتوصيف النظري، أي نوعا من آلة منطقية تفرض ذاتها كما لو كانت سلسلة من الإكراهات التي تقود الفاعلين الاقتصاديين رغما عنهم¹.

إن عولمة الأسواق المالية مضافة إلى تقدم تقنيات الإعلام تضمن حركية غير مسبوقة للرساميل وتوفر للمستثمرين (أو المساهمين) المهمومين بمصالحهم الفورية، أي بمردودية استثماراتهم على المدى القصير، إمكانية المقارنة في أية لحظة لمردوديات كبريات المقاولات ومعاينة حالات الفشل. والمقاولات ذاتها الرازحة تحت تهديد دائم كهذا مطالبة بالتكيف والتلاؤم بطريقة أكثر فأكثر سرعة مع مطالب وإكراهات السوق، وذلك تحت طائلة "فقدان ثقة الأسواق كما يقال عادة"، وفي نفس الوقت فقدان دعم المساهمين الذين هم قادرون أكثر فأكثر بوصفهم مهمومين بالحصول على مردودية في أقصر مدة، على فرض إرادتهم على "المسيرين" وإملاء المعايير عبر التوجيهات المالية، وعلى توجيه سياساتهم في مجال التشغيل والتوظيف والأجور. هكذا تنتشيد سيادة المرونة المطلقة من خلال التوظيف بعقود ذات مدى زمني محدد، وإعمال المنافسة في حضان المقاولات ذاتها بين الفروع المستقلة ذاتيا، وبين فرق العمل المكروهة على أن تكون قابلة لممارسة أي عمل متعدد المهام، وأخيرا بين الأفراد من خلال فردنة العلاقة الأجرية: تحديد أهداف فردية؛ وإنجاز مقابلات فردية للتقييم؛ وزيادة في الأجور حسب الأفراد أو الحصول على علاوات تبعا للكفاءة

¹ بيير بورديو، "الليبرالية الجديدة. يوتوبيا في طريقها للتحقق"، تر: معروف، أكاديمية، ديسمبر 2010، ص 3

والاستحقاق الفردي؛ أوضاع شغل مفردنة؛ واستراتيجيات "للتحسيس بالمسؤولية" تتحو صوب ضمان الاستقلال الذاتي لبعض الأطر الذين ولو أنهم مجرد مأجورين مندرجين ضمن تبعية تراتبية قوية يعتبرون في نفس الوقت مسؤولين عن مبيعاتهم ومنتجاتهم وفروعهم ومحلاتهم التجارية.. الخ على طريقة "المستغلين"، وهو مطلب من مطالب "الضبط الذاتي" يوسع توريث المأجورين وفق تقنيات "التدبير الإسهامي".

إن التأسيس العملي لعالم دارويني، يجد نابض انخراطه في المهمة والمقاولة، في انعدام الأمان والمعاناة والقلق. والذي لا يمكنه دون شك أن ينجح بشكل تام إلا إذا كان قد توفر له تواطؤ أشكال التطبع على الهشاشة التي يولدها انعدام الأمان وتواجد " جيش احتياطي من اليد العاملة المطوعة والخانعة بفعل الهشاشة" وبفعل التهديد الدائم بالبطالة على كل مستويات التراتبية، حتى العليا منها من بين الأطر خاصة. إن الأساس الأخير لكل هذا النظام الاقتصادي الموضوع تحت يافطة الدعوة لحرية الأفراد يتمثل بالفعل في "العنف البنيوي" للبطالة وللهمشاشة و"الخوف" الناجم عن التهديد بالتسريح: فشرط الأداء "المتناغم" للنموذج الميكرو اقتصادي الفردي ومبدأ "التحفيز" الفردي للعمل يسكن في نهاية التحليل في ظاهرة جماهيرية تتمثل في وجود جيش احتياطي من العاطلين، جيش لم يوجد فضلا عن ذلك لوحده، ما دامت البطالة تعزل وتشتت وتفردن، تعدم الحركية والتضامن .

إن هذا العنف البنيوي ينتج عن طبيعة عقد العمل (المعقلن بمهارة ودراية والمفرغ من إمكانية التحقق الفعلي بفعل "نظرية العقود"). ولم يتحدث خطاب المقاولة يوما بهذا القدر عن الثقة وعن التعاون وعن الولاء وعن ثقافة المقاولة إلا في الفترة التي تم فيها التمكن من إدماج كل لحظة من لحظات العمل، مع العمل على اختفاء كل الضمانات الوقتية (فثلاثة أرباع التوظيف هو توظيف ذات آمام زمنية محدودة، ونصيب الوظائف المؤقتة لا يتوقف عن التعاضد، والتسريح الفردي ينزع نحو أن لا يتم إخضاعه لأي تقنين)¹ .

إن الشعور العميق بانعدام الأمان والشك في المستقبل وفي الذات الذي يصيب كل العمال يرجع إلى أن مبدأ القسمة والتمييز بين أولئك الذين أطيح بهم وألحقوا بجيش

¹ بيير بورديو، الليبرالية الجديدة، المرجع السابق، ص4

الاحتياط، وأولئك الذين يشتغلون يبدو مقيما في "الكفاءة المضمونة مدرسيا"، والتي هي أيضا في الأصل مبدأ التقسيمات الأخرى في حزن المقابلة" التي أضفي عليها الطابع التقني بالكامل".

إن تعميم الإلكترونيك والإعلاميات وإكراهات الجودة التي ترغم كل المأجورين على امتلاك معرفة جديدة بأنواع من المهن، وتؤبد داخل المقابلة، يعادل في الواقع الامتحانات والاختبارات بالمدارس، والتي تعمل على مضاعفة الشعور بانعدام الأمان بفعل شعور عدم الأهلية المتناول بدراية وتعاليم من قبل التراتبية. إن النظام المهني، وعلى مستوى مجموع النظام الاجتماعي يبدو مؤسسا على قاعدة نظام "الكفاءات" أو أفدح من ذلك، على نظام "ضروب الذكاء".

إن لدى علماء الاقتصاد مصالح نوعية خاصة بهم وذلك في إطار حقلهم العلمي، وكل هذا من أجل تقديم مساهمة حاسمة كيفما كانت حالات الوعي (الفكر) لديهم بخصوص التأثيرات الاقتصادية والاجتماعية لليوتوبيا التي يلبسونها لباس العقل الرياضي، وإنتاج وإعادة إنتاج الإيمان باليوتوبيا النيوليبرالية. إنهم بوصفهم معزولين عن العالم الاقتصادي والاجتماعي كما هو بفعل نمط وجودهم بكامله، وبفعل مجموع تكوينهم الفكري بكامله، ذاك الذي هو في الغالب مجرد بشكل خالص، كتبي ونظري النزوع، فهم كما هو الحال من وقت لآخر في مجال الفلسفة، ميالون خاصة لخط أشياء المنطق مع منطق الأشياء. ولأنهم واثقون من نماذج لم تتوفر لهم الفرصة عمليا لوضعها على محك الاختبار التجريبي، ومحمولون على النظر من أعلى لمكتسبات العلوم التاريخية الأخرى، والتي لا يتعرفون بداخلها على النقاء والشفافية البلورية لألعابهم الرياضية، والذين هم في الغالب الأعم غير قادرين على فهم ضرورتها الحقيقية وتعقدتها العميق، فإنهم يساهمون ويشاركون في تغيير اقتصادي واجتماعي هائل.

هل يمكننا أن نتوقع أن تكون كثافة المعاناة التي ينتجها نظام سياسي واقتصادي كهذا في يوم من الأيام في علة حركة قادرة على إيقاف التسابق نحو الهاوية.. إننا هنا بالفعل أمام مفارقة عجيبة: ففي الوقت الذي يتم فيه اعتبار العوائق الملاقاة في طريق إنجاز هذا

النظام الجديد؛ أي نظام الفرد الواحد، لكن الحر، عوائق معزوة إلى ضروب من الصرامة والبدائية، ولمسألة أن كل تدخل مباشر وواع، على الأقل عندما يأتي من الدولة كيفما كانت دوافعه، هو تدخل فاقد للمصداقية بدعوى أنه موحى به من طرف موظفين خاضعين لمصالحهم الخاصة ولا يعرفون إلا بشكل مشوش مصالح العملاء الاقتصاديين، ومن ثمة فهو منذور للانمحاء لصالح ميكانيزم خالص ومجهول الإسم وهو السوق الذي يتم إغفال أنه بدوره مكان ممارسة المصالح .

لقد تحدث "بورديو" كثيرا عن صمت المثقفين، وما صدمه هو صمت السياسيين؛ إنهم مفنقرون بشكل كبير للمثل المعبئة، وذلك دون شك لأن تحويل السياسة إلى حرفة والشروط المطلوبة من أولئك الذين يرومون تحقيق وضعية داخل الأحزاب يقصيان أكثر فأكثر الأفراد الملهمين، ودون شك أيضا لأن تعريف النشاط السياسي تغير مع مجيء الموظفين الذين تعلموا في المدارس (مدارس العلوم السياسية) أنه من أجل أن تعمل بجد أو بكل بساطة حتى تتجنب الظهور بمظهر أداة التهيج أو كتحفة قديمة يستحسن التحدث عن التدبير بدل التدبير الذاتي¹.

إن كل أنصاف المهرة في مجال الاقتصاد المنغلقيين داخل النزعة الاقتصادية الضيقة والقصيرة النظر، كنظرة صندوق النقد الدولي FMI للعالم التي أحدثت (وستحدث) أضرارا فادحة في علاقات الشمال/ جنوب. تغفل بطبيعة الحال الأخذ بعين الاعتبار التكاليف الحقيقية للفقر المادي والمعنوي الذي هو العاقبة الوحيدة والمؤكدة للسياسة الواقعية المشرعة اقتصاديا: انحراف، جريمة، إدمان الكحول، حوادث الطرق... الخ.

فليست هناك ديمقراطية حقيقية دون سلطة نقدية مضادة، والمثقف أحد مكونات هذه السلطة المضادة في المقام الأول، وهذا هو السبب في أن فعل تدمير المثقف النقدي، حيا أو ميتا، ماركس، نيتشه، سارتر، فوكو، وبعض الفلاسفة الآخرين. هو فعل خطير ويمثل خطورة تدمير الشأن السياسي ويندرج في نفس المسعى الشمولي الرامي لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه.

¹ بيير بورديو، "يد الدولة اليمنى ويدها اليسرى"، تر: معروف، أكاديمية، أبريل 2008، ص1.

تمنى "بورديو" أن يُسمع الكتاب والفنانون والفلاسفة والعلماء أصواتهم مباشرة في مجالات الحياة العامة التي يتميزون بخصوصها بالأهلية. واعتقد أن الجميع سيربح الكثير من تمدد منطق الحياة الثقافية والفكرية، أي منطق المحاججة والتنفيذ، وتوسعه ليطل الحياة العامة. إن ما يمتد اليوم في الغالب ليطل الحياة الفكرية هو منطق السياسة، أي منطق الوشاية والقدح وتحريف أفكار الخصم واعتبارها مجرد شعارات¹.

¹ بيير بورديو، يد الدولة اليمنى ويدها اليسرى، المرجع السابق، ص4.

المبحث الرابع: التلفزة والتلاعب بالعقول

ربما يكون "بورديو" هو آخر المفكرين الكبار الذين تركوا بصماتهم الفكرية وأثروا بشكل عملي على الحركات الاجتماعية والسياسية التي شهدها النصف الثاني من القرن العشرين. كذلك فإنه يعتبر أحد أهم المنظرين الذين تُعدُّ أعمالهم أدوات للنضال الفكري فيما يعرف الآن بحركة العولمة البديلة (التي كانت تعرف من قبل باسم حركة مناهضة العولمة).

لم يكتف بورديو بإنتاجه الفكري الغزير والتميز، لكنه جسد الأفكار والمبادئ التي روج لها في أعماله النظرية إلى ممارسات عملية من خلال مشاركته الشخصية في المظاهرات والحركات الاجتماعية والسياسة مباشرة. لم تشهد أوروبا منذ رحيل "جان بول سارتر" و"برتراند راسل" و"ميشال فوكو" مفكرين من هذا الوزن الكبير ممن جمعوا بين الإنتاج الفكري المتميز والممارسة النضالية العملية التي تدافع عن القضايا والمبادئ التي دعوا إليها¹.

يعتقد "بورديو" أن "العلوم الاجتماعية والممارسة النضالية يمكن أن يشكلا وجهين للعمل نفسه" إن تحليل الواقع الاجتماعي ونقده يسمح بالإسهام في تغييره. ربما يتبادر إلى الذهن مفهوم "غرامشي" عن "المتقف العضوي"، لكن ما يدعو إليه بورديو يتجاوز مفهوم "غرامشي" وإن كان لا يتعارض معه. "المعرفة الملتزمة" عند "بورديو" تذهب بعيداً في إضفاء المسؤولية المباشرة على المفكر أو المتقف فيما يمارسه وينتج من عمل علمي أو فكري. إن النتائج التي يمكن أن تنتج عن بعض الأعمال الفكرية أو الأبحاث العلمية يمكن أن تصل إلى تجريم من يقوم بها إذا لم ينبّه إلى نتائجها السلبية والخطيرة على الإنسانية، المثال المعبر جيداً عن ذلك هو ما يحدث في مجال الأبحاث البيولوجية. إن عالم البيولوجيا الذي يعمل في بحوث تهيمن عليها مصالح السوق والشركات المتعددة الجنسيات والتي يمكن أن يكون لها نتائج اجتماعية خطيرة يصبح شريكاً في جريمة ضد الإنسانية. التأمل المنطقي

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، المرجع السابق، ص 8.

يمكن أن يؤدي إلى سؤال بسيط هو: لماذا تظل هذه المعرفة سرّية وتخضع لإجراءات عالية من التحكم والسيطرة؟ لماذا لا تصبح معرفة جمعية تشارك فيها الإنسانية جمعاء؟¹

يقول "باتريك شامبان" وهو من أقرب الباحثين الذين عملوا مع "بورديو"، إن الذين لم يعرفوا "بورديو" قبل عام 1995، سيكون لديهم انطباع غير صحيح عن علاقته بالسياسة. الصورة التي صنعتها الصحافة وانتشرت بشكل واسع منذ عدة سنوات، سواء كانت ايجابية - انخراط "بورديو" في الحياة السياسية - أم كانت سلبية - تحول "بورديو" إلى الراديكالية السياسية حتى يكون موضع اهتمام - هي صورة زائفة في كلتا الحالتين. إن علاقة "بورديو" بالسياسة تعود إلى فترة حرب الجزائر.

لم يعتبر بورديو مطلقاً أن علم الاجتماع هو مجرد مجال تخصص أكاديمي. إنما كان مثله مثل دوركايم يرى أن العلوم الاجتماعية لا تستحق مجرد ساعة من الاهتمام إذا لم تعدّ بشكل واسع إلى المجتمع لكي تكشف آليات الهيمنة السائدة فيه. في مقدمة كتاب "إعادة الإنتاج"، يشرح بورديو أن علم الاجتماع كان سياسياً أكثر منه علمياً لأنه يمكن من رؤية ما يخفيه العالم الاجتماعي²

إن صدور كتاب "بؤس العالم" قبل الانتخابات الفرنسية عام 1993 لم يكن مجرد مصادفة، عمل جيد البناء نظرياً، يركز على سنوات من العمل البحثي الذي شارك فيه عشرات من الباحثين. هذا العمل الكبير موجه أساساً إلى الكشف عن المعاناة الاجتماعية المتزايدة الناتجة عن سياسة الليبرالية الجديدة التي لم يكن المسؤولين السياسيين بكل انتماءاتهم قادرين على إدراكها بسبب من صراعاتهم الداخلية ولهائهم وراء أرقام البورصة والاستطلاعات. هذا الكتاب الذي لاقى استقبالاً إعلامياً واسعاً جعل من بورديو شخصية عامة ومؤثرة إلى حد كبير.

ذهب "بورديو" خطوة أكثر إلى الأمام بإنشائه دار نشر « *raison d'agir* » التي قامت بنشر سلسلة من الكتب من الحجم الصغير ورخيصة الثمن موضوعاتها تدور حول

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، المرجع السابق، ص 10.

² المرجع نفسه، ص 14.

مسائل سياسية ساخنة وتهدف إلى دفع الأعمال التي تقوم بها العلوم الاجتماعية إلى ساحة النضال السياسي. الكتاب الأول من هذه السلسلة هو كتاب "عن التلفزيون" الذي يحلل فيه بورديو حالة وسائل الإعلام ويسعى إلى إظهار تأثيرات شاشة التلفزيون وما تنتجه من برامج وصور بعيدة عن أي موضوعية وتعكس رؤية للعالم غير محايدة سياسياً¹.

في الواقع إن التلفزيون من خلال الآليات المتعددة التي سعى "بورديو" إلى وصفها بطريقة سريعة - ذلك أن تحليلاً معمقاً ومنهجياً سيتطلب وقتاً أطول بكثير - يكشف عن خطر كبير جداً يهدد مجالات مختلفة على مستوى الإنتاج الثقافي، من فن، وأدب، وعلم، وفلسفة، قانون.

وقد تمكن من خلال التحليل والمعالجة البرهنة على أن التلفزيون ومعه جزء من الصحافة مدفوعين بمنطق اللهاث وراء مزيد من الإقبال الجماهيري، قد أتاحوا وسمحوا للمحرضين على الممارسات والأفكار العنصرية والمعادية للآخر للظهور والبروز².

تصور "بورديو" أنه من المهم الاشتراك والتحدث عبر التلفزيون لكن "تحت شروط معينة". فقد قال "إنني استفيد اليوم بشروط تعتبر استثنائية تماماً وذلك بفضل قسم الصوتيات والمرئيات بالكوليج دي فرانس:

أولاً: الوقت المخصص لي غير محدود.

ثانياً: الموضوع الذي أتناوله في خطابي غير مفروض عليّ - لقد حددت الموضوع بشكل حر - ويمكنني أيضاً أن أغيره.

ثالثاً: ليس هناك أحد، كما هو الحال في البرامج التلفزيونية العادية، لكي يذكرني بضرورة الالتزام بالتعليمات بحجة الضرورات الفنية أو بسبب المشاهد الذي لن يفهم ما يقال، أو باسم مراعاة الأخلاقيات أو الضروريات الفنية للمشاهد الجيدة الخ".

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، المرجع السابق، ص 15.

² المرجع نفسه، ص 33.

بالنسبة لبعض الفلاسفة (وبعض الكتاب)، أن تكون ذلك يعني أن تُدرك من خلال شاشات التلفزيون، أي - تحديداً، أن تُدرك من قبل الصحفيين، أو كما يقال، أن تكون صورتك مقبولة من جانب الصحفيين (الأمر الذي يتطلب بطبيعة الحال مساومات وتنازلات) - كما أنه من الحقيقي أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا على أعمالهم لكي يكونوا حاضرين باستمرار، ليس لدى هؤلاء من طرق أخرى إلا الظهور بشكل متكرر كلما كان ذلك ممكناً على شاشة التلفزيون، وبالتالي أن يكتبوا على فترات منتظمة وأيضاً مختزلة بقدر الإمكان، كتباً وظيفتها الأساسية، تأمين دعوتهم إلى البرامج التلفزيونية. لهذا السبب أصبحت شاشة التلفزيون اليوم نوعاً من مرآة نرجس، مكاناً لاستعراض حب الذات¹.

إن الاشتراك في برامج التلفزيون توجد في مقابله رقابة هائلة، فقدان للاستقلالية يرتبط مع أشياء أخرى بحقيقة أن الموضوع المعروض قد تم فرضه، إن شروط الاتصال والحوار قد تم فرضها كما أن تحديد الزمن المفروض على خطاب المشاركين يفرض بشكل خاص حدوداً صارمة بحيث يصبح من غير المحتمل وجود إمكانية لكي يقال شيء ما، هذه الرقابة تمارس على المدعويين، ولكن أيضاً على الصحفيين من مقدمي البرامج الذين يمارسون هذه الرقابة لأنهم يتوقعون أن ما سيقوله المفكر أو العالم أو الكاتب هو كلام في السياسة.

من الحقيقي أيضاً وخصوصاً في فترة مثل الفترة التي نعيشها حالياً، أنه يوجد جيش احتياطي وقدر كبير من عدم الاستقرار في وظائف العاملين بالتلفزيون والراديو، لذا فإن الميل نحو الخضوع للأعراف السياسية السائدة هو إلى حد ما ميل كبير جداً. الأفراد يخضعون للأعراف بشكل واعٍ أو بشكل غير واعٍ عبر الرقابة الذاتية، وذلك من دون الحاجة إلى تنبيههم إلى ضرورة مراعاة النظام².

إن الذي يمارس الضغط على التلفزيون هو المحدد الاقتصادي. هذا يعني أنه لا يمكن السعي لقول شيء عبر التلفزيون غير ذلك الذي تحدد مقدماً من قبل أولئك الذين يمتلكون هذه المحددات، أي من قبل المعلنين الذين يدفعون ثمن إعلاناتهم، من قبل الدولة التي تمنح

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ص. ص 40، 41.

² المرجع نفسه، ص. ص 43، 44.

الدعم، كذلك عندما يتعلق الأمر بإحدى القنوات التلفزيونية. إذا لم نعرف المالك ونصيب كل من المعلنين في الميزانية وقيمة الدعم الذي تقدمه الدولة، لا يمكن فهم شيء كثير¹.

أراد "بورديو" تفكيك سلسلة من الآليات التي تثبت أن التلفزيون يمارس نوعاً من "العنف الرمزي" المفسد والمؤذي بشكل خاص. العنف الرمزي هو عنف يمارس بتواطؤ ضمنى من قبل هؤلاء الذين يخضعون له وأولئك الذين يمارسونه بالقدر الذي يكون فيه أولئك كما هؤلاء غير واعين بممارسة هذا العنف أو الخضوع له. إن علم الاجتماع مثل كل العلوم وظيفته أن يكشف القناع عن الأشياء الخفية، هذا العمل يمكن أن يسهم في تقليل العنف الرمزي الذي يمارس في العلاقات الاجتماعية وبخاصة في علاقات أدوات الاتصال الإعلامية².

يقدم "بورديو" أمثلة سهلة لتوضيح رؤيته عن التلفزيون، وهي الأحداث المتفرقة التي كانت دائماً المرعى المفضل لصحافة الإثارة؛ الدم والجنس، الدراما والجريمة. كانت دائماً تسوق جيداً وتترعب على عرش جذب المشاهدين وتتصدر الفقرات الأولى من افتتاحيات نشرات الأخبار التلفزيونية، هذه العناصر التي تم استبعادها أو إبعادها من جانب معايير الاحترام المفروض على نماذج الصحافة المكتوبة التي تتمتع بالجدية. لكن الأحداث المتفرقة هي أيضاً الأحداث التي تتسبب في تحويل الأنظار وتلهي المشاهدين.

ومن المتعارف عليه، أن هناك نسبة هامة من الأفراد الذين لا يقرؤون أية صحيفة يومية، أولئك الذين وهبوا أنفسهم جسداً وروحاً للتلفزيون كمصدر وحيد للمعلومات. ويتمتع التلفزيون بامتلاك نوع من الاحتكار للحدث بدلاً من تكوين العقول وذلك فيما يتعلق بجزء كبير من السكان. والحال أنه بالتركيز على الأحداث المتفرقة يتم إحلال الوقت النادر بزمان فارغ، بلا شيء أو تقريباً لا شيء. بتجنب المعلومات الملائمة التي يجب أن يمتلكها المواطن كي يمارس حقوقه الديمقراطية³.

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ص. ص 44،45.

² المصدر نفسه، ص. ص 45،46.

³ المرجع نفسه، ص 48.

إن الصحفيين يشبهون "نظارات" خاصة بواسطتها يرون أشياء معينة ولا يرون الأشياء الأخرى؛ كما أنهم يرون هذه الأشياء بطريقة معينة. إنهم يمارسون عملية اختيار ثم عملية إعادة تركيب لذلك الذي تم اختياره¹.

الفكرة التي يتم على أساسها الاختيار هي البحث عما هو مثير، عن ذلك الذي يجذب ويدفع للمشاهدة. يسعى التلفزيون إلى دفع الأمور نحو إضفاء طابع "الدراما" وذلك بمعنى مزدوج: إنه يضع في المشهد، في الصورة، واقعة أو حدثاً ثم يقوم بالمبالغة في أهميتها، في خطورتها وفي صفاتها الدرامية والتراجيدية².

في الواقع، وهنا وجه التناقض، فإن عالم الصورة تهيمن عليه الكلمات. الصورة لا تعني شيئاً دون التفسير (المفتاح) الذي يقول ذلك الذي يجب أن تتم قراءته - مفتاح التفسير - ذلك يعني أنه في أغلب الأحيان، هناك مفسرون يقومون برؤية أي شيء. إن تعيين شخص ما في موقع معين، هذا يعني، ونحن نعلم ذلك جيداً، أن هذا الشخص يعرف كيف يشاهد، وعليه أن يبدع في منصبه هذا وأن يدفع إلى جذب الحضور. يمكن للكلمات أن تسبب الدمار والخراب: إسلام، إسلاموي، مسلم - هل الحجاب هو حجاب إسلامي أم حجاب مسلم؟ هل تأثيره يكمن ببساطة في مجرد شكله أم أنه أكثر من ذلك؟

يقول "بورديو" في هذا الصدد: « تحضرنى أحياناً رغبة في إعادة أخذ "كل كلمة" من كلمات مقدمي البرامج التلفزيونية الذين يتحدثون غالباً بخفة ودون أن يكون لديهم أية فكرة عن صعوبة وخطوة ذلك الذي يقدمونه ولا عن المسؤوليات التي يتحملونها نتيجة لما يقدمونه للآلاف من مشاهدي التلفزيون دون فهم لما يقدمونه ودون أن يدركوا أنهم لا يفهمونه. ذلك أن مثل هذه الكلمات تخلق أشياء، تخلق التصورات والتخييلات الخادعة، تحدث الخوف، تؤدي إلى الهلع والرغبة أو ببساطة إلى تقديم عروض زائفة.

يهتم الصحفيون إجمالاً بما هو استثنائي، بذلك الذي يعتبر "استثنائياً" من وجهة نظرهم". إن هذا الذي يمكن أن يعتبر عادياً بالنسبة للآخرين يمكن أن يكون خارقاً للعادة

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، المرجع السابق، ص 49.

² المرجع نفسه، ص 50.

بالنسبة إلى هؤلاء الصحفيين أو العكس. إنهم يهتمون بما هو خارق للعادة، بذلك الذي لا صلة له بما هو عادي، بذلك الذي لا يعتبر شيئاً يومياً - ما هو يومي يجب أن يؤدي يومياً إلى ما هو "فوق-اليومي"، هذا ليس سهلاً... من هنا تلك المكانة التي تخصص وتعطي للعادي الخارق للعادة، أي المنتظر من قبل التوقعات العادية، حرائق، فيضانات، اغتيايات، أحداث متفرقة. لكن الخارق للعادة هو أيضاً وعلى وجه الخصوص ذلك الذي ليس عادياً بالنسبة لنشرات الأخبار الأخرى. إنه ذلك الذي يعتبر مختلفاً عما هو عادي والذي يختلف عما تقول عنه نشرات الأخبار الأخرى أنه عادي، أو تقوله بشكل عادي. هذا الوضع بمثابة إجبار وإرغام فظيع: ذلك الذي يفرض متابعة "السبق المثير" حتى يكون أول من يشاهد وأول من يدعو إلى مشاهدة أشياء معينة، ثم استعداد بدرجة كبيرة إلى فعل أي شيء، كما لو أنه يتم النسخ والنقل بشكل مشترك بالنظر إلى سبق الآخرين، أن تفعل ذلك قبل الآخرين، أن تفعله بشكل مختلف عن الآخرين، ثم ينتهي الأمر بأن يفعل الجميع الشيء نفسه، البحث عن السبق المثير، ذلك السبق الذي يؤدي في مجالات أخرى إلى التقرد وإلى إنتاج أعمال أصيلة ينتهي به الأمر هنا إلى القولية والابتدال¹.

تأتي المخاطر السياسية الملازمة للاستخدام العادي للتلفزيون من حقيقة أن للصورة تلك الخاصية التي يمكنها أن تنتج ما يسميه نقاد الأدب "تأثير الواقع"، الصورة يمكنها أن تؤدي إلى رؤية أشياء وإلى الاعتقاد فيما تراه. هذه القدرة على الاستدعاء لها تأثيرات ونتائج تعبوية. يمكنها أن تخلق أفكاراً أو تعبيرات، لكن يمكنها أيضاً أن تخلق مجموعات. الأحداث المتفرقة، الحرائق أو الحوادث اليومية؛ يمكن أن تعباً وتشن بتورطات ومضامين سياسية وأخلاقية قادرة على إثارة مشاعر قوية غالباً سلبية مثل المشاعر العنصرية ومشاعر الزينوفوبيا (العداء للأجانب)، مركب من الخوف والعداء للآخر، مما هو أجنبي، والنتيجة النهائية البسيطة هي أن واقع التقرير أو التسجيل التقريري للواقع يستلزم دائماً بناءً اجتماعياً للواقع قادراً على ممارسة تأثيرات اجتماعية تعبوية (أو إجهاضية/ وإحباطية)².

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، المرجع السابق، ص 52.

² المرجع نفسه، ص 53.

الصحفي في نهاية الأمر هو عبارة عن وحدة مجردة لا وجود لها؛ الذي يوجد هو أولئك الصحفيين المختلفون تبعاً للجنس والعمر، ومستوى التعليم، وطبيعة النشرة الإخبارية التي يقدمونها وطبيعة "الوسيط". إن عالم الصحفيين عالم يتسم بالانقسام ففي داخله كل أنواع الخلافات والأزمات، المنافسات والمعارضات. هذا يعني أن الإنتاج الصحفي على عكس ما نعتقد هو إنتاج غير متجانس إلى حد كبير. إن الاختلافات والفروقات الأكثر وضوحاً والتي ترجع بشكل خاص إلى اللون السياسي للصحف، تخفي تماثلات وتشابهات عميقة تعود بشكل خاص إلى الحدود المفروضة من قبل مصادر المعلومات وكذلك بسبب سلسلة كاملة من الآليات التي منها، وهذا هو الأكثر أهمية، منطلق المنافسة. باسم المبدأ الليبرالي يردد دائماً أن الاحتكار يُقوِّب وأن المنافسة تؤدي إلى التنوع. إنه بمجرد أن تتم المنافسة بين الصحفيين وبين الصحف التي تخضع للمحددات ذاتها ولاستطلاعات الرأي ذاتها. وللمعلنين أنفسهم (يكفي أن نرى السهولة التي ينتقل بها الصحفي من صحيفة إلى أخرى)، فإن ذلك يؤدي بها إلى أن تصبح متجانسة ومتشابهة. قارن أغلفة المجلات الأسبوعية الفرنسية مع فاصل أسبوعين من الزمن؛ إنها تحمل تقريباً العناوين ذاتها. كذلك نرى الشيء نفسه في نشرات الأخبار التلفزيونية ونشرات محطات الراديو ذات البث الواسع الانتشار، وسواء كانت الظروف حسنة أم سيئة فإننا نلاحظ أن ترتيب الأخبار هو الذي يتغير فقط¹.

بالنسبة للصحفيين فإن قراءة الصحف هي عمل لا غنى عنه، وتعتبر نشرة الصحافة بمنزلة أداة عمل أساسية: لمعرفة ذلك الذي سنقوله يجب معرفة ذلك الذي قاله الآخرون. هذه المسألة تُعدُّ واحدة من الآليات التي من خلالها يتم تجانس وتشابه الموضوعات المقترحة للنشر².

هذا النوع من لعبة المرايا العاكسة التي تمارس من كل جانب يحدث تأثيراً هائلاً من الانعزال والانغلاق العقلي. مثال آخر على تأثير هذه القراءة المتبادلة، نجد تأكيداً له في جميع المقابلات؛ لكي يتم إعداد نشرة أخبار منتصف النهار، يجب على الصحفي أن يكون

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، المرجع السابق، ص. 56، 55.

² المرجع نفسه، ص. 57.

قد شاهد عناوين نشرات أخبار الثامنة مساء اليوم السابق وكذلك عناوين صحف الصباح، ولكي يعد عناوين نشرة المساء يجب أن يقرأ صحف الصباح. إن هذا يصبح جزءاً من الضرورات الضمنية للمهنة. مثل هذا العمل هو عمل ضروري حتى تكون متميزاً عن غيرك وتكون مشاركاً في اللعبة في الوقت نفسه. في أغلب الأحيان تكون الاختلافات الضئيلة التي يولي لها الصحفيون أهمية بالغة هي التي تمر من دون أن يفتن إليها مشاهدو التلفزيون¹.

الاختيارات التي تتم في برامج التلفزيون هي بشكل ما اختيارات بلا موضوع... حقيقة إن الصحفيين يتحلون بصفات مشتركة كثيرة، سواء في المواقع التي يحتلونها، أم في ظروف عملهم، ولكن أيضاً في تكوينهم الأساسي، ذلك أن كلاً منهم يقرأ للآخر، ويلتقي كل منهم بالآخر باستمرار في الندوات التي نرى فيها دائماً الأفراد أنفسهم. كل هذا يؤدي إلى تأثير الانغلاق ويجب عدم التردد في القول أنه تؤدي إلى رقابة فعالة ومؤثرة - بل أكثر فعالية من الرقابات المركزية البيروقراطية- لأن أساسها غير مرئي، كما أنه أكثر فعالية من التدخل السياسي المباشر والصريح².

الأوديمات L'audimat هو مقياس نسبة الإقبال التي تتمتع بها القنوات التلفزيونية المختلفة (تتوفر حالياً وسائل فنية تم إدخالها حديثاً لدى بعض القنوات تسمح بقياس نسبة الإقبال" كل خمسة عشر دقيقة بل يمكن رصد التنويعات المختلفة بين المشاهدين وفقاً للفئات الاجتماعية التي ينتمون إليها). لدينا إذن معرفة دقيقة جداً لهذا الذي يلقى إقبالاً من جانب المشاهدين. لقد أصبح هذا القياس لنسبة الإقبال أي الأوديمات الحكم الأخير بالنسبة للصحفيين؛ حتى في الأوساط الصحفية الأكثر استقلالية ربما باستثناء صحيفة لو كنار انشينييه le Canard Enchainé ولوموند ديبلوماتيك le Monde Diplomatique، وبعض النشرات الرائدة الصغيرة التي يحررها أفراد شجعان، فإن مسألة الأوديمات توجد حالياً داخل كل العقول. توجد اليوم "عقلية أوديمائية" (مهووسة بقياس نسبة الإقبال) في أروقة

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، المرجع السابق، ص 58.

² المرجع نفسه، ص. ص 59-60.

قاعات التحرير، في دور النشر، الخ. في كل الأثناء يفكرون وفقاً لاعتبارات النجاح التجاري¹.

ألا يدان التلفزيون بأنه يحصل على الإطلاق إلا على مفكرين - على السريع عندما يعطي الحديث لمفكرين أجبروا على أن يفكروا بسرعة متزايدة؟ على مفكرين يفكرون بأسرع من ظلهم...²

إذا كان التلفزيون يفضل عدداً معيناً من المفكرين السريعين الذين يقدمون غذاءً ثقافياً على السريع، وهو نوع من التغذية الثقافية التي تم إعدادها مسبقاً، والتي تم التفكير فيها مقدماً، فذلك ليس فقط لأن من يقومون بذلك لديهم بطاقة عناوين جاهزة تتضمن الأشخاص أنفسهم دائماً (وهذا أيضاً جزء من الخضوع لضرورات الطوارئ)؛ ذلك أن هناك متحدثين مجديين يقومون بالبحث عما إذا كان هناك شيء ما يمكن قوله بالفعل، وهم غالباً من الشباب، غير معروفين بعد، ملتزمين في أبحاثهم وليس لديهم نزوع للتردد على وسائل الإعلام التي يجب الذهاب واللاهات وراءها، بينما هي متاحة دائماً وتحت الطلب وعلى استعداد لعرض أوراق أو إعطاء مقابلات لمحترفي وسائل الإعلام. لكن هناك أيضاً حقيقة أنه لكي تكون قادراً على "التفكير" في ظل ظروف لا يمكن لأحد أن يفكر فيها على الإطلاق، عليك أن تكون مفكراً من نوع خاص³.

يوزع مقدم البرنامج الوقت على المتحدثين، إنه يوزع حتى نبذة الحديث، حديث يلقي الاحترام والتقدير وحديث يواجه بالاستخفاف والازدراء، حديث يلقي الاهتمام والإصغاء وحديث يقال في عجلة ونفاذ صبر⁴.

ثمة إستراتيجية أخرى لمقدم البرنامج التلفزيوني، إنه يتلاعب بالوضع الطارئ والعاجل، يستخدم الزمن، تحت ضغط الإلحاح، مؤشر الساعة، وذلك لكي يقطع الحديث. لكي يضغط على المتحدث، بل ليقاطعه ويوقفه عن الحديث. في هذه الحالة يلجأ مقدم

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، المرجع السابق، ص 62.

² المرجع نفسه، ص 65.

³ المرجع نفسه، ص 67.

⁴ المرجع نفسه، ص. ص 71، 72.

البرنامج إلى وسيلة أخرى، مثل كل مقدمي البرامج يجعل من نفسه متحدثاً باسم جمهور المشاهدين: "إنني أقاطعك لأنني لا أفهم ما تريد أن تقوله". إنه لا يترك أية فرصة للظن بأنه جاهل أو أبله، لأنه يترك الإحساس بأن المشاهدين من العامة الذين هم بلهاء وفقاً لما هو شائع، لن يفهموا هذا الحديث.

التلفزيون هو أداة للإعلام ذات استقلالية ضعيفة جداً يقع على كاهله سلسلة كاملة من المحددات والقيود التي تعود إلى العلاقات الاجتماعية بين الصحفيين، "علاقات تنافس" ضارية وقاسية إلى درجة الحمق واللامعقولية، وهي أيضاً علاقات تواطؤ، بالإضافة إلى تورطات موضوعية تركز على المصالح المشتركة التي تعود إلى المواقع التي يحتلونها في مجال الإنتاج الرمزي وإلى طبيعة وحقيقة أصولهم بشكل عام من حيث التركيبات المعرفية، ومستويات الإدراك والتقدير التي ترتبط كلها بأصولهم الاجتماعية وتكوينهم المهني (أو بعدم تكوينهم المهني)¹.

ترجع أهمية الصحفيين داخل المجال الاجتماعي إلى واقع أنهم يمتلكون احتكار الحدث المفروض على أدوات إنتاج المعلومات الواسعة الانتشار وتوزيعها، ومن خلال هذه الأدوات، فإنهم يحتكرون إمكانات الوصول إلى المواطنين البسطاء ولكن أيضاً احتكار إدخال منتجين آخرين للثقافة، من علماء، وفنانين، وكتاب إلى ما يسمى أحياناً "المجال العام" (الحياة العامة) أي مجال التوزيع الواسع الانتشار².

لقد كان تلفزيون سنوات الخمسينيات - في فرنسا - يرغب أن يكون تلفزيوناً ثقافياً ويرغب بشكل ما وبسبب من احتكاره في أن يفرض على كل الإنتاج الصبغة الثقافية (البرامج التسجيلية والوثائقية، اقتباس الأعمال الكلاسيكية، الندوات الثقافية، الخ) وفي أن يشكل أذواق الجمهور الواسع؛ تلفزيون سنوات التسعينيات يهدف إلى استغلال وتملق هذه الأنواع حتى يحقق الإقبال الأكثر انتشاراً وذلك بتقديمه إلى المشاهدين إنتاجاً فظاً يتجسد نموذجاً في المشاهد السريعة، شرائح من الحياة، استعراضات للتجارب المعيشة دون ألقنة،

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، المرجع السابق، ص 78.

² المرجع نفسه، ص 94.

وتكون غالباً متطرفة ومعدة لإرضاء نوع من نزعة البصبصة والتلصص والميول الاستعراضية(كما هو الحال من جانب آخر في الألعاب التلفزيونية التي يهرع إلى الاشتراك فيها حتى المشاهد البسيط، لكي يبُر إلى وضع يكون فيه مرئياً وموضع مشاهدة ولو للحظة عابرة)¹.

التلفزة ساهمت دون شك بنفس قدر مساهمة الرشاوي في انحطاط الفضيلة العمومية؛ لقد نادى ودفعت إلى واجهة المسرح السياسي والثقافي الأمامية مسألة: "هل رأيتي؟ .. " مهمة قبل كل شيء بضمان الظهور على الشاشة والتباهي بالذات في تناقض كلي مع قيم التضحية والتفاني المعتمدة للمصلحة الجماعية التي تصنع الموظف أو المناضل. إن نفس الهم الأناني المتمثل في التباهي وإضفاء القيمة على الذات (في الغالب على حساب المنافسين) هو الذي يوضح كيف أن "تأثيرات الإعلان الإشهاري" تحولت إلى ممارسة جد شائعة؛ فإجراء ما بالنسبة للعديد من الوزراء يكون لا قيمة له فيما يبدو إلا إذا كان يقبل أن يعلن عنه إشهاريا واعتباره منجزاً منذ اللحظة التي يضحى فيها عمومياً. وباختصار، فإن الفساد الأكبر الذي يؤدي إلى إمطة النقاب عن الفضيحة لأنه يكشف عن التفاوت بين القيم المعلنة والممارسات الفعلية، ليس إلا تعريفاً لكل ضروب "العنف" الصغيرة والعادية وعرضاً للفتنة وقبولاً محموماً للامتيازات المادية والرمزية.

¹ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، المرجع السابق، ص. 96، 97.

الفصل الخامس

الأنساق الرمزية والممارسات الاجتماعية

تمهيد

لقد كافح "بورديو" على جبهة ندر أن ماثله فيها أحد من السابقين واللاحقين عليه، فعندما كان بصدد تسجيل أطروحته في الدكتوراه فاجأ الأوساط العلمية والمعرفية برفضه الانصياع للقوانين السائدة والأطر التنظيمية والتحكيمية للمعرفة التي تسمح له بنيل شهادة الدكتوراه مبررا ذلك بأن على المرء ألا يلتزم بما لا يعتقد به ولا يؤمن بجدواه. ولعله بهذه الخطوة يكاد يكون وحيدا من بين العلماء الأفذاذ في العصر الراهن الذين لا يحملون شهادة الدكتوراه، ومع ذلك فقد تفتقت ذهنيته عن عبقرية مبكرة جدا تستحق التقدير والاحترام.

درس "بورديو" الكثير من الظواهر الاجتماعية والتي مست أدق تفاصيل الحياة اليومية مبينا فيها كيفية وقوع التمايز الاجتماعي وعنف الرأسمال الرمزي، ففي حقل الاستهلاك يمكن ملاحظة التمايز الطبقي في نوعية الأسواق وتعددتها بحيث يبدو لكل شريحة أو طبقة اجتماعية أسواقها ومنتجاتها .

كما أنه حاول الكشف عن أشكال الهيمنة السياسية والإيديولوجية بواسطة تحليل مادي للإنتاجات الثقافية وذلك عن طريق الحفر في البنى الاجتماعية والأطر السلطوية والاهتداء إلى طرق إعادة الإنتاج وأشكال التبرير والاستغلال، ولذلك اختار هذا الأكاديمي الثائر تأكيد انتمائه إلى اليسار عبر تحوله الراديكالي في التسعينات من القرن الماضي نحو نقد الليبرالية الجديدة والتشهير ببؤس العالم الراهن وما ترتب عن ذلك من نتائج سلبية على الإنسانية سببتها العولمة المتوحشة وقام بالاعتراض على المخاطر المحدقة بالكون والتلاعب بالعقول واغتصاب الحقيقة.

من جهة ثانية تعامل "بورديو" مع الخطاب المناادي بإفلاس الإيديولوجيا نتيجة القول بصدام الحضارات ونهاية التاريخ وموت الإنسان وخسوف العقل، بوصفه خطابا معبرا عن إيديولوجيا ناعمة تزعم في الظاهر الهيمنة والانتصار على الإيديولوجيات الأخرى، ولكنها في الباطن تخفي نزعة عنصرية جديدة وعقيدة محافظة ومدمرة قد تشكل تهديدا للقيم الكونية وتمثل خطرا على المكاسب الإنسانية.

المبحث الأول: سوسولوجيا السوسولوجيا

شهد علم الاجتماع على يدي "بيار بورديو" إبداعا علميا متأقًا، وتجديدا فكريا حقيقيا في المصطلحات والمضامين والدور والأهداف. فقد أحدث الرجل في تحليله للظواهر السياسية والاجتماعية والثقافية تغييرا في حقل الدراسات الثقافية والأبحاث الاجتماعية النقدية وفي مفهوم علم الاجتماع نفسه. لقد أثار انتباه المتخصصين إنتاجه الفكري الغزير والمتميز، واطلاعه الواسع، وإرادته القوية والشجاعة في تطبيق الأفكار والمبادئ التي نادى بها في أعماله الفكرية وتصميمه الحاسم على ترجمتها إلى سلوك ومواقف وممارسات عملية من خلال مشاركاته ومدخلاته الشخصية في المظاهرات والحركات الاجتماعية والسياسية.

يستعيد "بيار بورديو" طموح "دوركايم" بتكوين سوسولوجيا كعلم وبتخليصها من الأوهام والاعتقادات. وتقوم هذه الإرادة على مبدأ موضوعية الاجتماعي، حتى لو كان بلوغ هذه الموضوعية هو نتيجة عمل يتجدد باستمرار، لذا نرى أن نظرية "دوركايم" حاضرة في ذهنه، من خلال المناهج والطرائق المستخدمة (الديموغرافيا Démographie، والإحصائيات) إلى الأدوات التي تتيح القيام بأعمال موضوعية¹.

من الضروري، في السياق نفسه، الإقرار بأن عرض الآراء والأحكام، من وجهة نظر منهجية، لا يمكن أن يشكّل سوى لحظة من لحظات البحث (وهي لحظة قد تكون خادعة، إذا ما اعتمدنا على أوهام الأعوان الاجتماعيين). لذا من الأفضل تحقيق التوفيق المعرفي للعلاقة بين الأمور الذاتية وموضوعية العلاقات الاجتماعية.

جزء كبير من الخطاب السوسولوجي يدين بنجاحه الاجتماعي المباشر إلى واقع أنه يستجيب لمطالب الفئات المسيطرة، وهي المطالب التي تختزل غالبا في مطالب إيجاد الوسائل العقلية للتنظيم الإداري وللسيطرة أو إلى مطالب المصادقية "العلمية" لعلم اجتماع تلقائي للمهيمنين².

¹ بيار أنصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، تر: نخلة فريفر، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص26.

² Pierre Bourdieu, choses dites, Ed de Minuit, Paris, 1987, P65

إن سوسولوجيا السوسولوجيا، مثلها مثل كل سوسولوجيا المعارف، تحدّد لنفسها مهمة دراسة مختلف الصلات، الواعية وغير الواعية، التي تربط بين علماء الاجتماع ووسطهم الاجتماعي، وبين معارفهم وظروفهم الاجتماعية التي تجعل هذه المعارف ممكنة. ألم يُحدّد علم الاجتماع بظروف إنتاجه؟ ألا يرتبط علماء الاجتماع بمصالح (وحتى بإيديولوجيات) القوى الاجتماعية والحركات التاريخية التي يشاركون فيها؟

هذه المسألة العامّة يمكن أن تتفرّع إلى مسائل خاصة. نستطيع بسهولة أن نبيّن أن الضغوطات الاجتماعية، المباشرة وغير المباشرة، هي التي توجّه اختيار موضوعات الدراسة. ففي الحقبة التي تُطرح فيها إدارة المشاريع مشكلات اجتماعية واقتصادية متعددة. تسهل مختلف الطلبات والاعتمادات العمومية والخاصة، الحاجة إلى علم اجتماع التنظيمات وتخلق طلباً اجتماعياً للقيام بدراسات ضمن هذا الميدان. فاختيار موضوعات الدراسة لا يمكن أن تكون غير متحيّزة لوجود طلبات اجتماعية، أو لضعف وجودها.

ونستطيع كذلك أن نتساءل حول العلاقة بين المعارف المنتجة والنتائج، ووضعية الباحث، التاريخية والاجتماعية، فتاريخ المدارس الكبرى، مدارس الماضي (الماركسية، التطوّرية...) يبيّن، دون لبس، إلى أي حدّ كانت النتائج التي توصلت إليها مرتبطة بطابع الحركات الاجتماعية والظروف، التي لم تدرك دائماً هذه المدارس حدودها. ولا يمكننا أن نشكّ أبداً أن أوضاع "ماركس" السياسية أو أوضاع "دوركايم" كانت "جوانب" شحذت فهمها لبعض الظواهر ووضعت حدوداً لاستيعابها¹.

والمهمة الأخرى التي يضطلع بها علم اجتماع علم الاجتماع تقوم على تبيان "تقنيات القطيعة" التي يتصرّف بها عالم الاجتماع لقطع الصلة مع الإيديولوجيات السائدة في محيطه (مناهج المعاينة، منهجيات المعالجة، النوعية والكمية...) ولإسقاط فعاليتها. ومن ثم يمارس عمل تيقّظ يساهم في ديناميكية النقد العلمي اللازم.

فالسوسولوجيا وهي العلم الذي يهتم بالمؤسسة ويدرس العلاقة بالمؤسسة، كيفما كانت تلك العلاقة، تقترض وتخلق مسافة لا يمكن قهرها، بل ولا يمكن تخطيها في بعض الأحيان،

¹ بيار بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص. 108، 107.

تفصلنا عن المؤسسة، وليس عن المؤسسة وحدها. إن السوسولوجيا تنزعنا عن حالة البراءة التي تسمح لنا بأن نقوم بكامل الرضا بما تنتظره منا المؤسسة.

يتميز علم الاجتماع بخاصية جوهرية وهي أن جميع القضايا التي يقررها، من الضروري أن تصدق على الذات التي تصنع العلم. فعندما يعجز عالم الاجتماع عن خلق المسافة التي تنشئ الموضوعية، أي المسافة النقدية، يعطي كامل الحق لأولئك الذين ينظرون إليه كأنه مفتش مرعب قادر على الممارسة الرمزية لجميع أعمال الشرطة. لا نفتحم ميدان السوسولوجيا دون أن نقطع أواصر الصلة التي تشدنا عادة إلى جماعات معينة ونتخلى عن العقائد التي تشكل انتماءنا وتحدده. ونتنكر لجميع الانتماءات والارتباطات.

إن الذي يعتبر أن الانتماء الاجتماعي للعالم عقبة تحول دون قيام سوسولوجيا علمية، ينسى أن عالم الاجتماع يجد علاجاً ضد التحديدات الاجتماعية في العلم الذي تصبح بفضل تلك التحديدات جلية واعية¹.

إن سوسولوجيا السوسولوجيا التي تسمح بتسخير مكتسبات العلم الجاهز ضد العلم الناشئ أداة لا مندوحة عنها في يد المنهج السوسولوجي: فنحن نصنع العلم، والسوسولوجيا على الخصوص، ضد تكوينه بقدر ما نصنعه عند تكوينه. والتاريخ وحده هو الذي باستطاعته أن يخلصنا من التاريخ. وهكذا فإن التاريخ الاجتماعي لعلم الاجتماع، شريطة أن ننظر إليه أيضاً كعلم اللاشعور، يشكل، في الصورة التي أرستها الإبتيمولوجيا التاريخية التي يمثلها (ج. كانغليم) و(م. فوكو)، وسيلة من أهم الوسائل للتخلص من التاريخ، أي من هيمنة ماضٍ مجسد يعيش في الحاضر أو هيمنة حاضر يمضي بمجرد ظهوره، شأن الموضة الثقافية.

إذا كانت سوسولوجيا النظام التعليمي والميدان الثقافي تبدو ذات أهمية كبرى، فذلك لأنها تساهم أيضاً في معرفة الذات العارفة، وذلك عندما تمهد بكيفية مباشرة وأكثر مما تفعله

¹ بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص. 8، 7.

التحليلات النقدية، لتحديد مقولات الفكر اللامفكر فيها، تلك المقولات التي تحدد ما يمكن أن يفكر فيه وتعين ميدان المفكر فيه¹.

إن كل مكتسب تحققه سوسولوجيا العلم من شأنه أن يدعم المعرفة السوسولوجية وذلك بالعمل على معرفة المحددات الاجتماعية للفكر السوسولوجي، وإذكاء روح النقد الذي يمكن أن يوجهه كل واحد لتأثير تلك المحددات على ممارسته هو وممارسة خصومه. إن العلم يزداد قوة كلما زاد النقد العلمي صرامة، أي كلما ازدهرت الصيغة العلمية للأدوات التي هي في متناول المثقف، وسادت ضرورة استخدام أسلحة العلم وأدواته وحدها دون الأدوات الأخرى².

إذا كانت هناك حقيقة فهي أن الحقيقة ذاتها مدار الصراعات. بيد أن هذا الصراع لا يمكن أن يفضي إلى الحقيقة إلا عندما يخضع لمنطق بمقتضاه لا ننتصر على خصومنا إلا إذا استعملنا ضدهم أسلحة العلم مساهمين بذلك في العمل على تقدم الحقيقة العلمية.

عن طريق عالم الاجتماع، ذلك العنصر التاريخي الذي يتخذ، تاريخيا، موقعا بعينه، وذلك العضو الاجتماعي الذي يحتل، اجتماعيا، مكانا محددًا، فإن التاريخ، أي المجتمع الذي يجد فيه التاريخ امتداده، يرتد لحظة نحو ذاته ويفكر فيها، ويفضله يستطيع كل أعضاء المجتمع أن يعرفوا معرفة أفضل ما يعيشونه من أحوال وما يقومون به من أعمال. ولكن هذه المهمة هي أبعد المهام التي يرغب في إسنادها إلى عالم الاجتماع أولئك الذين يتواطئون مع الجهالة والإنكار ورفض المعرفة، والذين هم على استعداد لأن يعترفوا بالقيمة العلمية لكل أشكال الخطاب التي لا تتحدث عن الميدان الاجتماعي أو التي تتحدث عنه دون أن تفعل³.

إن العمل اللازم لإظهار الحقيقة، وإقناع الناس بها يصطدم بآليات الدفاع الجماعية التي ترمي تحقيق إنكار حقيقي بالمعنى الفرويدي للكلمة. وبما أن رفض الاعتراف بواقع الصدمة يتم وفق المصالح المدافع عنها، فإننا ندرك سبب العنف الشديد الذي يطبع

¹ بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص9.

² المرجع نفسه، ص15.

³ المرجع نفسه، ص17.

المقاومات التي تثيرها، عند الذين يحتكرون الرأسمال الثقافي، التحليلات التي تكشف عن شروط إنتاج الثقافة وإعادة إنتاجها¹.

وبإمكان الاستقلال الذاتي النسبي لحقل الإنتاج العلمي والمصالح الخاصة التي تتولد داخله أن تسمح وحدها، بل وتعمل على وجود عرض للمنتجات العلمية الانتقادية التي تسبق أي شكل من أشكال الطلب دفاعاً عن العلم، أي عن عصر الأنوار ومحو الظلمات. يمكن أن نقتصر على إيراد نص لديكارت: "لا أسمح مطلقاً بأن يسعى المرء نحو الخطأ فيلجأ إلى أوهام الخيال لذا لما ارتأيت أن معرفة الحقيقة ترقى بنا إلى أقصى الكمال، حتى ولو كانت في غير صالحنا، تبين لي أنه من الأفضل أن نكون أقل مرحاً وأكثر معرفة".

إن السوسيولوجيا تفصح الانخداع الذي يراعه الجميع ويشجع عليه، فيشكل، في كل مجتمع، أساساً لأكثر القيم قداسة، ودعامة للوجود الاجتماعي بكامله. وهي تعلمنا مع (مارسيل موس) "بأن المجتمع يخدع نفسه على الدوام" وهذا يدل على أن العلم الذي يدرس المجتمعات التي تسير نحو الشيخوخة يمكن أن يساهم على الأقل في أن يجعلنا أقل ما يمكن، سادة على الطبيعة الاجتماعية وممتلكين لها، وذلك بأن يعمل على تقدم معرفتنا ووعينا بالآليات المتحكمة في جميع أشكال الفينيتشية: أي عبادة الدولة، بأعيادها الوطنية وحفلاتها المدنية وأساطيرها القومية القادرة على أن تخلق على الدوام الازدراء أو العنف العنصري وتبررهما. وهذا ليس وقفاً على الدولة الاستبدادية وحدها. وكذلك عبادة الفن والعلم اللذين باستطاعتهما، كأوثان يستعاض بهما، أن يساهما في إضفاء المشروعية على نظام اجتماعي قائم في جزء منه على توزيع لا متكافئ للرأسمال الثقافي².

يشعر علماء الاجتماع، خصوصاً إذا كانوا يعتقدون فلسفة متعالية في التاريخ، بأن المجتمع ينيطهم بمهمة، ومهمتهم هي أن يعطوا المعاني ويوجدوا الأسباب والعلل ويحدثوا النظام ويعينوا المرامي والغايات. لهذا فهم أبعد ما يكونون عن إدراك شقاء الناس الذين لا يحظون بأي امتياز اجتماعي، سواء أكان ذلك الشقاء الخنوع المأساوي للعجزة الذين يهجرون

¹ بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص18.

² المرجع نفسه، ص19.

ويتركون بيد الموت الاجتماعية في المستشفيات والمآوي أو كان الخضوع الصامت للعاطلين أو العنف اليائس لأولئك المراهقين الذين يبحثون في العمل الإجرامي عن وسيلة لبلوغ شكل معترف به من أشكال الوجود الاجتماعي¹.

إن مشروع "بورديو"، هو محاولة لـ "تجميد ورفض القسمة الإيستمولوجية المركزية التي وضعها "ديكارت" ما بين الموضوعية والذاتية. أو بعبارة أخرى التعارض اللانطقي بين الفردي والجمعي. أو كما يفضل أحياناً "بورديو" التعارض بين الفينومينولوجيا الاجتماعية والفيزياء الاجتماعية. ويرى أن الانحياز الفكري إلى أحدهما. هو أحد مشكلات علم الاجتماع، فالنزعة الذاتية تقدم شكلاً من المعرفة عن العالم الاجتماعي، يتمركز حول الخبرة الأولية وتصوّرات الأفراد، وتجاهل الشروط الموضوعية المحددة والمؤثرة في هذه المعرفة. وعليه، فقد انتقد "بورديو" التيارات الفكرية الذاتية، كالفينومينولوجيا، ونظريات الفعل، وعلم الاجتماع التأويلي، والانتروبولوجيا التأويلية، والتحليل اللغوي، وقبل كل ذلك الوجودية. أما أصحاب النزعة الموضوعية، فإنهم على العكس، يحاولون الكشف عن العالم الاجتماعي من خلال التركيز على الشروط الموضوعية، وإهمال الخبرة الفردية الذاتية. وقد عارض "بورديو" أصحاب هذه النزعة، وخاصة دوركايم، وسوسير، وليفي ستروس، وألتوسير. وجاء مشروعه كمحاولة لإقامة "علاقة جدلية بين الذاتي والموضوعي".

يذهب "بورديو" إلى أن تحقيق الوعي الانعكاسي، يتم بإتباع ثلاث خطوات أساسية: يتم أولاً بالسيطرة على القيم والاستعدادات والاتجاهات والتصورات المسبقة المستقرة في التطبع الخاص بالباحث. وأن يمتلك الباحث رؤية نقدية خالصة تجاه موضوع البحث. وتبدأ عملية السيطرة بالقدرة على اختيار الموضوع، وتحديد المفاهيم، والوعي بالشروط الإيستمولوجية اللازمة لإنجاز البحث بالإضافة إلى الشروط الاجتماعية اللازمة لذلك.

ويحذر "بورديو" الباحثين من الالتحام بموضوع بحثهم إلى درجة أن يقعوا في شرك المجاملة التي ينتظرها الجمهور، ويذهب إلى أن الباحث متى قبل باختيار وتحديد موضوعه وفقاً لطلب الجمهور، أو إرضاء له فإنه ينصب نفسه نبياً.

¹ ببير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص. ص 28، 29.

وقد نبه "بورديو" إلى خطر عدوى المعرفة الاجتماعية العفوية، المترجمة في التطبع التاريخي للباحث عن طريق القيم والاتجاهات والتصوّرات المسبقة. وشدّد على أن الوعي العلمي يبدأ من نقطة عزل الذات التاريخية عن موضوع البحث، ولا بد من أن يمارس العالم هذا الوعي أو يكتسبه عن طريق: بذل المزيد من التنبه المنهجي كسلاح لتفادي الإصابة بهذه العدوى.

وثانياً: على الباحث أن يكون واعياً بموقع السوسيولوجيا وعلاقتها بمختلف المجالات، لأن السوسيولوجيا هي في النهاية منتج رمزي خاص، يتوسط المنتجات العلمية الخالصة، والمنتجات السياسية، أو بمعنى آخر السوسيولوجيا بحكم طبيعتها تمثل موقفاً متوسطاً بين مجال العلم الخالص (العلوم الطبيعية). والمجال السياسي.

ثالثاً: بالقدرة الدائمة على اختبار وفحص الشروط الإبستمولوجية والاجتماعية اللازمة للتحوّل نحو الموضوعية العلمية في ممارسة البحث. وبناء على ذلك، فإن الممارسة الانعكاسية هي في النهاية: إستراتيجية الباحث، يقترب منها كلما اقترب من ممارسة خطواتها، فالاقتراب من الانعكاسية يعني تحرّر الباحث من التطبع التاريخي. وتفعيل التطبع العلمي (لحظة الاختيار)، والوعي بعلاقات مجال السوسيولوجيا بباقي المجالات (معرفة الممكن)، والتوصل إلى الموضوعية العلمية (التحقق).

المبحث الثاني: الأنساق الرمزية والسيطرة على مستوى التمثلات

إن الدراسات التي قام بها "بيار بورديو" نقود، دون لبس، إلى إبراز التقسيم الاجتماعي إلى طبقات. فالأبحاث التي أجريت حول ممارسات الطلاب ومعارفهم الثقافية، كما حول ارتياد المتاحف أو حول المدارس الكبرى، أظهرت أن توزع هذه الممارسات يختلف كثيراً نظراً للأصل والانتماء الطبقي.

إن النقلة الأكثر وضوحاً، والتي بالطبع تستبعد وصف هذه التحاليل "بالماركسية"، تكمن في الأهمية المعطاة لعلاقات المعاني وللمنافع الرمزية والسيطرة ضمن العلاقات الطبقيّة... يدل هذا بوضوح على القطيعة التي تتم هنا بين التعريف الماركسي للطبقات المتميّز بتصور سوسيو-اقتصادي وهذا التصور الذي سوف يعلي شأن العلاقات وعلاقات السيطرة الرمزية، وفقاً لمحض اهتمام يمكن أن ندرجه في خط "ماكس فيبر"¹.

أظهرت الأبحاث التي أنجزها "بورديو" كم هي متغيرة أنماط الاستهلاك الثقافي وفق الطبقات الاجتماعية، وكم تتبدل نظراً لمستويات التربية والرساميل الاقتصادية والثقافية. فالأبحاث حول عمليات ارتياد المتاحف بيّنت، مثلاً، أن المتاحف لا يرتادها، بالدرجة الأولى، رغم سهولة الارتياح، سوى الحائزين على رأسمال ثقافي عالٍ.

يمكن أن نشير إلى أن الاهتمام الخاص الذي تناول كل ما يتعلّق بالأنساق الرمزية، هو اهتمام معاصر ترافق مع الانتشار الكثيف لوسائل الاتصالات، ووسائل الإعلام ونشر المعارف، وبالتالي ترافق مع المفاعيل المتعددة لنشر الرسائل والدلالات².

وإن الأهمية المركزية المعطاة للممارسات الرمزية تستجيب لبديهيات أساسية، نجدها في كل أعمال "بورديو".

البديهية الأولى: إن العلاقات الطبقيّة ليست فقط علاقات اقتصادية بل هي معاً علاقات قوة وعلاقات معاني.

بيار أنصار، المرجع السابق، ص 26.¹

² المرجع نفسه، ص 161.

والبديهية الثانية: هي صعوبة الوعي الذي يمكن أن يتخذّه الأعوان الاجتماعيون عن دلالات ممارساتهم. وتدفع البنية التطبيقية كل واحد إلى إدراك المدى الاجتماعي انطلاقاً من موقعه، وانطلاقاً من وجهة نظره؛ وهذا ما يحدوه إلى اتخاذ نظرة محدودة ومشوهة عن العلاقات الاجتماعية. عندما يصبح من المفيد طرح مسألة "عدم الوعي" التي هي في صلب علم الاجتماع والتي تطرح كمسألة التعيين غير الواعي للتصرفات والتعبير¹.

تنتج الثقافة السائدة مفعولها الإيديولوجي بتغليف وظيفة التقسيم وإخفائها تحت قناع وظيفة التواصل، فالثقافة الموحدة وسيلة التواصل هي ذاتها الثقافة الفاصلة المقسمة أي أداة التمايز التي تبرز الفوارق بإرغامها مختلف الثقافات، التي تعتبر ثقافات دنيا، أن تتحدد بمدى ابتعادها عن الثقافة السائدة².

يعرف "بورديو" الإيديولوجية بأنها مجموعة من التمثيلات المشوهة عن العلاقات الاجتماعية، تنتجها فئة أو طبقة لتحقيق من خلالها مشروعية صريحة لممارستها. إذن تمد الإيديولوجية الناس بعلاقة تشجع بها الممارسات اللازمة لإعادة الإنتاج الاجتماعي، فالإيديولوجية تليّن الناس وتدفعهم لجعل ممارساتهم الاجتماعية ممارسات مشروعية تجاه الفئات أو الطبقات الأخرى. وبما أن العلاقة الواعية بالممارسة هي بعد هام من الممارسة الاجتماعية، تصبح البناءات الإيديولوجية هامة والمجابهاات الإيديولوجية مجابهاات حقيقية تساهم في معركة تثبيت المشروعية³.

إن المنظومات الرمزية، بما هي أدوات تواصل ومعرفة تشكل بنيات تخضع العالم لبنيات، تؤدي وظيفتها السياسية من حيث هي أدوات لفرض السيادة وإعطائها صفة المشروعية التي تساهم في ضمان هيمنة طبقة على أخرى (العنف الرمزي)، وذلك عندما تفدُ لنجدتها وتطعم علاقات القوة والغلبة. والسلطة الرمزية هي سلطة لا مرئية ولا يمكن أن تمارس إلا بتواطؤ أولئك الذين يابون الاعتراف بأنهم يخضعون لها بل ويمارسونها.

¹ بيار أنصار، المرجع السابق، ص. ص 162، 163.

² بيبير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص 50.

³ بيار أنصار، المرجع السابق، ص. ص 170، 171.

نظراً لعدم إمكانية توضيح البرنامج البحثي بصورة ملموسة عن طريق وصف معمق لحالة محددة في الحقل الأدبي، أشار "بورديو" مخاطراً بأن يكون تبسيطياً أو قطعياً، إلى بعض الملامح العامة للحقل الأدبي كما ظهر في فرنسا في سنوات 1880، أي في اللحظة التي بدأت تتأسس فيها بنية هذا الحقل كما نعرفها اليوم. فالتناقض بين الفن والمال الذي يشكل بنية حقل السلطة يعاد إنتاجه داخل الحقل الأدبي، ويأخذ شكل التناقض بين الفن "الصافي" هو رمزياً سائد لكنه اقتصادياً مسود - الشعر وهو التجسيد النموذجي للفن "الصافي" يباع بصعوبة - والفن التجاري في صيغته: مسرح الشارع الذي يجني عوائد كبيرة ويحظى بتقدير البرجوازية (الأكاديمية)، والفن الصناعي من تفكّه وروايات شعبية (مسلسلات) وصحافة وكباريات¹.

هكذا تتولد بنية موضحة، تتماثل مع بنية حقل السلطة. يتعارض فيها، المثقفون الأغنياء في رأس المال الثقافي والفقراء (نسبياً) في رأس المال الاقتصادي، مع أرباب الصناعة والتجارة، الأغنياء في رأس المال الاقتصادي والفقراء (نسبياً) في رأس المال الثقافي. فمن جهة هناك الاستقلال الأقصى عن الطلب في السوق، وفي الجانب الآخر الاعتماد المباشر، المكافئ بالنجاح الفوري، على الطلب البرجوازي في حالة المسرح، والطلب البرجوازي الصغير بل والشعبي في حالة التفكّه والرواية-المسلسلة. يكون لدينا عندئذ كل الخصائص المعروفة للتعارض بين حقلين فرعيين، أحدهما إنتاجه ضيق وله سوقه الخاص، والآخر للإنتاج الكبير².

هكذا يكون لدينا مجال ذو بعدين وصيغتين من الصراع ومن التاريخ: من جانب الصراعات بين الفنانين الفاعلين في المجالين الفرعيين "الصافي" و"التجاري" حول تعريف الكاتب وكذلك شخصية الفن والفنان (هذه الصراعات بين الكاتب أو الفنان "الصافي" الذي ليس له "زبائن" سوى منافسيه والذي ينتظر منهم الاعتراف به والكاتب أو الفنان "البرجوازي" الساعي للشهرة الاجتماعية وللنجاحات التجارية، هي أحد الأشكال الرئيسية للصراع من أجل فرض مبدأ سائد للسيادة الذي يقابل، داخل مجال السلطة، المثقفين والبرجوازيين معبراً عنهم

¹ بيير بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص. 85، 86.

² المرجع نفسه، ص. 86.

بواسطة المثقفين البرجوازيين. وفي الجانب الآخر، في القطب الأكثر استقلالاً، أي في المجال الفرعي للإنتاج المحدود، هناك الصراعات بين الطليعة المكسرة والطليعة الجديدة.

إن ما يصنع تاريخ الحقل هو الصراع بين المتحكمين والطامعين، بين حملة المنصب أو اللقب (كتاب، فلاسفة، علماء، الخ.) ومبارزيهم: فدخلوا الكتاب والمدارس والأعمال في مرحلة الشيخوخة هو نتاج صراع بين أولئك الذين مضى عليهم الزمن وبين الذين يكافحون في سبيل الاستمرار، وهؤلاء الذين لا يستطيعون بدورهم أن يدخلوا لدائرة الضوء دون أن يطردوا للماضي كل الذين لديهم مصلحة في تأييد الحاضر ووقف عجلة التاريخ¹. يشير "بورديو" إلى التطابق المدهش بين تراتبية المواقع (أنواعها وداخل هذه الأنواع أساليبها) وبين تراتبية الأصول الاجتماعية وبالتالي تراتبية الاستعدادات المرتبطة بهذه الأصول. فعلى سبيل المثال فإن الرواية الشعبية هي في أكثر الأحيان متروكة للكتاب المنحدرين من طبقات كادحة والأقلام النسائية².

ينبغي هنا إدخال كل ما يلامس الرمزي والمصلحة الرمزية والريح الرمزي... والرأسمال الرمزي هو كل نوع من أنواع الرأسمال (الاقتصادي، الثقافي، التعليمي أو الاجتماعي) عندما يكون مدركاً طبق مقولات الإدراك ومبادئ الرؤية والانقسام، وأنظمة الترتيب، وقواعد التصنيف والمعارف وكل ذلك، في جزء منه على الأقل، نتاج اندماج البنيات الموضوعية للحقل المعين، أي بنية توزيع الرأسمال في الحقل المعين. إن الرأسمال الرمزي الذي يجعل أحدهم ينحني أمام لويس الرابع عشر أو تبجيله ويجعله هو مصدراً للأوامر، وأوامره تطاع بالعزل أو تخفيض الرتبة أو الترقية... الخ. هذا الرأسمال لا يوجد بغير وجود كل الفروق الصغيرة مثل علامات الامتياز الدقيقة في المراتب والصفوف وفي الممارسة والثياب (حياة البلاط) كل ذلك يدركه أناس يعرفون ويقرون عملياً مبدأ الاختلاف (لأنه تلبسهم) و(التمييز) الذي يسمح لهم بإقرار كل الاختلافات ومنحها قيمة عالية. فهم

¹ بيير بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص 89.

² المرجع نفسه، ص. ص 92، 93.

بكلمة مستعدون للموت من أجل مسألة القبعات. إن الرأسمال الرمزي هو رأسمال ذو قاعدة معرفية يقوم على المعرفة والإقرار¹.

يعدّ كل فعل كلامي نتاج اللقاء بين تطبّع لغوي، أي مجموعة من الاستعدادات المشكلة اجتماعياً، يقتضي ميلاً نحو التكلم بكيفية معينة ونحو صوغ بعض الأشياء (اهتمام تعبيرية)، ويقتضي في الوقت نفسه كفاءة للتكلم محددة بشكل غير منفصل كاستعداد لغوي لتوليد عدد غير نهائي من الخطابات يكون متسقاً نحويّاً وكقدرة اجتماعية على استعمال تلك الكفاءة بشكل مناسب في موقع معيّن، ومن جهة أخرى، بين سوق لغوية، أي نسق من علاقات القوى الرمزية التي تفرض نفسها من خلال نسق من أشكال الجزاء وأنماط الرقابة المخصصة والتي تساهم من ثم في طبع النتائج اللغوية محددة "سعر" المنتجات اللغوية. والاستباق العملي للسعر الذي سيحصل عليه الخطاب يسهم في تحديد شكل ومضمون هذا الخطاب الذي سيكون أشد أو أقل تقييداً، أشد أو أقل رقابة، وقد يصل أحياناً إلى حد البطلان، كما هو الحال في صمت الإزعاج. وكلما كانت السوق رسمية أو "مقيدة" أي كلما كانت قريبة من معايير اللغة المسيطرة (يمكن لنا أن نفكر مثلاً في احتفالات السياسة الرسمية: ت دشينات، خطابات، ندوات عمومية)، كلما كانت الرقابة كبيرة وكانت السوق واقعة تحت هيمنة المسيطرين، مالكي الكفاءة اللغوية المشروعة².

وتتكشف تفاوتات الكفاءة اللغوية دائماً في سوق التفاعلات اليومية، أي أثناء تجاذب أطراف الحديث بين شخصين، في اجتماع عمومي، في حلقة دراسية، وفي المذايع أو في التلفزة... وثمة احتكارات في سوق الخيرات اللغوية كما في سوق الخيرات الاقتصادية. وربما يُرى الأمر أكثر في السياسة حيث يمتلك الناطقون باسم جهة احتكار التعبير السياسي المشروع عن إرادة جمع ما ويتحدثون ليس فقط لصالح أولئك الذين يمثلونهم وإنما أيضاً وفي الغالب جداً بدلاً منهم³.

¹ بيير بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص. ص 187، 188.

² بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص 105.

³ المرجع نفسه، ص 106.

ولكن أن يُحاول فهم سلطة التعابير اللغوية فهما لسانياً، أي أن يحاول إيجاد مبدأً فعالية اللغة في اللغة (ذاتها)، فهو أن يُنسى أن السلطة تأتي إلى اللغة من الخارج. إن فعالية اللغة لا تكمن في "تعابير تكلمية" أو في الخطاب نفسه كما يشير إلى ذلك "أوستين"، لأنها ليست شيئاً آخر سوى السلطة المفوضة من قبل المؤسسة. فالسلطة الرمزية، لا تكمن في "الأنساق الرمزية" على شكل "قوة تكلمية"، إنها تتم بالعلاقة المحددة التي تنشئ الاعتقاد في مشروعية الكلمات والأشخاص الذين يلفظونها وتنشط فقط في المدى الذي يعترف الذين تمارس عليهم بالذين يمارسونها (وهذا مرئي بوضوح في الاضمحلال المفاجئ لقوة اللغات الدينية الذي يصاحب انهيار عالم العلاقات الاجتماعية الذي يكونه)¹.

من أجل استخلاص منطق السيطرة الذكورية التي تبدو الشكل النموذجي من الرمزي، فقد اختار "بورديو" تأسيس تحليل على بحوث في الدراسة الوصفية لقبائل الجزائر وكان هذا لسببين فأولاً، أراد تفادي التأمل الفارغ للخطابات النظرية والتصورات المبتذلة عن الجنس والسلطة التي ساهمت في تضبيب النقاش أكثر من توضيحه. وثانياً، رجع إلى تلك الطريقة لكي يحيط بالصعوبة النقدية التي يثيرها تحليل السيطرة الجنسية: إذ أننا في هذه الحالة بإزاء مؤسسة سُجلت على امتداد آلاف السنين في موضوعية البنيات الاجتماعية وفي ذاتية البنيات الذهنية، على النحو الذي أمدّ التحليل بكل الحظوظ ليستعمل كوسائل للمعرفة مقولات للإدراك أو للتفكير يلزمه أن يتناولها على أنها موضوعات المعرفة. ذلك المجتمع الجبلي بشمال إفريقيا مهم بشكل خاص لأنه خزان ثقافي حقيقي أبقى على قيد الحياة - من خلال ممارسته الطقوسية، عبر شعره وتقاليد الشفوية- نسقاً من التمثلات، أو على نحو أحسن، نسقاً من مبادئ النظر والتقسيم المشتركة بين الحضارة المتوسطة بكاملها والتي بقيت حية إلى يومنا هذا في بنياتنا الذهنية، وفي جزء منها، في بنياتنا الاجتماعية. هكذا تناول حالة القبائل باعتبارها نوعاً من "الصورة المكبرة" التي نستطيع أن نتبين فيها بسهولة كبرى البنيات الأساسية للنظرة الذكورية إلى العالم: فتمثل الكون المتعلق بالاستعلاء النرجسي الذكوري"، والذي يعطوننا تجلياً عمومياً وجمعياً عنه، يستحوذ على اللاواعي فينا².

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص 108.

² المرجع نفسه، ص. ص 127، 128.

إن تلك القراءة توضح، قبل كل شيء، أن النظام الذكوري أعمق تجذراً. مما يجعله في غنى عن التبرير، إنه يفرض ذاته هو نفسه على أنه بديهي، كلي (الرجل، الذكر، هو هذا الكائن الخاص الذي يشعر في قرارة نفسه بأنه هو ذاته كلي، الذي بيده احتكار الكائن البشري). ويتجه لأن يكون مقبولاً على أنه بديهي بالنسبة إلى الاتفاق شبه الكامل والمباشر الذي يقوم من جهة بين البنيات الاجتماعية كما تعبر عن نفسها في التنظيم الاجتماعي للمكان وللزمان وفي التقسيم الجنسي للعمل، ومن جهة أخرى، البنيات التعريفية المسجلة في الأجساد، أي في العقول، ذلك أن المسودين، أي النساء، يطبقون على كل شيء من العالم الطبيعي والاجتماعي وبالخصوص على علاقة السيطرة التي يكونون مأخوذين فيها، وكذلك على الأشخاص الذين تحقق من خلالهم تلك العلاقة، أخاطيط للتذكير غير مفكر فيها هي نتاج تقمص علاقة السلطة تلك بالضبط على صورة أزواج من الكلمات (فوق/ تحت، كبير/صغير، خارج/داخل، مستقيم/معوج، الخ) وهي التي تقودهم نحو بناء تلك العلاقة من وجهة نظر المسيطرين، أي كأنها طبيعية.

وتبين حالة السيطرة الذكورية أحسن من أية حالة أخرى أن العنف الرمزي يتم من خلال فعل للمعرفة والتجاهل يقع خارج أنواع ضبط الوعي والإرادة، في ظلمات أخاطيط التطبع التي تكون مجنّسة ومجنّسة. ويوحى ذلك بأننا لا نستطيع أن نفهم بشكل مناسب العنف الرمزي دون أن نستبعد التعارض بين الإكراه والموافقة، الفرض الخارجي والرغبة الداخلية. (بعد قرنين من الأفلاطونية المبنوثة، يصعب التفكير في أن الجسد يمكن له أن "يفكر في نفسه" بمنطق غير منطق التفكير النظري). بهذا المعنى، نستطيع القول بأن السيطرة الذكورية تتمثل فيما نسميه الإكراه بواسطة الجسد. وعمل التنشئة الاجتماعية يتجه إلى تنفيذ صوغ جسدي متدرج لعلاقات السيطرة الذكورية من خلال عملية مزدوجة: فأولاً بواسطة البناء الاجتماعي لنظرة الجنس البيولوجي التي تقيد هي ذاتها بصفاتها أساساً لكل النظرات الأسطورية إلى العالم؛ وثانياً من خلال ترسيخ لياقة جسدية تكوّن سياسة متقمصّة حقيقية. وبكلمات أخرى، فإن التبرير الاجتماعي للذكورة يدين بفعاليتها الخاصة لكونه يشرعن

علاقة السيطرة مسجلاً إياها في (كيان) بيولوجي هو نفسه بناء اجتماعي ذو صبغة بيولوجية¹.

هذا العمل المزدوج للترسيخ الذي هو في آن واحد مميّز جنسياً ومميّز جنسياً، يفرض على الرجال والنساء مجموعات مختلفة من الاستعدادات تجاه الألعاب الاجتماعية التي تعتبر أساسية، كألعاب الشرف والحرب (المصنوعة جيداً من أجل تيسير استعراض الذكورة، الرجولة) أو كما في المجتمعات المتقدمة، كل الألعاب الأكثر قيمة كالسياسة، الأعمال، العلم، الخ. فمن خلال تذكير الأجساد الذكورية وتأنيث الأجساد الأنثوية يتم الصوغ الجسدي للاعتباط الثقافي، أي يتم القيام ببناء مستديم للاوعي².

هكذا، فإن السيطرة الذكورية مؤسسة على منطق اقتصاد التبادلات الرمزية، أي على عدم التناظر بين الرجال والنساء المرسخ في البناء الاجتماعي للقرابة والزواج، في بناء الذات والموضوع، وفي بناء الفاعل والوسيلة. وإن الاستقلال النسبي لاقتصاد الخيرات الرمزية هو الذي يفسر كون السيطرة الذكورية تستطيع أن تدوم على الرغم من التحولات في نمط الإنتاج. ويترتب على ذلك أنه لا يمكن انتظار تحرير حقيقي للنساء إلا من فعل جماعي يسعى لأن يفسخ عملياً الاتفاق المباشر بين البنات المتقصة والبنات الموضوعية، أي من ثورة رمزية قادرة على أن تسائل أسس إنتاج وإعادة إنتاج الرأسمال الرمزي وبالخصوص جدل الادعاء والتمييز الذي هو في جذر إنتاج واستهلاك الخيرات الثقافية كدليل على التمييز³.

إن جميع الجهود التي بذلت لترى في المنطق اللغوي، الذي يتحكم في مختلف الأشكال الاستدلالية والبلاغية والأسلوبية، سبب الفعالية الرمزية لتلك الأشكال، لا بد وأن تبوء بالفشل ما دامت لا تقيم علاقة بين خصائص الخطاب وصفات من يلقيه وسمات المؤسسة التي تسند إليه أمر الإلقاء⁴.

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص. ص 128، 129.

² المرجع نفسه، ص 129.

³ المرجع نفسه، ص 130.

⁴ المرجع نفسه، ص 60.

وفي الحقيقة، تكمن خصوصية الخطاب السلطوي، (كدرس الأستاذ، وخطبة الواعظ...) في أنه لا يكفي بأن يكون مفهوماً مستوعباً (بل إنه يمكن ألا يكون كذلك في بعض الأحوال دون أن يفقد نفوذه) وهو لا يفعل فعله الخاص إلا شريطة أن يعترف به كخطاب نفوذ وسلطان. وهذا الاعتراف - الذي قد يصاحب بالفهم أولاً - لا يتم ببسر وسهولة إلا بشروط خاصة، وهي التي تحدد الاستعمال المشروع: فالخطاب ينبغي أن يصدر عن الشخص الذي سمح له بأن يلقيه. أي عن هذا الذي عرف، واعترف له، بأنه أهل لأن ينتج فئة معينة من الخطابات وأنه كفاء جدير بذلك (كالقس والأستاذ والشاعر...)، كما ينبغي أن يلقي في مقام مشروع، أي أمام المتلقي الشرعي (فلا يمكننا -مثلاً- أن نلقي قصيدة سريلية أمام مجلس حكومي)، وأخيراً ينبغي للخطاب أن يتخذ الصورة الشرعية القانونية (أي أن يخضع لقوانين النحو والصرف...). وهكذا فإن ما يمكن أن نطلق عليه شروط طقوسية، أي مجموع القواعد التي تتحكم في شكل المظهر العمومي للسلطة ومراسيم الاحتفالات والقواعد التي تضبط الأعمال والتنظيم الرسمي للطقوس، لا يشكل إلا شرطاً واحداً أكثر تجلياً من بين مجموعة من الشروط التي أهمها تلك التي تهيئ للاعتراف أن يكون، في ذات الوقت، تجاهلاً وإيماناً أي التي تهيئ لتسليم سلطة تعطي الخطاب المشروع قوته وتؤمن بنفوذه.

يكفي أن نشير إلى اللغة السلطوية ليست إلا الحد النهائي للسان المشروع، الذي لا يستمد سلطته من مجموع تغيرات النطق وكيفيات التلفظ التي تحدد النطق ("اللهجة") كما تقول النزعة العنصرية الطبقية، ولا من تعقيد تراكيبه الصرفية وغناه اللفظي، أي من خصائص تتعلق بالخطاب ذاته، وإنما من الشروط الاجتماعية لإنتاج وإعادة إنتاج المعرفة بذلك اللسان المشروع والعمل على الاعتراف به داخل الطبقات الاجتماعية¹.

¹ بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص 61.

المبحث الثالث: علم الاجتماع ونظرية الممارسة

ليست النظرية نوعاً من الخطاب النبوي أو البرنامجي، المتولد من تشريح للنظريات أو خليط لها. إن النظرية العلمية كما تصورها "بورديو" تبدو برنامجاً للإدراك والفعل، إنه تطبع علمي، تتكشف فقط في العمل التجريبي الذي توجهه. وبالتالي، فإن لدينا الكثير مما نريه بمواجهة موضوعات جديدة بدلاً من الدخول في مجالات نظرية لا تعمل سوى على تغذية خطاب مستديم عن الخطاب، متوالد ذاتياً وفارغ في الغالب الأعم بخصوص المفاهيم المتناولة بصفتها طواطم فكرية¹.

وبالمثل فإن التاريخ الاجتماعي للحركة العمالية - ولعلاقتها مع المنظرين لها سواء من الداخل أو من الخارج - هو الكفيل بأن يسمح لنا بإدراك لماذا لم يجعل دعاة الماركسية فكر "ماركس"، وخصوصاً التوظيف الاجتماعي لذلك الفكر، موضوعاً لسوسيولوجيا المعرفة، تلك السوسيولوجيا التي كان "ماركس" واحداً من روادها: وبالرغم من ذلك فدون أن ننتظر من هذا النقد التاريخي والسوسيولوجي أن يوقف مد التوظيف اللاهوتي و"الثوري" لكتابات "ماركس"، باستطاعتنا على الأقل أن نتوخى منه أن يهيب بأكثرهم وعياً وحرصاً أن يستيقظوا من سباتهم الدوغماتي كي يخضعوا للدرس والفحص نظريات ومفاهيم أضفى عليها سحر التفسير والشروح، التي ما فتئت تتكرر، طابع الخلود².

أن يتم تناول النظرية على أنها كيفية عملية ترشد وتُبين عملياً الممارسة العلمية، فهذا يقتضي بداهة أن يُتخلى عن الاستعداد للخدمة التبجيلي نوعاً ما، الذي يقيمه ذوو النزعة النظرية المبالغ فيها تجاهها. لهذا، لم يحتج "بورديو" قط لأن يعيد رسم نسبة المفاهيم التي نحتها أو نشطها، مثل مفاهيم التطبع، الحقل أو الرأسمال الرمزي. وإنها بطبيعة الحال غير منحدره من ولادة نظرية محضة تخشى على البكارة. فتلك المفاهيم لا تريح كثيراً من أن تكون قد أعيدت موقعتها بالنسبة إلى استعمالاتها السابقة. إن بناءها واستعمالها متولدان من صعوبات عملية لمحاولة البحث. ووظيفة المفاهيم هي أولاً وقبل كل شيء أن تُعيّن، على

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص. 118، 119.

² بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص. 9.

نحو من الكتابة المختصرة للإملاء، اتخاذ موقف نظري أي مبدأ للاختيار المنهجي، سلبى بقدر ما هو إيجابى. ويأتى التنسيق بالضرورة، فيما بعد، على أن تطفو تشابهات خصبة، وأن تُلَفَظ وتمتحن الخاصيات المفيدة في المفهوم¹.

قد اشترك "بورديو" مع "كانط"، في القول بأن البحث بغير نظرية أعمى وبأن النظرية بغير بحث فارغة. ومما يؤسف أن النموذج المسيطر اجتماعياً عن علم الاجتماع يقوم، اليوم أيضاً، على تمييز بائن وطلاق عملي بين البحث التجريبي بغير نظرية (العلوم التي هي بغير عالم والتي تمثل استطلاعات الرأي العام النموذج منها، وكذا في ذلك السخف العلمي الذي يسمى "علم المنهج") وبين النظرية بغير تجربة التي تكون لدى المنظرين الخالص. إن التعارض بين النظرية الخالصة للقارئ المعتكف على العبادة التأويلية لأعمال الآباء المؤسسين من جهة، وبين البحث التجريبي والدراسة المنهجية من جهة أخرى، يعد تعارضاً اجتماعياً بالكامل. إنه مسجل في البنيات المؤسسية والذهنية للمهنة المتعلقة بعلم الاجتماع، أي أنه متجذر في التوزيع الأكاديمي للثروات، للمناصب والكفاءات ولمدارس برمتها يمكن أن تؤسس تقريباً بصورة كاملة على منهج خاص.

إن ما يميز "بورديو" في مجال النظرية الاجتماعية هو انشغاله الدائم بالانعكاسية. فمن أبحاثه الأولى في الممارسات الزوجية بـ "بيرن Béarn"، القرية المنعزلة التي نشأ فيها وإلى ملاحظة الإنسان الأكاديمي الفرنسي، ما فتئ يعكس على نفسه أدوات العلم، مع أنه قام بذلك بطريقة ليست دائماً قابلة للإدراك مباشرة من قبل بعض قرائه. وإن تحليله للمتقنين، وكذا تحليله للغة بصفقتها وسيلة ورهاناً للسلطة الاجتماعية يستلزمان ويفترضان تحليلاً ذاتياً يقوم به عالم الاجتماع بصفته منتجاً ثقافياً، ويفترضان أيضاً تفكيراً في الشروط الاجتماعية والتاريخية لإمكان علم بالمجتمع².

ما دام الأعوان الاجتماعيون يتصرفون على أساس ذاتية تعد استخدخالاً للموضوعية، فإن كل ما يستطيعون إنما هو أن يظلوا "الفاعلين البارزين لأفعال تُعَدُّ البنية الفاعل المنجز

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص 119.

² المرجع نفسه، ص 28.

لها". وبالعكس، فإنهم كلما وعوا الاجتماعي في داخل ذواتهم مؤكدين لأنفسهم تحكماً انعكاسياً في مقولات الفكر والفعل لديهم، كلما قلّت حظوظهم في أن يكونوا متأثرين بالخارجية التي تقيم فيهم. ذلك أن التحليل الاجتماعي يستطيع، موضحاً اللاوعي الاجتماعي المسجل في المؤسسات وكذا في أعماقنا البعيدة، أن يقدم لنا وسيلة لتحرر من هذا اللاوعي الذي يقود ويفسر ممارساتنا.

إن التيقظ الانعكاسي يجب أن يمارس بقوة استثنائية ضد التمثلات التلقائية التي تسري في العالم الفكري، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بالثقافة، بالفن أو بالعلم، من دون الحديث عن الفلسفة، أي بالمواضيع التي يهتم بها المفكرون والعلماء مباشرة. وإن علم اجتماع الثقافة، الفن، العلم، الفلسفة، بإيجاز، علم اجتماع كل الأعمال الثقافية ذات الطموح الكلي هو الذي ينتمي إليه أمر القيام باطراح يُعدّ موجعاً دائماً، بالنسبة إلى من يقوم به كما بالنسبة إلى غيره¹.

تمثل الممارسة الاجتماعية الموضوع الرئيسي في سوسولوجيا "بورديو"، وتكتسب نظرية الممارسة أهميتها في العلوم الاجتماعية والإنسانية، بسبب قدرتها التفسيرية المتنوعة والملائمة لكافة طبيعة الظواهر الإنسانية المختلفة، فعن طريقها يمكن تفسير التباينات الاجتماعية والثقافية في آن واحد. كما يمكن تفسير ظواهر السياسة والاقتصاد والثقافة والدين والفن والعلم... الخ. دون أن تفقد النظرية مصداقيتها. وربما يكون ذلك هو سر تنوع اهتمامات "بورديو" البحثية المثيرة للإعجاب، فقد امسك بمنطق الممارسة، ووضع يده على مجموعة من الأدوات التفسيرية، إلى جانب امتلاكه لرؤية منهجية منفتحة، وهذه الأمور أدت مجتمعة إلى التنوع والثراء في مشروعه العلمي الكبير.

لقد حاول "بورديو" في نظرية الممارسة أن يقدم حلاً للفجوة بين النظرة الذاتية للعالم الاجتماعي، والنظرة الموضوعية، وانتهى إلى أن العلاقة بين الذاتي والموضوعي علاقة جدلية متداخلة ومتشابكة ومعقدة. وعلى عالم الاجتماع أن يكشف عن طبيعة هذه العلاقة، وكيف تتولد الممارسة تحت تأثير هذه العلاقة. وقد حاول "بورديو" توضيح ذلك

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص 59.

بتقريره أن الذات تتمثل الشروط الموضوعية ولذلك أنتج مفهوم "التطبع" وكيف تؤثر هذه الذات في تلك الشروط ، فأنتج مصطلح "الحقل"، بحيث تصبح الممارسة محصلة العلاقة الجدلية بين التطبع والحقل، أو هي ناتج التفاعل بينهما.

الممارسة الاجتماعية ليست مجرد فعل صادر في الزمن الحاضر، ولكنها فعل موجه من الماضي، أي فعل تاريخي. فالممارسة هي محصلة خبرات مكتسبة، تتضافر لتقييم الواقع المعيشي، وتحديد طبيعة الفعل الملائم في لحظة ما، لحظة الممارسة.

فالممارسة نشاط إنساني يقوم به عون اجتماعي (agent social) ، يمتلك القدرة على صنع الاختلاف، ولكنها ليست قدرة ذات متعالية، وإنما قدرة فاعل نشط مكافح. ولذلك، فإن العون الاجتماعي عند "بورديو" هو شخص محمل بخبرات متراكمة، رأسمال نوعي، يكتسبه خلال عملية التنشئة والتعليم، يولد لديه مجموعة من الاستعدادات تمكنه من ممارسة الأفعال المختلفة في إطار بنية محددة، وبشكل تلقائي ولاإرادي في معظم الأحيان.

ما أضافه "بورديو" هنا، هو جعل العلاقة الجدلية بين الاستعدادات الذاتية والشروط الموضوعية، ممكنة التصور والتحقق على أرض الواقع. فالفرد ينشط في إطار حقل من الحقول الاجتماعية، ولا ينشط في إطار بناء اجتماعي كلي، وتتحدد قدرة الأفراد على حيازة المكانة داخل هذه الحقول المتنوعة بمجموعة الخبرات والاستعدادات التي يتضمنها تطبع هؤلاء الأفراد.

نعود لمفهوم التطبع باعتباره: "نسق الاستعدادات المكتسبة وتصورات الإدراك والتقويم والفعل التي طبعها المحيط في لحظة محددة وموقع خاص". هو إذن موجه لسلوكات الفرد اعتمادا على مرجعية معينة تقع في البنية الذهنية وبالتحديد فيما يسمى في علم النفس بالأنا الأعلى، أي الذي يتحكم بإجمالي الممارسات والسلوكات الناتجة عن الفرد بشكل لا شعوري. لذا يعتبر "الهابيتوس" من جانب آخر منتج الممارسات وأصل الإدراكات وعمليات التقويم والأعمال أو مجموعة القواعد المولدة للممارسات. أما موقعه فهو يتوسط العلاقات الموضوعية والسلوكات الفردية، وهو في آن معا ناتج عن استيطان الشروط الموضوعية مثلما هو الشرط اللازم للممارسات الفردية. ولأنه كذلك وكل ذلك فهو يضيف الشرعية على

الترتيبات (الصراع الطبقي) والتمايز (العنف الرمزي والثقافي) دون حدوث أي صدام ظاهري بين الطبقات.

يرى "بورديو" أنه لا يمكن فهم اللغة بشكل كامل دون أن نموقع من جديد الممارسات اللغوية في المجال الكامل للممارسات التي يمكن أن تتكامل معها: العادات فيما يخص الأكل والشرب، الاستهلاك الثقافي، الأذواق فيما يتعلق بالفن، الرياضة، اللباس، التأثيث، السياسة، الخ. أي التطبّع الطبقي في كليته.

إن اللغة تقنية من تقنيات الجسد. والكفاءة اللغوية، وبالخصوص الصوتية، تعد أحد أبعاد اللياقة الجسدية، حيث تعبر عن العلاقة بالعالم الاجتماعي بكامله. فالكل يوحى مثلاً بأن الخطاظة الجسدية المميزة لطبقة اجتماعية تحدد نسق الملامح الصوتية التي تميز نطاقاً طبقياً عبر ما يسمى بـ "الأسلوب التلفظي". وهذا الأسلوب التلفظي جزء لا يتجزأ من أسلوب حياة متمص، صار جسداً، وقيم علاقة باستعمالات الجسد والزمن التي تحدد حصراً أسلوب الحياة ذاك¹.

إن أصل الفعالية التاريخية، سواء كانت فنية أو علمية أو سياسية أو كانت فعالية العامل أو الموظف البسيط، ليست ذاتا تواجه المجتمع كشيء خارج عنه، وهو لا يقوم لا في الوعي ولا في الأشياء، وإنما في العلاقة التي تربط حالتين من أحوال المجتمع، أي بين التاريخ الذي يسكن الأشياء في صورة ذلك النظام القار (التطبّع). فالجسم يوجد داخل الميدان الاجتماعي، والميدان الاجتماعي يكون أيضاً داخل الجسم، وإن حلول المجتمعي في الجسم الذي يحققه التعلم والترويض هو أساس الحضور في الميدان الاجتماعي، ذلك الحضور الذي تنظر إليه التجربة العادية والفعالية الناجحة كأمر عادي مفروغ منه².

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص. ص 108، 109.

² بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص. ص 21، 22.

المبحث الرابع: العالم الاجتماعي بين الحتمية والحرية

إن الأعمال التي كرسها "بورديو" لثقافة منطقة القبائل يمكن أن تعتبر مدخلاً لخلق إشكاليته المتعلقة بالممارسات الرمزية.

لقد شدت هذه الجماعة الزراعية انتباه المراقبين، لغنى مظاهرها الطقوسية (الأعياد، الاحتفالات، تبادل الهبات، الزيارات، اللياقات، والزواج) ولتعقد شفرات الشرف والأعمال الزراعية. إن تمثلاً موضوعياً محضاً وبنوياً للنسق الاجتماعي يشكل لحظة مفيدة من لحظات البحث، لكنه قد لا يسمح بفهم طريقة الاشتغال اليومي للنسق. كذلك قد يسمح تمثل ظاهراتي محض للطقوس بأن يعطينا وصفاً عن غناها، لكنه قد لا يسمح بتحليل الارتباطات بين التمثلات الذاتية للأعوان الاجتماعيين وعلاقاتها الموضوعية. ويخشى أن تعطى ذاتية اثنولوجية صورة غامضة عن عالم اجتماعي مسحور¹.

يشدد "بورديو" على أن فهماً صحيحاً للممارسات الاجتماعية يتطلب حركة مزدوجة تؤدي إلى أبعد من النزعة الموضوعية كما تؤدي إلى أبعد من النزعة الذاتية والتي تأخذ بعين الاعتبار، وبشكل واسع، الممارسات الطقوسية، والفئات الاجتماعية المدركة والعاملة والتي تشكل جزءاً من الموضوعية. فتبادل الهبات وأخلاقية الشرف لها فعاليتها الحقّة، وهي تشكل على هذا المستوى، جزءاً من الواقعية القبائلية. وتساهم إعادة إنتاج الأعياد والاحتفالات في تماسك الجماعة وهي لا تقل ضرورة في وجودها عن إعادة إنتاج أسسها الاقتصادية.

إن فلسفة العلوم التي أسماها "بورديو" علائقية *Relationnelle* بما أنها تعطي الأولوية للعلاقات، هي فلسفة كل العلوم الحديثة، على الرغم من أخذه آراء مؤلفين شديدي الاختلاف مثل "كاسيريه Cassirer" أو "باشلار Bachelard". فهذه الفلسفة نادراً ما وضعت موضع التطبيق في العلوم الاجتماعية، وذلك لأنها دون شك تتعارض بشكل مباشر مع التفكير العادي الرتيب (نصف العالم) في العالم الاجتماعي. هذا العالم الذي يُعنى إرادياً "بالحقائق" الجوهرية والأفراد والجماعات ... الخ أكثر من عنايته بالعلاقات الموضوعية التي

¹ بيار أنصار، المرجع السابق، ص. ص 163، 164.

لا يمكن أن نبرهنها أو أن نلمسها بإصبعنا وإنما تتطلب اقتحامها وبناءها وإثبات صلاحيتها عبر العمل العلمي¹.

ومن وجهة نظر "بيار بورديو" إن علم الاجتماع لا يراعي أبداً النرجسية ويقوم بعملية قطع جذري مع صورة المجاملة المغروسة في الوجود الإنساني، هذه الصورة التي يدافع عنها بأي ثمن من يعتقدون أنفسهم "كائنات لا غنى عنها مطلقاً"... وهو يرفض الحريات الوهمية التي يعتنقها الذين يرون في هذا الشكل من معرفة الذات "دركاً إلى الجحيم" ويرفعون بصورة دورية آخر راية ممسوخة متلائمة مع الذوق السائد في "علم اجتماع الحرية"، إلا أن التحليل الاجتماعي يقدم بعض الأدوات الأكثر فاعلية في بلوغ الحرية ومعرفة الحتميات الاجتماعية التي تسمح بالفوز ضد الحتميات².

إن تحليلاً واقعياً لأداء وظيفة حقول الإنتاج الثقافية، هو أبعد من أن يقود إلى نزعة نسبية ويدعو إلى تجاوز خيار العدمية المضادة للعقل والمضادة للعلم، ويحمل من أخلاقية الحوار العقلاني ما يجعله يقترح سياسة واقعية حقيقية للعقل، يعتقد "بورديو" بالفعل أنه لا يمكن أن ننتظر تقدم العقل إلا بعمل سياسي موجه عقلياً نحو الدفاع عن الشروط الاجتماعية التي، تسمح، بحرية العقل، وبتحريك دائم لكل منتجي الثقافة من أجل الدفاع عن القواعد المؤسساتية للنشاط الثقافي عبر تدخلات متواضعة مستمرة. إن أي مشروع لتطوير الروح الإنسانية، بنسيانه الجذور التاريخية للعقل، يعتمد فقط على قوة العقل وحدها وعلى الوعظ العقلاني في تقدم قضايا العقل، وإذا لم يناد بالصراع السياسي من أجل تسليح العقل والحرية بأدوات سياسية خاصة باعتبارها شرط تحقيقهما في التاريخ، يبقى أسيراً للوهم التعليمي³.

إن النزعة الآلية (المنظور الموضوعي البحث) والنزعة الغائية (المنظور الذاتي الصرف)، أي الضرورة النبوية والفعل الفردي ليست سوى تعارضات زائفة فكل عنصر من هذه المتضادات يدعم التضادات الأخرى وهي جميعها تساهم في تعميم الحقيقة الإنسانية

¹ بيير بورديو، أسباب عملية، المرجع السابق، ص15.

² المرجع نفسه، ص18.

³ المرجع نفسه، ص275.

للممارسة البشرية. ومن أجل تجاوز هذه الثنائيات، يحوّل "بورديو" الفرضيات العديدة "المقومة لدينك الأنموذجين المتضادين ظاهرياً، إلى لحظات في نوع من التحليل الذي يهدف إلى أن يمسك من جديد بواقع العالم الاجتماعي ذي الطبيعة المزدوجة. وعلم الممارسة الاجتماعية الذي ينتج عن هذا التحليل يجمع بين المقاربة البنائية والمقاربة الإنشائية.

إن الموضوع الخاص بعلم الاجتماع ليس هو الفرد، ذلك الكائن الحقيقي المتناول بسداجة على أنه واقع الوقائع من طرف كل "الفردانيين المنهجين"، ولا هو الجماعات من حيث هي مجموعات عيانية من الأفراد تتقاسم موقعا متشابها في الفضاء الاجتماعي، ولكنه العلاقة بين تحقّقين للفعل التاريخي، في الأجساد وفي الأشياء. إن موضوعه الحقيقي ليس شيئاً آخر غير العلاقة المزدوجة الغامضة بين بنية الاستعدادات المكتسبة، التي هي أنساق دائمة وقابلة للنقل من أخاطيط الإدراك، التقويم والفعل تنتج عن ترسيخ الاجتماعي في الأجساد (أو في الأفراد) وبين الحقول، التي هي أنساق من العلاقات الموضوعية تعد نتاجاً لترسيخ الاجتماعي في الأشياء وفي آليات تملك شبه الواقع الفيزيائي المميز للموضوعات، وبداهة، كل ما يبرز من تلك العلاقة، أي الممارسات والعلاقات الاجتماعية أو الحقول كما تتمثل على شكل واقعات مدركة ومقومة¹.

أن تصف وصفا علميا العلاقة التي تربط ذوي الفقر الثقافي بالثقافة العالمية، فإن من شأن ذلك أن يفهم كطريقة مأكرة لإبقاء الشعب تحت نير الجهالة، أو على العكس من ذلك، كوسيلة مقنعة لامتداح اللاتقافة وتقويض القيم الثقافية. فما قولك بالأحرى، في الحالات التي قد تبدو فيها محاولات التفسير والتعليل، وهي التي ينحصر فيها مجهود العلم، وسيلة لتبرير ورفع التهمة. فأمام استبعاد نظام العمل الحالي، وأمام بؤس مدن الصفيح وعنف مخيمات التعذيب تتخذ عبارة "هكذا هي الأمور" التي ينطق بها "هيجل" أمام الجبال، شكل تآمر إجرامي. عندما يتعلق الأمر بالميدان الاجتماعي، فلا شيء أكثر تحيزا من إصدار الأحكام النافذة حول الكائن، أي تلك التي تستند إلى سلطة التبيين والإقناع التي يخولها ما اعترف به

¹ بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص 91.

من قدرة على التنبؤ، لذا فقد تتولد عما يثبته العلم تأثيرات سياسية يمكن ألا تكون ما كان العالم ينشده¹.

إذا أرادت السوسولوجيا أن تتخلى عن مرمى الميثولوجيات، وتعزف عن محاولتها بأن تقيم على أساس معقول التقسيمات الاعباطية للنظام الاجتماعي، وبالأساس تقسيم العمل، عسى أن تجد حلاً منطقياً وكوسمولوجياً لمشكل توزيع البشر، ينبغي عليها أن تتكبد على دراسة الصراع من أجل احتكار الفهم المشروع للميدان الاجتماعي بدل أن تحشر نفسها في ذلك الصراع، ذلك الصراع الذي يشكل بعداً من أبعاد جميع أنواع الصراع بين الفئات سواء أكانت فئات مقسمة حسب السن أو الجنس أو كانت طبقات اجتماعية².

إن التفكير على هذا النحو في ميدان الصراع حول التصنيفات - وفي مكانة عالم الاجتماع داخل الميدان - لا يحط مطلقاً من قيمة العلم ولا يرمي به في مهاوي النسبية. صحيح أن عالم الاجتماع لن يعود، والحالة هذه، ذلك الحكم المنزه أو المتفرج المتعالي القادر وحده على أن يعين أين تكمن الحقيقة - والذي يكون على حق كما يقال عادة - مما يجعل الموضوعية مجرد توزيع عادل لدرجات الصواب والخطأ. إلا أنه سيكون ذلك الذي يسعى لأن يكشف حقيقة الصراعات التي تدور (من بين ما تدور حوله) حول الحقيقة، فمثلاً، عوض أن يحسم الجدل الذي يدور بين من يقول بوجود طبقة أو إقليم أو أمة. وبين من ينكر ذلك، فإنه سيعمل على بلورة المنطق النوعي الذي يتحكم في هذا الصراع وعلى تعيين حظوظ نجاح مختلف الأطراف بفضل تحليل علاقات القوى والآليات المتحكمة في تطورها.

إن عالم الاجتماع إذن يضع نموذجاً صادقاً من الصراعات التي تدور لفرض الفهم الصادق عن الواقع، تلك الصراعات التي تساهم في صنع الواقع كما يعطي نفسه للوصف... إن ما يقرره عالم الاجتماع، في وقت معين، فيما يتعلق بخصائص وآراء مختلف الطبقات الاجتماعية، وما يستخدمه من معايير للتصنيف والترتيب كي يثبت ما يثبته، إن

¹ بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص13.

² المرجع نفسه، ص10.

ذلك أيضا نتيجة لتاريخ الصراعات الرمزية التي دارت حول وجود الطبقات وتحديدها فساهمت مساهمة فعالة في صنع تلك الطبقات، وإن ما آلت إليه الآن تلك الصراعات السابقة يتوقف، في جزء لا يستهان به، على التأثير النظري الذي ولدته السوسيولوجيات السابقة وخصوصا تلك التي ساهمت في صنع الطبقة العاملة، والطبقات الأخرى في ذات الوقت، عندما جعلتها تعتقد بوجودها كبروليتاريا ثورية¹.

ارتأى "بيار بورديو"، ضرورة إعادة التفكير الجذري في سوسيولوجيا المثقفين، فذلك لأنه من الصعب على المثقف، نظراً لخطورة المصالح والأغراض في هذا الميدان، أن ينفلت من المنطق الذي يتحكم في الصراع الذي ينصب فيه كل طرف من نفسه عالم اجتماع يدرس خصومه، وإيديولوجيا يدافع عن نفسه، وذلك وفقاً لقوانين العماء والتبصر التي تتحكم في الصراعات الاجتماعية التي تدور حول الحقيقة. ومع ذلك فشريطة أن يدرك المثقف الأمور على ما هي عليه، بما يطبعها من إيقاعات وما ينظمها من قواعد، وما يتولد فيها من أغراض ومطامع وما يحقق من مصالح، كي يتمكن، في ذات الوقت، من التحرر منها عن طريق المسافة التي يخلقها الفهم النظري، ومن أن يكشف نفسه غارقاً فيها، محتلاً موقعاً معيناً، لآعباً أدواراً خاصة مدافعاً عن أغراض بعينها.

وهكذا فإن الموضوعية، مهما كانت ادعاءاتها العلمية، ستظل جزئية فرعية، وبالتالي خاطئة، إن بقيت جاهلة أو متجاهلة وجهة النظر التي تنطلق منها، أي إن لم تأخذ المجموع كله بعين الاعتبار. فمثل هذه الرؤية التي تنظر إلى المجموع كمجال لمواقف موضوعية يتحكم من بين عوامل أخرى، في النظرة التي ينظر بها كل محتل لموقع وموقف معين للمواقف الأخرى ولمحتليها. إن مثل هذه الرؤية ستمكننا من النظرة الموضوعية العلمية لمجموع المواقف الموضوعية القاصرة التي يتخذها الأعضاء أثناء صراعهم، كما ستسمح لنا بإدراكهم على ما هم عليه من استراتيجيات رمزية تسعى لأن تفرض الحقيقة الجزئية لجماعة معينة كما لو كانت حقيقة العلاقات الموضوعية بين مختلف الجماعات وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الرؤية ستمكننا من أن ندرك أن الخصوم المتآمرين، عندما يتجاهلون اللعبة التي

¹ بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص. 11، 12.

جعلتهم يتنافسون يخفون الأساس ويغفلون الجوهر، أي المصالح التي يجنونها من دخولهم في تلك اللعبة والتواطؤ الموضوعي الذي ينتج عن ذلك¹.

إن امتياز صالون يتوقف على صرامة رواده و"جودة" الأشخاص الذين يستقبلهم، تلك الجودة التي تقاس هي بدورها بـ "جودة" الصالونات التي تحتضنهم. إن ارتفاع بورصة القيم وانخفاضها هنا يقاسان بهذين المعيارين، بعالم من اللونيات الدقيقة، تتطلب عينا حريصة متنبهة في عالم يجد فيه كل شيء رتبته ومكانه، أي في عالم يكون فيه الكل مرتبا مصنفا كالأماكن التي ينبغي أن يرى فيها المرء على سبيل المثال، والمطاعم الفاخرة، والميادين الرياضية، والمحاضرات والمعارض والعروض التي ينبغي رؤيتها والمدن التي ينبغي زيارتها والباليات الروسية والأماكن الخاصة الموقوفة على بعض من الصالونات والنوادي، في هذا العالم تكون هناك ضرورة للتمكن من القدرة على التصنيف والترتيب (ذلك التصنيف الذي يلجأ حكام الأناقة بسرعة إلى سحبه من الموضة بمجرد أن يصبح سهل المنال) للاستفادة الجيدة منه وضمان الترفع عن المجموعات قليلة الاعتبار...

إن التمثل الذي يكون لدى الأفراد عن وضعهم في الفضاء الاجتماعي يتولد عن منظومة من رسوم الإدراك والتقدير (التطبع) التي تتولد بدورها عن وضعية معينة تحدها المكانة في توزيع الخيرات المادية والرأسمال الرمزي والتي تدخل في اعتبارها التمثلات التي تكون لدى الآخرين عن هذه الوضعية والتي يحدد تجمعها الرأسمال الرمزي وكذا المكانة في التوزيع وقد وجدت تعبيرها الرمزي في أسلوب العيش.

يذهب بورديو إلى أن الحقل الاجتماعي هو الفضاء الذي تتم فيه عمليات إنتاج وتوزيع واستهلاك واستثمار مختلف أشكال الموارد الرمزية والمادية، أو بمعنى آخر، الحقل هو "ميدان الصراع للتحكم في الموارد وتحقيق المصالح" صراع بين القادم الجديد الذي يحاول اختراق حدود الحقل لحيازة مركز أو منصب داخله. والعضو الاجتماعي المتمركز داخل الحقل الذي يحاول الدفاع عن احتكاره للمركز، ويحاول أن يبقى نفسه خارج دائرة

¹ ببير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص. 14، 15.

المنافسة، وعليه فلا يمكن فهم بنية الحقل إلا من خلال الكشف عن حالة علاقات القوة بين الأعوان الاجتماعيين في المؤسسات التي يضمها هذا الحقل في لحظة تاريخية محددة.

قام "بورديو" برحلة استكشافية احتجاجية في أروقة العولمة المتوحشة مبينا بؤس العالم وموظفا المعرفة الاستقصائية في خدمة المضطهدين بعيدا عن الاختصاص العميق ودون الاستتجاد بصفحات الكتب الجاهزة ومكتفيا بمحاورة البشر في ظروف حياتهم اليومية وقراءة ظروفهم المعيشية على ضوء التجربة التاريخية والمنعطفات الاجتماعية والسياسات المتبعة. لقد تظن "بورديو" إلى معاناة الناس من الكبت والحرمان وانتبه إلى العنف الرمزي والاستبعاد الاجتماعي والقسوة التي تعصف بالأجساد والى الدوار الذي يغمي الأرواح والوعي المغترب الذي يطمس جوهر الإنسان ويجعل من بؤس العالم مصدر بؤس للإنسان وسبب عجزه عن خلق عالم جيد.

ينطلق "بورديو" من الفكرة التثويرية الخاصة بأهمية العقل والعلم في إحداث التغيير، وقد أولى اهتماماً دائماً بقضية التعليم... وقد أكد بأن المسيطرين على الحقل العلمي يتجهون نحو اخذ النشاط العلمي في الاتجاه الذي يتناسب مع خبرتهم واهتماماتهم المعرفية، وبالتالي فإنهم يحدّدون ما هو صحيح، وما هو مشروع، داخل الحقل. كما إنهم يحدّدون شكل المنافسة داخل هذا الحقل. لأن البقية الراغبة في الحصول على مكانة داخل فضاء الصراعات الأكاديمية في عوز دائم لحملة العلم "المهيمنين"، على أن المخاطر التي يواجهها حملة العلم "المهيمنين" تدفعهم دائماً إلى الحفاظ على مسافة ثابتة بينهم وبين القادمين من الخلف. ويكون الحفاظ على المكانة استناداً إلى محاولة التجديد الدائم للنموذج.

ولكن هل الحقل العلمي يتمتع بالاستقلال والحرية الكافيين لإنتاج علم أصيل؟ هذه مسألة مهمة: ف "بورديو" يرى أن الحقل العلمي يكون أكثر استقلالية كلما كان الصعود فيه يتم على أساس امتلاك الرأسمال العلمي الصافي، بينما يكون الاستقلال أقل إذا كان الصعود فيه على أساس امتلاك الرأسمال البيروقراطي، وعندما يصبح الحقل العلمي في حالة تبعية سياسية أو اقتصادية، تكون المنافسة ناقصة، ويقحم الأعوان الاجتماعيون قوى غير علمية في الصراعات العلمية. وبالعكس، بقدر ما يكون الحقل العلمي مستقلاً يكون قريباً من

منافسة نقية ونبيلة. وتكون الرقابة علمية، وتستبعد تدخل قوى اجتماعية وضغوطات سياسية أو اقتصادية أو حتى طبقية.

الخاتمة

الخاتمة

انطلق "بيار بورديو" من أسس إبستمولوجية صلبة تتمثل في ضرورة تجاوز السوسيولوجيا العفوية المبنية على الحس المشترك الذي لا يستند إلى نظريات علمية ناضجة ولا إلى ملاحظات منظمة ومشاهدات منضبطة للعالم الاجتماعي، فما كان معروفاً عن "بورديو" أنه كان ضد التعامل الساذج مع الواقع الموضوعي، وضد الانصياع إلى إطار نظري واحد ووحيد، فهو يحذر من الاستلاب الذي تفرضه الثقة العمياء في نظرية من النظريات، ومن الأفضل عنده الاستفادة من التراث السوسيولوجي برمته بعد سبر أغواره ونقده وتمحيصه، وإعادة صياغته في لغة دقيقة وخطاب متناسق.

على عالم الاجتماع أن يقيم المسافة النقدية ليقف على الأفكار الجاهزة والأحكام المسبقة، ومن ثم يتحاشى المغالطات المعرفية التي تسكن اللغة العادية والخطاب اليومي، فالسوسيولوجيا باعتبارها علماً يعمل على اكتشاف كل أشكال الهيمنة وأنماط السيطرة، ويشغل المختصون فيه بكل قدراتهم الفكرية وكفاءتهم المنهجية من أجل تحقيق فهم صائب ورؤية عارفة لآليات التحكم في العقول وتشكيل القابلية للخضوع والخنوع خاصة على مستوى الإدراك والوعي.

فالطبقات الاجتماعية المرموقة حسب "بورديو" هي تلك الفئات الاجتماعية المحظوظة التي تجسد تميزها على مستوى الممارسات والأذواق، والتي تعمل جاهدة لفرض ثقافتها على أنها الثقافة الوحيدة الحاملة للشرعية الاجتماعية وفرض رؤيتها للعالم الاجتماعي على أنها الرؤية الفريدة والنادرة التي تمتلك مصداقية إرغام الآخرين على تقبلها كحقائق مطلقة ومعتقدات لا تشوبها شائبة ولا يكدرها مكر.

لا يخلو الحقل العلمي في نظر "بورديو" من منطق الصراع ولعبة المنافسة غير الشرعية، فهناك من الأكاديميين من يبحث عن الوجاهة والارتقاء والشهرة انطلاقاً من معايير مؤسساتية محضة ومقاييس بيروقراطية صرفة، فلا يهتم هؤلاء بالكفاءة العلمية ولا بالقدرة المعرفية ويعوّضون ذلك بالاجتهاد لاحتلال المناصب الإدارية السامية على حساب الاقتدار العلمي الصرف والموهبة البحثية الجريئة.

ومن المسلمات المحورية في فكر "بيار بورديو" أن استهلاك الثقافة، باعتبارها منتجات فنية راقية وسلع رمزية نادرة، يختلف من طبقة إلى أخرى ومن وسط اجتماعي إلى آخر، فقراءة الأدب المتميّز يتطلب التحكم في رأسمال لغوي ثري والتمكّن من قدرات معرفية لفك طلاسّم الإبداع الشعري والنثري. حتى زيارة المتاحف كممارسة تتطلب امتلاك استعدادات ثقافية لفهم الأسرار الرمزية للمعروضات الفنيّة المادية واللامادية.

ووظيفة المدرسة في تصوّر "بورديو" هي إعادة إنتاج التباينات الاجتماعية، ووفقاً للنظرية التي صاغها، فإن النجاح المدرسي الذي يحققه أبناء الأسر الميسورة والراقية مرجعه الرأسمال الثقافي الذي يمتلكه أولياء التلاميذ، إما على شكل طاقات علمية وقدرات معرفية أو مكتسبات فنية ملموسة وممتلكات ثقافية موضوعية، أو على هيئة شهادات مدرسية معترف بها. فلا يعقل أن نفسر التفوّق الدراسي استناداً إلى المهارات الفردية والذكاء الشخصي ونهمل دور الانتماء الاجتماعي في صياغة بنية الاستعدادات المكتسبة لدى التلاميذ وتطوير الملكات الفكرية لدى الطلبة وتجسيد التميّز اللغوي لدى الأبناء وترقية القدرات الثقافية بصفة عامة.

انتقد "بورديو" بشدة الفكر الاقتصادي الذي يوظف أدوات العلم لتبرير همجية الليبرالية، وباستعمال العقل الرياضي يدعم علماء الاقتصاد وحشية اقتصاد العولمة فيعطون تفسيرات حسابية لضرورة الإبقاء على نسب معينة من البطالة، والدفاع بضراوة عن عقود

التشغيل المؤقتة للحفاظ على يد عاملة رخيصة غير مكلفة. فالعلم بهذا المعنى يستخدم للسيطرة والاستغلال من قبل المؤسسات الضخمة المتعددة الجنسيات.

لا يفوتنا في هذا السياق الحديث عن اقتراح "بورديو" لمشروع سوسولوجيا المنقذين، باعتبار أنّ النخب المفكّرة، في فرنسا وفي العالم أجمع، قامت بدراسة كل المواضيع القابلة للبحث، عدا دراسة ذاتها كصفوة تخضع، بوعي أو دون وعي، للإكراه السياسي وللإجبار الاقتصادي، ويرتبط نشاطها الإبداعي وعطاؤها العلمي بموقعها في الفضاء الاجتماعي وبمكانتها في الحقل الأكاديمي.

وقد كان الهدف الأساسي لـ "بورديو" في دراسته للمنقذين هو تحريرهم من وهم الحرية الذي قيدهم، فهؤلاء توهموا، طيلة قرون عديدة وأزمة متفرقة، أنّهم فوق الشروط الاجتماعية والمحددات الثقافية، وخارج تأثير الآليات الاقتصادية والسياسية.

نختم هذه الأطروحة بفكرتين أساسيتين تلخصان التوجّه الإيستمولوجي في ميدان علم اجتماع المعرفة لدى "بيار بورديو"، وهما كالآتي:

1- لا وجود لأفكار خالصة معزولة عن الواقع الاجتماعي، فكل المذاهب السياسية والقانونية والدينية والاقتصادية وحتى العلمية تنتج وتبرز وتنمو وربما تتدنثر بفعل شروط مجتمعية. فالاختلاف في الآراء والمعتقدات والقناعات يرجع إلى الاختلاف في البيئات والأوساط الاجتماعية، رغم أنّ الطبقات الاجتماعية المهيمنة تفرض معارفها وكأنها الأنسب والأسمى.

2- يسعى عالم الاجتماع، وهو يجتهد لفهم الواقع الاجتماعي، إلى تطبيق ضوابط العلم على ذاته العارفة، لكي يتحرر أثناء القيام بالبحث من انتماءاته الطائفية والفئوية والإيديولوجية. فعليه أن يوضع ذاته العالمية ليخلصها من الجهل بالمحددات لا العلمية

للعلم، وأن يفكر في لا مفكر فيه ليتجنب السوسولوجيا العفوية، والفكر العامي، والاعتباطية
في التصوّر.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المراجع

قائمة المراجع باللغة العربية:

الكتب:

- 1- أ. ستيوارت (توماس)، ثروة المعرفة: رأس المال الفكري ومؤسسة القرن الحادي والعشرون، تر: علا أحمد إصلاح، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، 2000.
- 2- أ. شيللر (هربرت)، المتلاعبون بالعقول، عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1999.
- 3- إبراهيم عيد (محمد) وآخرون، بحوث في علم الاجتماع المعرفي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2009.
- 4- أبو شيخة نادر (أحمد) ، إدارة البحث العلمي في الوطن العربي، المنظمة العربية للعلوم الإدارية، عمان، 1986.
- 5- أبو النور (حمدي)، يورجين هابرماس، دار التنوير، بيروت، 2009.
- 6- ألتوسير (لوي) ، الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية، تر: رضا الزواري، النجاح الجديدة، دار البيضاء، 1989.
- 7- أنصار (بيار)، العلوم الاجتماعية المعاصرة، تر: نخلة فريفر، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992.
- 8- باشلار (غاستون)، تكوين العقل العلمي، تر: خليل أحمد خليل، الطبعة الثالثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1986.
- 9- بلقزيز (عبد الإله)، في البدء كانت الثقافة: نحو وعي عربي متجدد بالمسألة الثقافية، توبقال، دار البيضاء، 1998.
- 10- بن عبد العالي (عبد السلام) ويافوت (سالم): درس الإيستمولوجيا، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1988.

- 11- بوبر (كارل): عقم المذهب التاريخي: دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، تر: عبد الحميد صبره، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1959.
- 12- بوتومور (توم)، مدرسة فرانكفورت، تر: سعد هجرس، الطبعة الثانية، دار أويا، طرابلس، ليبيا، 2005.
- 13- بورديو (بيير)، أسئلة علم الاجتماع، في علم الاجتماع الانعكاسي، تر: عبد الجليل الكور، دار توبقال، الدار البيضاء، 1997.
- 14- بورديو (بيير)، أسباب عملية : إعادة النظر بالفلسفة، تر: أنور مغيث، دار الأزمنة الحديثة، بيروت، 1998.
- 15- بورديو (بيار) وباسرون (جان كلود)، إعادة الإنتاج : في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007.
- 16 - بورديو (بيير)، بؤس العالم، الجزء الأول، الطبعة الأولى، تر: محمد صبح، دار كنعان، دمشق، 2001.
- 17- بورديو (بيير)، بؤس العالم، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، تر: رندا بعث، دار كنعان، دمشق، 2001.
- 18- بورديو (بيير)، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، الطبعة الأولى، دار كنعان، دمشق، 2004.
- 19- بورديو (بيار) وآخرون، حرفة عالم الاجتماع، تر: نظير جاهل، دار الحقيقة، بيروت، 1992.
- 20- بورديو (بيير)، الرمز والسلطة، تر: عبد السلام بنعبد العالي، الطبعة الثالثة، دار توبقال، الدار البيضاء، 2007.
- 21 - بورديو (بيار)، الهيمنة الذكورية، تر: قعفراني سلمان، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.

- 22- بوشيه (ستيفن) و رويو (مارتين)، مراكز الفكر: أدمغة حرب الأفكار، تر: ماجد كنج، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت، 2009.
- 23- بوفريس (روني)، العقلانية النقدية عند كارل بوبر، تر: سعيد بوخليط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2009.
- 24- بونفكة (نادية)، فلسفة إدموند هوسرل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005.
- 25- البياتي ياس (خضير)، النظرية الاجتماعية: جذورها التاريخية ورؤاها، الجامعة المفتوحة، طرابلس، 2002.
- 26- بيرغر (بيتر) ولويمان (توماس): البنية الاجتماعية للواقع، تر: أبو بكر أحمد باقادر، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2000.
- 27- تيماشيف (نيقولا)، نظرية علم الاجتماع، تر: محمود عودة وآخرون، دار المعارف، القاهرة، 1980.
- 28- تومبسون (ميشيل) وآخرون، نظرية الثقافة، تر: علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 223، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997.
- 29- الجابري (محمد عابد) وآخرون، العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998.
- 30- جيتس (بيل)، المعلوماتية بعد الإنترنت، تر: عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998.
- 31- حاجي (صالح): أعلام البيداغوجيا، دار سيرس. تونس، 2000.
- 32- حجازي علي (هيثم)، إدارة المعرفة مدخل نظري، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2005.
- 33- حيمر (عبد السلام)، في سوسيولوجيا الخطاب، من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2008.

- 34- الخولي (أسامة) وآخرون، العرب وثورة المعلومات، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.
- 35- الشرييني (فوزي) والطناوي (عفت)، إستراتيجيات ما وراء المعرفة، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، المنصورة، 2006.
- 36- دندش (نزار)، ما هو العلم؟ رحلة التفكير العلمي، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت، 2009.
- 37- دوركايم (إميل)، قواعد المنهج في علم الاجتماع؛ موفم للنشر، الجزائر، 1990.
- 38- دوبوا (ميشال)، مدخل إلى علم اجتماع العلوم، تر: سعود المولى، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2008.
- 39- الرزو مظفر (حسن): الفضاء المعلوماتي، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.
- 40- رمزي (نبيل)، علم اجتماع المعرفة: الجزء الأول، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 1992.
- 41- روشيه (غي)، مدخل إلى علم الاجتماع (الفعل الاجتماعي)، تر: مصطفى قندلشي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1983.
- 42- الزرن (جمال)، تساؤلات عن الإعلام الجديد والإنترنت في: العرب وثورة المعلومات، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.
- 43- س. كوهن (توماس)، بنية الثورات العلميّة، تر: علي نعمة، الطبعة الأولى، دار الحداثة، بيروت، 1986.
- 44- سبيلا (محمد)، الإيديولوجيا: نحو نظرة متكاملة، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992.
- 45- سكوت (جون)، خمسون عالماً اجتماعياً أساسياً، المنظرون المعاصرون، تر: محمود محمد حلمي، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، 2009.

- 46- سوينجود (الآن)، تاريخ النظرية في علم الاجتماع، تر: السيد عبد العاطي السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996.
- 47- السيد شعبان (حسن): بروشفيك وباشلار بين الفلسفة والعلم، ط1، دار التنوير، بيروت، 1993 .
- 48- طاهر(علاء)، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماس، الطبعة الأولى، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، (د.ت).
- 49- طه (نجم): علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999.
- 50- صبور (أحمد)، المعرفة والسلطة في المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1995.
- 51- عبد الله محمد (عبد الرحمان)، سوسيولوجيا التعليم الجامعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991.
- 52- العروي (عبد الله)، مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993.
- 53- العلي (عبد الستار)، المدخل إلى إدارة المعرفة، دار المسيرة، عمان ، الأردن، 2006.
- 54- علي (نبيل)، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001.
- 55- غدنز (أنتوني) ، علم الاجتماع، تر: فايز الصبّاح، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005.
- 56- غريب محمد سيد (أحمد) وآخرون، دراسات في علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995.
- 57- غليون (برهان)، اغتيال العقل، موفم للنشر، الجزائر، 1990.
- 58- فروند(جوليان)، علم الاجتماع عند ماكس فيبر، تر: تيسير شيخ الأرض، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق، 1976.

- 59- فوكو (ميشال): جينياالوجيا المعرفة، تر: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1988.
- 60- فينك (دومنيك)، علم اجتماع العلوم، تر: ماجدة أباطة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.
- 61- فنصوه (صلاح)، فلسفة العلم، دار التنوير، بيروت، 2008.
- 62- فنصوه (صلاح)، الموضوعية في العلوم الاجتماعية، دار التنوير، بيروت، 2007.
- 63- القضاة (خالد)، المدخل إلى التربية، الطبعة الأولى، دار اليازوري العلمية، عمان، الأردن، 1998.
- 64- كابان (فيليب) دوروتيه (وجان فرانسوا): علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية، تر: إياس حسن، دار الفرقد، دمشق، 2010.
- 65- كورنفورث (موريس)، مدخل إلى المادية الجدلية، الجزء الثالث: نظرية المعرفة، تر: محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت، 1981.
- 66- ماشري (بيار)، كونت: الفلسفة والعلم، تر: سامي أدهم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1994.
- 67- ماركس (كارل) وانجلز (فريدريك)، الإيديولوجيا الألمانية، تر: فؤاد أيوب، دار دمشق، سوريا، 1968.
- 68- ماركس (كارل): بؤس الفلسفة، تر: محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت، 1979.
- 69- ماركس (كارل) وانجلز (فريدريك): البيان الشيوعي، تر: خالد بكداش، الطبعة الثالثة، دار البديع، دمشق، 1957.
- 70- ماركوز (هبرت): الإنسان ذو البعد الواحد، تر: جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، 1972.

- 71- محسن (مصطفى)، نحن والتنوير، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2006.
- 72- محمد الحسن (إحسان)، علم الاجتماع الاقتصادي، دار الحكمة، بغداد، 1995.
- 73- محمد علي (محمد): تاريخ الفكر الاجتماعي، الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999.
- 74- محمد علي (محمد): المفكرون الاجتماعيون، دار النهضة العربية، بيروت، 1983.
- 75- مرسي سعد (أحمد)، التربية والتقدم، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، القاهرة، 1991.
- 76- مصدق (حسن)، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005.
- 77- معتوق (فريدريك)، المعرفة، المجتمع والتاريخ، الطبعة الأولى، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان، 1995.
- 78- النقيب (عصام) وآخرون، تهيئة الإنسان العربي للعطاء العلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985.
- 79- نوري (منير)، نظام المعلومات المطبق في التسيير، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012.
- 80- هابرماس (يورغن)، المعرفة والمصلحة، تر: حسن صقر، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، 2001.
- 81- هيلي (باتريك)، صور المعرفة: مقدمة لفلسفة العلم المعاصرة، تر: نور الدين شيخ عبيد، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008.
- 82- وقيدي (محمد)، الابستمولوجيا التكوينية عند جان بياجى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2007.
- 83- وقيدي (محمد)، فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1980.

84- اليحياوي (يحي): العرب وشبكات المعرفة، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت، 2007.

85- اليحياوي (يحي) ، في العولمة والتكنولوجيا والثقافة: مدخل إلى تكنولوجيا المعرفة، دار الطليعة، بيروت، 2002.

86- يفوت (سالم)، سلطة المعرفة، دار الأمان، الرباط، 2005.

المجلات والدوريات

87- أبوزيد (أحمد)، "لا عقلانية العلم والعلماء: توماس كون ونقد المنهج العلمي"، العربي، العدد 459، فبراير، 1997.

88- بلوح (إبراهيم)، "نظرية العنف الرمزي عند بيير بورديو"، إشراف: الأستاذ العطوي عبد الرحيم، أفكار مغربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ديسمبر 2009.

89- بن جاب الله (حمدي)، العلم في الفلسفة، الفكر العربي المعاصر، العدد 29، 1984.

90- بورديو (بيير)، "أسطورة العولمة والدولة الاجتماعية الأوربية"، تر: معروف، أكاديمية، ديسمبر، 2010.

91- بورديو (بيير)، "الرأسمال الرمزي والطبقات الاجتماعية"، الفكر العربي المعاصر، العدد 41، 1986.

92- بورديو (بيير)، "الليبرالية الجديدة: يوتوبيا في طريق التحقق"، تر: معروف، أكاديمية، ديسمبر، 2010.

94- تريمش (ماهر)، "بيار بورديو: فضاء اللعبة، الحقل المشهد، السلع الرمزية تراكم الامتياز"، كتابات معاصرة، بيروت، العدد 36، شباط-آذار 1999.

95- حمودي أحمد (جميل)، "بيير بورديو الوريث الراحل للمدرسة النقدية الراديكالية"، الحوار المتمدن، العدد 2480، 29-10-2008.

96- حساين (المأمون)، "بيير بورديو: نحو سوسولوجيا الكشف عن الهيمنة": الحقل التربوي نموذجاً، دليل الكاتب، 2013.

- 97- خليل أحمد (خليل)، "الحالة التأسيسية في علم اجتماع المعرفة"، دراسات عربية، العدد4، 1986.
- 98- زراقت (مهى)، "بيار بورديو: عن سلطان التلفزيون وعنفه الرمزي"، الأخبار، عدد الثلاثاء، 23 كانون الثاني، 2007.
- 99- سالم (علي)، "بيار بورديو: الحقل العلمي وفكرة البدائل"، كتابات معاصرة، العدد 37، المجلد العاشر، آيار-حزيران، 1999.
- 100- سالم(علي)، "بيار بورديو: عمل التفويض والتشيؤ"، كتابات معاصرة، العدد 27، المجلد السابع، نيسان-آيار 1996.
- 101- سالم (علي)، "بيار بورديو: نار مضادة"، كتابات معاصرة، عدد 36، المجلد التاسع، شباط-آذار، 1999.
- 102- سالم (علي)، "قراءة في نظرية المعرفة عند ماكس فيبر"، مجلة الفكر العربي المعاصر، 1981.
- 103- شولمان (لي. إس..)، "المعرفة والتعليم"، تر: علي حسين حجاج، الثقافة العالمية، العدد 40، ماي 1988.
- 104- صالح (هاشم)، "بورديو: بين كارل ماكس و ماكس فيبر"، الفكر العربي المعاصر، العدد 37، كانون الأول 1985، كانون الثاني، 1986.
- 105- صالح (هاشم)، "التراث العربي الإسلامي والطفرة العلميّة الحديثة"، الوحدة، السنة الثانية، العدد 20، ماي 1986.
- 106- طه (محمد)، "عبودية المعلومات، هل المعرفة دائماً قوة"، مجلة العربي، عدد 592، الكويت، مارس 2008.
- 107- عبد الهادي (محمد)، "ليني ستروس: الأنثروبولوجيا البنيوية... البنية والحادثة"، كتابات معاصرة، المجلد السابع، العدد 26، شباط، آذار 1996.

- 108- عبد الهادي (محمد)، "لوفي ستروس: الأساطير، النصوص والعلاقات اللغوية"، كتابات معاصرة، المجلد السابع، العدد 27، نيسان- أيار 1996.
- 109- علي عيسى (محمد)، "الثقافة بين إشكالية التجانس والتمايز"، دراسات عربية، العدد 4، فبراير 1984.
- 110- عنصر(العايشي)، "ملاحظات حول الإشكالية المنهجية عند ماكس فيبر"، دراسات عربية، العدد 3، 1986.
- 111- محمد علي (عاشور) والشقران رامي إبراهيم (عبد الرحمن) ، "فاعلية استخدام نظم المعلومات الإدارية في الجامعات الأردنية"، المجلة العربية لضمان جودة التعليم الجامعي، الأردن، المجلد الثالث، العدد 6، 2010.
- 112- نفاذي (السيد)، "التقدم العلمي ومشكلاته"، عالم الفكر، الكويت، العدد2، المجلد 29، نوفمبر - ديسمبر 2000.
- 113- النقيب (خلدون)، "الإيديولوجيا والطوباوية وعلم اجتماع المعرفة"، الفكر العربي المعاصر، العدد 16، 1981.
- 114- وايسكوف (فيكتور)، "العلم، جبهاته وحدوده"، الثقافة العالمية، العدد 20، سنة 1985.
- 115- وطفة علي (اسعد)، "الطاقة الإستلابية للعنف الرمزي"، مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والإستراتيجية، لندن، الخميس 10-05-2012.
- 116- يتيم عبد الله (عبد الرحمن)، "الفكر الأنثربولوجي لكلود ليفي ستروس"، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد25، العدد1، يوليو، سبتمبر، 1996.

Les livres

- 1- Althusser (Louis), Position, Editions sociales, paris, 1976.
- 2- Aron (Raymond). La sociologie allemande contemporaine, PUF, Paris, 1981.
- 3- Bonnewitz (Patrice), Pierre Bourdieu, Ellipses, France, 2002.
- 4- Bonnewitz (Patrice), Premières leçons sur la sociologie de Pierre Bourdieu, 2^{ème} édition, PUF, Paris, 2002.
- 5- Bourdieu (Pierre), Contre feux, Raisons d’agir, Paris, 1998.
- 6- Bourdieu (Pierre), choses dites, Ed de Minuit, Paris, 1987.
- 7- Bourdieu (pierre), La distinction : critique sociale du jugement, Minuit, Paris, 1979.
- 8- Bourdieu (Pierre) et Passeron (Jean Claude), La reproduction, Minuit, Paris, 1970.
- 9- Bourdieu (Pierre) et Alain (Darbel), L’amour de l’art, minuit, Paris, 1974.
- 10- Bourdieu (Pierre) et Passeron (Jean Claude), les héritiers : les étudiants et la culture, Minuit, Paris, 1964, P84.
- 11- Bourdieu (Pierre), Les usages sociaux de la science : pour une sociologie clinique du champ scientifique, INRA, France, 1997.
- 12- Bourdieu (Pierre), Questions de sociologie, Cérès Production, Tunisie, 1993.

- 13- Champagne (Patrick), La sociologie, les essentiels Milan, Toulouse, France, 2002.
- 14- Comte (Auguste), Cours de philosophie positive, Leçon 1 et 2, Cérès Editions, Tunis, 1994.
- 15- Corcuff Philippe, Les nouvelles sociologies, 2^{ème} éditions, Armand Colin, Paris, 2007.
- 16- Foray (Dominique), L'économie de la connaissance, casbah Edition, Alger, 2004.
- 17- Ghithon (Bernard) et Levet (Jean louis), De l'intelligence économique à l'économie de la connaissance, Economica, 2003.
- 18- Grawitz (Madeleine), Méthodes des sciences sociales Dalloz, Paris, 1986.
- 19- Gurvitch (Georges), les cadres sociaux de la connaissance, presses universitaires de France, paris, 1966.
- 20- Lalande (André) : vocabulaire technique et critique de la philosophie, PUF, Paris, 1962.
- 21- Mannheim (Karl) , Idéologie et utopie, trad : Pauline Rollet, rivière et Cie, Paris, 1956.
- 22- Maquet (Jacques), sociologie de la connaissance, Nauwelaerts, Louvain, 1949.
- 23- Merton (Robert), éléments de théorie et de méthode sociologique, trad. par Henri Mendras, 2^{ème} édition, Plon, paris, 1965.

- 24– Morin (Edgar), science avec conscience, Fayard, France, 1982.
- 25– Piaget (Jean), introduction à l'épistémologie génétique, 2ème édition, PUF, Paris, 1973
- 26– Piaget (Jean), psychologie et épistémologie, éditions Denoël–Gonthier, Paris, 1970.
- 27– Pinto (Louis), Pierre Bourdieu et la théorie du monde social, le point, Paris, 2001.
- 28– Weber (Max), Essais sur la théorie de la science, Plon, Paris, 1965.
- 29– Weber (Max), Economie et société, Plon, Paris, 1971.
- 30– Weber (Max), l'éthique protestante et l'esprit du capitalisme, Plon, Paris, 1964
- Revue***
- 31– Bourdieu (Pierre), « Espace social et genèse des classes », actes de recherche en sciences sociales, n°52–53. 1984.
- 32– Bourdieu (Pierre), « les trois états du capital culturel », actes de recherches en sciences sociales, n°30, 1979.
- 33– Bourdieu (Pierre), Science de la science et réflexivité: cours du collège de France, 2000, 2001.
- 34– Dortier (Jean–François), « les idées pures n'existent pas », sciences humaines, Auxerre, France, 2008.

35–Lannoy (Pierre), « Enseignements Bourdieusiens et vocation sociologique », Hommage à Pierre Bourdieu, Revue de l'institut de sociologie, Université libre de Bruxelles, N°1–4, 2002.